موسوعة

القضاء في الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

طبعة جديدة منقحة ومفهرسة

المجلد الأول

دار الجيل

بيروت

Bibliotheca Alexandrina

0122753

مَوسُوعَة

الفِدَاء في الإسلام

(١)

موسوعة

الفداء في الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

الأستاذ بجامعة الأزهر

طبعة جديدة منقحة ومفهرسة

...ation of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

المجلد الأول

دار الجيل

بيروت

جَميعُ الحقوق مَحفوظَة لِدار الجِيل
الطبعَة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمد الله تبارك وتعالى، وأُصلّي وأُسلِّم على أنبيائه ورسله، وعلى خاتمهم سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين؛ وأستفتح بالذي هو خير: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

قبس من كتاب الله

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ
وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (١٩٦)
مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ
عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ (١٩٨)﴾ [آل عمران: ١٩٥- ١٩٨].

الكتاب الأول

الفداء في الإسلام

فاتحة

هذا كتاب يأتي في أوانه، وأرجو أن تتوثق صلتهُ بمكانه وإنسانه.

إننا اليوم أمة لا بد لها من اليقين بأن حاضرها يجب أن يكون امتداداً لماضيها، في قيمها ومقوماتها ومُثلها، وأن غدها يجب أن يكون وليداً لحاضرها. ونحن الآن نتعرض لمرحلة حاسمة من مراحل نضالنا وكفاحنا ضد أعدائنا الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال.

وإذا كان قدَرُ الله العادل قد ألقى علينا بالأمس درساً صارماً من دروس الابتلاء بالنكبات، وعرّضنا لموقف عصيب من مواقف التمحيص بالشدائد، فإن العمل الفدائي المؤمن ظل همزةَ وصل مباركة بين ماضي الجهاد وآتيه؛ واستبان لنا أن أمر هذه الأمة لن يصلح في حاضرها، إلاّ بما صلح به في ماضيها المشرق الكريم، من استمساك بعروة الإيمان الوثقى، وتدرُّع بدرع اليقين الحصين، واعتصام بحبل الله القوي المتين، واجتماع على روح الجهاد حتى الاستشهاد، والتقاء على بيعة لله صادقة وفيّة، تباركها يد الله، ويؤيدها بعونه وهداه:

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

ومع إدراك بصير لهذه الحقائق، وشعور عميق بحاجتنا إليها، جرى القلم بصفحات هذا الكتاب، ليكون تذكرة تتفتح لها الآذان الواعية، وتتلقاها الهمم العالية، فإذا التذكرة مفتاح لطريق قد يمتد ويطول، ولكنه يضمن تحقيق الهدف المأمول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد بدأتُ الكتاب بالحديث عن معنى «الفدائية»، ومدى شرعيتها في مواطنها، والدوافع التي تحرك همم أصحابها إليها، والفرق بينها وبين غيرها من أعمال أو اتجاهات تعتمد على جوانب من القوة، أو جوانب من الأخلاق.

ثم استعرضت حديثَ الفدائية في القرآن الكريم، وأوردت طائفة من مبادىء الفدائية التي ذكرها، ليبين أن حياة الحرية والعزة والكرامة لا بد لها من منهج البذل والتضحية والفداء.

ثم صاحبتُ المسيرة الفدائية في ظل القرآن الكريم، وفي تاريخ الإسلام والمسلمين، فعرضتُ مجموعة من النماذج الفدائية التي صورها كتاب الله المجيد في إيجاب وإعجاز، لكي تتجلى فيها القدوة الطيبة والأسوة الحسنة لأصحاب الاتجاه الفدائي المؤمن في هذه الحياة. وانتقلت إلى الحديث عن فدائية الرسول وأصحابه، ثم تابعت الحركات الفدائية التي تألقت في مراحل التاريخ الإسلامي، مبيّناً أن هذا التاريخ قد حفل بهذه الحركات في مختلف العصور.

وبعد أن تحدثت عن طائفة من الملامح التي تمتاز بها «الفدائية» أو تحتاج إليها، انتقلت إلى استعراض فيه لون من التفاصيل لأعمال بطولية ومواقف فدائية، وقفها أعلامٌ من رجال هذه الأمة. فاستحقوا أن يدار عنهم الحديث لتكريمهم وإبراز تضحيتهم من ناحية، ولتجلية هذه المواقف أمام أبصارنا وبصائرنا من ناحية أخرى، حتى تكون لنا عظة وعبرة وذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

ومما يبدو لي أن الحديث في هذا المجال الرحيب لم يبلغ غايته، ولذلك يشرئب هذا القلم متطلعاً راجياً أن يعاود مسيرته، والله المسؤول أن ينفع بزاد اليوم وأن يوفق لزاد الغد، وما ذلك على الله بعزيز.

أحمد الشرباصي

طريق الفداء

«الفداء». «العمل الفدائي». «المقاومة الفدائية». «حركات الفدائيين». . .

هذه تعبيرات كثر استعمالها وترديدها منذ عشرات من السنين، بسبب كثرة الحروب غير المتكافئة التي دارت أو تدور بين الأقوياء والضعفاء، أو بين الأمم الغنية والأمم المستضعفة، أو بين كتل طاغية متجبرة وكتل نامية ناشئة.

ومع أن هناك أصواتاً خبيثة تعترض على العمل الفدائي أو تستنكره أو تضيق به، نجد الأقوياء والضعفاء على السواء قد أجازوا أعمال الفداء، فقد استخدم «البوير» العمل الفدائي في حرب جنوب إفريقية، من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٢ واستخدمته بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، واستخدمه المجاهدون في فلسطين العربية سنة ١٩٤٨، واستخدمه كثيرون غير هؤلاء، وما زالوا يستخدمونه في الشرق والغرب، وكان العمل الفدائي الفلسطيني بعد نكبة يونية سنة ١٩٦٧ هو أبرز الأعمال لاستبقاء روح الإصرار على استرداد المغتصب من الأرض العربية هنا وهناك.

وفرق المقاومة الفدائية هي ـ كما يقول رجال الحرب ـ وحدات عسكرية صغيرة، تتألف من مقاتلين غير خاضعين لقيود الجيش النظامي، يقومون بأعمال جريئة في القتال، فيهاجمون العدو، فرادى أو جماعات، ويستعينون بالتخفي والمباغتة للعدو من حيث لا يحتسب.

و«النزعة الفدائية» هي استعداد المرء للتضحية بالعزيز عليه، أو النفيس لديه، حتى ولو كان ذلك روحه التي بين جنبيه، من أجل حق يؤمن به، وعقيدة يعتقنها ويخضع لها، مع علمه بهول الأخطار التي يتعرض لها في سبيل ذلك.

ومادة «الفداء» في لغة العرب تدل على جعل شيء مكان شيء حمًى له، تقول: فديته أفديه؛ كأنك تحميه بنفسك، أو بشيء يعوّض عنه، فيقال: فديته بمالي، وفديته بأبي وأمي، كأنه اشتراه بما قدّم؛ ومن هنا جاءت كلمة «الفدية»، وهي ما يقي به الإنسان نفسه، من مال يبذله في عبادة قصر فيها، ككفارة اليمين، أو كفارة الصوم، أو غيرها.

والفداء أيضاً فَكَاك الأسير، والمفاداة هي أن تفتكّ الأسيرَ بأسير مثله.

***

ولا يدفع إلى الفدائية الصادقة إلاّ إيمان عميق ويقين وطيد بعقيدة دينية، أو نزعة وطنية، أو غيرة على حق أو حرمة أو حرية، والفدائي الأصيل لا يندفع إلى عمله البطولي لغرض أو مرض، ولا لمتعة أو منفعة، ولا لشهرة أو ذكر.

والفدائيون قوم يسوؤهم ما ينزل بوطنهم أو قومهم من ضيم أو احتلال، فيبيعون أنفسهم لربهم في سبيل أن يغسلوا عار قومهم عنهم.

ولقد تشبه الفدائيةُ الفروسية، من بعض الوجوه، ولكن لا يسهل علينا أن نقول إن الفروسية كالفدائية. لأن الفروسية مجموعة آداب وأخلاق، كمعاونة المحتاج، واحترام المرأة، ورعاية الجوار، وحفظ العهد، والتزام الصدق، واتقان ركوب الخيل. وأما الفدائية فتستلزم تلك المجموعةَ من الأخلاق، وتزيد عليها أن صاحبها يندفع حاملاً روحه على راحته، ليرد الذل عن أمته، أو يبيع نفسه رخيصة في سبيل غايته.

ومثل هذا يمكن أن يقال في تبيان الفرق بين الفدائية والفتوة، فقد يكون في الفتوة الحقيقية أمانة ورحمة وإعطاء، وتنزه عن الخنا، واعتصام بالفضيلة والهدى، وكف للأذى، وبذل للندى، وترك للشكوى، ولكن لا يلزم في الفتوة أن يندفع صاحبها إلى مواجهة الموت في ميدان العمل الفدائي.

***

وهناك كلمات تستعمل بمعنى كلمة «الفداء»، مثل كلمة «البذل»، وإن كانت كلمة «البذل» تدل في أصلها على «ترك صيانة الشيء»؛ ولعل السر في

هذا الاستعمال أن الإنسان حين يفدي عقيدته أو أمته بنفسه، يكون كأنه قد ترك صيانة نفسه، فقدّمها رخيصةً من أجل ما يؤمن به. وكذلك تستعمل كلمة «البذل» بمعنى الإعطاء، والفدائي يعطي روحه لتحقيق غايته.

وكذلك تستعمل كلمة: «التضحية» بمعنى الفداء، والضحية أو الأضحية في الشرع هي الذبيحة التي يقدمها الإنسان لمقصد ديني، ولعل استعمال كلمة «التضحية» بمعنى الفداء كان على تشبيه الإنسان الذي يقدم روحه فداءً لعقيدته، بمن يذبح هذه الروح ويجعلها ضحية وفداء، وعلى هذا جاء قول الله تعالى في شأن الذبيح إسماعيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٧] أي جعلنا هذا المذبوح فداءً له، وخلصناه به من الذبح.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا أن العمل الفدائي لا يتحقق إلاّ بالموت، لأن هذا العمل ألوان وأنواع، فالجندي الذي يقذف بنفسه في أتون الحرب متوقعاً الموت أكثر من توقعه الحياة، إنسان فدائي، سواء أنال الشهادة، أم نجا وعاد مترقباً جولة فدائية قادمة. والرجل الذي يبذل ماله في سبيل حق أو خير، وهو لا يدري من أين ينفق بعد ذلك، إنسان فدائي.

والعالِمُ الذي يبحث بين مخابيره ومناظيره وأدوات بحثه، لمعرفة دواء، أو كشف ميكروب، دون أن يبالي بالأخطار التي يتعرض لها، رجلٌ فدائي؛ والذي يقذف بنفسه في صاروخ أو سفينة فضاء، ليكتشف سرّاً من أسرار الطبيعة، يخدم به البشرية وينفعها عن طريقه، وهو غير متأكد من سلامة عودته، رجلٌ فدائي.

والذي يجهر بكلمة الحق حين تخرس الألسنة أمام طغيان أو تجبر، دون أن يبالي العاقبة، قاصداً الخير والإصلاح، رجل فدائي، فقد قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر».

والطبيب المخلص الذي يعالج المرضى، ويختلط بهم، لأن واجبه يقتضيه ذلك، ويتعرض لألوان من الجراثيم والميكروبات وأسباب العدوى، ومع ذلك يمضي في طريقه يكافح الداء ويتطلب البرء، رجل فدائي... وهكذا.

***

والقرآن الكريم هو أساس الإسلام ودستوره، وهذا الكتاب الإلهي المجيد يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى وجود التضحية والفداء منذ مطلع الخليقة، فهو يحدثنا في سورة المائدة فيقول: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧] وفي القربان هنا معنى التضحية والفداء، لأن القربان هو ما يتقرب به الإنسان إلى الله، وصار في التعارف اسماً للنسيكة، أي الذبيحة، وجمعه قرابين.

كما يحدثنا القرآن الكريم عن ألوان من الفدية في الدين، فيحدثنا في سورة البقرة عن الفدية في الصوم فيقول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة: ١٨٤] ويحدثنا في السورة نفسها عن الفدية في الحج، فيقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: ١٩٦].

ويحدثنا عن الفدية في الطلاق. فيقول في السورة نفسها عن الزوجين: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ويحدثنا عن الفداء في الحرب. فيقول في سورة محمد: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

وكأن القرآن الكريم يريد بهذا الحديث المتعدد المواطن أن يشيع فينا جو الفداء وذكر الفداء. وإذا كان القرآن لم يذكر مادة «التضحية» فإنه أشار إليها بكلمة «النحر» وهو الذبح، ولا يتحقق الذبح إلاّ بذبيحة، وتقديمها تضحية وفداء، فقال في سورة الكوثر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، وجاء في الحديث الشريف: «إن على كلّ أهل بيت أضحية كل عام».

وإذا كان القرآن الكريم قد حث المؤمنين به على البذل والتضحية والفداء في سبيل الحق والعدل والعزة والكرامة والحرية، ووعد بقبول الفداء الصادق المستقيم الخالص، وضمن لأصحابه عاجل الثواب وآجله، فإنه حذّرنا ألواناً من الفداء لا تجدي ولا تنفع، لأنها لم تصدر عن إيمان، ولم تقصد إلى حق، فقال القرآن في سورة آل عمران:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦] وقال في سورة الحديد عن المنافقين والكافرين يوم القيامة: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٥].

وكأن القرآن المجيد حينما حذرنا هذه الألوان التي لا تنفع ولا تشفع من الفداء، أراد أن نفهم أن الفداء إذا لم يأتِ في ميعاده، ولم يقدَّم على وجهه، لم يثمر ثمرته، وهؤلاء هم الذين كفروا، ولهوا في حياتهم، وبغوا على غيرهم، يأتون بعد فوات الأوان، وفي يوم القيامة، يحاولون أن يقدموا الفداء، وليس إلى قبوله من سبيل.

ويزيد القرآن هذا المعنى وضوحاً حينما يحدثنا عن فداء لا يطال ولا ينال، فهو ميئوس من وقوعه وتحققه، ومن هنا لا يتحقق شيء من وراء محاولته، فيقول في سورة الرعد: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٨].

ويقول في سورة يونس: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس: ٥٤]. ويقول في سورة الزمر: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]. ويقول في سورة المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٥].

وهكذا يثبّت القرآن في قلوبنا أن الفداء المقبول يجب أن يكون عن عقيدة

وإيمان، وأن يكون مضبوط التوقيت والأوان، وأن الافتداء الخائب المردود هو ما كان مع الكفران، أو بعد فوات الأوان.

* * *

والقرآن الكريم بعد هذا كله هو الكتاب الإلهي المعلّم لدروس التضحية والفداء، وهو الموجه إلى روح البذل والإقدام، فهو يجعل الجهاد فريضة مكتوبة، وركيزة مطلوبة، مَن حرص عليها وصدق فيها عزّ، ومن أهملها أو خادع فيها ذل؛ فقال في سورة الحج: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحج: ٧٨]، وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت ٦٩]. وقال في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وأرشد إلى أن الجهاد يكون ببذل الأموال وتقديم الأنفس فداءً لغاية الجهاد وهدفه، فأمر عباده المؤمنين بذلك فقال يخاطبهم في سورة التوبة: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ [التوبة: ٤١]. ووصف المؤمنين بأنهم هم الذين (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أربع مرات: في سورة الأنفال مرة، وفي سورة التوبة مرتين، وفي سورة الحجرات مرة.

وكل بصير بالنفس البشرية يعلم أن الذي يخيف الناس من المسارعة إلى العمل الفدائي هو التهيب من لقاء الموت، والرهبة من انتهاء الحياة، ولذلك أراد القرآن أن يلفت إلى حقيقة لا ريب فيها ولا معدل عنها، وهي أن الموت آتٍ آت، ولا بد من وقوعه، ولا وسيلة للتخلص منه. فقال في سورة الرحمٰن: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦﴾ [الرحمٰن: ٢٦]. وقال في سورة الواقعة: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ۝٦٠﴾ [الواقعة: ٦٠] . وكرر قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ۝١٨٥﴾ ثلاث

مرات في ثلاث سور، هي آل عمران [الآية: ١٨٥]، والأنبياء [الآية: ٣٥]، والعنكبوت [الآية: ٥٧].

وأكّد أنه لا سبيل إلى الفرار من هذا الموت، فقال في سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨)﴾ [النساء: ٧٨] وقال في سورة الأحزاب: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ (١٦)﴾ [الأحزاب: ١٦]. وقال في سورة الجمعة: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ (٨)﴾ [الجمعة: ٨].

وما دام الموت لا بد منه ولا محيد عنه، فإن الموت في موطن كريم خير من الموت في موضع لئيم، والمتنبي يقول [من الخفيف]:

وإذا لم يكنْ من الموتِ بدٌّ   فمن العجز أن تعيش جبانا

وما دام الأمر كذلك فالأجدر بالإنسان العاقل المؤمن أن ينطلق إلى ساحة الجهاد معتمداً على ربه، واثقاً في نهاية سعيدة له، هي النصر أو الشهادة، غير هيّاب ولا وجل، فلن يصيبه إلا ما كتبه الله له، وهو خير على كل حال كما قال القرآن في سورة التوبة للمؤمن الموقن: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة: ٥١- ٥٢] ويقول في سورة آل عمران مذكراً بتقرير الأجل، مفضلاً ثواب الآخرة - وطريقه الجهاد والفداء - على متاع الدنيا الزائل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ [آل عمران: ١٤٥].

***

والقرآن الكريم يطالب أهله بتبعات الفدائية في القتال، فالفدائي لا يليق به ولا يجوز منه أن يفرّ أو يلقي السلاح، إلاّ إذا كان يتأخر ليكرّ ويتقدم، أو إذا أراد أن يتأخر في الميدان لينضم إلى جماعة من إخوته في الجهاد يتقوى بهم ويشد ساعده. وفيما عدا هاتين الحالتين لا يباح له أن يترك مواجهة عدوه،

حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، وعليه أن يثبت ويقاوم، ذاكراً ربه، مستمداً من إيمانه به قوةً تعينه على بلوغ النجاح، ولذلك يقول القرآن في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥ـ ١٦] ثم يقول في السورة نفسها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

ويرشد كتابُ الله أهله إلى أن طريق الجهاد والفداء ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق، له متاعبه وتبعاته، لكنه طريق المجد، وإذا كان المؤمنون المحقّون ينالهم شيء من الألم أو الجراح في هذا الطريق، فإن الكافرين المبطلين من أعدائهم، يصيبهم مثل ذلك، أو أكثر، ومع ذلك يصبرون على باطلهم، فكيف لا يكون المؤمنون أصبر منهم على الحق والرشاد، ونهاية المؤمنين إلى النعيم، ونهاية أعدائهم إلى الجحيم؟!

يقول الله تعالى لهؤلاء المؤمنين في سورة النساء:

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الآية: ١٠٤]. ويقول في سورة آل عمران: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وإذا كانت كلمة «الفداء» في أصل معناها اللغوي تدل على جعل شيء فديةً لشيء، ومقابلاً لتحقيقه، فإن كتاب الله العزيز قد أكد ذلك، حين صوّر الإقدام المخلص على التضحية والفداء في سبيل الله تعالى بصورة صفقة مباركة، يعقدها الله جل جلاله مع عباده المؤمنين الصالحين بيقينهم وعباداتهم وأخلاقهم وفضائلهم لشرف الجهاد ونعمة الاستشهاد، فقال في سورة التوبة:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١ـ ١١٢].

ويعود كتاب الله العلي الأعلى إلى تصوير هذه الصفقة الرابحة بصورة أخرى رائعة، فهو يقصر على المؤمنين الدعوةَ إلى عقد هذه الصفقة وإرشادهم إليها، وهو يرسم لهم طريقها، ويوضح لهم فيها ثمن السلعة الغالية المعروضة، كما يوضح لهم جلال هذه السلعة وثمراتها القريبة والبعيدة، أو العاجلة والآجلة، فيقول في سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ـ ١٣].

وهو يعود مرة ثالثة، فيشير إلى أن العمل الفدائي المخلص مع ثمرته صفقة إلهية مباركة، فيها أخْذُ الخالد الباقي الدائم بالفاني الذاهب الزائل، وفيها الثواب الجزيل، وفيها اللجوء إلى ولاية الله ونصره، وهو خير الناصرين، وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم، وفيها الوعد بالغلبة على حزب الشيطان وأوليائه، فيقول في سورة النساء: ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء ٧٤ـ ٧٦].

والقرآن يجزم ويؤكّد الوعد الإلهي الصادق المحقّق للمجاهدين المضحين الباذلين الفادين، فيقول في سورة محمد:

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد ٤ ـ ٧]. ويقول في سورة آل عمران: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: ١٥٧]. ويقول في السورة نفسها: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥].

مسيرة فدائية

في ظل القرآن، وتاريخ الإسلام

إذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن الجهاد والفداء حديثاً واسعاً قائماً على الدعوة المؤكدة إلى استشعار روح التضحية، والتدثر بدروع الثبات والإقدام، فإنه في الوقت نفسه قد أعطانا نماذج باهرة للذين سبقوا بمواقفهم البطولية الفدائية، فعرض علينا من هذه النماذج ما قام به إبراهيم عليه السلام من عمل فدائي، حين سخر من قومه عبدة الأصنام والأوثان، ووقف ـ وهو فرد ـ في وجه الطغيان الاعتقادي، والضلال الفكري، والسفه الوثني، وأقدم على إظهار السخرية بآلهة هؤلاء، فساءلهم باستخفاف: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء: ٥٢] فأجابوه إجابة المقلدين لمن سبقوهم تقليداً أعمى، كأنهم لا عقول عندهم، ولا شخصية لهم: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء:٥٣].

فجابههم بالرد المقذع الموجع: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤﴾ [الأنبياء: ٥٤].

ولم يقف عند هذا الحد من مواجهة الجمع الفاسد الضال، بل أقدم على عمله البطولي الفدائي، فحطم هذه الأصنام، وأبقى صنماً كبيراً بينها علّق في رقبته آلة التحطيم، وحينما فعل إبراهيم هذا لم يكن جاهلاً ولا غافلاً عن الخطر الجسيم الذي يتعرض له بسبب ذلك، ولكنها نزعة التضحية والفداء لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

وعرف القوم ما حدث، وعرفوا مَن أحدثه، وأحضروه وهو ما زال يبكتهم ويسخر منهم، وقرروا حكمهم السفيه الباغي: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ

ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨]. ولم يجزع إبراهيم ولم يرجع عن طريقته وعقيدته، وكان الله معه، لأنه آثر أن يكون مع الله:

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩ـ ٧١].

***

ولم يكن هذا العمل الفدائي هو النموذج الوحيد في حياة إبراهيم، بل نراه في ضوء القرآن يعود إلى موقف فدائي آخر، يشاركه فيه ولده إسماعيل، فقد رأى إبراهيم في نومه أنه يذبح هذا الابن العزيز الغالي، ورؤيا الأنبياء جزء من وحي الله تعالى إليهم.

ولم يهب إبراهيم شدة الابتلاء، ولم يتردد في الإقدام على الفداء، قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]

ماذا يرى؟ إنه إسماعيل بن إبراهيم، إنه سلالة أبي الأنبياء وخليل الرحمٰن، فهو لا يرى إلاّ أن يُقدم على عمل فدائي يتفق وأصالة منبته وصفاء سريرته، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]

وشرع الفدائيان الجليلان الكريمان في تنفيد الوفاء بالفداء، وأخذا في أسباب الاستجابة لهذا الابتلاء، وهنا جاء عون الله، وتجلت رحمته: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠٤ـ ١١١].

***

وهذا نموذج ثالث من نماذج الفداء التي يعرضها القرآن الكريم:

هؤلاء هم سحرة فرعون يستدعيهم ليردوا على معجزة موسى الإلهية،

حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فيقبلون عليه وهم ما زالوا في ضلالهم وخبالهم، ويطمعون في الأجر المجزي من فرعون إن أفلحوا، قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ [الأعراف: ١١٣]

وسارع فرعون فأعطى وعده الواسع الفضفاض، قال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٤].

وبدأ الصراع بين محاولة المخلوق العاجز وقدرة الخالق المسيطر، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وقالوا ـ من اغترارهم بفرعون، وانخداعهم بسلطانه ـ: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ [الشعراء: ٤٤] . ولكن موسى ألقى عصاه بوحي من الله، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١١٨].

وانتظر موسى، واندحر سحر الساحرين، وسطع ضوء الحق، وامحى تمويه الباطل، فاستبان للسحرة نورُ الإيمان: وظهر الطريق المستقيم للعيان.

ولكن فرعون ما زال هناك، بجنود وبنوده، بقهره وفجوره... ليكن ما يكون، فمن عرف الحقَّ وآمن به لزمه وحرص عليه.

وأقدم السحرة على عملهم الفدائي الذي ردده القرآن وأكده، فقال في سورة الأعراف:

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٢٠ـ١٢٤].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥ـ ١٢٦].

وقال في سورة طه: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾
[طه ٧٠ـ ٧١].

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧٢ـ ٧٣].

وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾
[الشعراء: ٤٦ـ ٤٩].

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [طه: ٥٠ـ ٥١].

وَيْ! لكأن القرآن الكريم قد حرص على أن يبرز في ثلاثة مواطن وسائلَ التعذيب التي هدد بها فرعونُ أولئك الذين أشرق الإيمان في صدورهم، ليشير إلى أن الفدائيين لا يذلون ولا يهونون ولا يضعفون، مهما لاقوا من وسائل التعذيب، بل يظلون أوفياء للفداء، شرفاء عند الابتلاء، أقوياء يتحدون جبروت الأعداء، ومهما تكرر الوعيد أمامهم، فإنهم يلجئون إلى الاعتصام بحبل الله القوي المتين قائلين:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٠].

***

وهذا نموذج رابع من نماذج الفدائية التي يعرضها القرآن:

هذا ملك جبار، استبد بقومه، وطغى عليهم، وأراد أن يخرجهم عن دينهم إلى ضلاله وكفره، فاستمسكوا بالحق، وقاوموا الباطل، فأمر السلطان المتجبر جُنْده بأن يحفروا أخاديد(١)، فحفروها على أفواه الطرق، وأضرموا فيها النيران، وجعل هذا الجبار يعرض المؤمنين على هذه الأخاديد واحداً بعد الآخر، فمن ارتد عن دينه عفا عنه، ومن أصر على إيمانه قذفه في النار.

فجعل المؤمنون يصرون على روح الفدائية، ويلاقون الموت في النار بصبر وثبات، حتى إن امرأة بينهم ترددت قليلاً حين همت بإلقاء نفسها في النار، فقال لها ابنها من ورائها: يا أماه قعي ولا تقاعسي(٢)، اصبري فإنك على الحق، اثبتي على ما أنت عليه، فإنما هي غُميضة، امضي ولا تجزعي.

فألقت المرأة نفسها، وتبعها ولدها...

يقول الله تعالى عن ذلك في سورة البروج: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١ ـ ١٠].

***

وهذا نموذج خامس يشير إليه كتاب الله المجيد:

إنه موقف أبي بكر الصديق من رسول الله ﷺ في حادث الهجرة الجليل. لقد احتمل أبو بكر في سبيل الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام ما احتمل، وصبر ما صبر، وحرص على أن يكون رفيق الرسول في الهجرة، وضحى بالمال والسكن، وترك من ورائه الأهل والولد، وحمل معه كل ماله ليخدم به الدعوة الإلهية، وعرض نفسه للأهوال والمخاطر، ولم يتردد في افتداء الرسول

(١) الأخاديد. جمع أخدود، وهو الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق.

(٢) أي اقدمي واقذفي بنفسك في النار ولا تتراجعي.

بنفسه، فهو يخاف أن يكون هناك من يطلب الرسول من وراء، فيمشي خلف الرسول، ثم يخشى أن يكون هناك رصد يترصد له على الطريق، فيمشي أمامه، ثم يتنقل عن يمينه وشماله، ليفدي الرسول بنفسه إن أصابه سوء، وحينما هَمَّ المهاجران العظيمان بدخول الغار، سارع أبو بكر بدخوله أولاً ليستبرئه للنبي، فإذا كان في الغار سوء لاقاه أبو بكر دون الرسول.

وحينما احتواهما الغار، ولحقهما المطاردون من المشركين، خاف أبو بكر على الرسول، وبثه شجونه، فقال له الرسول مطمئناً: لا تحزن إن الله معنا، وقد خلد القرآن هذا الموقف فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

***

وهذا نموذج سادس:

إنه مؤمن آل فرعون الذي يرى موسى يأتي إلى فرعون بالآيات الإلهية والدلائل الربانية، فلا يؤمن فرعون ولا يستجيب، بل يهدد ويتوعد، ويأمر بقتل المؤمنين واستحياء نسائهم للذل والهوان، ثم يهم فرعون بقتل موسى نفسه، وإذا بهذا الرجل المؤمن الذي ذاع وصفه بوصف «مؤمن آل فرعون» يندفع في نزعة بطولية فدائية، ليواجه الطغيان الكافر الفاجر المتنمر، ويؤيد الإيمان السافر المتألق، دون أن يبالي بما قد يصيبه من تعذيب أو إزهاق روح.

وأخذ هذا الرجل المؤمن يجاهر بمعارضة فرعون وقومه، ويهددهم بعذاب الله وعقابه، أو أن تصيبهم النكبات كما أصابت المجرمين الكافرين من قبلهم، ويدعوهم إلى اتباع الإيمان وترك الكفران، ويذكرهم بأن الحياة الدنيا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار، وأن الناجي هو مَن يعمل الصالحات، وأن الخاسر هو من يعمل السيئات، وأن طريق الهداية هو طريق العزيز الغفار، وأن طريق الضلال والهلاك هو طريق الجحود والكفر، ويقول لهم في خاتمة ذلك:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

يقول الله تعالى في شأن هذا الموقف في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٨].

وبعد أن تذكر الآيات التالية عقب ذلك ما كان من فرعون من عناد واستكبار على النصح، وما كان من ذلك الرجل المؤمن من تحذير وإنذار، جاءت العاقبة، فماذا كانت؟

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

***

وهذا النموذج يذكّرنا بنموذج من واديه، فهو يشابهه ويلاقيه:

إنه نموذج «حبيب النجار» المؤمن الصالح المصلح الذي يقال له «مؤمن يس»، والذي كان يعيش في مدينة أنطاكية، أو بقربها، . وفي عهده جاء إلى أهل أنطاكية ثلاثة من المرسلين الدعاة إلى الله، فأساء أهل أنطاكية استقبالهم وكذبوهم وجادلوهم أسوأ جدال، وهددوهم بالرجم والعذاب الأليم، وفي أيديهم من وسائل الاقتدار المادي ما فيها، فإذا بحبيب النجار يأتي إليهم مسرعاً، في اندفاع فدائي لا يبالي بضرر ولا بخطر، ويجهر بكلمة الحق،

ويقف من هؤلاء المكذبين موقف المعارضة، بلا خوف ولا فزع، مع ما في هذه المعارضة من أخطار.

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا المشهد في سورة يس فيقول: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٠ـ ٢٩].

وهذا نموذج سابع يشير إليه التنزيل المجيد:

إن هذا النموذج يتمثل في هذه الجماعة الرشيدة المجاهدة المؤمنة، التي سارت خلف رسول الله ﷺ في «غزوة الحديبية» وكانوا يريدون من سيرهم أن يدخلوا مكة مسالمين، وأن يطوفوا بالكعبة بيت الله الحرام. كما كان يباح ذلك لكل عربي ما عدا المسلمين، ولكن المشركين تعنتوا وعاندوا، وبدرت منهم بوادر تدل على المكر واللؤم، وخشي الرسول ﷺ أن يتطور الموقف إلى صدام وعراك، فجمع صحابته من حوله، وبايعهم على الجهاد والثبات فيه حتى يذوقوا الموت، وينعموا بنعمة الشهادة، فاندفع المسلمون بروحهم الفدائية المستجيبة، وبايعوا الرسول على ذلك، وزكّى تاريخ الإسلام ذكرَ هذه البيعة فسماها «بيعة الرضوان».

وقد مجد القرآن هذا الوفاء، بل هذا الفداء من المسلمين الصادقين، فقال عنهم في سورة الفتح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]. ويقول في السورة نفسها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨ـ ١٩].

***

هذه نماذج للفدائية عرضها القرآن الكريم، أو أشار إليها، وكل نموذج منها يحتاج إلى تحليل وتفصيل يضيق عنهما هذا المجال.

وهناك للفدائية مسيرة في تاريخ الإسلام والمسلمين..

وقائد هذه المسيرة هو رسول الله ﷺ الذي تذكرنا سيرته بأكثر من نموذج للفداء، فهو ابن الذبيحين إسماعيل وعبد الله، وكل من هذا الجد وذاك الوالد قد ضرب مثلاً للفداء، فإسماعيل هو ـ كما عرفنا ـ الذي قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فقال له ولده: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

و«عبد اللّه» والد الرسول تروي السيرة عنه فيما ترويه أن والده عبد المطلب نذر لله إن رزقه عشرة أبناء أن يذبح واحداً منهم عند الكعبة، وتم لعبد المطلب ما أراد، فذهب بأبنائه إلى الكعبة، وأجرى عندها قرعة بين أبنائه، ليكون أحدهم فداءً كما نذر، فخرجت القرعة على عبد اللّه.

ولم يخف عبد اللّه من الموت، ولكن الناس حالوا بين الوالد وذبح ابنه، ثم أرشدهم بعض الناس إلى أن يجروا القرعة بين عبد اللّه وعدد من الإبل، ويزيدوا في الإبل ويكرروا إجراء القرعة، حتى تخرج على الإبل، واستجاب عبد المطلب لذلك، فلم تخرج القرعة على الإبل إلاّ حين بلغت مائة، وأعادوا القرعة ثلاثة مرات ليطمئن عبد المطلب، فتكرر خروج القرعة على الإبل، فذبح عبد المطلب الإبل، ونجا عبد اللّه بطل هذا الفداء.

والرسول هو بطل الفداء الأول، وقد رأيناه ليلة الهجرة يقدم على الرحلة الخطيرة المحفوفة بالأهوال والأخطار، بعد أن تآمرت جموع الشرك على البطش به، حتى قال القرآن الكريم في سورة الأنفال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ[1] أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

(١) ليثبتوك: ليقيدوك بالأغلال ويحبسوك.

وكذلك رأيناه في أحرج موقف، وهو داخل الغار، والكفار على بابه، وصاحبه أبو بكر يقول له مشفقاً: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موطىء قدميه لرآنا، فلا يضطرب الرسول ولا يخاف، بل يطمئن أبا بكر في شموخ يقيني فدائي قائلاً: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبا بكر لا تحزن، إن الله معنا.

وسنراه وهو يضرب القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في مواقفه الفدائية الكثيرة، ثم سنراه أيضاً وهو يوجه صحابته إلى مواقف التضحية والفداء، عليه من ربه أفضل صلاة وأتم سلام.

***

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، يقف من وراء الرسول، يتلقى منه دروس الفداء، فيفهمها ويهضمها، ويهتدي بنورها، وعلي هو الذي كان يقول: «والله ما أبالي أدخلت على الموت أو خرج الموت إلي». وكان يقول: «والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألفُ ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة الفراش في غير طاعة الله». وهو القائل:

«ولقد كنا مع رسول الله ﷺ وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا: ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً، ومضيّاً على اللَّقَم (أي الطريق المعتدل) وصبراً على مضض الألم، وجدّاً في جهاد العدو؛ ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان[١] أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون: فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منّا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت (أي الذل) وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جِرانه[٢]، ومتبوئاً أوطانه».

والموقف الفدائي البطولي الذي وقفه الإمام عليّ ليلة الهجرة مشهور لا

(١) يتصاولان: أي يحمل كل منهما على الآخر، يتخالسان: يطلب كل منهما اختلاس روح الآخر.

(٢) جران البعير: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. وإلقاء الجران كناية عن التمكن.

يحتاج إلى إطالة في عرضه، حيث نام مكان الرسول وهو يعلم أنه هدف للمتآمرين من المشركين، ففدى رسولَ الله بنفسه وحياته، وإن يكن الله تعالى قد كتب له النجاة والسلامة.

وقد قال بعض المفسرين إن قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزل في شأن عليّ رضي الله عنه حين نام على فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة[(١)].

وتمضي مسيرة الفدائية فنجد فريقاً من المؤمنين يتألقون في طليعتها، وأولئك هم شهداء غزوة بدر الكبرى، وهي الغزوة التي قال في أهلها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم». ولقد كان أهل بدر قدوة رائعة في الإقدام على التضحية والفداء، وكان شهداؤها أروع وأسمى، ولذلك قال أحمد محرم في ديوانه «مجد الإسلام» يخاطب هؤلاء [من الكامل]:

شهداء بدر أنتم المثل الذي ... بلغ المدى، بعد المدى فتناهى
علّمتم النّاسَ الكفاحَ فأقبلوا ... ملء الحوادث يدمنون أذاها
أما الفداء فقد قضيتم حقّه ... وجعلتموه شريعة نرضاها
من رام تفسير الحياة لقومه ... فدمُ الشهيد يُبين عن معناها
لولا الدماء تراق لم ترَ أمّة ... بلغت من المجد العريق مناها

وينبغي أن نلاحظ هنا ملاحظة، هي أن الفدائيين الذي تألقوا في صدر الإسلام أكثرهم قد شهدوا غزوة بدر، وكذلك نجد أن كثيراً منهم قد شهدوا «بيعة العقبة»، وأن أكثر الذين عاشوا بعد غزوة بدر قد حرصوا على شهود الغزوات التالية، فإن غاب واحد منهم عن غزوة، فإنما يكون ذلك لعذر أو ضرورة أو تكليف من الرسول بعمل آخر. . .

وتمضي مسيرة الفدائية خلال التاريخ، وبعد حين نشهد فيها الفدائي

---

(١) انظر تفسير القرطبي، ج ٣ ص ٢١.

الشجاع عبد الله بن الزبير، ونرى أمامه فدائية مؤمنة، هي أقرب الناس إليه، وهي أمه أسماء ذات النطاقين التي بثت فيه روح الفداء والجهاد حتى الاستشهاد، قالت له فيما قالت: «يا بني، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة الموت، مت كريماً يا بُنيّ». ولما ذكر لها أنه يخاف التمثيل بجثته بعد استشهاده قالت له: «يا بني، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها»!....

***

وتمضي الأيام في تاريخ الإسلام فنرى من أبنائه طائفة فدائية متميزة، هي «فرقة الخوارج».

والخوارج هم أول فرقة إسلامية، خرجت على الإمام علي رضي الله عنه، وقد عُرفوا بالتشدد في العبادة، وبالإخلاص لما يعتقدونه، والدفاع عنه حتى الموت، وكان لهم حركات مقاومة فدائية في زمن الدولة الأموية، وفي صدر الدولة العباسية.

ونحن لا نتعرض هنا لآرائهم التي قد يؤخذ منها وقد يرد عليها، فقد يكون للخوارج عيوبهم وأخطاؤهم وغلوهم، ولكن هذا لا يمنع أن نقرر أنه كانت فيهم نزعة فدائية، ونحن هنا نرصد ظاهرة «الروح الفدائية» عندهم فقط، ولا شك أن الخوارج كان لهم مذهب يدينون به في مجال الجهاد والنضال، وهو مذهب التضحية في سبيل العقيدة حتى الموت في ميدان الحرب.

وكانوا يندفعون إلى مواطن الفداء بدافع من وفائهم لاعتقادهم، وبدافع من عبادتهم، ولذلك كانوا يجعلون أنفسهم مثلاً لرهبان الليل وفرسان النهار، فيقول ابن جعدة وهو أحد شعرائهم [من الطويل]:

فأقبلتُ نحو اللّهِ باللّه واثقاً . وما كربتي غير الإله بفارج
إلى عصبة أما النهار فإنهم هم الأسْد أُسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جنّ فإنهم قيام بأنواح النّساء النواشج

وهم في جهادهم يرون أنهم قد باعوا أنفسهم لربهم مقابل نعيم الجنّة، كما قال القرآن في سورة التوبة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ

وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١] ولذلك يقول شاعرهم قطري بن الفجاءة يصف حالهم في معركة [من الطويل]:

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تُبيح من الكفار كلَّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ويؤكد قطري هذا في موطن آخر فيقول [من الطويل]:

فسرْ نحونا، تلق الجهاد غنيمة ... نفذكَ ابتياعاً رابحاً غير خاسر

ويأتي معاذ بن جون ـ وهو أحد شعرائهم ـ فيخاطب زملاءه وهو سجين فيقول [من الطويل]:

ألا أيها الشارون، قد حان لامرئٍ ... شرى نفسه في اللّهِ أن يترحّلا
فشدوا على القوم العداة، فما أرى ... إقامتكم للذبح رأياً مضلّلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابحٍ ... شديد القُصَيرَى[1] دارعاً غير أعزلا
مشيحاً بنصل السيف في حمس الوغى ... يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
ولو أنني فيكم ـ وقد قصدوا لكم ـ ... أثرتُ إذن بين الفريقين قسطلا[2]
فيا رُبَّ جمع قد فللتُ، وغارة ... شهدت، وقرْن قد تركتُ مجندلا

ولم تكن الروح الفدائية عند الخوارج مقصورة على الرجال منهم، بل عرفت طريقها إلى نسائهم، وهذه مثلاً هي «أم حكيم» زوجة قطري بن الفجاءة، كانت من أشجع الناس، وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بالدين تمسكاً، وكانت مجاهدة فدائية، وكانت تتمنى أن تهيِّى لها الأقدار وهي تجاهد بطلاً أقوى منها، يقطع رأسها، لتنال نعمة الشهادة، وتستريح من غسل رأسها ودهنه وتمشيط شعره، فتقول وهي في حومة الوغى:

أحمل رأساً قد مللت حملهُ ... وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله؟

***

(١) القصيري: أسفل الأضلاع، أو آخر ضلع في الجنب، وأصل العنق. والسابح: الحصان السريع.

(٢) القسطل: الغبار، ويراد به غبار المعركة هنا.

وهناك الفدائية الرائعة التي تمثلت في استشهاد الحسين بن علي رضوان الله عليهما. فقد خرج الحسين أبو الشهداء، وواجه الطغيان، حتى نال الشهادة بلا تردد أو التواء.

ومضت المسيرة الفدائية في طريقها، يتجمع أفرادها أحياناً، وتتشعب مسالكهم أحياناً أخرى، ونرى، على طريقها سيف الدولة الحمداني، وهو البطل العربي الإسلامي، مؤسس الدولة الحمدانية في حلب، وفي العصر الذي انحلت فيه وحدة الدولة الإسلامية، وطمع فيها الطامعون من الأعداء، وكانت حلب على عهده تمثل الخط الأمامي من خطوط الدفاع عن أرض العروبة والإسلام.

ونرى سيف الدولة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ينظم بعض الفرق الفدائية التي توافرت في أفرادها صفات الشجاعة والإقدام والتضحية، وقد دربهم على المغامرة والفداء، وكانت هذه الفرق تسمى: «حملات القفز» لأنها كانت تقوم بالقفز من قمة إلى قمة في براعة ومهارة، وكانت في تحركاتها الفدائية هذه تباغت العدو، وتنزل بجنوده ومحاربيه ضربات رادعة.

وقد أحدثت هذه الفرق كثيراً من الرعب في معسكرات الأعداء. وكان هؤلاء الأعداء إذا روَوْا ما قام به هؤلاء الفدائيون يروونه في خوف وفزع من جهة، وفي هيبة وإعجاب من جهة أخرى، وقد استمرت هذه الفرق تقوم بعملها الفدائي من سنة ٣٣٩هـ إلى سنة ٣٤٩هـ (أي من سنة ٩٥٠م إلى سنة ٩٦٠م)[١].

وواصلت المسيرة الفدائية خطواتها على درب التاريخ الإسلامي الطويل، تبدو أحياناً، وتستتر أحياناً أخرى، ونرى على طريقها عهد صلاح الدين الأيوبي، البطل الإسلامي الفاتح، فنجد في هذا العهد جيشين: الأول هو الجيش النظامي الذي يخضع للدولة، وتلتزم الدولة بنفقته وتسليحه وتدريبه والإشراف عليه.

والجيش الآخر هو جيش «المطوّعة» الذي يتكون من المتطوعين للقتال،

---

(١) كتاب «سيف الدولة الحمداني» للدكتور مصطفى الشكعة.

الذي يقومون بتسليح أنفسهم، ويندفعون إلى النضال الفدائي بدافع من دينهم وإيمانهم، راجين النصر أو الشهادة، فهم لا يطلبون مغنماً، ولا يتطلعون إلى شهرة، بل يستجيبون لقول الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

ولم تكفّ المسيرة الفدائية في تاريخ الإسلام والمسلمين عن متابعة الخطوات هنا وهناك.

وما يظن بصير أنها تكف عن هذه الخطوات حتى يبلغ الكتاب أجله، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

***

ملامح للفدائية

العمل الفدائي المؤمن خطة لها صفات ولوازم، وأول هذه اللوازم إباء الضيم ورفض الهزيمة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]. ويضاف إلى ذلك تفضيل الموت على ذل الحياة، وكتاب الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨ـ ٣٩].

ومن لوازم العمل الفدائي الثقة بتقدير الأجل وانتهائه، وهذا يذكرنا بقول الفدائي قطري بن الفجاءة [من الوافر]:

أقولُ لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال: ويحك، لن تراعي
فإنك لو سألت بقاءَ يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت، صبراً ... فما نيل الخلودِ بمستطاعِ
ولا ثوب البقاءِ بثوب عز ... فيُطوَى عن أخي الخنع اليراع[1]
سبيل الموتِ غاية كلّ حي ... فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع[2]
وما للمرء خير في حياةٍ ... إذا ما عُدّ من سقط المتاعِ

ومن لوازم الفدائية عدم الحرص على الحياة، وعدم الرهبة من الموت، لأنه آت على كل حال، وهذا يذكرنا بقول الشاعر [من الكامل]:

---

(١) أخو الخنع: الذليل. واليراع: الرجل الجبان الذي لا قلب له.

(٢) الاعتباط: أن يموت من غير علة. والمنون: الموت.

بكرت تخوّفني الحتوفَ، كأنني ‏ أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها: إن المنيّة منهل ‏ لا بدّ أن أسقَى بذاكَ المنهل
فاقنيْ حياءك لا أبا لك، واعلمي ‏ أني امرؤ سأموت إن لم أُقتل

ومن صفات الفدائي المؤمن الرضا بالتجارة مع الله عز وجل، وهذا شاعر يقول عن مؤمني الفدائيين [من الكامل]:

يغشون حومات المنون، وإنها ‏ في الله عند نفوسهم لصغار
يمشون في الخطّيّ، لا يثنيهم ‏ والقوم إذ ركبوا الرماح تِجارُ

وقد قال عاصم بن الحدثان للفرزدق عن صاحب هذين البيتين: يا فرزدق، هذا شاعر المؤمنين.

ومن ملامح الروح الفدائية أن صاحبها يرى أن طلب الشهادة يجعله الله باباً للحياة الكريمة في الدنيا، أو للحياة العظيمة في الآخرة، ولذلك قال أبو بكر الصديق: «احرص على الموت توهب لك الحياة». وكان يزيد بن المهلب قد نظر إلى ذلك الشعار حين قال [من الطويل]:

تأخرتُ أستبقي الحياة، فلم أجد ‏ لنفسي حياةً مثل أن أتقدما

ومما يحتاج إليه العمل الفدائي القدوة المثالية للتضحية، ولقد رُوي أن عوف بن الحارث قال لرسول الله ﷺ يوم غزوة بدر: يا رسول الله، ما يضحك الربّ من عبده؟ قال: غمسُه يده في العدو حاسراً، فنزع عوف درعاً كانت عليه، وقذفها، ثم أخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل.

والعمل الفدائي يحتاج إلى طول نَفس، وجميل صبر، ووطيد احتمال، ولقد كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول، وهو يسير بين الصفوف يذمّر الجنودَ ـ أي يشجعهم ـ: «يا أهل الإسلام، إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن النصر مع الصبر».

ويقول الشاعر عمرو بن الإطنابة [من الطويل]:

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا ‏ مطلاً كإطلال السحاب إذا اكفهرْ
فقلت له: لا تبكِ عينك، إنما ‏ يكون غداً حسنُ الثناء لمن صبرْ!

وهذا عمرو بن الإطنابة أيضاً يقول [من الوافر]:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروهِ نفسي ... وضربي هامةَ البطلِ المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت: ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعدُ عن عرض صحيح
أبت لي أن أقصّر في فعالي ... وأن أغضي على فعل قبيح

ويروى عن معاوية بن أبي سفيان قال: «لقد وضعت رجلي في الركاب، وهممت يوم صفين بالهزيمة، فما منعني إلاّ قول ابن الإطنابة حيث قال. . .» وأنشد الأبيات. . .

والعمل الفدائي يحتاج إلى كتمان وإسرار، وكأن رسول الله ﷺ كان يعلم صحابته المجاهدين هذا حينما عودهم على حمل «الكتب المغلقة» منه، والسير بها إلى مكان يحدده لهم، ثم يفتحونها هناك، وينفذون ما فيها من واجبات الكفاح والفداء.

ولقد حدث في أثناء غزوة الأحزاب أن غدر يهود بني قريظة بالرسول والمسلمين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي، وانضموا إلى المشركين في وقت شديد عصيب، وشاءت عناية الله أن تخفق حملة الأحزاب، وتوجه الرسول بعدها إلى تأديب الغدرة الفجرة من بني قريظة، وتمكن منهم بعد حصار طال وامتد، وطلب هؤلاء من الرسول أن يبعث إليه بالصحابي الجليل أبي لبابة، وكان حليفاً لهم في الجاهلية، وكان له بينهم مال وعقار، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عنهم، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه: أيسلّمون وينزلون على حكم النبي؟. . فقال لهم: نعم؛ ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة، فأشار بيده إلى حلقه إشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول أو استنتجه، وهو قصاص عادل من غير شك.

وما كاد أبو لبابة رضي الله عنه يأتي بهذه الإشارة حتى تنبه لنفسه في خوف وفزع، وأحس كأنه خان الله ورسوله في هذه الإشارة، لأنه كشف شيئاً كان يجب عليه ـ ولو في اعتقاده ـ أن يخفيه، فعصره الألم والحزن. وقال:

«فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني خُنتُ الله ورسوله».

وظهر الندم على وجهه، فقال له بعض اليهود: ما لك يا أبا لبابة؟ فأجاب: لقد خنت الله ورسوله. وعاد مسرعاً إلى المدينة، والدموع تسيل من عينيه، وما زال مسرعاً في مشيته حتى دخل المسجد، وربط نفسه في أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليّ مما صنعت. وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألاّ يدخل أرض بني قريظة ما دام حيّاً، مع أنه قد كان له فيها مال وعقار.

وبلغت القصة مسمع النبي صلوات الله عليه وسلامه، فقال: أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه. وجاء الوحي من عند الله عز وجل مؤدباً ومعلماً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

وظل أبو لبابة مربوطاً في عمود المسجد عشرين يوماً، لا تفك قيوده إلاّ لأداء الصلاة، ثم يعود إلى القيد من جديد، حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله ﷺ، وأقبل جبريل يخبر الرسول بأن الله جلّ جلاله قد تاب على أبي لبابة بعد هذا الندم، وبعد هذا التطهير، وجاء قوله عز من قائل:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

وانتهت البشرى إلى مسامع أبي لبابة، فطار لها فرحاً، وسعد بها كثيراً، ولكنه ظل في قيده كما هو، وأراد بعض الصحابة أن يفكه من القيد فأبى ذلك، وقال: والله لا يفكني من قيدي إلاّ رسول الله ﷺ. وكأنه كان يريد بذلك أن يوثّق توبته، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيداً لغفران الله له وعفوه عنه.

ومحيت الهفوة من سجل أبي لبابة، بفضل الله ورحمته، وواصل حياته مجاهداً مستقيماً على الطريق، وفيّاً بعهده لا يخون ولا يهون.

إنه لدرس بليغ. فهذا رجل يواصل جهاده في سبيل الله، ويبذل من نفسه وماله في سبيل دينه وهداه، ثم تفلت منه إشارة لم يتعمدها، ولم يترصد

لإتيانها، ولم يصر عليها، ومع ذلك ارتعدت فرائصه، وارتجفت أوصاله، وخيل إليه أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت، وأيقن أنه لا ملجأ له من عذاب الله إلاّ عفو الله ورحمته، فأخذ نفسه بذلك العقاب الصارم والتأديب الحازم، حتى تنزلت عليه توبة الرحمٰن الرحيم.

***

ومن لوازم العمل الفدائي المؤمن إنكار الذات، وإحياء الجندية المجهولة، والعمل الصموت بلا مباهاة أو مفاخرة، ومن أروع الأمثلة للجندية المجهولة ما أوردته في كتابي «واجب الشاب العربي»، وهو أن مسلمة بن عبد الملك كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين، وكان يحاصر حصناً من الحصون استعصى عليهم فلم يفتحوه، فحرض الأمير جندَه على التضحية والإقدام، حتى يحدثوا في ذلك الحصن ثغرة، وينقبوا فيه نقباً. فتقدم من عرض الجيش رجل ملثم غير معروف، ودفع بنفسه إلى الحصن غير مبال بالموت، وأحدث فيه ثغرة كانت سبباً في سقوط الحصن، ودخل الجيش المسلم فيه، ففرح مسلمة كثيراً، ونادى: أين صاحب النقب؟ فلم يأته أحد، فنادى مرة أخرى قائلاً:

إني أمرتُ حاجبي بإدخاله عليَّ ساعة يأتي، فعزمت (أي حلفت) عليه إلاّ جاء. وكان يريد أن يخصه بشيء من الغنائم والتكريم.

فجاء رجل ملثم إلى حاجب مسلمة، وقال له: استأذن لي على الأمير، فقال له الحاجب: أأنت صاحب النقب؟ فقال: أنا أدلكم عليه، وأخبركم عنه. فدخل الحاجب واستأذن للرجل على الأمير. فلما مثل المجاهد بين يدي مسلمة قال له: أيها الأمير، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثاً: ألا تبعثوا باسمه في صحيفة إلى الخليفة، وألاّ تأمروا له بشيء، وألاّ تسألوه من هو. فقال مسلمة: ذلك له. فقال الرجل في استحياء: أنا صاحب النقب. ثم ولّى مسرعاً.

فكان مسلمة لا يصلي بعد ذلك صلاة إلاّ دعا فيها، فقال: اللهُمّ اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة!

***

والعمل الفدائي المؤمن يحتاج إلى استطلاع واسع واستكشاف دقيق، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من إرسال العيون، ليستطلعوا الأنباء ويعرفوا أحوال الأعداء، وها هو ذا يقول ذات مرة عن المشركين: من يأتيني بأخبار القوم؟ فيقول الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله. فيقول النبي معجباً ومثنياً: لكل نبي حواري، وحواريَّ الزبير[١].

ولقد أوصى الإمام علي ابنه محمداً وهو يقود جيشاً باستكمال دراسته لأحوال عدوه، فقال له فيما قال: «ارم ببصرك أقصى القوم». وكذلك أوصى عمر سعداً قائده، فقال له فيما قال: «وتعرّف الأرض كلها معرفة أهلها». ويقول له أيضاً: «أذْكِ[٢] العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرُهم».

وكذلك يحتاج العملُ الفدائي إلى المخادعة، لأنه لون من الحرب، والرسول ﷺ يقول: «الحرب خدعة».

ويقول المهلب بن أبي صفرة لأولاده: «عليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة».

ويحتاج العمل الفدائي إلى سرعة الحركة مع المباغته، ولذلك أوصى النبي ﷺ قائداً لإحدى سراياه فقال له:

«أغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم». ويقول ذو الإصبع العدواني: «وأسرع النهضة في الصريخ[٣]، فإن لك أجلاً لا يعدوك».

والعمل الفدائي يحتاج إلى حماية ظهور الفدائيين، وإمداداهم بما يلزمهم، ورعاية من خلفهم من أسر وأولاد، حتى يحسنوا التفرغ لعملهم، ولذلك قال

---

(١) وفي رواية أنه قال: «الزبير ابن عمتي وحواري». والحواري هو النصير: والحواريون هم أنصار عيسى بن مريم عليه السلام، لأنه قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، فشبه النبي الزبير بهم في النصرة.

(٢) أذكى النار: أوقدها وحركها، وأذكى العيون: بثهم لجمع الأخبار.

(٣) أي عجل بالنجدة للمستغيث.

رسول الله عليه الصلاة والسلام: «من جهّز غازياً فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا».

❋❋❋

أما بعد، فالفدائي رجل يضع أمام عينيه على الدوام أمثالَ هذه الشعارات:

١ـ يقول أحد الشعراء [من البسيط]:

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

٢ـ ويقول عمرو بن العاص: «عليكم بكل أمر مزلقة مَهلكة» أي عليك بجسام الأمور.

٣ـ ويقول أيضاً: «من طلب عظيماً خاطر بعظيمته». أي تعرض للنازلة الشديدة.

٤ـ وتقول العرب: «المنية ولا الدنية».

٥ـ ويقول بعض الشعراء [من المتقارب]:

سأحمل روحي على راحتي وأمضي بها في طريق الرّدى
فإما حياة تسرّ الصديق وإمّا ممات يسوء العدا

المعلم الأكبر لدروس التضحية والفداء

إذا كان الله تبارك وتعالى قد قال لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فإنه قد قال له أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ [التوبة: ٧٣]. وقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣] وقال له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

ولذلك رأينا أن النبي العظيم عليه الصلاة والتسليم الذي يقول: «أنا رحمة مهداة»، ويقول: «أنا نبي المرحمة» هو نفسه الذي يقول: «أنا نبي الملحمة» أي المعركة، ويقول: «أنا رسول الملاحم» يقول أحدهم [من البسيط]:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً، وإن تلقه بالشر ينحسم

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلاً أعلى في الرحمة والرأفة بمن يستحق الرحمة والرأفة، وكان مثلاً أعلى في الشدة والتأديب لأهل البغي والطغيان، وكان يضرب القدوة من نفسه في ميادين الجهاد والإقدام والفداء، فيتقدم الصفوف، ويعطي الأسوة الحسنة لمن خلفه، ولذلك قال الصحابي الجليل عمران بن حصين: «ما لقي النبي ﷺ كتيبة إلاّ كان أول من يضرب».

ولقد شهد الرسول أشد المواقف في النضال والكفاح، واضطرب من حوله كماة وأبطال، ولكنه ظل ثابتاً لا يبرح، مقبلاً لا يدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع إلاّ قد أُحصيت له فرة، أو وقع منه الهرب مرة، سوى رسول الله فإنه لم يقبل لنفسه أبداً أن يترك الميدان منهزماً. وها هوذا الصحابي الجليل البراء بن عازب يقال له: أفررتم يوم حنين عن رسول الله؟ فيجيب: نعم، ولكن رسول الله لم يفر.

بل كان من عادة الرسول أن يقدم نحو العدو عند اشتداد الموقف، يقدم في سرعة وثبات جأش، حتى روي أن العباس بن عبد المطلب كان يأخذ بخطام دابة النبي حتى لا يلتحم بالأعداء داخل صفوفهم وجموعهم.

وها هو ذا البطل المجاهد الشجاع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم البدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ ـ وهو أقربنا إلى العدو ـ وكان من أشد الناس يومئذ بأساً». والبأس هو شدة الحرب، والحدق هي العيون، واحمرارها كناية عن شدة الغضب.

وفي أحرج المواقف التي تزلزلت لها همم كثير من المناضلين ـ كيوم أحد ويوم حنين ـ وقف الرسول المعلم الأكبر لدروس التضحية والثبات والفداء، وسط الميدان، والأهوال تحيط به عن يمين وشمال، وقف راسخاً كالطود، ثابتاً ثبات الرواسي، وهو يهتف في جرأة وشجاعة: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. هلموا إليّ أيها الناس، أنا رسول الله. أنا محمد بن عبد الله».

وكلما تضاعفت الشدة، وتسعرت أهوال القتال، بدت فيه روح الطمأنينة والسكينة، وهتف مشجعاً ومثبتاً المجاهدين معه: «يا أنصار الله، وأنصار رسول الله، أنا عبد الله ورسوله».

ومن دروس الجهاد والفداء التي لقنها النبي أصحابه أنه علمهم وجوب الطاعة للقائد، وإخلاص الأداء للواجب، والاستمرار في موقف المناضلة والمقاومة، ولو بدرت عوارض مغرية، أو مرت شدة مؤذية. وها هو ذا يطلب من الرماة في غزوة أحد أن يحموا ظهور الجيش، ثم يقول لهم في عزم وتصميم: «إذا رأيتمونا تتخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم».

كذلك علّم أصحابة المجاهدين الثقةَ بالنصر، وعمق الرجاء في بلوغ الهدف، مع بذل الجهد واستيعاب الطاقة، ولذلك نراه وهو خارج إلى تأديب يهود خيبر الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، يجعل شعاره وهتافه قوله: «الله أكبر، خربت خيبر؛ إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وكأني برسول الله ومن معه أراهم من قوة إيمانهم، وعمق يقينهم، يطالعون النصر ببصائرهم، قبل أن يشهدوه بأبصارهم، وكأنه قد تحقق بين أيديهم وهم ما زالوا في إقبالهم نحو عدوهم لينالوا منه ثأرهم، ويطهروا من دنسه ديارهم.

ومما جاء في بعض كتب السيرة أن زعيم المشركين بعث إلى الرسول يهدده، ويحاول إنزاله على خطة لا تليق بالمجاهد المناضل، فقال زعيم المشركين: «نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك، وإلاّ فأبشر بخراب الديار، وقلة الثمار» فكان الجواب ما معناه: وصل كتاب أهل الشرك والنفاق، وفهمت مقالتكم، فوالله ما لكم عندي جواب إلاّ أطراف الرماح، وأشفار الصفاح، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وإلاّ فأبشروا بضرب الحسام، وفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار...» أو كما قال.

وقديماً جاء في المثل العربي: «إن الحديد بالحديد يفلَح».

ولقد علم الرسول أتباعه أن القائد يبدأ بنفسه، وطبق ذلك عملياً، فهؤلاء مثلاً هم أهل المدينة يفزعون ليلة من صوت مزعج سمعوه، فخرجوا يستطلعون نبأه، ولما بلغوا ظاهر المدينة وكادوا يتجمعون، وجدوا رسول الله قد سبقهم، واستطلع حقيقة الصوت لهم، وعاد وهو راكب على حصان عريان ليس عليه سرج، وسيفه معه، وهو يقول للناس مهدئاً: لن تراعوا، لن تراعوا... أي ليس هناك ما يستوجب الفزع.

والرسول صلوات الله عليه وسلامه هو الذي علّم أتباعه الاستجابة والمبادرة إلى أداء الواجب النضالي في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلّمهم أن الحرب خدعة، لا بد فيها من الاحتراس واليقظة والتورية، واختيار الموقع المناسب، والفرصة المواتية، والتأهب السريع، والتحرك النشيط، والمباغتة للعدو.

وعلّمهم أن القوة الحقيقية للجنود المجاهدين إنما هي في إيمانهم ويقينهم، لا في كثرة عددهم وضخامة عدتهم فقط، وعلّمهم الشورى قبل

المعارك وبعدها: بين القائد وأعوانه للانتفاع بكل الآراء، ولاستعراض وجهات النظر. وعلمهم دقة الاستطلاع، وتتبع الأنباء، وجَمْع المعلومات، وكُتمان الأسرار، وتجنُّب اليأس، والإصرار على تحقيق الهدف.

ثم علَّمهم وطبعهم على الاعتصام بحبل الله، والاستمداد من حوله وطوله، لأنه خير الناصرين، وعلَّمهم أولاً وأخيراً «صناعة الموت»، أو «صناعة الشهادة» بتعبير أدق، فردد عليهم قوله: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد».

***

إنه النبي: المجاهد الأول؛ والمعلم الأكبر لدروس التضحية والفداء، ونستطيع أن نشهد دلائل ذلك بوضوح وجلاء حين استعراض مواقف صحابته في مواطن الفداء.

إنه النبي الذي تمنى أن يتكرر جهاده واستشهاده، وإعادته إلى الحياة ليعاود الجهاد والاستشهاد، فيقول: «والذي نفس محمد بيده لوددتُ أني أغزو في سبل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل».

ويؤكد سمو مكانة الجهاد حتى الاستشهاد بقول: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شيء، غير الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة».

ويقول أيضاً: «يؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول الله: يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك؟ فيقول: يا ربِّ، خيرَ منزل. فيقول الله، سل وتمنَّ. فيقول: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتل في سبيلك عشر مرات؛ لما يرى من فضل الشهادة».

إنه النبي الذي كان يضع للمجاهدين الباذلين شعارات الأمل والرجاء، والثقة بالنصر، واليقين بما عند الله. فيقول لصحابته: ليكن شعاركم، حم، لا يُنصرون». ويأمرهم مرة أخرى بأن يكون شعارهم: «أمتْ أمتْ».

إنه النبي الذي يحث على الإقدام، ويحرض على التضحية، ويدفع إلى الفداء، فيقول: «والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم (أي جرح) يُكْلَم في سبيل الله إِلاّ جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك».

إنه النبي الذي يهوّن على الفدائي وقع الموت، فيخبره ـ وهو الصادق المصدوق ـ أنه سهل محتمل، فيقول: «ما يجد الشهيد من مسّ القتل إِلاّ كما يجد أحدكم من مسّ القرصة».

إنه النبي الذي يفتح طريق الجنة من تحت السيوف وآلات النضال، يحملها الأبطال، ليحقوا حقّاً، أو يبطلوا باطلاً، فيقول: «الجنة تحت ظلال السيوف».

إنه النبي الذي يحبب في أعمال البطولة والفداء، ويضمن كل الثواب للمصاب في الجهاد، وإن لم يبلغ النصر كله، فيقول: «ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إِلاّ كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إِلاّ تمت أجورهم».

إنه النبي الذي وسّعَ دائرة الشهداء ليدخلها الكثير من المسلمين، فينالوا ما كتب الله لهم من حظ على درجات، فيقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدوّ، فصَدَقَ الله حتى قُتل، فذلك الذي يرفع الناس أعينهم إليه يوم القيامة هكذا (ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، أي من شدة رفعها إلى أعلى). ورجل مؤمن جيّد الإيمان لقي العدو، فكأنهما ضُرب جلدهُ بشوك طلح من الجبن، أتاه سهمُ غرْب (أي لا يدري من رماه) فقتله، فهو في الدرجة الثانية.

ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لقي العدوّ، فصدق الله حتى قُتل، فذلك في الدرجة الثالثة.

ورجل مؤمن أسرف على نفسه (عمل خطايا كثيرة) لقي العدو، فصدق الله حتى قتل، فذلك في الدرجة الرابعة».

أي أن الباب واسع يرحّب بكل مَنْ يريد أن يجبر نقصاً، أو يصحح خطأ، أو يزداد ثوباً.

***

صلاةً وسلاماً على نبي الملحمة، نبي الجهاد. . .

صلاةً وسلاماً على المعلم الأكبر لدروس التضحية والفداء.

صلاةً وسلاماً على رسول الله: محمد بن عبد الله.

***

قائد أول فرقة فدائية

أبو بصير: عتبة بن أسيد

إن للمقاومة الفدائية في صدر الإسلام أخباراً تحلو وتعلو حين تُرْوَى، ولعل أول محاولة لهذه المقاومة ما كان عقب غزوة الحديبية[١] في السنة السادسة للهجرة، فقد اضطر المسلمون أمام ظروف قاهرة شديدة، واستجابة لنظرة عميقة بعيدة، أن يقبلوا وقف الحرب بينهم وبين المشركين إلى حين.

وكان من شروط الاتفاق أنه إن ارتد أحد من المسلمين، وذهب إلى المشركين، فإنهم لا يردونه، وإن أسلم أحد من المشركين، وجاء إلى المسلمين، فإنه يردونه. وكان الشرط في ظاهره شديد الوطأة، ولكن الرسول المعصوم الموحى إليه، والموجَّه من ربه، قال لأتباعه مهوِّناً ومشجعاً: «إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

وبعد كتابة عهد الحديبية، ورجوع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو بصير عتبة[٢] بن أسيد الثقفي. جاءه هارباً من مكة بعد أن أسلم، وجاء وراءه رجلان من المشركين يطلبان رده، فلم يسع النبي ﷺ إلاّ أن ينفذ الشرط، ولما تألم أبو بصير من ذلك، قال له الرسول: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت (من عهد)، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

---

(١) الحديبية ـ بضم ففتح فسكون ـ قرية متوسطة ليست بالكبيرة، بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وسميت باسم بئر هناك، وقيل سميت حديبية لأنه كان في موضعها شجرة حدباء.

(٢) بعض المؤرخين يقول إن اسمه «عبيد».

يا لشدة الموقف العصيب! ماذا يصنع أبو بصير؟ أيعصي رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ وكيف وهو المؤمن الموقن الذي شهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله؟ أيرجع إلى مكة حيث ينتظره التعذيب والاضطهاد والفتنة؟ وكيف يرضى بهذا الهوان؟؟!

ماذا تصنع يا أبا بصير؟ ماذا تصنع!؟..

انتبهْ أبا بصير، ولا تنس أن رسول الله الصادق المصدوق قد قال لك منذ هنيهة: «إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً». فلا تغفل عن تلمس الطريق إلى هذا الفرج، ولا تتوان في البحث للوصول إلى هذا المخرج: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾ [الطلاق: ٧].

وعاد الرجلان ومعهما أبو بصير، وهو يسبح في بحر لجيّ من التفكير العميق، والتأمل الدقيق. إن رسول الله قد أخبر بمجيء الفرج وتهيؤ المخرج، فأين هما يا ترى؟

وحينما انتهى الرجال الثلاثة إلى «ذو الحُليفة» وهو مكان يبعد سبعة أميال عن المدينة، جلسوا يستريحون على الطريق، وأخذ أحد الرجلين المشركين يثير أبا بصير، ويسخر بالمسلمين، إذ قال وقد رفع سيفه: «لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل». وهو يقصد بالأوس والخزرج الأنصار من المسلمين، وكتم أبو بصير غيظه، ثم قال للرجل: أرى سيفك هذا سيفاً جيداً، فأرنيه.

وأخذ أبو بصير السيف من يده في خفة، ثم ضربه به ضربة قاتلة، وفزع المشرك الثاني، فأطلق ساقيه عائداً إلى المدينة، وخلفه أبو بصير، ولما أراد الرجل أن يطالب بإعادة أبي بصير إلى مكة مرة أخرى، سارع أبو بصير يقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأطلقني الله عز وجل.

وهنا قال الرسول رامزاً ومشيراً إلى أمرجليل له دلالته ومغزاه: «ويلُ أمّه مِسْعَر حرب، لو كان له رجال أو أصحاب»، وكلمة: «ويلَ أمه» تعبير تعوّد العرب قولها للإعجاب بالرجل الداهية. و«مسعر الحرب» هو الماهر فيها الخبير بها، وقد قال رسول الله ذلك إعجاباً بأبي بصير وشجاعته، وتمنياً أن يكون بجواره أمثال له.

ثم قال الرسول لأبي بصير: «اذهب حيث شئت». وفهم البطل المجاهد ما فهم من كلام الرسول، وسارع بالخروج، وهو يفكر فيما يستطيع أن يفعله من أجل هذه الدعوة الإلهية المضطهدة، ومن أجل هؤلاء المؤمنين المعذّبين في الأرض، المغتربين في سبيل عقيدتهم، الذين تطاولت عليهم جموع المشركين والكافرين، ومن أجل حريته التي يراد لها أن تذل وتضيع.

ثم هداه تفكيره ـ في ضوء ما سمع وما فهم ـ أن يقيم على ساحل البحر الأحمر، عند موضع يقال له «العيص» بالقرب من الطريق الذي تمرّ به قوافل التجارة للمشركين، ذاهبةً وآيبة بين مكة والشام، واستقر رأيه على أن يهاجم هذه القوافل في حركات فدائية بطولية، ليستولي منها على ما يستطيع، وبذلك يفيد نفسه، ويفيد المسلمين بإضعاف أعدائهم، ويغيظ المشركين بالاستيلاء على ما يمكن من تجارتهم.

ونجحت الفكرة. . .

وأخذ أبو بصير يسدد ضربات موجعة لقوافل المشركين، وسرت كلمة الرسول هنا وهناك، وهي قوله عن أبي بصير: «ويل أمه مسعر حرب، لو كان له رجل أو أصحاب». وسمع بها أمثال أبي بصير، فجعل كل منهم يفر بدينه، وينضم إلى أبي بصير، لأنهم خافوا إن ذهبوا إلى المدينة أن يردهم الرسول نزولاً على حكم الشرط.

وتزايد عدد هؤلاء الفدائيين الشجعان حتى قاربوا الثلثمائة، وأخذوا يكيلون الضربات للمشركين وقوافلهم، حتى ضج المشركون من هجمات أولئك الفدائيين، وأدركوا أن بقاءهم في المدينة كان خيراً وأحسن، فأرسلوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يرجونه في أن يستدعي هؤلاء الفدائيين إليه، وأن يبقيهم عنده، وهم لن يطالبوه بردهم، ولا بردّ أمثالهم بعد ذلك. وقالوا لرسول الله ﷺ: إنا قد أسقطنا هذا الشرط من الشروط، فمن جاء منهم فأمسكه لديك في غير حرج.

وهكذا هيأ الله تبارك وتعالى لمسعر الحرب رجالاً وأصحاباً استجابوا لإشارة الرسول ورمزه، فجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً. وهكذا صدقت نظرة

الرسول العميقة البعيدة المدى، فانقلب هذا الشرط القاسي في ظاهره خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

وأرسل النبي ﷺ كتاباً من لدنه إلى أبي بصير ومن معه يستقدمهم إلى المدينة، لتقوى بهم جبهة النضال الإسلامية، ولكن الكتاب النبوي الكريم وصل إلى أبي بصير وهو في آخر حياته، فقد مرض مرض الموت.

وتناول أبو بصير الكتاب وهو فرح به، وأنفاسه الأخيرة يسلم زمامها إلى بارئها نَفَساً بعد نفس، ثم أسلم أبو بصير روحه كلها، وما زال كتاب رسول الله ﷺ في يده، فتناوله منه رفيقه في النضال وزميله في النضال «أبو جندل بن سهيل»[1]، وقام على تجهيز أخيه المجاهد الراحل إلى رضوان ربه، ثم دفنوه في معقل كفاحه وفدائيته. . . هناك على ساحل البحر، ودفنوا معه كتاب رسول الله ﷺ، ليكون شاهداً له يوم يلقى ربّ العزة والجلال.

وعاد أولئك المجاهدون الفدائيون إلى المدينة ليواصلوا كفاحهم مع إخوتهم، وكأن آذانهم تدوي بصوت الحق جل جلاله حين يقول: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب ٢٣].

رضوان الله على أول فدائي في صدر الإسلام، وأمير أول فرقة فدائية في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام: أبي بصير عتبة بن أسيد الثقفي، وسلام عليه في الخالدين.

* * *

(١) سنعرف خبره فيما بعد.

الفدائي الشهيد ابن الشهيد

أبو جندل بن سهيل

بالمقاومة والثبات يتمهد السبيل أمام النصر الجليل، وبهمم الأبطال الذين باعوا لله أنفسهم وأموالهم تتفتح الأبواب أمامهم إلى الفوز في الدنيا، والنعيم في الآخرة، ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة في التضحية والفداء؛ ولقد عرفنا أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد اضطر إلى توقيع «عهد الحديبية» الذي نص على وقف الحرب بين المسلمين والمشركين إلى حين، وعلى رد من يأتي مسلماً من مكة إلى المدينة.

وكان ممثل المشركين في توقيع العهد هو «سهيل بن عمرو» وقد تشدد عند كتابته فاحتمله الرسول لأمر يريده الله، ويوجه رسوله إليه، وكان لسهيل ولد اسمه «أبو جندل»، شرح الله صدره للإسلام وهو في مكة بعد الهجرة، فغضب عليه أبوه، وقيّده وحبسه في داره؛ ولكن أبا جندل استطاع الهرب، ولجأ إلى المسلمين، عقب توقيع العهد مباشرة، وكان ما زال عالقاً به بعض قيوده.

ورآه أبو سهيل فثارت فيه حمية الجاهلية ـ إذا كان على شركه حينئذ، ولما يسلم ـ فأخذ يضرب ابنه، ثم أمسك بتلابيبه ليعيده إلى مكة معه، وأخذ يطالب رسولَ الله بتنفيذ ذلك بحسب الشرط، فلم يسع النبي إِلاّ أن ينزل على الشرط وعلى حكم الاتفاق، وهنا صرخ أبو جندل يقول بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأُردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ ألا ترون ما لقيت؟

ويشتد الأمر على المسلمين، ولكن الرسول ﷺ يخففه عليهم، ويفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء، فيقول: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله

جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهداً، وأعطيناهم على ذلك، وإنا لا نغدر بهم».

واشتد أمر أبي جندل على الفاروق عمر بن الخطاب أكثر وأكثر، وعمر هو عمر الشديد الصارم العنيف، فيدنو من أبي جندل بحذر، ويمشي إلى جانبه، ويقول له، وكأنه يهمس إليه: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دمُ أحدهم كدم كلب. ثم يقرّب عمر سيفه من أبي جندل، ويظهره له في حذر، راجياً أن يمد أبو جندل يده، ويأخذ السيف ويدافع به عن نفسه، ولكن أبا جندل لم يفعل، ولعله رأى أن ذلك مخالف لما نصحه به الرسول.

استمع أبو جندل إلى صوت النبي المرسل من الله رحمة للعالمين، فأطاع واستجاب، واحتمل الأذى والعذاب، ورجع مع أبيه، بعد أن عاد عمر يقترب منه، ويقول له مرة أخرى: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دمُ أحدهم كدم كلب. ثم يقرّب منه سيفه ليأخذه فيدافع به عن نفسه، ولكن أبا جندل مضى في طريقه مع أبيه، وفي نفسه من الهم ما الله به عليم.

رجع أبو جندل مع أبيه وهو يفكر في أمره ويتأمل، راجياً أن يجعل الله غده القريب خيراً من حاضره، وتطن في أذنه على الدوام كلمة الرسول ﷺ: «سيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً». وبعد قليل استطاع أبو جندل أن ينفلت من أسره، وأن يخرج من مكة مناضلاً في سبيل عقيدته وإيمانه، واستطاع أن يجمع حوله سبعين مناضلاً مؤمناً فدائيّاً، ممن أسلموا لله ولرسوله، وأراد الطغيان الكافر الفاجر أن يحول بينهم وبين إرادتهم وحريتهم، وخاف هؤلاء أيضاً أن يتجهوا إلى المسلمين في المدينة، فلا يقدروا على حمايتهم، ويردوهم نزولاً على شرط العهد، فاتفقوا على أن يقوموا بمحاولات فدائية بين المشركين أنفسهم، بأن يقطعوا عليهم طرقهم وخطوطهم، وأن يستولوا على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم وتجارتهم، وأن يفسدوا لهم ما يستطيعون إفساده من محاولاتهم الباغية ومؤامراتهم الخسيسة ضد الإسلام والمسلمين.

ونجح هؤلاء الفدائيون الأبطال فيما أرادوا نجاحاً بعيداً، حتى افتخر بذلك زعيمهم أبو جندل، فنظم شعراً يهدد فيه المشركين، وينوه فيه برفاقه الأبطال

المناضلين، ويقرر أنه سيبقى مع زملائه، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم، يقاومون ويضحون، حتى يكونوا أوفياء لإيمانهم، وحتى يكتب الله لهم مخرجاً يؤيدون به الحق ويذلون الباطل، لأن المؤمن يطلب واحدة من اثنتين: إما أن ينتصر فيعز ويعلو: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]، وإما أن يموت شهيداً بلا تقصير ـ، فيكون له عند ربه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من ألوان النعيم والتكريم، فقال أبو جندل [من السريع]:

أبلغ قريشاً عن أبي جندل ... أنا بذي المروة فالساحل[١]
في معشر تخفق أيمانهم ... بالبيض فيها والقنا الذابل[٢]
يأبون أن نبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجاً ... والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرءُ بإسلامه ... أو يقتل المرءُ ولم يأتل[٣]

***

ثم علم أبو جندل ومن معه أن «أبا بصير» الفدائي المؤمن قد سبقهم إلى تنظيم حركة مقاومة مثمرة، وأنه يقيم بالقرب من الساحل، فسارعوا بالذهاب إليه، واشتركوا معه في تجميع المقاومين المناضلين، واتفقوا على تنسيق خططهم، وترتيب أعمالهم، حتى تزيد حركتهم قوة وأثراً، وما دام هدفهم واحداً، فلم لا يكونون كذلك صفاً واحداً:

﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

وكان أبو بصير يؤم القوم في الصلاة من قبل، فلما جاء أبو جندل تأخر أبو بصير عن مكان الإمامة، وقدم إليه أبا جندل، إذ رآه أحق بذلك وأجدر.

---

(١) ذكر ياقوت عن ذي المروة أنها قرية بوادي القرى، وقيل بين خشب ووادي القرى.

(٢) البيض: جمع أبيض، أي السيوف، والقنا: جمع قناة وهي الرمح، والذابل: الضامر وهذا كناية عن جودته.

(٣) لم يأتل: لم يقصر.

وهكذا لم يكن بين هؤلاء المناضلين الفدائيين حب ذات، أو رغبة في ظهور أو شهرة، ولكنهم كانوا يتعاونون ويجاهدون من أجل الهدف المشترك والغاية النبيلة في أخوة وإخلاص وإيثار.

وتزايد عدد هؤلاء حتى بلغوا ثلثمائة، وأخذوا يهددون قوافل أعدائهم وتجارتهم، ويقتلون ويأسرون، ويستولون على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من سلاح أو عتاد أو مال، حتى ضج المشركون الجبارون ـ كما عرفنا ـ من خطر هؤلاء الفدائيين، ففزعوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلحون في الرجاء عنده أن يستدعي هؤلاء إليه، وأن يؤويهم لديه، ولن يطالبوه بهم ولا بغيرهم، لأنهم قد تنازلوا نهائياً عن هذا الشرط في العهد.

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام يستدعيهم، لينتفع بهم في مجال آخر من مجالات النضال المنظم. وأسلم أبو بصير روحه حينما وصل خطاب الرسول، فحمل التبعة أبو جندل، وعاد بكتيبة المقاومين الفدائيين إلى المدينة، وواصلوا النضال مع المؤمنين.

واشترك أبو جندل بعد ذلك في غزوة فتح مكة، كما اشترك في غزوات غيرها، وظل يجاهد في تضحية وفداء، في حياة الرسول وبعد وفاة الرسول، ثم كتب الله له نعمة الشهادة وهو يجاهد في أرض الشام، وكان لفظ الشام يطلق حينئذ على سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، فلقي أبو جندل ربه شهيداً مجيداً في غزوة «اليرموك»، واليرموك نهر من فروع نهر الأردن، يجري أولاً قرب حدود سورية وفلسطين، ثم ينحدر جنوباً إلى فلسطين، ويصب جنوب نهر الحولة؛ ويطلق اليرموك أيضاً على الوادي الموجود في حوران، جنوب دمشق في طرف الغور، وكانت غزوة اليرموك في السنة الخامسة عشرة من الهجرة (سنة ٦٣٦ ميلادية)، وهي من الغزوات المتألقة في تاريخ الإسلام.

***

والعجيب بعد هذا أن سهيل بن عمرو ـ وهو والد أبي جندل كما عرفنا ـ قد صنع الله به ما يعد آية على معجزة الإسلام العظيم. فسهيل هذا الذي كان مشركاً عنيداً متعصباً شديد التعصب للشرك والمشركين، والذي تعنت وتشدد

يوم «عهد الحديبية»، والذي رفض أن يكتب في العهد كلمة «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، وقال: لا أعرف ما الرحمٰن ولا ما الرحيم، وأصر على أن يكتب كلمة: «باسمك اللهم» والذي رفض أن يكتب في العهد كلمة «محمد رسول الله». وقال للنبي: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك، وكلما تشدد سهيل احتمل رسول الله وصبر، لأنه يرى بنور الله خير العاقبة، فيقول: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني»...

سهيل هذا تبهره أضواء الإسلام بعد ذلك، وتحيط به شواهد الإيمان فتأخذه عن يمين وشمال، فإذا هو يقلع عن عناده، ويخرج من جحوده، ويقبل طائعاً مختاراً، فيسلم يوم فتح مكة، ويحرص على أن يكفّر عما فعل وقدّم، فإذا هو يكثر الصلاة والصيام والتصدق والاشتغال بأمور الآخرة، حتى يصير في ذلك مثلاً باهراً يستلفت الأبصار ويثير الأفكار، وحتى يقول عنه سعيد بن مسلم، كما يروي عنه النووي:

«ولم يكن أحد من كبراء قريش الذين أسلموا يوم الفتح أكثر صلاة وصوماً وصدقة واشتغالاً بما ينفقه في آخرته من سهيل بن عمرو، حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء رقيقاً عند قراءة القرآن، كان يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن ويبكي، حتى خرج معاذ من مكة. فقيل له: تختلف إلى هذا الخزرجي؟ لو كان اختلافك إلى رجل من قومك؟ فقال: هذا الذي صنع بنا ما صنع، حتى سُبقنا كل السبق، لعمري أختلف، لقد وضع الإسلامُ أمرَ الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قوماً كانوا في الجاهلية لا يُذكرون، فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا، وإني لأذكر ما قسم الله لي في تقدم أهل بيتي من الرجال والنساء، فأسر به، وأحمد الله عليه، وأرجو أن يكون الله قد نفعني بدعائهم، وألاّ أكون مت على ما مات عليه نظرائي، فقد شهدتُ مواطن أنا فيها معاند للحق»!

وحينما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع حرص سهيل بن عمرو على أن يقوم بخدمة النبي، فكان يقرّب إليه الإبل التي يقوم النبي بذبحها تقرباً إلى الله، ولما دعا النبي بالحلاق ليحلق شَعره كان سهيل يحرص على التقاط ما يتناثر من شعر الرسول ويضعه على عينيه.

ويروي لنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنه رأى هذا المنظر فتعجب له، وأخذ يقارن في نفسه بين موقف سهيل هنا وقد أسلم، وموقفه يوم الحديبية، حين رفض أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» وأن يكتب: «محمد رسول الله».

يقول أبو بكر: «فحمدت الله وشكرته أن هداه للإسلام».

***

وحينما توفي الرسول عليه الصلاة والسلام، وارتجت دنيا المسلمين بسبب ذلك، وتزلزلت عقول الضعفاء من أهل مكة، وقف سهيل بن عمرو يحث على الاستمساك بعروة الله الوثقى، فيقول لقومه: «يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم، وأول من ارتد، فوالله ليمتدن هذا الدين امتداد الشمس والقمر»، ثم مضى يخطب قومه خطبة طويلة يوصيهم فيها بالثبات على الدين، والجهاد مع المؤمنين، والصبر مع الموقنين.

ثم خرج سهيل هذا بأهل بيته إلى الشام مجاهداً، وظل يجاهد مع ولده أبي جندل جنباً إلى جنب، حتى نالا الشهادة معاً في غزوة «اليرموك» ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

يا لصنع الإيمان العجيب!..

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون أسرة «سهيل» أسرة مجاهدين شهداء، فذهب سهيل إلى ربه شهيداً، وذهب ولده أبو جندل أيضاً إلى ربه شهيداً، وكان لسهيل ولد آخر اسمه عبد الله، خرج مع المشركين في غزوة بدر، ليقاتل معهم المسلمين، ولكن الله هداه للإسلام، فترك صفوف الكافرين إلى صف المؤمنين، وظل مؤمناً مجاهداً مناضلاً، حتى ذهب إلى ربه شهيداً كذلك في غزوة اليمامة:

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٤].

نضر الله بالنعيم والرضوان وجوه أولئك المناضلين الشهداء.

***

قائد أول سرية فدائية

عبد الله بن جحش

إنه أبو محمد بن عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، وأمه هي آمنة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وقد سبق إلى الإسلام قبل دخول النبي دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة.

وكانت فيه رجولة وبطولة وفدائية، فجعله الرسول أميراً على أول سرية كانت في الإسلام لمناوشة الأعداء المشركين، وذلك قبل غزوة بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهراً من قدوم النبي المدينة مهاجراً.

والسرية مجموعة من المناضلين تخرج فتغير على العدو ثم تعود، وسميت سرية لأنها تسري خفية، أي تتحرك في تكتم وتستر، وتبدأ من خمسة أشخاص وقد تبلغ أربعمائة.

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام معه ثمانية رجال، ليس فيهم أحد من الأنصار، بل كلهم من المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق، وهم سعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وأبو حذيفة بن عتبة، وخالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء، وعكاشة بن محصن، وواقد بن عبد الله، وعتبة بن غزوان.

وكان كل اثنين منهم يعتقبان بعيراً، أي يركب كل منهما مسافة ويمشي أخرى، وأعطاه الرسول كتاباً مغلقاً، وأمره ألاّ يفتحه إلاّ بعد مسيرة يومين، فإذا فتحه نفذ ما فيه، ولا يستكره أحداً من أصحابه، بل يترك لهم الخيار، فمن تابعه فعل، ومن رجع رجع.

ونفذ عبد الله أمر قائده ورائده؛ وعند المكان المناسب فتح الكتاب، فإذا

فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

وما كاد عبد الله يبلغ نهاية الكتاب حتى هتف قائلاً: سمعاً وطاعة لله ولرسوله!

وأخبر عبد الله رفاقه بما في الكتاب، ثم قال لهم: «إن رسول الله ﷺ نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معي، ومن كره ذلك فيرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ». وعاد يقول: «من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ».

واستجاب الجميع لنداء البطولة والشرف، ولم يتخلف منهم أحد. وهكذا تكون إثارة حوافز الهمة في صدور الرجال، بلا إرغام ولا احتيال، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف معادن هؤلاء الرجال، وكان يدرك إيمانهم وجرأتهم واستعدادهم للبذل والفداء، ولكنه ترك لهم الخيار في هذا الموطن، ليزدادوا ثقة ورضى، وليقدموا على عملهم الجليل بشهامة وكرامة.

واشتبك هؤلاء المجاهدون مع مجموعة من أعدائهم المجرمين كانت معهم قافلة تجارة، وكان الوقت أول ليلة من شهر رجب، وهو شهر حرام، قد تعودوا من قبل وقف القتال فيه، فتشاور المجاهدون فيما بينهم: أيهجمون على أعدائهم فوراً، أم ينتظرون حتى يفلتوا من أيديهم؟ ثم عزموا وأقدموا على الهجوم، ويروى أنهم ظنوا أن الشهر الحرام لم يبدأ، واستولوا على القافلة، وقتلوا من أشخاصها رجلاً اسمه: عمرو بن الحضرمي، وأسروا أسيرين، وعادوا بذلك إلى رسول الله ﷺ.

وانتهز الفرصة لئام اليهود ممن كانوا في حمى المدينة، فأخذوا يثيرون الفتن، ويشوهون صورة هؤلاء الفدائيين الذين ينتصفون لأنفسهم ممن بغوا عليهم، فقال اليهود وغيرهم من أعداء المسلمين إن هؤلاء المجاهدين قد قاتلوا في الشهر الحرام، وهذا لا يليق.

ولم يترك الله تبارك وتعالى عباده في حيرة أو بلبلة، بل أنزل قوله عزّ من

قائل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

يقول ابن كثير في السيرة معلقاً على هذه الآية الكريمة:

«أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله، مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين».

وحينئذ فرح أولئك المجاهدون، وفرح معهم المسلمون، بذلك التنزيل الإلهي المجيد الذي يقرر أن العدوان يدفع بالعدوان، ما دام المعتدون لم يراعوا الحرمات.

وقال عبد الله يعرِّض فيه بالفتنة التي أثارها اليهود وغيرهم حول هذه الواقعة، وفيه يقول [من الطويل]:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمةً	وأعظمُ منه لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودُكمُ عما يقولُ محمد	وكفرٌ به، والله راء وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَهُ	لئلاً يُرى لله في البيت ساجدُ
فإنّا ـ وإن عيَّرتمونا ـ بقتله	وأرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سقينا من ابن الحضرمي رماحَنا	بنخلة لما أوقد الحربَ واقدُ

وبعد أن نزلت الآية السابقة تزكي عمل هؤلاء الفدائيين، وتقرر أنه عمل مشروع، أراد هؤلاء الأبطال أن يستزيدوا من الخير، فقالوا للنبي ﷺ: أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله تعالى عقب الآية السابقة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨] فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

وكان سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان قد تخلفا في الغزوة عن زملائهما للبحث عن جمل ضل لهما، وسارع المشركون يطلبون من الرسول فك الأسيرين بفداء يدفعونه، فقال النبي عن سعد وعتبة: «لا نفديكموها حتى يقدم صاحبانا، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم».

ووصل المجاهدان سعد وعتبة، فقبل النبي الفداء، ورد إليهم الأسيرين، وقد أسلم أحدهما بعد ذلك، واسمه «الحكم بن كيسان»، وجاهد مع الرسول حتى نال الشهادة، وأما الآخر واسمه عثمان بن عبد الله فقد حرمه الله التوفيق فمات على الكفر.

***

وواصل عبد الله بن جحش الفدائي البطل جهاده مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، فشهد معه غزوة بدر، وشهد معه غزوة أحد، ومن أروع مواقف الفدائية في تاريخ الإسلام أن عبد الله قال لسعد بن أبي وقاص قبيل غزوة أحد: ألا تأتي فندعو الله؟ هلم فلندع الله، وليذكر كل واحد منّا حاجته في دعائه، وليؤمن الآخر على دعاء أخيه.

ثم انتحيا ناحية، ودعا سعد أولاً فقال: يا رب، إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده (أي غضبه) أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه.

هكذا دعا سعد، فماذا كان دعاء عبد الله؟

لقد دعا فقال: اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، فيقتلني، ثم يأخذني فيجدع (أي يقطع) أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت لي: يا عبد الله، فيما جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول، فيك يا رب وفي رسولك؛ فتقول لي: صدقت يا عبد الله.

وكذلك كان...

تحققت دعوة عبد اللّه، فقاتل ما قاتل في غزوة أحد، ثم سقط في المعركة شهيداً مجيداً، ومثل المجرمون الآثمون بجسمه، فقطعوا أنفه وأذنيه؛ وقال سعد بعد المعركة: «كانت دعوة عبد اللّه خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار، وإن أذنه وأنفه معلقان في خيط»!

ولذلك أطلق تاريخ الإسلام على عبد اللّه لقب «المجدّع» أي المقطع الأطراف، فكان هذا التقطيع شرفاً له أي شرف، ووساماً عند ربه أي وسام؛ ولذلك دفنه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه مع عمه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب في قبر واحد، رضوان الله عليهما، وكان عمر عبد اللّه حين نال الشهادة فوق الأربعين بقليل.

ولقد روي أن عبد اللّه انقطع سيفه، وهو يجاهد في معركة «أحد» فأعطاه الرسول عرجون نخلة، فصار في يده سيفاً يجاهد به، ولقد ظل هذا العرجون من وراء عبد الله أثراً كريماً يتوارثه القوم ويعتزون به، حتى اشتراه أحد المسلمين بمائتي دينار.

ولقد أراد رسول الله أن يخبر عن المصير الكريم العظيم الذي صار إليه شهداء غزوة أحد، وفيهم عبد الله هذا، فقال: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا (أي لا يجبنوا ولا يفروا عند الحرب)، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ـ ١٧١].

* * *

ذو الهجرتين الشهيد

أبو سلمة المخزومي

إذا كان الإنسان العاقل الحر محتاجاً في حياته ونضاله إلى ألوان من وسائل الحماية والصيانة والإعزاز، فإن أقوى هذه الوسائل كلها هو سلاح الإيمان، والإيمان هو ذلك الاعتقاد الديني الوطيد الراسخ، الذي لا يتطرق إليه شك أو ريب، بل يظل وثيق الصلة بالله رب العالمين، فيواصل المؤمن على الدوام كفاحه وجهاده في طريق الحق والعدل والخير، ثابت الجأش بحصانة اليقين، واثق الخطوة بفضل الإيمان. قوي الرجاء في عون الله، صادق البذل من حسه ونفسه، وماله وعمله، في سبيل ما آمن به واعتقد فيه، لأن الله جل جلاله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

ويظل المؤمن موقناً بأنه إن انتصر وفاز، فقد أعز كلمة الحق، وعاش حياة الكرامة والحرية، وإن مات مجاهداً فقد مضى إلى ربه شهيداً مردداً قول ربه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥١ـ ٥٢].

ولقد ربّى رسول الله ﷺ أتباعه بمنهج الإيمان والإحسان، والاتقان والإخلاص، والثبات على المبدأ الأمين حتى النصر المبين أو الاستشهاد المجيد.

وهذا واحد من أولئك الأتباع الأبرار الذين خلد ذكرهم على الأيام:

إنه أبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأسد بن هلال القرشي المخزومي، وأمه هي «برّة بنت عبد المطلب» عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبينه وبين الرسول أمور مشتركة فوق الأخوة في الإسلام والإيمان، منها أن كلاً منهما من قريش، وأنهما قريبان، فأبو سلمة ابن عمة النبي، وقد رضعا معاً من ثدي واحد، فقد أرضعتهما «ثُويبة» مولاة أبي لهب، وكل منهما قد أجاره أبو طالب من اعتداء المشركين عليه.

وقد أسلم أبو سلمة مبكراً، وتروي السيرة العطرة أنه أسلم مع أبي عبيدة، وعثمان بن عفان، والأرقم بن أبي الأرقم، في يوم واحد، وأبو عبيدة هو الذي قال فيه الرسول: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة هو أبو عبيدة عامر بن الجراح»، وعثمان هو ذو النورين، وهو الرجل الذي أخبر عنه الرسول بأنه «رجل تستحي منه الملائكة»، والأرقم هو صاحب الدار التي كانت أول مدرسة في الإسلام علَّم فيها الرسول أتباعه دعوة الحق ومبادئ الإيمان.

ولقد لقي أبو سلمة في أول إسلامه أذى شديداً من المشركين، حتى اضطر أن يلجأ إلى خاله أبي طالب ليحميه ويجيره على طريقة العرب، فحماه وأعلن بين الناس أنه في جواره، فذهب فريق من المشركين - من بني مخزوم - إلى أبي طلب يقولون له؛ لقد منعتَ منّا ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منّا؟

فقال أبو طالب: إنه استجار بي، وهو ابن أختي وإن أنا لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي!

ولكن جمع الشرك فجر حين كفر، فامتد إيذاؤه للمؤمنين وانتشر، وتلقى أبو سلمة منه المزيد بعد المزيد، حتى اضطر أن يهاجر بإيمانه وعقيدته مع زوجته الطاهرة «أم سلمة» - وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة - وقيل إن اسمها رملة، ولعلها كانت تسمى بالاسمين، ثم غلبت عليها كنية «أم سلمة» نسبة إلى ولدها سلمة.

هاجر الزوجان المجاهدان إلى الحبشة مرتين، وكانت الهجرة إلى الحبشة في رجب سنة خمس من البعثة، فخرجا في أول طائفة هاجرت إلى الحبشة،

وكانت تضم نحو عشرة أشخاص، ثم توالى المهاجرون، ورُوي أنهما كانا أول من هاجر إلى الحبشة(١). وظل المهاجر وزوجته هناك سنوات، لم تغيّر الهجرة ولا الغربة ولا الوحشة ولا طول المدة من إيمانهما قليلاً أو كثيراً. ولقد قصت السيدة أم سلمة قصة الهجرة إلى الحبشة في عبارة مشجية مؤثرة يمكن أن تراجع بطولها في كتب السيرة(٢).

وحينما دخل نور الإسلام أرض المدينة المنورة، وقال الرسول ﷺ لأصحابه عن المدينة وأهلها: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً»، وبدت تباشير الهجرة إليها، كان أبو سلمة أول من هاجر أيضاً، وخرجت معه زوجته الوفية لتشاركه رحلته وهجرته، ولكنها لم تستطع، وحيل بينها وبين ما تريد، فقد تكبكب المشركون البغاة حول المهاجرين العظيمين، وفرقوا بين أبي سلمة وزوجته وولده «سلمة» الصغير، مع أن هذه الأسرة المؤمنة بدأت هجرتها في وقت مبكر جداً، قبل بيعة العقبة بسنة، حينما عاد المشركون إلى إيذاء أبي سلمة عقب عودته من هجرته إلى الحبشة، ولقد همّ أبو سلمة حينئذ أن يعود إلى الحبشة مرة أخرى، ولكنه علم أن للمسلمين إخوة مثلهم مسلمين في المدينة فاتجه إليها.

أرغم المشركون أبا سلمة على هجرته، وحيداً، وأما زوجته فقد انتزعها أهلوها بالقوة وضموها إليهم، وأما ولده الطفل الصغير «سلمة» فقد اختلفوا عليه، وتجاذبوه فيما بينهم كأنه فريسة بين جمع من الوحوش، حتى خلعوا يده، واستولى عليه أعمامه، ومضى أبو سلمة وحيداً مرغماً نحو المدينة، حتى نزل في «قُباء» هناك.

وظلت أم سلمة حبيسة في مكة ما يقرب من سنة، بعيدة عن زوجها، وظل أبو سلمة وحيداً بعيداً عن زوجته وولده هذه المدة، وظل يجاهد ويناضل، لا يضطرب إيمانه ولا يتزلزل، وبعد ذلك الوقت الطويل المضني

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، والسيرة الحلبية.

(٢) يراجع مثلاً كتاب «السيرة النبوية» لابن كثير، ج ٢ ص ١٧- ٢٣، وكتاب الاكتفاء، ج ١ ص ٣٢٥.

جمع الله بين أبي سلمة وزوجته وولده: في رحاب المدينة، وفي ظلال أكرم الخلق محمد عليه الصلاة والسلام، وقد قصّت أم سلمة قصة هجرتها مع ولدها إلى المدينة بعبارة رائعة مؤثرة(١).

ولكن اجتماع الشمل لم يصرف أهل الإيمان عن مواصلة النضال والكفاح، فحينما بدت غزوة بدر سارع إليها أبو سلمة، فقاتل فيها قتال الصادقين، وجاهد جهاد الفدائيين، ورمى نفسه على الموت في سبيل الله عز وجل، ففرّ الموت منه، بمقتضى كلمة أبي بكر الصدّيق الصدوق رضي الله عنه: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

وبعد غزوة بدر جاءت الغزوة العصيبة الشديدة: غزوة أحد، فسارع إليها أبو سلمة، وواصل فيها جهاده وجلاده، مقدماً غير محجم، حتى ناله وسام إلهي من هذه الغزوة، وهو جرح عميق في عضده، ظل شهراً يتداوى منه، وهو يتحرق شوقاً إلى معاودة القتال في الميدان.

وما كاد يبلغ عضده مبلغ النقاهة حتى تطلع إلى الجهاد، وأراد الرسول ﷺ أن يرضي نزعة النضال في نفس أبي سلمة، وكان قد بلغه أن طليحة بن خالد الأسدي وأخاه سلمة قد جمعا جيشاً باغياً يعتزمان الهجوم به على الرسول والمسلمين، وذلك عند مكان يقال له «قَطَن»، وهو موضع فيه ماء لبني أسد في نجد، وذلك في سنة أربع من الهجرة، وكان أبو سلمة قد تماثل للشفاء، فاستدعاه النبي صلوات الله وسلامه عليه، وكلّفه قيادة سرية فدائية، تسارع إلى تشتيت هذا الجيش قبل هجومه، ففرح أبو سلمة بذلك فرحاً شديداً، وعقد له الرسول لواء، وأرسل معه مائة وخمسين مؤمناً مضحياً، وأوصاه بتقوى الله تعالى التي هي حصن المجاهد في سبيل الله، كما أوصاه بمن معه من المسلمين خيراً.

وقال له: «اخرج في هذه السرية، فقد استعملتك عليها، فَسِرْ حتى تأتي أرض بني أسد، فأَغِرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم» فهو يوصيه

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢ ص ٢١٥ـ ٢١٧.

بملاحظة عنصرين مهمين في مثل هذه الحركات الفدائية، وهما سرعة المبادرة، وسرعة المباغتة للعدو، وهما أمران يستلزمان الدقة والحذر والكتمان.

وسارع أبو سلمة بالتنفيذ وكأنه ذاهب إلى لقاء عروس، وتباعد مع رفاقه عن الطرق المألوفة المطروقة، وتكتم كل ما استطاع من أمره، اهتداء بهدى الرسول العظيم الذي يقول: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». وواصل المسير ليلاً ونهاراً، إلاّ قليلاً من الوقت للراحة، لأنه كان حريصاً على أن تسبق خطواته أخباره، حتى يفجأ أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين؛ وحينما بلغ أبو سلمة موطن المهاجمة قسم سريته إلى ثلاثة أقسام: فقسم منها يهاجم الأعداء، وقسم يغير على الإبل والشاء، وقسم يقوم بالحراسة والحماية وتأمين ظهور المناضلين.

ونجحت الخطة المحكمة، وظل أبو سلمة ورفاقه يهاجمون أعداءهم ويناوشونهم، وينزلون بهم ما يستطيعون من خسائر، ثم يعتصمون بمعاقلهم، ثم يعاودون في يوم تالٍ هجومهم. وظلوا هكذا قرابة شهر في ميدان التضحية والفداء.

ثم تلاقى الفريقان في معركة فاصلة، فأعز الله تعالى جنده، وأيد عباده، فنزل الرعب في صدور المشركين في بطولة أولئك الفدائيين، فتفرقوا وهربوا، وخلفوا من ورائهم قدراً كبيراً من الغنم، وعدداً من الأسرى، حتى يقول ابن كثير في السيرة النبوية عن سرية أبي سلمة هذه: ثم خرج في سرية، فغنم منها نعماً ومغنماً جيداً».

ورجع أبو سلمة ورفاقه بكل ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، الذي فرح بإقدامهم وشجاعتهم وتوفيقهم في مهمتهم أكثر مما فرح بالغنائم التي عادوا بها، فقد دللوا عملياً على أنهم يرضون المنية، ويأبون الدنية، وأنهم لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم، ما داموا يدفعون عدواناً، ويجاهدون كفراناً، ويؤيدون إيماناً: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

وعاد أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ يتحرق شوقاً إلى معاودة التضحية والفداء

من جديد، ولكن الله تعالى أراد له شيئاً آخر، فقد انتكس الجرح عند أبي سلمة، ولم يمكث إلاّ أشهراً قليلة لحق بعدها بالرفيق الأعلى، ليلقى عند ربه ثواب الشهداء الأبرار، وما عند الله خير وأبقى؛ وكانت وفاته في شهر جمادى الأولى سنة أربع للهجرة.

ولكن ذكرى أبي سلمة بقيت على مر الأيام، وبقيت سيرته العاطرة وخطواته الباهرة، فهو يضيء بأنوار بطولته شعاب المسير إلى ميادين التضحية من أجل الحرية والعزة والكرامة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

***

وبقيت أم سلمة من وراء أبي سلمة مثالاً للمرأة المسلمة الصابرة.

لقد قالت حينما توفي زوجها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله عز وجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهمّ آجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلاّ أخلف الله له خيراً منها».

ومضت الأيام، وتطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام فوجد أن أم سلمة قد كبرت في سنها، وتوحدت في حياتها، ومن حولها أولاد لها يحتاجون إلى رعاية وعناية، فأراد أن يصون بيت أبي سلمة، وأن يصون أم سلمة، وأن يلقي على هذا البيت المؤمن رداء التكريم، فتزوج أم سلمة، وبذلك أصبحت إحدى أمهات المؤمنين عليهن الرضوان، وفرحت أم سلمة بهذا الشرف.

واستقبلت الحياة في كنف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالجد والعمل، حتى قال عنها المطلب بن عبد اللّه: «دخلتْ أيِّم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروساً، وقامت من آخر الليل تطحن»!

وكانت أم سلمة بعقلها ومشورتها تسهم في دفع الجماعة المؤمنة إلى طريق النصر والفوز، ومشورتها لرسول الله ﷺ عقب عهد الحديبية مشهورة جليلة.

كما يروى أنه حينما كان الرسول في طريقه إلى فتح مكة جاءه أبو

سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد اللّه بن أمية بن المغيرة ـ وهو أخو أم سلمة ـ جاءا مهاجرين مسلمين، فأعرض عنهما الرسول، فحدّثته أم سلمة قائلة: يا رسول الله لا يكون ابن عمك وأخي أشقى الناس بك، فقد جاءا مسلمَيْن!.

فأذن لهما الرسول، وأسلما وحسن إسلامهما، ونال أخوها عبد اللّه الشهادة بعد ذلك في حصار الطائف، وكانت أم سلمة مع رسول الله ﷺ في غزوة الطائف.

وتوفيت أم سلمة رضي الله عنها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين للهجرة، وعمرها أربع وثمانون سنة، وكانت آخر أمهات المؤمنين وفاةً، وصلى عليها أبو هريرة، ودُفنت في البقيع.

رضوان الله على أهل هذه الأسرة المؤمنة التي جاهدت في الله فأحسنت الجهاد: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]

***

حينما اهتز عرش الرحمن

لموت الشهيد سعد بن معاذ

لو رجعنا بخيالنا وخواطرنا، وعبرنا الزمان والمكان، حتى بلغنا صدر الإسلام، ورأينا المدينة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، لشاهدنا الصحابي الأنصاري الجليل سعد بن معاذ يخرج من داره، لابساً ثياب الجهاد، ليشارك في غزوة الخندق، ولرأينا أمه المؤمنة الماجدة التي رباها الإسلام العظيم على البطولة وحب البطولة، تقول له حاثةً على الإسراع: «الحَقْ بُنيَّ فقد والله أخّرت»!

ويسارع سعد فيمتطي صهوة جواده، وينطلق به نحو ساحة الجهاد، وهو يردد قول القائل [من الرجز]:

لَبِّث قليلاً يدرك الهيجا حَمَلْ   ما أحسن الموت إذا حان الأجلْ

وهو يترجم بهذا عن روح التضحية والفداء في سبيل الله والحق، فهو يرى أن الموت يحلو ويعلو إذا أقبل ميعاده وكان صاحبه في موقف مشرّف يليق به، ويرفع من شأنه.

ومضى سعد ليدافع عن دين الله، وأرض عباد الله، وشاء الله ـ ولا راد لقضائه أن يصاب سعد بسهم في أحد عروقه، رماه به حيان بن العرقة قائلاً: «خذها مني وأنا ابن العرقة». فقال له سعد: «عرّق الله وجهك في النار».

وكان يهود بني قريظة قد خانوا عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، بعد أن أمّنهم على حياتهم، وأخذ منهم المواثيق المغلظة بألاّ يخونوا ولا يغدروا، ولكنهم أبوا إلاّ خطة النذالة والدناءة، فانضموا إلى المشركين أعداء الله والدين، وتعاونوا معهم على حرب المسلمين، فخيّل إلى سعد أن السهم الذي أصابه،

وأحدث فيه جرحاً عميقاً، كانت أجزاؤه ممزوجة بطغيان الشرك ولؤم اليهود من بني قريظة، ولذلك دعا سعد ربه تبارك وتعالى فقال: «اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني له، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم، من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه. اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة». يقول هذا مع أن هؤلاء كان بينهم وبين سعد نوع من التحالف في الجاهلية، ولكن الإسلام أشرق بنوره، فرفع الله به قوماً، وخفض به آخرين.

يا لروعة الأبطال! ويا لسلطان اليقين!.. هذا مؤمن لا يتقاعس عن الجهاد، بل يسارع إليه مرحباً بالموت في ميدانه، مستعذباً طعمه في حومة الوغى، ويبذل فيه ما يبذل من قتاله ونضاله، ثم يصاب بسهم يفجر فيه الدم، ويوسع في جسمه المجرح، فلا يبالي بجرحه، بل يدعو ربه أن يبقيه حيّاً إن كان هناك قتال بين الإيمان والكفران، وأن يطيل أجله حتى ينتقم من الخونة الفجرة: يهود بني قريظة، وهو لا يحرص على حياته لمنفعة أو متعة، بل يحرص عليها ليواصل جهاده وكفاحه، فإذا ما انتهى الجهاد فهو لا يريد البقاء، بل يريد الرحيل إلى مستقر الشهداء؛ ولا عجب فهو من قوم قد صهرهم الإيمان في بوتقته، وطبعهم اليقين بطابعه، حتى استخفوا بالحياة ولم يبالوا بها، بل انحصرت هممهم وعزائمهم في بلوغ ما عند الله، وما عند الله خير للأبرار، وأعطوا الله وعودهم وعهودهم، وجعلوها كالأطواق حول رقابهم، لا يتنكرون لها، بل يفون بحقها في صدق ومضاء.

وبعد إصابة سعد بالسهم عالجه الرسول ﷺ بالكي، ولكن يد سعد انتفخت بعد ذلك، وسال منه الدم، فأمر النبي بأن يعالج في خيمة «رفيدة» بمسجد الرسول، وهي امرأة من قبيلة أسلم، كانت تداوي الجرحى ممن ليس لهم من يقوم بعلاجهم.

وفيها يقول الشاعر أحمد محرم في ديوانه: «مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية» [من الوافر]:

رفيدة: علّمي الناس الحنانا   وزيدي قومك العالين شانا

خذي الجرحى إليك فأكرميهم وطوفي حولهم آناً فآنا
وإن هجع النيام فلا تنامي عن الصوت المردد حيث كانا!

وعاد سعد يدعو ربه قائلاً: «اللهم لا تخرج نفسي حتى تقرّ عيني من بني قريظة».

وانتهت غزوة الخندق بلطف من الله ورحمة، ورجعت الأحزاب الكافرة بغيظها لم تنل خيراً، وسارع النبي إلى محاصرة بني قريظة لتأديبهم والانتقام منهم، فلم يسلّموا في أول الأمر، إذ كانت عندهم مئونة ومتاع، فهتف علي بن أبي طالب على زملائه المجاهدين قائلاً: يا كتيبة الإيمان...

ثم تقدم في الطليعة وهو يقول: «والله لأذوقن ما ذاق حمزة، أو اقتحم حصنهم».

ولم يستطع الخونة اللئام إطالة المقاومة فاستسلموا، وأخذوا يرجون ويتشفعون، فطلب منهم النبي - بعد أسرهم وتكتيفهم - أن يختاروا لهم من صحابته واحداً ليحكم عليهم بما يراه، فظنوا أن سعد بن معاذ هو أصلح الناس للتخفيف عليهم، بحكم ما توهموه من تأثير التحالف الذي كان بينهم وبينه في الجاهلية، ناسين أن الإسلام يقطع ما قبله، فقالوا: اخترنا سعد بن معاذ حكماً.

وكان سعد يرقد في خيمة «رفيدة» بالمسجد، فحملوه على دابة، وجاءوا به إلى موقف التحكيم(١)، ولما رآه اللئام أخذوا يتزلفون إليه، ويرجونه التخفيف، ولما أكثروا عليه قال: «قد آنَ لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم».

واستوثق سعد من أن الفريقين سينزلان على حكمه بدون معارضة، وهنا قال: «إني أحكم فيهم بأن يقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتُسبى الذرية والنساء، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار». وهنا قال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات».

وحينما تساءل بعض الأنصار عن الحكمة في جعل سعد ديارَ بني قريظة

---

(١) يروى أنه حينما جاء قال الرسول لقومه: «قوموا إلى سيدكم»: وفي رواية: «قوموا إلى خيركم».

للمهاجرين دون الأنصار، أجابهم بهذا الجواب الحكيم العميق الدلالة، قال: «إني أحببت أن يستغنوا عنكم».

وبعد أن انتهى سيد الأوس أبو عمرو سعد بن معاذ من حكمه العادل الحازم، عاد يدعو ربه ويرجوه، فيقول: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ من أن أجاهدهم فيك ـ أي لأجلك ـ من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه، فاللهمّ فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان قد بقي من حرب قريش فأبقني حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب فافجرها (يقصِد جراحته) واجعل موتي فيها».

ولعل سعداً قد قال هذا فهماً من قول الرسول عند انصرافه من غزوة الخندق: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم، ولكنكم تغزونهم». وكذلك كان، فإن قريشاً لم تعد إلى مهاجمة المسلمين، ونزل قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وجلس سعد على فراشه يفكر. . . ولعله تذكر أنه قد أسلم على يد مصعب بن عمير أول مبعوث في الإسلام، والذي أرسله الرسول قبل الهجرة إلى المدينة، ليعلم أهل المدينة القرآن وتعاليم الدين؛ وتذكر سعد كذلك أنه ذهب عقب إسلامه إلى قومه من بني عبد الأشهل وقال لهم: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا، فأسلموا، فكان سعد من أعظم الناس بركة في الإسلام، ومن أنفعهم لقومه.

وتذكر كيف اشترك بالجهاد الصادق المخلص في غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وتذكر أنه صاحب الكلمة الرائعة التي قالها لرسول الله ﷺ حين استشار المسلمين في الإقدام على غزوة بدر:

«يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا

غداً، إنّا لصُبرٌ في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله».

ويروى أن سعداً قال للرسول أيضاً: «يا رسول الله، والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب، لئن سرتَ حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما متّبعون، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر، وأحدث إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض، واقطَع حبالَ من شئت وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت[١]، وما أمرت به من أمر فأمرُنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرْك[٢] من غمدان لنسيرن معك»!

وتذكر سعد أنه الذي قال ذات يوم محقّاً صادقاً: «ثلاث أنا فيهن رجل، وما سواها فأنا من الناس، ما سمعت منَ النبي ﷺ حديثاً إلا علمت أنه حق من الله، ولا كنت قط في صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها (أي أتمها)، ولا كنت في جنازة قط فحدثت نفسي بعدُ بغير ما تقول ويقال لها حتى أنصرف عنها»[٣].

وقد قال ابن المسيب عن هذه العبارة بعد أن رواها: «هذه الخصال ما كنت أحسبها إلاّ في نبي».

تذكر سعد كل هذا، وخُيّل إليه أن القتال قد انتهى بين المسلمين والكافرين، فعاد يسأل ربه أن يفجر الدم من جراحته ليكون شهيداً في سبيل ربه.

واستجاب الله دعاء سعد، فانفجر الدم من جرحه، وهو داخل الخيمة،

---

(١) أي كان أخذه أحب إلينا من تركه لنا.

(٢) برك الغماد: موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن: وقيل هو أقاصي هجر. وقيل هو في أقصى اليمن.

(٣) كأنه يقصد حصر تفكيره في لقاء الميت لربه، وما يسأل عنه حينئذ وما يجيب به.

وسال الدم حتى رآه من رآه، فنظروا فوجدوا سعداً قد لحق بربه، رضوان الله تعالى عليه.

ويروى أن جبريل جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له: «من هذا العبد الصالح الذي فتحت أبواب السماء لصعود روحه، واهتز العرش لقدومها»؟ يعني سعداً، ومن هنا قال الرسول: «اهتز عرش الرحمٰن لموت سعد بن معاذ». ولذلك يقول القائل [من الطويل]:

وما اهتز عرش الله من موت هالك ... سمعنا به إلاّ لسعد أبي عمرو

وقد قال العلماء إن اهتزاز العرش معناه فرح الملائكة بقدومه، لما رأوه من منزلته.

***

وكان سعد رجلاً بديناً ضخم الجثة، ولكنهم حينما حملوا جثته وجدوه خفيفاً، وقيل إن بعض المنافقين أرادوا التعريض به فقالوا: ما أخفه! فقال الرسول: إن له حملةً غيركم من الملائكة».

وسارت جنازة سعد يشيعها الناس والملائكة، ولما دفنوه جلس الرسول عند قبره، وقال: سبحان الله، مرتين، فسبّح معه المسلمون، وكبر مرتين، فكبروا معه، ثم أخبرهم أن القبر ضم سعداً ضمة، ثم فُرج عنه، ثم قال الرسول: «إن للقبر ضمة لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ».

ووقفت أم سعد ـ وهي كبشة بنت رافع الصحابية التي كانت أول من بايعت النبي من نساء الأنصار ـ وقفت على قبر ابنها وقالت: احتسبتك عند الله عز وجل يا بني. ثم ندبته ببعض صفاته المجيدة، فقال الرسول: «كل نائحة تكذب إلاّ نائحة سعد بن معاذ»، ثم قال لها: «لا تزيدي على هذا، ليرقأ دمعك، ويذهبْ حزنك، فإن ابنك يضحك الله له». وهذا كناية عن إقبال الله عليه بالثواب والنعيم.

وقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت في رثاء سعد [من الطويل]:

لقد سجمت من دمع عينيّ عبرة — وحق لعيني أن تفيض على سعدِ
قتيل ثوى في معرك فُجعت به — عيونٌ ذواري الدمع دائمةُ الوجدِ
على ملّة الرحمن، وارث جنّة — مع الشهداء، وفدُها أكرم الوفدِ
فإن تكُ قد واعدتنا وتركتنا — وأمسيتَ في غبراء مظلمة اللحدِ
فأنت الذي يا سعد أُبت بمشهد — كريم، وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك في حيّيْ قريظة بالذي — قضى الله فيهم ما قضيتَ على عمدِ
فوافق حكم الله حكمكَ فيهم — ولم تعف إذ ذُكّرت ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الأُلى — شروا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصير الصادقين إذا دُعوا — إلى الله يوماً للوجاهةِ والقصدِ

وعاد حسان يذكره ويذكر معه جماعة من الشهداء فيقول[من الطويل]:

ألا يا لقومي، هل لما حُمّ دافع؟ — وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ؟
تذكرتُ عصراً قد مضى، فتهافتت — بناتُ الحشا، وانهل مني المدامع
صبابة وجد ذكرتني إخوةً — وقتلى، مضى منهم «طفيل»(١) ورافع
و«سعد» فأضحوا في الجنان، وأوحشت — منازلهم، فالأرض منهم بلاقع
وفوْا يوم «بدر» للرسول، وفوقهم — ظلال المنايا والسيوفُ اللوامع
دعا فأجابوه بحقٍّ، وكلّهم — مطيع له في كل أمر وسامع
فما نكلوا حتى توالوا جماعة — ولا يقطع الآجال إلاّ المصارع
لأنهمُ يرجون منهُ شفاعة — إذا لم يكن إلاّ النبيّون شافع
فذلك يا خير العباد بلاؤنا — إجابتنا للّهِ والموت ناقع
لنا القدم الأولى إليك، وخلفنا — لأولنا في ملّةِ الله تابع
ونعلم أن الملك للّهِ وحده — وأن قضاء الله لا بدّ واقع

---

(١) لعله يقصد بطفيل بن النعمان الذي استشهد في غزوة الخندق (كتاب الدرر لابن عبد البر، ص ١٩٤)، ولعله يقصد برافع رافع بن زيد الذي استشهد في غزوة أُحد، أو رافع بن مالك الذي استشهد في غزوة أُحد أيضاً (كتاب التحفة اللطيفة للسخاوي، ج ٢ ص ٥٧و ٥٨).

ويروى أن الرسول أُهديت إليه حُلة من حرير ناعم، فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها ونعومتها، فقال لهم الرسول: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»!

رضوان الله تبارك وتعالى على سعد بن معاذ المجاهد الشهيد الذي اهتزّ لموته عرش الرحمٰن!.

***

أمير السرايا

زيد بن حارثة

وهذا مجاهد فدائي آخر من صدر الإسلام:

إنه أبو أُسامة زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي القرشي، وهو رابع شخص أسلم، وهناك رواية تقول: إنه أول من أسلم، ولعل إيراد أنه أول من أسلم من الموالي، فقد سبقه إلى الإسلام خديجة وأبو بكر وعلي، وقد ذاق زيد في أول أمره مرارة الأسر والاستعباد، ثم انتقل إلى خدمة رسول الله ﷺ، بعد أن وهبته له زوجته السيدة خديجة.

وقد آثر زيد البقاء مع النبي على العودة إلى أهله حرّاً طليقاً، فقد جاء أخوه جبلة بن حارثة إلى النبي وقال له: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيداً. فأجابه: هوذا، فإن انطلق معك لم أمنعه. وهنا قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك أحداً.

ويروى أن أبا زيد وعمه جاءا إلى النبي وقالا له: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا: زيد عبدك، فامنن علينا، وأحسن في فدائه.

قال النبي: وما ذاك؟ قالا: زيد بن حارثة، نريد افتداءه.

فقال النبي: أو غير ذلك. ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء.

قالا: لقد زدتنا على الإنصاف.

وأقبل زيد فسأله الرسول: أتعرف هؤلاء يا زيد؟ قال: نعم، هذا عمي، وهذا أبي.

فقال النبي: فأنا من علمتَ، وقد رأيتَ صحبتي لك، فاخترني، أو اخترهما.

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم.

فقالا لزيد: ويحك يا زيد، أتختار الرق على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟

قال: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً.

ثم أعتقه الرسول بعد ذلك.

وزيد هو الصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه في القرآن الكريم في سورة الأحزاب، ولقد آخى النبي بينه وبين عمه حمزة، وقدمه على ابن عمه جعفر بن أبي طالب في قيادة الجيش في غزوة مؤتة، ولما قال جعفر: يا رسول الله، ما كنت أرغب أن تستعمل زيداً علي، قال له: امض فإنك لا تدري أي ذلك خير.

وكان زيد يوصف بأنه «حِبُّ رسول الله» أي حبيبه، وأخبر الرسول عنه بأنه كان خليقاً بالإمارة، وأنه كان من أحب الناس إليه، وأخبر عمر بن الخطاب بأن زيداً كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من عمر، وكان الرسول يقول لزيد: «أنت أخونا ومولانا» أي أخونا في الإيمان وتابعنا وناصرنا. وقال له أيضاً: «يا زيد، أنت مولاي ومني وإليّ، وأحب الناس إليّ».

وكثير من الناس لا يشتهر عندهم زيد بن حارثة إلاّ بأنه صاحب قصة الزواج من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها وبأنه كان أحد القواد في غزوة مؤتة، مع أن زيداً كان من خيار المجاهدين الصادقين، ومن الرماة الماهرين المعدودين المذكورين، وكان شجاع القلب، ثبت الجنان في الحروب.

وهو صاحب الباع الطويل في سرايا التأديب للأعداء المشركين، والانتقام منهم، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلاّ أمّره عليهم». ولقد قاد زيد ست سرايا حققت الكثير من الأعمال الفدائية البطولية المشكورة.

وبعد انتهاء غزوة بدر بستة أشهر اختاره الرسول عليه الصلاة والسلام، وأرسله في سرية لمهاجمة قافلة للمشركين، كان فيها أبو سفيان، ومعه قدر كبير من الفضة فهاجمهم زيد عند ماء يقال له «الفردة»[١] من مياه نجد، واستولى على القافلة بعد أن فر حراسها، وأسر منهم رجلين، وعاد بذلك إلى رسول الله ﷺ.

وفي ربيع الآخر من سنة ست للهجرة أرسله في سرية لمهاجمة المشركين من بني سُليم، عند جهة تسمى «الجموم»[٢]، وقام هو ورفاقه بمهاجمة أعدائهم، وكسبوا منهم إبلاً وغنماً وأسرى. وبعد ذلك بشهر أرسله النبي أميراً لسرية مكونة من مائة وسبعين مجاهداً إلى مكان يسمى «العيص»، لأن فيه ماء يسمى «ذنّبان العيص»، وذلك ليهاجموا قافلة للمشركين قادمة من الشام إلى مكة، واستطاعوا أن يستولوا على القافلة، وفيها مقدار كبير من الفضة كان يملكه صفوان بن أمية، وأسروا بعض رجال القافلة.

وفي الشهر التالي أرسله النبي صلوات الله وسلامه عليه في سرية عددها خمسة عشر رجلاً إلى مكان يسمى «الطَّرف» على مسافة ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، فهاجموا المشركين هناك، واستولوا على عشرين جملاً، وعلى عدده من الشياه.

وفي الشهر نفسه أرسله النبي صلوات الله وسلامه عليه في سرية مكونة من خمسمائة مجاهد، إلى مكان يسمى «حِسْمى»، وهو وراء وادي القرى،

---

(١) ضبطها بعضهم بفتح الفاء وكسر الراء، وقال بعضهم إنها: القردة بكسر القاف وسكون الراء، وذكر ياقوت في معجمه أن ضبط هذا فيه نظر إلى الآن لم يتحقق فيه شيء.

(٢) الجموم: أرض لبني سليم.

لينتقموا من المشركين بسبب اعتدائهم ظلماً وبغياً على دحية بن خليفة الكلبي، وسلبهم أمواله، وحقق زيد ومن معه ذلك التأديب، واستولوا على ألف بعير، وخمسة آلاف شاة، وعدد من الأسرى؛ ولكن وفداً من هؤلاء جاء ـ وقد أسلم ـ يعلن طاعته للرسول، ويسأله العفو، ويرجوه رد المأخوذ منهم، فرده الرسول عليهم.

وفي الشهر التالي «شهر رجب سنة ست» أرسله النبي في سرية إلى «وادي القرى»، وهو واد بين الشام والمدينة، فيه قرى كثيرة، وهناك اشتبك زيد ورفاقه مع المشركين المعتدين في معركة عنيفة، ونال فيها الشهادة بعض المجاهدين، وأصيب زيد بجراح، ولكن ذلك لم يفت في عضده ولا عضد زملائه، وإن كانوا قد اضطروا إلى الانتظار بضعة أيام حتى تلتئم جراحهم.

وقد أقسم زيد عقب إصابته أنه لن يمس رأسه غسلُ جنابة حتى ينتقم من أعداء الله وأعداء أوليائه، والتأمت جراح زيد، فسارع مع رفاقه بالعودة إلى ميدان البذل والفداء، وكانوا يستترون نهاراً ويسيرون ليلاً، في دقة ويقظة ومهارة، حتى فاجئوا أعداءهم فبطشوا بهم، وأخذوا الثأر منهم.

وكان مع هؤلاء المشركين الآثمين امرأة لعينة مجرمة، اسمها «أم قرفة فاطمة بنت زمعة». وكانت هذه المرأة الشريرة تسب رسول الله ﷺ سباً فاحشاً، وزادت في إجرامها فجهزت ثلاثين مشركاً من أولادها وأولاد أولادها، وسلحتهم، وقالت لهم: اذهبوا واغزوا المدينة واقتلوا محمداً.

ووقعت هذه المجرمة في أيدي المسلمين، فقتلوها جزاء لإفسادها وردعاً لغيرها، وعاد المجاهد البطل زيد بن حارثة إلى المدينة، وذهب إلى بيت رسول الله ﷺ، ليخبره بما تمم الله على يديه وأيدي زملائه من نصر، وقرع الباب، وسمع الرسول صوت زيد، فسارع إليه من الداخل وهو في ثياب البيت، وعانقه وقبله، تكريماً له وتقديراً.

وفي شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة اختار الرسول زيداً ليكون القائد الأول لغزوة «مؤتة» ـ ومؤتة قرية من قرى البلقاء على حدود الشام ـ وجعل من بعده في القيادة جعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة

رضي الله عنهما، وقاتل زيد في معركة غير متكافئة قتال العمالقة الأبطال، حتى نال الشهادة، ملاقياً بصدره الرماح، مقبلاً غير مدبر، والراية في يده.

تقول عبارة التاريخ في تصوير استشهاده:

«قاتل زيد براية رسول الله ﷺ، حتى شاط في رماح القوم» أي حتى تمزق وتقطع، وذهب كالشيء المتفرق المحترق، بسبب كثرة الطعنات فيه، والعرب تقول: شاط لحم الذبيحة، أي تفرق وذهب مقسّماً لم يبق منه شيء.

وكان عمر زيد حينئذ خمساً وخمسين سنة، وبلغ الرسولَ ﷺ نبأ استشهاد زيد في اليوم نفسه، وتحدث عنه حينئذ وعيناه تذرفان بالدموع، وكان مما قاله: «أخذ الراية زيد بن حارثة، فقاتل بها حتى قتل شهيداً». وبتلك الشهادة من الصادق المصدوق للمجاهد الشهيد ثبتت الجنة لزيد، فقد أخبر عنه بأنه شهيد، والشهيد مقره جنات النعيم عند ربه الكريم.

وهكذا توالى تقدير الرسول لزيد، تكريماً لجهاده وإخلاصه فقد أخبر بأنه يحبه، بل من أحب الناس إليه، ووصفه بأنه أخوه، واستخلفه على المدينة في بعض غزواته، لأن زيداً شهد غزوة بدر، وما بعدها من الغزوات حتى استشهد، إلاّ غزوة المريسيع، لأن النبي استخلفه فيها على المدينة، ودافع عنه بعد موته، ووصفه بأنه كان الجدير بالقيادة. وهكذا لا يضيع فضل ولا معروف عند الرسول النبي الذي يقدر الأعمال ويكرم الأبطال.

روى السيوطي في «الجامع الصغير» أن الرسول قال: «خير أمراء السرايا زيد بن حارثة، أقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية». وذكر السيوطي ما يفيد أن هذا الحديث صحيح، وأن الحاكم رواه عن جبير بن مطعم(١).

ويروى أن النبي ﷺ حينما تحدث عن استشهاد زيد وزميله قال: «اللهم اغفر لزيد (وكررها ثلاث مرات) ثم قال: اللهم اغفر لجعفر، اللهم اغفر لعبد الله بن رواحة.

---

(١) الجامع الصغير، ج ٣ ص ١٠ طبعة الحلبي.

وذرفت عيناه بالدموع. ثم استقبل أسرة زيد، فلما رأى بنتاً له تبكي، بكى لبكائها، فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله، ما هذا؟

فقال صلوات الله وسلامه عليه: «هذا شوق الحبيب إلى الحبيب، إنما هي عبرات الصديق يفقد صديقه»!!

ولذلك حق لحسان بن ثابت شاعر الرسول أن يقول في رثائه للشهيد زيد [من الخفيف]:

عينُ جودي بدمعك المنزور — واذكري في الرخاء أهلَ القبورِ
واذكري «مؤتة» وما كان فيها — يوم راحوا في وقعة التغوير[1]
حين راحوا وغادروا ثَمَّ زيداً — نعم مأوى الضريك[2] والمأسورِ
حِبّ خير الأنام طرّاً جميعاً — سيد الناس، حبه في الصدورِ
ذاكُمُ «أحمدُ» الذي لا سواه — ذاك حزني له معاً وسروري
إن زيداً قد كان منّا بأمر — ليس أمرَ المكذِّب المغرور

رضوان الله على المجاهد الفدائي أمير السرايا: زيد بن حارثة!.

***

(١) التغوير: التعمق في الشيء حتى الوصول إلى قعره، والتغوير أيضاً الطرد والهزيمة، وكأنه يريد أنها واسعة شديدة.

(٢) الضريك: الفقير السيِّئ الحال.

الفدائي الطامع في الشهادة

عبد الله بن رواحة

هذا واحد من الرجال الأبطال، يتألق اسمه وذكره، ويسمو مكانه وقدره، بما بذل وضحى، وقدّم وأهدى. إنه الصحابي الجليل أبو محمد: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي المدني، زضي الله عنه، الذي كان يجمع بين الإيمان والبطولة، والتعبد والجهاد، والتقوى وصدق النضال.

وهو الذي شهد بيعة العقبة، وكان أحد نقبائها، وشهد غزوة بدر مع رسول الله ﷺ، كما شهد ما بعدها من معارك وغزوات، حتى مات شهيداً مجاهداً في «غزوة مؤتة»[1] التي كانت سنه ثمان من الهجرة. وكان ابن رواحة يعرف القراءة والكتابة بين قلة من الناس يعرفونهما، ولذلك كانت الكتابة والقراءة من الميزات الملحوظة التي يتحلى بها أصحابها.

ولقد آخى الرسول عليه الصلاة والسلام ـ عقب الهجرة ـ بين عبد الله بن رواحة والبطل الإسلامي المظفر: المقداد بن عمرو، والأبطال ترافق الأبطال، والرجال تُقرن بالرجال، والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وشبيه الشيء منجذب إليه، كما قال الأولون.

وكان في عبد الله طاعة مثالية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه. ومما يروى أن عبد الله أقبل على المسجد النبوي في المدينة، والرسول يتحدث بداخله، فسمع ابن رواحة رسولَ الله يقول لمن في المسجد: اجلسوا. وكان ابن رواحة ما زال خارج المسجد يسعى نحوه، ولكنه سارع بالجلوس، وظل

---

(١) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام.

مكانه جالساً يسمع ما يقوله الرسول، ويثبته في فؤاده ليعمل به، وينزل على مقتضاه، حتى انتهى رسول الله من كلامه، ولما علم الرسول بذلك قال لعبد الله: «زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله».

وحق لعبد الله بن رواحة أن يسارع إلى طاعة النبي هذه المسارعة، فقد اختلط بلحمه ودمه، وقلبه وعقله، أن رسول الله هو السراج المنير، وهو خير قدوة وأفضل أسوة، ولذلك قال فيه مما قاله فيه [من الطويل]:

وفينا رسولُ الله نتلو كتابه ... إذا انشق معروف من النور ساطعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ
أتى بالهدى بعد العمى، فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقعُ

وحق لعبد الله بن رواحة أن يطيع الرسول هذه الطاعة، فقد كان يعلم حق العلم أن الرسول مبلغ عن ربه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ـ ٤]، وأن استحضار جلال الله في الفؤاد هو توطيد لدعائم الإيمان، ولذلك يروى أن عبد الله قال لصاحب له: تعال بنا حتى نؤمن ساعة.

فقال له صاحبه وهو يحاوره: أوَلسنا بمؤمنين؟.

فأجاب عبد الله قائلاً: بلى، ولكنا نذكر الله فنزداد إيماناً.

ويروى أن أبا الدرداء قال: أعوذ بالله من يوم يأتي لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، كان إذا لقيني قال: يا عويمر، اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ما شاء الله. ثم يقول: يا عويمر، هذا هو الإيمان.

ولعله كان يتذكر حينئذ قول ربه سبحانه﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

ويروى أن الأنصار حينما بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفساً، وفي هذه الليلة قال ابن رواحة: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة.

قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل(١)، فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

ولقد مرّ أعرابي والرسول يقرأ هذه الآية، فقال الأعرابي: كلام من؟ قال النبي: كلام الله عز وجل، فقال الأعرابي: والله بيع مربح، لا نقيله ولا نستقيله. ثم خرج إلى الغزو فاستشهد.

***

وكان عبد الله بن رواحة أحد الشعراء المحسنين الذين يجيدون ردّ الأذى بشعرهم عن الرسول والإسلام والمسلمين، حتى قال الزبير بن العوام: «ما رأيت أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة». وهذا لون من الجهاد يزكيه الإسلام، وينوه بشأنه رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي يقول: «المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه».

وابن رواحة هو صاحب النشيد الإسلامي الجهادي البطولي، الحاث على الإقدام والثبات، وإباء الذل والهوان، وقد صاغه للمؤمنين يرددونه، وهم يستعدون لغزوة الخندق، وفيه يقول [من الرجز]:

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ولقد كان لشعر ابن رواحة وقع السهام في نفوس المشركين، ومن شعره يخاطب هؤلاء مسفهاً شركهم، ومعتزاً بتوحيده، قوله [من الطويل]:

عصيتم رسول الله، أفّ لدينكم ... وأمركم السيِّىء الذي كان غاوياً

---

(١) لا نقيل: لا نفسخ البيع. ولا نستقيل: لا نطلب الفسخ.

فإني وإن عنفتموني لقائل: فدًى لرسولِ اللهِ أهلي وماليا
أطعناهُ لم نعدلهُ فينا بغيره شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

ولقد وصف رسول الله ﷺ بأبيات قال فيها:

يا هاشم الخير، إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غِيَرُ
إني تفرّست فيك الخير أعرفه فراسةً خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول، فمن يُحرم نوافله والبشر منه فقد أودى به القدرُ
ولو سألت أو استنصرت بعضهمُ في جل أمرك ما ردوا ولا نصروا
فثبّت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى، ونصراً كالذي نصروا

ولما سمع الرسول هذا الشعر منه قال له: «وإياك فثبّت القضاء» كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقة الرسول وهو يطوف حول الكعبة ويقول [من الرجز]:

باسم الذي لا دينَ إلا دينه باسم الذي محمدٌ رسوله

ثم يرفع صوته ويقول [من الرجز]:

خلُّوا بني الكفّار عن سبيله خلُّوا فكلُّ الخير في رسوله
خلوا بني الكفّار عن سبيله قد نزّل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله نحن قتلناكم على تأويله
يا رب إني مؤمن بقيله أعرف حقّ الله في قبوله
قد نزّل الرحمن في تنزيله في صُحُفٍ تُتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله كما ضربنا على تنزيله!
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله!

ويروى في تاريخ عبد الله بن رواحة أنه خرج إلى الجهاد في إحدى المرات، ومعه غلام له، هو زيد بن أرقم، فأخذ ابن رواحة يخاطب ناقته بشعر يحدثها فيه بأنها مشكورة مأجورة لو حملته إلى موطن الشهادة، فيقول [من الوافر]:

إذا أدنيتني، وحملت رحلي مسيرة أربع بعد الحساء(١)

---

(١) الحساء: مكان يجمع فيه الماء.

فشأنك أنعم، وخلاك ذم . ولا أرجع إلى أهلي ورائي[١]
وجاء المسلمونَ وغادروني بأرض الشام مشتهى الثواء[٢]
وردّك كل ذي نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هناك لا أبالي طلع بعل[٣] ولا نخل أسافيها ورائي!

فبكى الغلام حينما سمع هذا الشعر، فزجره ابن رواحة، وقال له: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شعبتي الرحل؟!.

***

ولقد عوّد الرسولُ صلوات الله وسلامه عليه ابنَ رواحة الحرص على الجهاد منذ وقت مبكر، وتفضيله ـ عند وجوبه ـ على أي طاعة أو عبادة، ومن شواهد ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام جعله قائداً لإحدى السرايا البطولية، ووافق ذلك يوم جمعة، فأمر ابن رواحة جنوده بالمسير، وأخبرهم أنه سيلحق بهم بعد قليل.

ثم قال في نفسه: أتخلف عنهم قليلاً، وأصلي الجمعة مع رسول الله ثم ألحقهم، فلما صلى الجمعة رآه النبي، فقال له: ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟.

فقال عبد الله: أردتُ أن أصلي الجمعة معك ثم ألحقهم. فقال له النبي: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم». ثم أضاف قوله: «الغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

ولذلك نرى ابن رواحة بعد ذلك يضرب القدوة الطيبة في غزوة «مؤتة» التي جعل فيها النبي زيدَ بن حارثة قائداً للجيش، وقال: «فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب[٤] على الناس، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على

---

(١) يريد أنه يريحها، ولا يكلفها عناء السفر بعد ذلك.

(٢) لا يريد رجوعاً.

(٣) البعل من النبات: ما يشرب بعروقه من الأرض.

(٤) مر علينا حديث زيد بن حارثة، وهذا حديث ابن رواحة، ويمكن أن تراجع حديث جعفر بن أبي طالب في الجزء الأول من كتابي «بطولات إسلامية وعربية».

الناس، فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم».

ولما جاء الرسول ليودع القادة والجيش بكى عبد الله بن رواحة، فقيل له: ما يبكيك؟ فأجاب: «أما والله ما بي حبّ الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار، وهي: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١] فلم أدر كيف لي بالصدور بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين.

وترجم ابن رواحة عن نزعته الفدائية فقال في هذا الموقف [من البسيط]:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربة ذات فرغ[1] تقذف الزبدا
أو طعنةً بيدَيْ حرّان[2] مجهزةً ... بحبرة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جسدي: ... يا أرشد الله من غازٍ، وقد رشدا

ومضى الجيش في طريقه...

ولما عرف أفراده أن عدد أعدائهم أضعاف أضعاف عددهم أخذوا يتشاورون، وقالوا فيما قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

فانبرى عبد الله بن رواحة مسرعاً، كأنه ليث ثائر هائج، وأخذ يدعو إلى الإقدام والتضحية والفداء، ويقول: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلاّ بهذا الذين أكرمناالله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة[3].

---

(١) الفرغ: السعة.

(٢) الحران: الشديد.

(٣) هناك كلمة تشبه هذه الكلمة، قالها مالك بن سنان في غزوة أُحد، وهي: «نحن والله بين إحدى الحسنيين أما أن يظفرنا الله بهم، فلا يبقى منهم إلا الشديد، والأخرى: يرزقنا الشهادة؛ والله ما أبالي أيهما كان، إن كلا لفيه الخير».

فقال المؤمنون: قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة.

ومضى الجيش إلى غايته، وبدأت المعركة بين القلة القليلة المؤمنة، والكثرة الكثيرة الباغية وذاق الشهادة زيد وجعفر، ثم تقدم عبد الله بن رواحة فأخذ الراية، وجعل يتردد بعض التردد، ولكنه سرعان ما أقام نفسه على الصراط، ودفع بها إلى الأمام، وهو يقول [من الزجر]:

أقسمتُ يا نَفْسُ لتنزلنّه لتنزلنّ، أو لَتُكْرَهَنّهْ
إن أجلب الناسُ وشدوا الرنّهْ ما لي أراك تكرهين الجنّهْ
قد طالما قد كنت مطمئنّهْ هل أنت إلاّ نطفة في شَنَّهْ؟

ثم يقول لها [من الرجز]:

يا نفسُ، إلاّ تُقتَلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ إن تفعلي فعلهما هُديتِ

وهو يقصد رفيقيه، وهما زيد وجعفر.

وأقبل ابن رواحة على القتال بشجاعة وثبات، وحدثت فترة في المعركة، فجاءه شخص بعرق لحم، وقال له: شُدَّ بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه ابن رواحة، وقضم منه قضمة، ولكنه سمع حركة قتال قد جدَّت، فقال مستنكراً: وأنت في الدنيا؟!.

ثم ألقاها من يده، وسارع إلى الميدان فقاتل حتى قُتل... مضى على طريق صاحبيه، ونال ما نالاه من فضل الله عليهما بنعمة الشهادة، فانتقل معهما إلى حياة أعز وأبقى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

وتحقق دعاء الرسول لابن رواحة، فقد دعا له فقال: «ثبتك الله» وقد ثبته الله حتى مات شهيداً مجيداً، تحقق فيه قول ربه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وإذا كان ابن رواحة لم يعقب ولم يكن له ولد، فإن ذكره لم ينقطع، وقدره لم يضع، بل تألقت على الأيام سيرته، وظل تاريخه علماً ومشعلاً على

الطريق، ينير الشعاب والدروب للذين يريدون أن يعيشوا أحراراً، أو يموتوا كراماً. . . فرضوان الله على المجاهد الذي طمع في الشهادة فنالها، ففاز بالرضى والرضوان.

وقد رثا حسان بن ثابت قوّاد «مؤتة» الثلاثة فقال [من الطويل]:

رأيت خيار المسلمين تواردوا ... شعوباً وخلفاً بعدهم يتأخرُ
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة، منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميع، وأسباب المنية تخطرُ
غداة غدوا بالمؤمنين، يقودُهم ... إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهرُ
وما زال في الإسلام من آل هاشم ... دعائمُ عزّ لا يزلن ومفخرُ[1]

***

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦١. وشرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٥١٢ .طبعة بيروت.

الشهيد والد الشهداء

ثابت بن قيس

قد يخيل لبعض قصار النظر أو ضعاف الفكر، أن رجل الجهاد الفدائي المؤمن رجل لا يحسن غير السلاح يتدربّ عليه، ويتقن استعماله، ثم يمضي به إلى المعركة، ليضرب ذات اليمين وذات الشمال، ليذيق أعداءه الموت الزؤام؛ وأنه ليس من الضرورة للفدائي سوى هذا الاقتدار الفني الحربي في ميدان التضحية والفداء.

ولكن إذا جاز مثل هذا في عرف هؤلاء أو أولئك من الناس، فإنه لا يصح مثله في هدى الإسلام، ولا يُعرف مثله في تاريخ السلف الصالح من المسلمين، فالفدائي من هؤلاء الأكرمين كان جنديّاً، وكان في الوقت نفسه عالماً عاملاً تقيّاً، وكان في الوقت نفسه إنساناً طهوراً زكيّاً.

وهذا واحد منهم يزينه دينه وعلمه وفهمه وعمله وأخلاقه، وهو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري، الذي كان يجمع بين صفات أربع، كل صفة منها حميدة مجيدة: فهو أولاً صاحب بلاغة في البيان والخطابة؛ وهو ثانياً صاحب توقير رائع لمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وهو ثالثاً صاحب جهاد وتضحية حتى الشهادة، بلا تردد أو فرار؛ وهو رابعاً صاحب روح طاهرة ونفس تقيّة، مما يجعله أهلاً للكرامة تبدو منه في حياته وبعد مماته، والله ذو الفضل العظيم.

لقد كان يقال لثابت بن قيس: خطيب الأنصار، وخطيب رسول الله ﷺ، وكان جهير الصوت، وهو الذي وقف يخطب، وهو يستقبل النبي ﷺ في المدينة حينما هاجر إليها، فأحسن المقال وأحسن الاستقبال، وهو صاحب

العبارة النبيلة الجليلة التي قالها يومئذ: «يا رسول الله، أنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا».

ولما أخبرهم الرسول بأن لهم في مقابل ذلك نعيم الجنة، فرح ثابت وقومه، وقالوا: رضينا رضينا.

وحينما جاء وفد تميم للقاء النبي - في عام الوفود سنة تسع من الهجرة - قال الوفد للنبي: جئنا نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. وأذن الرسول، وتكلم خطيبهم، فلما انتهى قال النبي ﷺ لثابت: يا ثابت، قم فأجبه، فقام وأجاب، وبلغ مبلغه من الصواب.

وكان مما قاله في صدر خطبته: «الحمد لله الذي السموات والأرض من خلقه، قضى فيهم أمره، ووسع كرسيّه علمه، ولم يكُ شيء قط إلاّ من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة، واصطفى من خير خلقه رسولاً، هو أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، وهم أكرم الناس أحساباً، وخيرهم فعالاً، ثم كنّا نحن الأنصار أول الخلق إجابة، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله».

ثم قال: «نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كف جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم».

وهذا الصحابي الخطيب البليغ هو نفسه الذي نراه بعد ذلك يكاد يذوب خوفاً من ربه تبارك وتعالى، وإجلالاً لمقام رسول الله ﷺ، فإنه لما نزل قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]سمع ثابت ذلك وهو في الطريق، فجلس يبكي ويقول: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار.

ومرّ عليه صحابي فسأله: ما يبكيك يا ثابت؟ فأجابه: تبكيني هذه الآية (وتلاها). ثم قال: أخاف أن تكون قد نزلت فيّ وأنا رجل جهير الصوت.

ثم ذهب ثابت إلى بيته، ودخل غرفته، وأمر زوجته ـ جميلة بنت عبد الله ـ بأن تغلق عليه الباب بمغلاقه، وأن تشد إغلاقه بمسمار تدقه فيه، ولا تفتحه إلاّ إذا جاءه أحد من عند رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وعلم الرسول بأمر ثابت حين تفقده وسأل عنه، فبعث إليه من يقول له: «أنك لست من أهل النار. ولكنك من أهل الجنه». فخرج ثابت من محبسه، وجاء إلى رسول الله مستبشراً، فسأله الرسول عن أمره، فأجاب بقوله: يا رسول الله، لقد نزلت هذه الآية، وإني رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون قد حبط عملي، فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «أما ترضى يا ثابت أن تعيش حميداً، وتموت شهيداً، وتدخل الجنة»؟.

فطار ثابت فرحاً بهذا الخبر السعيد، وقال: رضيتُ ببشرى رسول الله. وكان الصحابة بعد ذلك ينظرون إلى ثابت ويقولون: هذا رجل من أهل الجنة يمشي بيننا. وحفظ ثابت تبعات هذه البشرى، بإخلاصه وعبادته، ونضاله وكفاحه.

وكان ثابت صريحاً في حديثه مع الرسول إلى أبعد حدود الصراحة، وكان ينقد نفسه بوضوح فيما يظن أنه عيب أو خطأ. ومن شواهد ذلك أنه جاء إلى النبي وقال له: يا رسول الله، إني أخشى أن أكون قد هلكت: ينهاناالله أن نحبَّ أن نُحمذ بما لا نفعل، وينهانا عن الخيلاء، وإني امرؤ أحب الجمال، وينهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل رفيع الصوت.

فطمأنه الرسول وأفهمه أن محبة الحمد بالفعل الكريم غير حب الحمد عن طريق الادعاء، وأن الخيلاء والزهو غير محبة الشيء النظيف والثوب الجميل وما أشبه ذلك، وأن رفعه لصوته كان لضرورة، ولم يقصد به إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أعاد النبي له تبشيره بالجنة.

وإذا كان ثابت بن قيس قد شهد غزوة أحد وما بعدها من غزوات وناضل فيها نضال الرجال، وثبت في ميادينها ثبات الأبطال، فإنه أراد أن يحقق قول الرسول له: «وتموت شهيداً» بعد أن حقق قوله: «تعيش حميداً» فحينما رأى ثابت تقهقر بعض المسلمين المقاتلين في معركة «اليمامة» غضب من ذلك،

وتألم له، ولبس كفنه بعد أن وضع الحنوط على جسمه، وهو الطِّيب الذي يوضع في جسم الميت، ويقال: تحنط الرجل، إذا استعمل الحنوط استعداداً وتأهباً للموت، وكان هذا من عادة جماعة من الصحابة في الغزوات، رضوان الله عليهم.

وحمل ثابت سلاحه، وأقبل إلى الميدان عازماً على الثبات والجهاد حتى والاستشهاد، وقال:

«اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعني الكافرين) أف لهؤلاء وما يعبدون، اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني المتقهقرين) أف لهؤلاء وما يصنعون، يا معشر الأنصار، خلوا سنني (افسحوا طريقي)، لعلّي أصليَ بحرها ساعة. بئسما عودتم أقرانكم، وبئسما عودتم أنفسكم، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ».

ودخل حومة الوغى، وظل يقاتل ويناضل، حتى سقط شهيداً عليه رضوان الله، وكان ذلك سنة إحدى عشرة للهجرة.

ويروى أن ثابت بن قيس انضم إليه سالم مولى رسول الله ﷺ، وكان يحمل راية المهاجرين، وحفرا لنفسيهما حفرة تبلغ وسط جسميهما، ونزلا فيها، وملآها بالرمال حتى غطّت وسط كل منهما، وأخذا يضربان منها ويرميان، وهما ثابتان لا ينتقلان، وفعلا الأفاعيل في ضرب أعداء الله، حتى سقطا شهيدين في سبيل الله.

***

وأراد الله جل جلاله أن تظهر كرامة لثابت بعد موته، فقد رأى بعضُ الصحابة ثابتاً في النوم عقب استشهاده، فقال له ثابت: إني قتلت بالأمس فمر بي رجل فأخذ درعي. وأرشده ثابت إلى مكان الدرع بالتحديد، وكلفه بأن يذهب إلى خالد بن الوليد قائد الجيش رضي الله عنه، ويطلب إليه استحضار الدرع، وبأن يذهب إلى أبي بكر الخليفة رضي الله عنه، ويطلب إليه أن يقضي دَيْنه الذي حدده، وأن يعتق عبده الذي تركه.

واستجاب خالد فبحث عن الدرع فوجدها حيث وصف ثابت، وأنفذ أبو بكر وصية ثابت تكريماً له، ولذلك قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أوصى بها صاحبها بعد موته وأُجيزت، إلاّ ثابت بن قيس.

وهكذا يكون تكريم الله عزت قدرته، للأخيار المجاهدين المناضلين من عباده. ولا غرو فقد ثبت في صحيح الحديث أن النبي ﷺ قال: «نعم الرجل ثابت بن قيس».

وإذا كانت الأرض تنبت الزرع الطيب، وكان الأصل النبيل منبعاً للفرع الجليل، فإن ثابتاً قد ترك من خلفه ثلاثة أبناء هم: محمد ويحيى وعبدالله، وقد ساروا على طريق أبيهم في الجهاد والبذل والفداء، فماتوا جميعاً شهداء في موقعة «الحرة»، فوصفهم التاريخ بأنهم شهداء أبناء شهداء: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٤].

***

الشهيد الحي

طلحة بن عبيد الله

حين تجتاز الأمة مرحلة خطيرة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال، تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد، ومن بين هذه الألوان: القدوة الطيبة الرائعة، التي تجذب ببهائها، وتهدي بسناها، وما أحوجنا إلى أن نقلب صفحات تاريخنا المؤمن، نتلمس منه مواطن القدوة، ومشاهد الأسوة، لعل الله جلّ جلاله يبعث الهامد، ويحرك الجامد، ويأخذ بالنواصي إلى منهج الأوائل البطولي المؤمن، ولن يصلح أمر هذه الأمة في حاضرها إلاّ بما صلح به في أولها: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢]وهو سبحانه على كل شيء قدير.

وهذا مثل من السابقين يحتذى به ويرجع إليه:

إنه الصحابي الجليل أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان رضي الله عنه، الشهيد الحي الذي سبق في التاريخ، وشهد عصر النبوة الطاهر العاطر، وخلف من ورائه الذكر الحميد المأثور.

إنه أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام في أوله، فكان أحد أفراد الطليعة المباركة التي كان الواحد منها يوزن بألف، ومنذ عمر الإيمان قلبه ظل وفيّاً لعهده، ماضياً في طريقه، لا يغدر ولا يخون، ولا ينحرف ولا يمين، حتى لقي ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

إنه أحد العشرة المبشّرين بالجنة على لسان النبوة الصدوق الطهور، وأحد الستة أصحاب الشورى، الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، كما أخبرنا عمر الفاروق رضوان الله عليه.

ولقد أسلم طلحة على يد أبي بكر، وهو ابن عمه، وأبو بكر هو الرجل المبارك السباق إلى الخيرات عليه رضوان ربه، ولما ذهب طلحة مع أبي بكر، ونطق بالشهادتين أمام الرسول عليه الصلاة والسلام، وخرجا من عنده، هاجمهما نوفل بن خويلد مع بعض أتباعه، وكان طاغية متجبراً، وله عصبيته القوية بين أهله، حتى كان يقال له: «أسد قريش»، وربطهما في حبل واحد، تعذيباً لهما من أجل إسلامهما.

ولذلك كان أبو بكر وطلحة يقال لهما: «القينان». وأكرمْ بها من تسمية خلدت ذكرى احتمالهما العذاب والابتلاء في سبيل الله عز وجل.

ووقف طلحة بعد إسلامه إلى جوار رسول الله ﷺ، يهتدي بهديه، ويأتمر بأمره، ويستجيب لرغبته فكأنه الآلة الدائرة المسخرة المهيّأة المطوّعة التي لا تتأبى على أي عمل من أعمال الطاعة أو الخير.

وجاء وقت الهجرة، فنال طلحة شرف الهجرة من مكة إلى المدينة إيماناً واحتساباً، فكان من المهاجرين السابقين الأولين، وآخى النبي بمكة قبل الهجرة بين طلحة والزبير بن العوام، ثم بالمدينة بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، كما يقول السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة»، ويذكر النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» أن الرسول آخى بين طلحة وسعد بن أبي وقاص، رضوان الله على الجميع.

ولمح رسول الله عليه الصلاة والسلام مخايل الإخلاص والصدق واليقين في طلحة، فأخذ يختاره لجلائل المهمات، وعظائم التبعات، فكلفه مثلاً مع سعيد بن زيد بأن يتابعا تحركات قافلة المشركين قبيل غزوة بدر، فقاما بالمهمة خير قيام، بلا غش ولا تزيد ولا خداع، وحينما بدأت غزوة بدر كان طلحة غائباً في أعمال الخير التي تعاون على تحقيق المنعة والقوة للمسلمين، فلم يستطع شهود الغزوة، ولكن الرسول قدر إخلاصه ووفاءه، فجعله كمن شهدها، وأعطاه منها سهمه، وأخبره بأن له مثل ثواب أهلها.

يا لها من مكانة سامية، حين يبلغ المؤمن المخلص في نضاله وإخلاصه ما يجعله حاضراً وهو غائب.

ولقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه أن أحد المجاهدين معه قال له بعد إحدى المعارك: وددتُ أن أخي فلاناً كان شاهدنا، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال له الإمام: أهوَى أخيك معنا؟ قال: نعم. قال الإمام: فقد شهدنا.

وليس المهم هنا هو أن يأخذ طلحة مالاً أو يجوز كسباً، وإنما المهم هو ما يدل عليه هذا التقدير النبوي من تشرف وتكريم، فقد كان طلحة رجلاً تاجراً، وكان يكسب الكثير الطيب، وكان يسهم بالجليل العظيم من مكاسبه في نصرة الإسلام، ومعاونة المجاهدين، وتأييد معركة الحق والإيمان ضد الباطل والكفران.

ثم شهد طلحة غزوة أُحد وما بعدها من الغزوات والمشاهد، وفي غزوة أحد هذه ظهرت دلائل مؤكدة لإيمان طلحة ويقينه، وصدقه في الجهاد، ورغبته في الاستشهاد، وكان أحد أربعة وصفتهم السيرة العاطرة بأنهم أبلوا بلاء حسناً في غزوة أحد، وهم: علي بن أبي طالب سيف الله الغالب، وحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، وأبو دجانة صاحب عصابة الموت، وطلحة بن عبيد الله الشهيد الحي.

وقاتل طلحة في أول المعركة ما قاتل، وحينما أقبلت ساعة الهول، وتحوّل الانتصار إلى انكسار، ثبت طلحة إلى جوار الرسول مع القلة التي ثبتت، لم يفرّ ولم يتراجع، بل ظل يقاوم ويدافع، ويحرص مع قلة الصادقين الصابرين على حراسة النبي، وصد كل عدوان عنه.

وحينما سقط النبي ﷺ في إحدى الحفر، والسيوف والرماح والنبال والسهام تتجاوب وتتراشق عن يمين وشمال، سارع طلحة فاحتضن رسول الله، وظل محتضناً له حتى خرج الرسول من الحفرة، وعاد إلى وقفته الثابتة المناضلة، وتعددت الإصابات في جسم النبي الكريم، برغم الجهد الكبير الذي بذله مثل طلحة بن عبيد الله، وكان على الرسول درعان، وبه تعب، فأراد أن يعتلي صخرة، ليشرف من فوقها على سير المعركة، ولكنه لم يستطع أن يعلوها، فانحنى له طلحة، وصعد الرسول فوق ظهره، ثم ارتفع به طلحة شيئاً فشيئاً، حتى بلغ الصخرة، واستوى عليها، وظل طلحة يناضل ويقاوم.

وحينما رأى طلحة ضربة أثيمة موجهة إلى رسول الله ﷺ، سارع فَوَقَى الرسول منها بيده، فأصابها الشلل، وقطعت إحدى أصابعها، وهنا قال سيد الخلق الناطق بالصدق: «أوجب طلحة» أي فعل ما يوجب له الجنة عند ربِّه عز وجل.

وتكاثرت الجراح في جسم طلحة يومئذ، حتى أصابه بضع وسبعون؛ ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، حتى قال عن نفسه: «عقرت يوم أحد في جميع جسدي، لم يبقَ مني عضو إلاّ عقرت فيه». وشلت إصبعه وأجهده نزيف الدم من جسمه، وحينما دنا أبو بكر وأبو عبيدة من الرسول ليعالجا ما أصاب وجهه الكريم من جراح، أشار لهما إلى طلحة، وقال لهما: «عليكما بصاحبكم، دونكما أخاكم»!.

وفي أعقاب المعركة أصيب طلحة بإغماء من جراء إصابته الشديدة، فصب أبو بكر الماء على وجهه، فاستفاق، وما كاد يسترد وعيه حتى قال أول ما قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فأجابه أبو بكر: إنه بخير. ففرح طلحة وقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جلل (أي قليلة).

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله، وإخلاص الجهاد في سبيل الله، ولذلك كان أبو بكر رضي الله عنه إذا جاء ذكر ليوم أحد يقول: «ذلك يوم كان كله لطلحة»!.

***

ثم يقبل التكريم النبوي العظيم لهذا الحرص النبيل من طلحة على صدق الجهاد، وهذا التعرض البطولي لمواطن الاستشهاد، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

ولقد جرى العرف بيننا على أن نطلق كلمة «الشهيد الحي» على من تعرض لموقف التضحية بالنفس في موطن من مواطن الجهاد والاستشهاد، ولكن الأقدار أبقت حياته برغم تمنيه الشهادة، وتطلبه ما عند الله عز وجل،

ولقد يخيل لبعضنا أن هذا تعبير طريف مستحدث، ولكنه كما يبدو لنا الآن مقتبس من ضوء النبوة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وهذه هي الصدِّيقة بنت الصدِّيق عائشة بنت أبي بكر رضوان الله عليهما تروي عن رسول الله أنه قال: «طلحة ممن قضى نحبه وما بدلوا تبديلاً». أي من الشهداء، ولأن النحب هو النذر، وقضى فلان نحبه، أي أدّى نذره، وحقق وعده.

وتلك إشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى قول الله جل جلاله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ولنذكر جيداً أن هذه الآية جاءت عقب آية سابقة لها تقول: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢].

وروت السنّة النبوية أن أعرابياً سأل رسول الله عمن قضى نحبه، وبعد قليل من السؤال أقبل طلحة: فقال النبي: «أين السائل عمن قضى نحبه»؟.

قال الأعرابي: أنا يا رسول الله.

فأشار النبي إلى طلحة وقال للسائل: «هذا ممن قضى نحبه».

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: «طلحة والزبير جاراي في الجنة». وأكرمْ بها من بشرى، وأنعمْ به من جوار ينال به طلحة نعيم الخلود وشرف الأبد، حين يجاورفي الفردوس الأعلى إمام الأنبياء وسيد المرسلين، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

***

وحينما تهيأ المسلمون لغزوة «تبوك» في وقت عسرة وشدة وجدب وقحط، ظهر اللؤم اليهودي الخسيس، حيث اجتمع نفر من المنافقين في دار«سويلم اليهودي»، وكانت عند بئر يقال لها «جاسوم».

وتآمر الأخساء ضد المسلمين، وأخذوا يحضون من يستجيب لهم على ترك الخروج مع الرسول للجهاد، فبعث النبي طلحة ومعه بعض المسلمين، فأشعلوا النار في وكر الفتنة وعش المؤامرة، وهو بيت ذلك اليهودي الخئون، فكان هذا العقاب التأديبي ردعاً وزجراً لأمثاله من سلالة القردة والخنازير.

وكان طلحة مع هذا رجلاً نقي القلب، صافي النفس، يفرح للخير يناله أي أخ له في الإسلام، ولذلك نراه يفرح حينما تاب الله تبارك وتعالى على كعب بن مالك، وهو أحد الثلاثة الذين خلِّفوا في غزوة تبوك، وقد قصّ الله علينا قصتهم في سورة التوبة.

وجاء كعب إلى رسول الله ﷺ عقب نزول قبول توبته عند الله عز وجل، فسارع طلحة إلى كعب، حيّاة وهنأه بفضل الله عليه، مما أثر في نفس كعب حتى قال وهو يروي قصته: «والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره». وكان كعب لا ينسى لطلحة هذا الصنيع.

***

وإلى جوار هذا كان طلحة رجلاً يحسن عمل الدنيا ويتقنه، ويكسب الكثير بجده وجهده، وما كان يكسب ليكنز أو يطغى، بل كان يكسب وينفق ويتوسع في الإنفاق والبذل والتبرع، وحسبنا أن نعلم أنه قد تبرّع بسبعمائة ألف درهم في غزوة أحد وحدها.

ولذلك استحق أن يسميه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه: «طلحة الخير» و«طلحة الجود» و«طلحة الفياض»، تقديراً لكثرة ما قدم، ولضخامة ما أعطى، وعظم ما أنفق في سبيل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]. وكذلك كان يسمى: «طلحة الطلحات».

ولقد قال قبيصة بن جابر: «صحبت طلحة بن عبيد الله، فما رأيت رجلاً أعطى لجزيل مال منه من غير سؤال».

وسمع الإمام عليّ رجلاً ينشد [من الطويل]:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا هو ما استغنى، ويبعده الفقر

فقال الإمام: «ذاك أبو محمد طلحة بن عبيد الله يرحمه الله».

ومع الجهاد، والاحتساب، والإنفاق، كان طلحة حريصاً على طلب العلم والتفقه في الدين، ولذلك روى الكثير من أحاديث الرسول ﷺ، سمعها ووعاها، وحفظها وأداها، وقد أثبت البخاري ومسلم وغيرهما هذه الأحاديث.

وظل طلحة ثابتاً على إيمانه ويقينه، وجهاده وإحسانه، حتى مات شهيداً في «معركة الجمل» سنة ست وثلاثين للهجرة، ودفن في مدينة البصرة، رضوان الله عليه.

ولما رأى الإمام علي رضي الله عنه جثة طلحة بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه، ثم قال يخاطبه:

إني أرجو أن أكون أنا وأنت ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ [الحجر: ٤٧].

هكذا رسم لنا أسلافنا المنهاج على طريق الحق والنضال، فلم تكن بطولتهم قوة في الأبدان، أو براعة في الطعان فحسب، بل كانت بطولتهم قائمة على الإيمان واليقين، وعلى الكفاح والنضال، وعلى أداء سائر الواجبات والأعمال، وعلى العلم النافع، والخلق النبيل...

وسيرة طلحة إنما هي نفحة من نفحات تاريخنا العظيم، المليء بمواطن القدوة، ومواقف الأسوة، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا، وأن نمضي على طريق سلفنا، فنؤمن كما آمنوا، ونصدق كما صدقوا، ونجاهد كما جاهدوا، لنفوز كما فازوا:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧].

***

حامل القرآن المجاهد

سالم مولى أبي حذيفة

حينما ينفلت قلب الإنسان من حاضره إلى ماضيه، ويستعرض الصفحات الناضرة العامرة بدروس العزة والكرامة والإباء للضيم، يشاهد ضوءاً يخطف الأبصار ويستلفت الأفكار، ويجد صفحة جهاد كريم تشعرنا بأن حياة الأخيار تنهض على التضحية والبذل والفداء.

إنها صفحة الصحابي الجليل، المجاهد المحتسب الشهيد سالم مولى أبي حذيفة، رضي الله عنهما، وأرضاهما في جنات النعيم. وسالم هو: أبو عبد الله سالم بن عبيد بن ربيعة، ولكن السيرة الإسلامية عرفته باسم «سالم مولى أبي حذيفة»، لأنه كان عبداً مملوكاً لزوجة أبي هاشم بن عتبة، واسمها «بثينة»، فأعتقته، وتبناه أبو حذيفة على عادة القوم في الجاهلية، قبل أن يحرم الإسلام التبني ويقضي عليه.

ولما أشرق الإسلام بنوره استضاء به أبو حذيفة وسالم معاً، فصارا مسلمين مؤمنين محسنين، تجمعهما الأخوة في الله، والعمل لوجه الله، والجهاد في سبيل الله، وتساوى الحر المالك والعبد المعتوق، فقد ألغى الإسلام الامتيازات والفروق، وقال القرن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]؛ ولم يبقَ إلاّ التنافس في الخير، والتسابق في ميادين التقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وزاد أبو حذيفة تكريماً لسالم فزوجه بنت أخيه: «فاطمة بنت الوليد بن عتبة»، وكانت من القانتات العابدات الصالحات المهاجرات في سبيل الله عز وجل.

ولقد هاجر سالم مولى أبي حذيفة قبل أن يهاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، فاتخذه المهاجرون الأولون إماماً لهم، يؤمهم في صلواتهم، ومنهم مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت صلاتهم أولاً في مسجد قباء الذي قال فيه القرآن المجيد: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨]. فاعجَبْ لعبد مملوك بالأمس قد رد عليه الإسلام كرامته وعزته، وجعله يسبق سواه من الأحرار الكبار الأصلاء، فيصير لهم إماماً، لأن الله تعالى قد أعز بالإسلام قوماً، وخفض به آخرين، والله يختص بفضله من يشاء من عباده؛ وإنما صار سالم إماماً لهم لأنه كان أكثرهم حفظاً للقرآن، وأتقنهم تلاوة لآياته.

وقد زكى رسول الله عليه الصلاة والسلام مكانة سالم في حفظه القرآن، فجعله أحد أربعة ترجع إليهم الأمة يومئذ في تلقي القرآن الكريم، فقال: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب». كما يروى أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت للنبي: يا رسول الله، سمعت قراءة رجل في المسجد ما سمعت مثله قط، فقام الرسول واستمع وعرف صاحب الصوت، وقال لها: أما تدرين من هو؟ قالت: لا. قال لها: هو سالم مولى أبي حذيفة. ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا.

وتلك شهاده نبوية محمدية، ترفع من قيلت فيه إلى مقام عليّ كريم.

وكان كثير من الصحابة إذا ذكروا سالماً وصفوه بقولهم: «سالم من الصالحين»، وذلك لاجتهاده في الطاعة، وإقباله على القرآن، واستقامته في السلوك والمعاملة.

ولكن هذا العابد الصالح، القارئ القانت، المتقرب إلى ربه بالذكر والشكر، والصلاة والمناجاة، العامر ليله بالتعبد والتهجد، كان يصير في نهاره، وفي مواطن الشدة والبأس التي تتطلّبها الحرية والكرامة، ليثاً هصوراً وبطلاً مقداماً. ولعل هذا التعبد الموقن هو الذي كان يفجر في صدر سالم حوافز هذا الإقدام على الجهاد والنضال، إذ يعلّمه أن ما عند الله تعالى خير وأبقى، وأن

لقاء الله في موطن الكفاح الواجب والاستشهاد اللازم هو أفضل لقاء.

ولذلك أخذ سالم يؤدي فريضة الجهاد في سبيل ربه: سبيل الحق والعدل، كلما تحرك داع إليها، أو حرّض حق عليها، فجاهد في غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وسائر المشاهد الأخرى مع رسول الله ﷺ، وظل تقياً وفياً، عابداً مجاهداً، يرهف نفسه وحسه بعبادة ربه، ثم يشد عزمه، وينصر قومه حين ينادي الحق أهله لنصرته وتأييده، ولا غرو، فهو من قوم يحبهم الله ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

***

ومضت الأيام والأعوام، ولحق الرسول بربه بعد أن بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجمع الناس على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك. وتحركت بعد وفاة الرسول عقارب الفتنة وثعالب المكر، فإذا «مسيلمة الكذاب» يتحرك بفجوره وشروره، وهو الذي كتب إلى الرسول من قبل يقول له: «لي نصف الأرض، ولك نصفها»، فرد الرسول على الدعي الدني يقول له: «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين». وظل مسيلمة مذؤوماً مدحوراً حتى توفي الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فتحركت العقرب من مكانها.

وبدأت حرب التطهير للأرض الطيبة من أفاعيها والباغين فيها، وجاءت «معركة اليمامة» موقفاً مشهوداً من مواقف النضال بين الإيمان والكفران، وخرج إليها سالم مولى أبي حذيفة مجاهداً مضحياً كعادته بماله ونفسه في سبيل عقيدته وكرامته، شارياً ما عند الله عز وجل بكل ما يملك، مفضلاً الباقية على الفانية، مقبلاً على الموت في موطن الشهادة كأنه يسعى إلى أمنية محبوبة، لا يبالي أوقع على الموت، أم وقع الموت عليه.

وكان سالم يرفع صوته، وهو يجاهد في حومة الوغى، ويهتف بمن حوله قائلاً: «يا أهل القرآن، زينوا القرآن بأعمالكم». ولعله كان يريد بهذا القول أن الذين آمنوا بالقرآن وتلوه، ووعوا ما فيه من آيات عن الجهاد، ووعد إلهي كريم

صادق للمجاهدين المؤمنين الصادقين، يجب عليهم أن يبرهنوا على إيمانهم بأعمالهم، وألاّ يخالفوا بين أقوالهم وأفعالهم، فربهم هو الذي يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٢- ٤].

وكان اللواء بيد سالم في معركة اليمامة، وكأنما أشفق عليه أحد المجاهدين حينا رآه وقد ناله الإجهاد من الجهاد، فقال لسالم: لو أعطيت غيرك اللواء، فإنا نخشى عليه معك. فغضب سالم وقال: بئس حامل القرآن أنا إذن.

وكأنه يعجب أن يكون حافظاً القرآن، مؤمناً به، وفيه ما فيه من الحث على الجهاد والاستشهاد، ودعوة إلى التضحية والفداء، ثم يضعف أو ينحرف.

ومضى سالم في جهاده، وقاتل حتى قطعت يمناه، فتناول اللواء بيسراه، وقاتل حتى قطعت يسراه، فاعتنق اللواء بين ذراعيه، ومضى يجاهد، وهو يردد قول الله جل جلاله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤- ١٤٨].

ثم سقط سالم شهيداً يلفظ أنفاسه الأخيرة، فتذكر أبا حذيفة صاحب الفضل عليه، وأخاه في الدين، وكان أبو حذيفة يجاهد في المعركة نفسها، فقال سالم لمن حوله: ما فعل أبو حذيفة؟ فقيل له: قد قُتل. قال: وما فعل فلان (لأخ آخر له في الله). فقيل: قد قُتل، قال سالم: فأضجعوني بينهما (أي ادفنوني وسطهما).

ومضى سالم إلى لقاء ربه، ليأخذ طريقه من وراء هذا اللقاء إلى جنات

النعيم، ولكن لم يذهب دمه هدراً، فإن يكن هو وأمثاله قد مضوا شهداء، فقد لقي مسليمة الكذاب وأتباعه مصارعهم التي مضوا من ورائها إلى عذاب الجحيم وبئس المصير: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥ـ ٣٦].

ولقد أرسلوا ميراث سالم إلى معتقته «بثينة» لتأخذه بحكم «ولاء الغتق» ولكنها رفضت أن تأخذه، فحولوه إلى بيت مال المسلمين.

***

وليس معنى ما سبق أن سالماً كان من هواة الحرب، أو مصاصي الدماء، بل كان يجاهد حين يجب الجهاد، رداً لعدوان، أو مقاومة لبهتان؛ ولقد أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد في سرية إلى «بني جذيمة» داعياً إلى الإسلام، ولكنه حينما بلغ ديارهم وجد بأيديهم السلاح، فظن فيهم ظن السوء، فاعتقلهم وقتل منهم عدداً، وكان هذا اجتهاداً مخطئاً من خالد رضي الله عنه؛ فعارضه سالم مولى أبي حذيفة في شدة وصرامة، وكان معه.

ولما علم الرسول بما حدث غضب وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. وبعث النبي علياً فدفع ديات القتلى إلى أهليهم.

ولقد قال الرسول حينما علم بما حدث من خالد: هل أنكر عليه أحد؟ قيل: نعم، راجعه سالم مولى أبي حذيفة وعارضه.

من أجل هذا كان عمر بن الخطاب يثني على سالم كثيراً، وقال في آخر حياته: لو كان سالم حيّاً ما جعلت أمر الخلافة شورى؛ أي لوليته، أو لاستشرته فيمن يختار للخلافة، وأعمل بمشورته.

ورُوي أن عمر قال عنه: لو كان سالم حيّاً لوليته الأمر من بعدي!.

رضوان الله تعالى على حامل القرآن المجاهد الشهيد: سالم مولى أبي حذيفة.

***

المجاهد بسيفه وقلبه

بشير بن سعد الأنصاري

حينما ندخل مدرسة النبوة المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ نجدها قد تخرج فيها رجال وأبطال، زانوا الحياة بفضائل الأعمال، وحققوا العزة بموصول النضال، وخلفوا وراءهم ذكراً حميداً، وتاريخاً مجيداً، يتلألآن على طريق الحرية والكرامة.

ونتطلع إلى هؤلاء فيما نتطلع، فنرى بينهم الصحابي الجليل، الفاضل الصالح ـ كما عبرت السيرة ـ المجاهد الصابر في الشدائد والأزمات، الساعي في المحامد والخيرات: وهو أبو النعمان بشير بن سعد الأنصاري، رضوان الله عليه، وقد كان من كبار الانصار الذين آووا ونصروا، وضحوا وآثروا وبذلوا وافتدوا، وهو أول من أسلم من الأنصار[1]، فدل بذلك على سلامة فطرته ونقاء طبيعته.

وقد شهد «بيعة العقبة» التي ضمت الطلائع المتقدمة لتمهيد الطريق أمام دعوة الحق والصدق، وحينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة حرص بشير بن سعد على أن يكون أقرب ما يستطيع من نور النبوة الساطع، ليهتدي به، وكان يتلقى من جهته كل أمر بالاستجابة والمسارعة إلى التطبيق، فهو يؤمن بأنه جندي صفته الأساسية هي الطاعة للقيادة الراشدة، والزعامة الرائدة؛ مع الإخلاص في أداء الواجب مهما كلفه من جهد أو تضحية.

ولذلك جاهد بشير بن سعد خير الجهاد في غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وشهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ. وفي شوال من السنة

(١) ذكر ذلك السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة».

السابعة للهجرة، تآمرت قبيلة غطفان مع عيينة بن حصن الفزاري، وكونوا جيشاً لمهاجمة النبي والمسلمين، وأراد الرسول حينما تيقن من ذلك أن يبادر فيشتت شمل هؤلاء، قبل أن يستفحل خطرهم بهجومهم الدنيء، فعقد لواءً لبشير بن سعد، وبعثه على رأس سرية فدائية قوامها ثلثمائة مجاهد.

ومضى الرجال الأبطال إلى غايتهم، يحملون أرواحهم على أكفهم، وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً، لتتم منهم المباغتة لعدوهم، حتى بلغوا منطقة «يمن» و«جبار»، وفي «معجم البلدان» أن «يمن» ـ بفتح فسكون، أو بضم فسكون ـ هو ماء لغطفان بين بطن قوّ ورُؤاف على الطريق بين تيماء وفيد، و«جُبار» ـ بضم الجيم ـ هو ماء لبني حمَيْس بن عامر بن ثعلبة، بين المدينة وفيد، وفيد منزل في وسط الطريق من مكة إلى الكوفة.

وهناك ضرب المجاهدون ضربتهم الخاطفة الموفقة، وحدث اشتباك عنيف بينهم وبين الخونة المتآمرين؛ وبصدق في الجهاد من بشير بن سعد، وبراعة في القيادة، وخبرة بفن القتال، وثبات في موطن النضال، وحسن معاونة من زملائه المناضلين، استطاع أن يشتت شمل هؤلاء الأعداء، وأن يستولي على قدر كبير من الغنائم، وعاد مع رفاقه الأبطال، يسعى نور جهادهم بين أيديهم وبأيمانهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي السنة التاسعة من الهجرة عاد الرسول ﷺ فبعث بشير بن سعد في سرية أخرى إلى بني مرة المتمرِّدين في «فدك» وهي بلدة بينها وبين المدينة مسيرة يومين أو ثلاثة وأرسل معه ثلاثين مجاهداً، وهناك خاض بشير ومن معه معركة استمرت طوال الليل مع أعدائهم، وتراموا فيها بالنبال، وأصيب أكثر المجاهدين مع بشير، ولكنه ظل يرمي ويرمي حتى نفدت ذخيرته كلها، وهو يقاتل قتالاً شديداً، وهو صابر صبراً عظيماً ـ كما عبرت السيرة ـ وتكاثرت عليه الضربات، وتعددت في جسمه الجراح، وجاءته إصابة شديدة في كعبه لم يتمالك معها كيانه، فسقط على الأرض مغشياً عليه دون حركة، حتى قيل إنه مات . . .

ولكن المجاهد المؤمن استجمع ما بقي من قوته، ونهض ليفتح للنصر

باباً، أو يجود بنفسه في أكرم ميدان، وشاء الله جل جلاله أن تصله نجدة في ذلك الوقت، بعث بها رسول الله ﷺ، وبها تغير الموقف، وتحول إلى مصلحة المسلمين، وعاد بشير ومن معه وفي أيديهم شهادات صدقهم في الجهاد، وإخلاصهم في النضال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهكذا إذا انتهت قدرة الأرض أقبلت قدرة السماء، وإذا استنفدت طاقة المخلوق تفتحت أبواب معونة الخالق، وإذا انقطعت أسباب الإنسان تواصلت أسباب خالق الإنسان: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ ٦٨﴾ [القصص: ٦٨].

***

ومضت الأيام ومضى معها المجاهد المخلص: بشير بن سعد الأنصاري، يغمرها بالطيبات والقربات: عملاً وسلوكاً، وعبادة ومجاهدة، واختاره الرسول والياً على المدينة حينما خرج الرسول إلى «عمرة القضاء»؛ ثم لحق الرسول بربه، بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة؛ وبعد قليل رأينا بشير بن سعد يخرج جنديّاً متواضعاً، يمشي ضمن الجيش الذي يقوده الفتى الشاب: «أسامة بن زيد».

ولـمَ لا يفعل بشير ذلك وها هوذا يرى أبا بكر الصديق خليفة رسول الله يمشي على قدميه إلى جوار أسامة الذي امتطى صهوة جواده، وحينما قال أسامة القائد لأبي بكر الخليفة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل. أجابه الخليفة الراشد قائلاً في تصميم: «والله لا أركب، ولا تنزل وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة»؟!.

ومضى الجيش إلى غايته، وحقق المراد من مسيرته، بفضل الله وحده، وبجهود أولئك الذي اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١ـ١١٢].

وما أربحها من صفقة عند المؤمنين العقلاء!.

وظل بشير على هذا الإخلاص في الجهاد، والوفاء بحق الله وحق الإسلام، حتى نال نعمة الشهادة في معركة «عين التمر» الواقعة غربي الكوفة، والتي فتحها المسلمون في السنة الثانية عشرة بقيادة السيف الإلهي المسلول: خالد بن الوليد، بعد «معركة اليمامة».

ولم يكن بشير بن سعد مجاهداً في سبيل الله بالسيف وحده، بل كان مجاهداً كذلك بعقله وقلبه، وحسن رأيه، وحرصه على وحدة الكلمة وسلامة الأمة. فحينما ثار الجدال بين المسلمين في «سقيفة بني ساعدة» لاختيار خليفة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال بعض الأنصار للمهاجرين: «منا أمير، ومنكم أمير»، سارع بشير ـ وهو أنصاري ـ فوقف يخطب فقال فيما قال ـ كما روى الطبري وابن الأثير ـ:

«يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أُولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلاّ رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به من الدنيا غرضاً، فإن الله ولي المنّة علينا بذلك؛ ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم».

وسارع بشير فمد يده، فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار، وبذلك شارك بشير في تجنيب المسلمين يومئذ فتنة شعواء لا يعلم إلاّ الله مداها الخطير لو لم تجد أمثال بشير الذين يسحقون الأهواء الذاتية والمطامع الشخصية والنزعات الفردية أو الإقليمية، بنزعة الروح الجماعية، والجندية المخلصة المجهولة في سبيل الله عز وجل.

ولا يصح لمتوهم أن يتوهم أن هذا الموقف من بشير بن سعد يوحي بمعنى من معاني الاستسلام للقوة، أو المتابعة العمياء، فقد كان بشير لا يهاب في الحق لومة لائم، ولا يخشى في دنياه أحداً إلاّ الله، وقد يدل على ذلك أقوى دلالة ما رواه التاريخ من أن عمر بن الخطاب قال يوماً وهو خليفة ـ ومن حوله المهاجرون والأنصار ـ: أرأيتم لو أترخص في بعض الأمر، ماذا كنتم فاعلين؟ فقال له بشير بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدْح (أي تقويم السهم). فقال عمر: أنتم إذن أنتم!.

***

ومع هذا النضال الموصول الذي خدم به بشير عقيدته وأمته، كان يحرص على التفقه في الدين، وكان يسائل الرسول من حين إلى حين ليزداد علماً. ويروى أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الاحزاب: ٥٦] قال بشير للنبي: يا رسول الله لقد أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟.

فأجابه: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد»(١).

وهكذا كان بشير بن سعد من قوم جمعوا بين الإيمان والعمل، وبين العدل والقوة، وبين الجهاد وحب السلام، وبين العزة والرحمة، فإذا كان يوم الحرب رأيتهم السابقين إلى مواطن الشهادة، وإذا كان يوم السلام رأيتهم المستغرقين في العمل والعبادة، أولئك لهم الحسنى وزيادة.

رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

***

---

(١) مما نذكره من سيرة بشير أيضاً أنه كان يكتب العربية في الجاهلية، وكانت الكتابة يومئذ قليلة نادرة.

الباحث عن الشهادة

أبو أيوب الأنصاري

على الطريق نمضي لنعرف المزيد من أسلافنا الرجال الأبطال، الذين علموا الدنيا كيف يكون الجهاد والنضال.

وهذا واحد منهم، يبدو لنا عملاقاً في تاريخه وكفاحه، وهو الصحابي الجليل، الشهير النجيب[١]، صاحب البيعتين: أبو أيوب الأنصاري، واسمه خالد بن زيد بن كليب الخزرجي النجاري رضوان الله عليه.

وهو الذي نال الحظ الأوفى، والشرف الأسمى، حينما اختار بيته الرسول ﷺ لينزل فيه ضيفاً، عندما هاجر من مكة إلى المدينة، وأقام فيه سبعة أشهر[٢] حتى بنيت حجرات النبي، وتم بناء المسجد، وكان أهل المدينة قد اصطفوا أمام بيوتهم في فرح غامر، يستقبلون النبي ﷺ وهو قادم فوق ناقته، وهم يقولون له: يا رسول الله، ادخل المدينة راشداً مهدياً. وكل منهم يتمنى أن يفوز بشرف ضيافته، وكلما مرّ على بيت قال له أهلوه: هاهنا يا رسول الله، هاهنا يا رسول الله.

ويرد الرسول غليهم بلطف قائلاً وهو يشير إلى الناقة: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة.

ووصلت الناقة بيوت أخواله بني مالك بن النجار، فتعلقوا بخطامها قائلين: يا رسول الله، هلم إلى أخوالك. أقم عندنا فلدينا العدد والعدة

(١) هذه أوصاف ذكرتها له السيرة.

(٢) وقيل إنه مكث عنده شهراً، ولكن الأول أظهر.

والمنعة. ولكنه عاد فقال في دعة وهدوء: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة.

ومشت الناقة حتى بلغت بيت أبي أيوب الأنصاري فبركت أمامه، وهناك كانت إرادة الله وعنايته، وهناك كان اختبار الله وأمره؛ ووقعت أكرم ضيافة عرفها التاريخ في نصيب الرجل الطيب المبارك أبي أيوب الأنصاري، والله يختص بفضله من يشاء من عباده.

وحينما نزل الرسول بيت أبي أيوب كان في البيت طابقان: أرضي وعلوي، فاختار الرسول أن ينزل في الطابق الأرضي من البيت، ولكن أبا أيوب قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره أن تكون تحتي وأكون فوقك؛ ورجا أن يصعد إلى الطابق الأعلى، وأن ينزل أبو أيوب وزوجته إلى الطابق الأسفل، فقال له الرسول: يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا (أي يزورنا) أن أكون في سُفل البيت.

فأطاع أبو أيوب، ولكنه كان يجد في نفسه غضاضة إذ يطأ سقفاً من تحته الرسول، وكان إذا أراد هو وزوجته أن يناما انتحيا جانباً من الغرفة إلى جوار جدارها وناما، حتى لا يجعلا نفسهما في وسط السقف الذي يظل الرسول، ولم يكن عليهما في هذا العمل رقيب ولا شهيد، وإنما هو الأدب النبيل، والإجلال الصادق منهما لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

ثم حدث أن سال ماء من إناء في حجرة أبي أيوب العلوية، فسارع هو وزوجته يجففانه بقطيفة لهما، خشية أن يتسرب شيء منه إلى حجرة النبي، ثم عاد أبو أيوب فألح على النبي أن يصعد إلى أعلى، فاستجاب له مقدراً هذا الشعور الرقيق العميق من أبي أيوب.

وإنما يختار الله بعلم، ويختص لحكمة، فأبوأيوب الأنصاري كان من السباقين إلى الخير، وهو ممن بايع الرسول على الجهاد والاستشهاد مرتين، فقد كان من طلائع الأنصار السبعين الذين بايعوا «بيعة العقبة»، فصار ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠ـ ١١].

ثم كان من طلائع المجاهدين الذين بايعوا رسول الله ﷺ «بيعة الرضوان» في غزوة الحديبية، فصار من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ

إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠] وقال فيهم أيضاً: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وآخى رسول الله صلوات الله وسلامة عليه بين أبي أيوب الأنصاري ومصعب بن عمير، ومصعب هو أول مبعوث في الإسلام، وأول سفير للرسول عليه الصلاة والسلام. فقد أرسله قبل الهجرة إلى المدينة ليعلم المسلمين فيها القرآن ومبادىء الإيمان.

وبدأت سلسلة المعارك والغزوات بين عباد الرحمن وجنود الشيطان، وكان أبو أيوب فيها سباقاً إلى مواطن الهول، باحثاً عن الشهادة، يتطلبها ويسعى إليها، وتألقت خطواته وضرباته في غزوات: بدر، وأُحد، والخندق، وجميع المشاهد الأخرى، وكان له شعار يردده ويؤكده، ويطبقه ويؤيده.

وهذا الشعار هو قول ربه عز من قائل: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

وكان في كل مرة يتلو فيها هذه الآية ـ وما أكثر تلاوته لها ـ يقول عن نفسه: «لا أجدني إلاّ خفيفاً أو ثقيلاً» أي لا بد لي من الجهاد على أي حال، لأن معنى قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ هو كما ذكر المفسرون: اخرجوا إلى الجهاد عند وجوبه: شباباً كنتم أم شيوخاً، كثرة كنتم أم قلّة، ركباناً كنتم أم مشاة، موسرين كنتم أم معسرين.

وأنعم بذلك الاستنفار من نداءٍ إلهي كريم تتفتح بالاستجابة الصادقة له أبواب الحرية والعزة والكرامة، ولذلك قال صفوان بن عمر: «استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ومن يحبه الله يبتليه، ثم يعيده ويبقيه، وإنما يبتلي الله مِنْ عباده مَنْ صبر وشكر وذكر، ولم يعبد إلاّ الله عز وجل».

وظل أبو أيوب الأنصاري يواصل الجهاد، ويواجه الخطر، ويبحث عن الشهادة، ويحرص على الموت فتوهب له الحياة، ووقف مناضلاً مقاتلاً إلى

جانب الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وشهد معه «موقعة الجمل» و«موقعة صفين» و «موقعة يوم النهروان»[١]، وثبت على وفائه للإمام علي حتى لحق الإمام بربه، وبقي أبو أيوب يتطلب أي ميدان يندفع إليه ليقاوم فيه البغي والطغيان، أو ينشر فيه كلمة الحق والإيمان، وكأن الله جل جلاله لم يخلقه إلاّ ليكون حليف سلاحه وقرين جهاده، ليظل مدافعاً عن الحرمات والمقدسات. ونصيراً للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذي لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

وحينما علم بخروج الجيش الإسلامي المحرر إلى بلاد الروم ليخوض معركة القسطنطينية ـ وهي إصطبمول[٢] الآن ـ سارع بالانضمام إليه، وغزا فيه ما غزا، لا يريد علوّاً في الأرض ولا فساداً، ولا يبتغي جاهاً ولا متاعاً، وإنما هو يبتغي ما عند الله والدار الآخرة، ولذلك يجاهد من أجل الحق والعدل والإيمان.

وأصيب أبو أيوب في المعركة، وجاءه القائد يعوده وقال له: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ فلم يذكر أبو أيوب متعة من متع الدنيا، ولا منفعة من منافع الحياة، ولا عرضاً من أعراض الناس، بل قال له: إذا أنا متّ فاركب بي، ثم سغ بي في أرض العدو ما وجدت مساغاً، حتى إذا لم تجد مساغاً فادفني وارجع (أي احمل جثتي، وادخل بها في أرض العدو إلى أبعد ما تستطيع، وادفني هناك).

ثم قال له: أقرىء الناس مني السلام، ولينطلقوا بي في أرض العدو، وليبعدوا ما استطاعوا، وهناك فادفنوني.

وكأنه أراد بوصيته هذه أن يعلق أبصار رفاقه وهممهم ببلوغ الغاية الكبرى وتحقيق النصر الواسع، فأراد أن يتوغل قومه بجثمانه إلى أبعد مكان ممكن من

---

(١) النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط، من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد.

(٢) هكذا رسمها ياقوت في معجم البلدان.

الأرض التي ينزل فيها العدو، ويدفنوه فيه، تطلعاً منه إلى يوم النصر، ورغبة عنده في أن يكون جثمانه طليعة للمجاهدين المظفرين من ورائه، وكأنه يريد أن يقول لربه يوم لقائه: يا إلهي، هأنذا قد جاهدت في سبيلك بحياتي، وجاهدت في سبيلك بجثتي بعد مماتي.

وأسلم أبو أيوب إلى بارئه آخر أنفاسه، ودُفن إلى جوار سور القسطنطينية سنة اثنتين وخمسين للهجرة(١)، وحاول بعض الناس إخفاء قبره، ولكن عارفي فضله وجهاده عرفوه وأظهروه، وتلمسوا البركة من حوله، وكأنهم حينما يقفون أمام قبره، ويسترجعون تاريخه العاطر الباهر، يخيل إليهم كأن المكان من حوله تحف به نسمات طاهرة مباركة، وكأن الهواء هناك يرق ويشف، وكأن الأرض تشرئب بأعناقها لتشرف بلقاء السماء، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

ولا عجب فقد نشأ مجاهداً، ولقي ربّه مجاهداً، والجهاد في سبيل الله ـ عند وجوبه ـ أفضل الأعمال، حتى قال الرسول ﷺ: «إن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة (أي مقدار حلبها) وجبت له الجنة».

ولقد سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة» وأبو أيوب كان يفهم أن ترك الجهاد سبب الخسار والبوار، حتى روى أبو داود في سننه عن أسلم أبي عمران قال:

غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه (أي: اكفف اكفف). ثم قالوا متعجبين منه: لا إله إلاّ الله، يلقي بيديه إلى التهلكة!.

فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: إنما نزلت فينا معشر الأنصار،

(١) وقيل إنه توفي سنة خمسين، وقيل سنة إحدى وخمسين، ولكن المشهور أنه توفي سنة اثنتين وخمسين.

لما نصر الله نبيه ﷺ، وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها ولا ندع الجهاد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا نصلحها وندع الجهاد.

قال أسلم أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية! . .

ومع هذه الحياة الفدائية المناضلة كان أبو أيوب يعطي ناحية الفقه والدين حقها من العناية والرعاية، وقد روى عن رسول الله ﷺ مائة وخمسين حديثاً. ومما أوصاه به الرسول قوله: «إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تتكلم بكلام تعتذر منه، والزم اليأس مما في أيدي الناس».

وهكذا حرر أسلافنا أنفسهم وبلادهم، فما كسبوا العزة في ديارهم لم يستأثروا بنعمتها، بل خرجوا ينشرون أضواءها في كل مكان استطاعوا بلوغه، وما أوسع المسيرة التي قطعوها في هذا المجال، فبأي وجه يلقى الأخلاف أسلافهم إذا سكت الأخلاف على المذلة أو المذلة أو رضوا بالهوان؟! .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

***

الفدائي الصبور

عبد الله بن حذافة السهمي

إن العمل الفدائي البطولي من شأنه أن يمضي في طريقه مناضلاً، ليظل همزة الوصل بين جهاد سابق وجهاد مأمول، حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، والفدائيون من شأنهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم، وينطلقوا نحو أقدارهم، فمنهم من يحقق غرضاً، ويعود ليبقى مرابطاً في انتظار جولة أو جولات، ومنهم من يذوق الشهادة، ويمضي بها إلى ربّه هانئاً سعيداً، ومنهم من يقع في الأسر، ويتعرض للتعذيب والإهانة، وسوء المعاملة من الأعداء، فيصبر ولا يستسلم.

وهذا مجاهد كريم من صحابة رسول الله ﷺ، يناضل فيصدق في النضال، ويذوق مرارة الأسر فلا يلين ولا يهون، بل يثبت ويصبر، ويضرب مثلاً رائعاً في الاحتمال وحسن الاحتيال لتحقيق الخير للإسلام والمسلمين.

إنه الصحابي الجليل عبد اللّه بن حذافة السهمي رضي الله عنه، وهو أحد السابقين إلى الإسلام: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة: ١٠ـ ١٤]. وكان من المهاجرين إلى الحبشة، وشاركه الرحلة أخواه: قيس وخنيس، وشهد غزوة بدر، فكان من الذين قال فيهم الصادق المصدوق رسول الله ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم، فإني قد غفرت لكم».

وظل مجاهداً مناضلاً في رحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، حتى اختاره ليكون مبعوثه إلى كسرى ملك الفرس، ليدفع إليه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، ويقول له فيما يقول: «أدعوك بدعاية الإسلام، فإني رسول الله إلى

الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس» يعني أهل فارس لأنهم يعبدون النار.

ووصل عبد اللّه بن حذافة إلى قصر كسرى، وطلب مقابلته ليقدم إليه الكتاب، فأراد بعض الحاشية أن يأخذ منه الكتاب ليسلمه ـ أو ليرفعه ـ إلى مولاه كسرى، فأبى عبد اللّه، وقال: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أسلم الكتاب بيدي إلى كسرى نفسه.

وبعد تمنع ومراجعة أدخلوه على كسرى، فأقبل نحوه بلا خوف ولا وجل، وبلا تقيد بأوضاع كانوا يلتزمونها عند لقاء كسرى، وكلها تدل على تجبر الحاكمين المتألهين في المحكومين المستضعفين، ومد عبد الله يده بالكتاب إلى كسرى، وكأنه يقول له: خذ، هذا لك، فتسلم كسرى منه الكتاب، وأعطاه لمن يقرؤه، فإذا في أوله: «من محمد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى كسرى عظيم فارس»، فكبر على كسرى أن يذكر اسم الرسول قبل اسمه، فأخذ الكتاب من يد قارئه غضباً، ومزقه قبل أن يعلم ما فيه.

ومع أن عبد الله بن حذافة رجل غريب وحيد، وفي داخل عرين الأسد المتوحش الهائج، ومن حوله الجنود والحراس، والخدم والحشم، لم يخف ولم يفزع، بل لعل نور الحق أضاء في جوانب فؤاده، فأدرك أن نهاية هذا الطاغية قريبة، ما دام يندفع في تهوره ورعونته بهذه الصورة؛ ولم يتحرك عبد الله من مكانه حتى أمر كسرى بإخراجه ليعود إلى بلاده.

ولما عاد وأخبر الرسول بما كان، قال عليه الصلاة والسلام: «مزق الله ملكه». وكانت دعوة أجراها القدر على لسان النبوة، فما هي إلاّ أيام حتى لقي كسرى مصرعة على يد ابنه شيرويه، كما تقول بعض مصادر التاريخ؛ ويقال إن ابنته خلفته من بعده، فلما بلغ ذلك النبي قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

***

ومضت الأيام والأعوام، وابن حذافة حيث هو من موقعه في نصرة الإسلام، وأقبل عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي مزق بكتائب

الإيمان طغيان الأكاسرة وبغي القياصرة؛ وقد جهز عمر أحد الجيوش إلى بلاد الشام، ليحررها من طغيان الروم المحتلين لها، وكانت كلمة «الشام» حينئذ تطلق على سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين، وكان عبد اللّه بن حذافة من جنود هذا الجيش، وبذل في الجهاد ما استطاع، ثم وقع أسيراً مع جمع من إخوته وزملائه في النضال والكفاح والسلاح، وكان أسرهم في بلدة «قيسارية» من أرض فلسطين المحتلة.

وأظهر عبد اللّه شجاعة أذهلت جنود الروم، فحملوه إلى ملكهم، فعرض الملك على عبد اللّه وسائل التأثير المختلفة، ليخضع أو يخنع، فلم تُجْدِ معه شيئاً.

عرض عليه أولاً أن يعطيه الواسع الفسيح من العقار والديار على أن يترك دينه. فقال له ابن حذافة: والله لو أعطيتني جميع ما تملك ما رجعت عن ديني طرفة عين.

فطالبه بأن يخبره بأسرار جيش المسلمين، فأبى واستعصم، فهدده الملك بالقتل، فأجاب ابن حذافة: أنعِمْ بها من شهادة. فعلقوه على هدف كالمصلوب، ثم أمر الملك الرماة بأن يرموا سهامهم قريباً من بدنه لإخافته وإرهابه، ولكن الطود الشاهق الثابت الوطيد الإيمان واليقين ظل شامخاً راسخاً، لم يخف ولم يفزع، فحلوا وثاقه، لينقلوه إلى لون آخر من ألوان التعذيب.

وهنا بكى عبد اللّه بن حذافة، فظن أعداؤه أن الضعف قد أدركه ولكنه أفزعهم وأرعبهم حين قال لملكهم: «لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حيث ليس لي إلاّ نفس واحدة، يُفعل بها هذا في الله؛ كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَّ، ثم تسلط عليّ، فتفعل بي هذا».

ثم حبسوه في سجن انفرادي بلا طعام ولا شراب، ولكنهم وضعوا بجانبه خمراً ولحم خنزير، فمكث عبد اللّه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، حتى بدا الضعف عليه، ولما سألوه: لماذا لم تأكل من لحم الخنزير ولم تشرب من الخمر؟ أجابهم بقوله: إن الضرورة تجيز لي هنا أن آكل من لحم الخنزير، وأن

أشرب من الخمر، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾ [المائدة: ٣] ولكني كرهت أن تشمتوا بالإسلام.

وازداد إعجاب الملك الداخلي بشجاعة عبد اللّه بن حذافة، فرمى إليه بآخر سهم فقال له: قبّل رأسي وأنا أطلق سراحك. ففكر عبد اللّه قليلاً، ثم أجاب بقوله: إن نفسي لا تعنيني، ولكن إن أفرجتَ عن إخوتي الأسرى قبّلت رأسك.

وفرح الملك المغرور، فكل همه محصور في أن يكلف هذا الأسير المارد العملاق أيَّ شيء يطيعه فيه ويعمله؛ وبعد أن أخذ عبد اللّه المواثيق عليه قبّل رأسه، فأفرج عنه الملك، وأفرج له عن ثمانين أسيراً من المسلمين.

وعاد ابن حذافة معهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فلما رآهم عمر فرح بهم فرحاً شديداً، وحمد الله على نجاتهم، وكأنهم قد وُلدوا في نظره من جديد، وسألهم عن أخبارهم، فقص عليه عبد اللّه بن حذافة ما حدث.

وهنا قال عمر لمن معه من المسلمين: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ. وسارع عمر بالنهوض، وأقبل على رأس ابن حذافة يقبّله تكريماً له، وتابعه في ذلك كل من حضر.

وشتان بين تقبيل وتقبيل، فتقبيل ابن حذافة لرأس ملك الروم كان لوناً من الاحتيال لإطلاق سراح زملائه، والحرب خدعة كما قال الحديث الشريف ولعله هَمَّ وهو يقبل رأس الطاغية أن يبصق عليه، احتقاراً له؛ وأما تقبيل عمر والمسلمين لرأس ابن حذافة فإنه تقبيل التكريم والتقدير والحب. ولا عجب، فقد شهدوا أمامهم مثلاً من أمثلة البطولة الفدائية الصابرة التي خرّجتها مدرسة محمد ﷺ، ورأوا ـ باعتزاز وافتخار ـ كيف جمع عبد اللّه بن حذافة بين قوة النضال، وطول الاحتمال، وحسن الاحتيال[١].

***

---

(١) وفوق هذا كله كانت فيه دعابة كما تقول السيرة.

وتابع عبد اللّه نضاله، فاشترك في فتح الإسلام لمصر مع القائد عمرو بن العاص، ولما استقر عمرو في الفسطاط أرسل عبد اللّه بن حذافة إلى «عين شمس» ففتحها، وتمكن منها، وصالح أهل قراها، ثم جعله عمرو حاكماً على الإسكندرية بعد فتحها، وظل في ذلك العمل حيناً من الزمن.

***

وبعد حياة طويلة جليلة مجيدة ضم ثرى مصر رفات عبد اللّه بن حذافة السهمي رضي الله عنه، لأن التاريخ يقول إنه مات فيها خلال خلافة عثمان بن عفان رضوان الله عليه. فليت هذا الثرى يذكر أبناءه ببطولات أجدادهم، وصفحات أمجادهم، وحرمة بلادهم، وتبعات جهادهم، حتى يسير الأبناء على الدوام في طريق الآباء، فنرى من الخلف وراء السلف ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم.

***

فدائي بطبعه

محمد بن مسلمة الأنصاري

كلّما قلّبنا صفحات تاريخناالإسلامي وجدنا فيه مزيداً من صور البطولة، ونماذج التضحية والفداء. وهذا واحد من هذه النماذج، تعطر سيرتّه نجدةً وشهامة، وتضحية وحب للشهادة، وهو الصحابي الجليل أبو عبد اللّه محمد بن مسلمة الأنصاري، الذي سارع إلى الإسلام حين عرفه، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح عقب الهجرة.

وشهد ابن مسلمة غزوة بدر والغزوات كلها، وكان مشرفاً على حرس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان لديه استعداد واضح للعمل الفدائي المقدام، فبعث به النبي في سرية عددها ثلاثون مجاهداً إلى الإغارة على جماعة من الأعداء من بني كلاب، فسار محمد مع رفاقه بالليل، وكمنوا في النهار، حتى بلغوا مكان أعدائهم، ثم اندفع محمد ومن معه كالقدر العاجل، فقتلوا عدداً من أعدائهم، وهرب الباقون، واستولى محمد بن مسلمة على ما وجده من الإبل والغنم، وعاد بكل ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويروى أنهم أسروا في هذه السرية ثمامة بن أُثال زعيم أهل اليمامة، فلما لقي ثمامة الرسول قال له: ما عندك يا ثمامة؟.

فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المالَ فسل تعط منه ما شئت.

فقال الرسول لأصحابه: أطلقوا سراح ثمامة.

وفعل هذا العفو المحمدي الكريم فعله، فخرج ثمامة إلى مكان قريب فاغتسل، ثم عاد إلى رسول الله وهو يقول: أشهد ألاّ إله إلاّ الله، وأشهد أن

محمداً عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليّ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك، فقد أصبح دينك أحبَّ الدين كله إليّ.

واستقام ثمامة على الصراط، فلم ينحرف عنه بعد ذلك حتى فارق الحياة، عليه رضوان الله.

***

وفي ربيع الآخر من سنة ست للهجرة أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة إلى مهاجمة أعداء آخرين، هم بنو ثعلبة في مكان اسمه «ذو القصة»[١]، وكان معه عشرة من المجاهدين فحسب، فأحاط بهم مائة من أعدائهم الكافرين، واشتد القتال بين القلة المؤمنة والكثرة الكافرة، ونال الشهادة زملاءُ محمد جميعهم، وأصابته جراحة بليغة لم يستطع معها الحركة، فحسب المشركون أنه قد مات أيضاً، فتركوه وانصرفوا.

ومرّ أحد المسلمين على جثث هؤلاء الشهداء، وبينهم محمد بن مسلمة وهو حي جريح، فحمله إلى المدينة بعد أن وارى الشهداء التراب؛ وفي المدينة وعلى مقربة من رسول الله خير راع للأبطال الباذلين، عولج محمد بن مسلمة حتى شفي من جراحه، وما كاد يحس العافية في جسمه حتى سارع من جديد بالعودة إلى ميدان الجهاد والفداء.

وفي تاريخ محمد بن مسلمة يتألق موقف رائع كذلك، هو قتله لعدو الله ورسوله والمؤمنين: اليهودي اللئيم الخسيس كعب بن الأشرف، وكان ذلك في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة، وكان كعب هذا يهودياً خبيثاً كرفاقه إخوة القردة والخنازير، ولما سمع بانتصار المسلمين في غزوة بدر، وأنهم قتلوا كثيراً من المشركين، أكل قلبه الغيظ والحقد، وقال: لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظاهرها!.

---

(١) بين ذي القصة والمدينة أربعة وعشرون ميلاً، في طريق الربذة.

وسارع بالذهاب إلى مكة ليتآمر مع المشركين ضد المسلمين، وهناك قال له عبدة الأصنام والأوثان: أدينُنا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي ديننا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟.

فقال الأثيم الفاجر: أنتم أهدى منهم سبيلاً.

وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١ـ ٥٢].

وأخذ الفاجر الداعر كعب بن الأشرف يرثي قتلى المشركين في بدر، وكان شاعراً، ويحرض على قتال النبي والمسلمين، ويتغزل في نساء المؤمنين، ويطعن في أعراضهن الطاهرة، وجعل يسب رسول الله ـ ﷺ ـ أفحش السباب، ويتهكم بالإسلام وبالقرآن الكريم.

وكان لا بد من جزاء رادع لذلك الفاجر، فقال رسول الله: من لي بابن الأشرف، فإنه يؤذي الله ورسوله والمؤمنين؟ ويروى أن الرسول قال: «اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت» ثم قال: «من لي بابن الأشرف، فإنه آذاني».

وسارع البطل الفدائي بطبعه: محمد بن مسلمة، قائلاً: أنا يا رسول الله، أنا أقتله إن شاء الله.

فقال له النبي: فافعل إن قدرت على ذلك.

وأخذ محمد بن مسلمة يفكر: لقد أعطى رسولَ الله عهداً لا بد من الوفاء به مهما كان الثمن، ولكن كيف السبيل إلى كعب وهو متحصن بحصنه وسلاحه؟ ومضت ثلاثة أيام لا يذوق فيها ابن مسلمة طعاماً ولا شراباً، إلاّ ما يمسك عليه الرمق، ولما علم الرسول بذلك قال له: لمَ تركت الطعام والشراب؟.

فأجاب: يا رسول الله، لقد قلت لك قولاً لا أدري أأفي لك به أم لا. فقال النبي ﷺ: عليك الجهد (أي لا تكلّف إلاّ وسعك).

فأخبره ابن مسلمة بأنه سيستعين ببعض زملائه، وأنهم سيعمدون إلى الحيلة في مهمتهم، ثم قال للرسول ﷺ: إنه لا بد لنا أن نقول (أي نقول فيك بعض ما لا نعتقد أمام كعب حتى نستدرجه، والحرب خدعة).

فقال له الرسول ﷺ: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل، ثم دعا لهم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم.

وذهب محمد بن مسلمة مع بعض رفاقه إلى زيارة كعب متظاهرين له بأن دعوة محمد قد سببت لهم امتحاناً شديداً، وعداوة مع الناس، وأنهم جاءوا ليأخذوا منه طعاماً، فاشترط عليهم أن يكون ذلك برهن.

واتفق معهم على أن يكون الرهن هو سلاحهم، فتظاهروا بالموافقة، ثم استدرجه ابن مسلمة حتى أنزله من حصنه، وابتعد به عن الحصن، ثم هجم عليه، وقتله بمعاونة من معه، وعاد معهم إلى المدينة، فلما رآهم الرسول قال: أفلحت الوجوه. فقالوا: ووجهك يا رسول الله!.

وكان ذلك على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

وكان هذا العمل البطولي الفدائي سبباً في بث الطمأنينة في صدور كثير من المسلمين، وفي بعث الفزع في نفوس كثير من اليهود المجرمين، ولذلك قال محمد بن مسلمة عقب ذلك: «ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود، لوقعتنا بعدو الله، فليس بها(أي المدينة) يهودي إلاّ وهو يخاف على نفسه».

ولكن ليس معنى هذا أن اليهود قد ارتدعوا عن باطلهم، أو رجعوا عن ضلالهم، بل زادوا في الأرض مكراً وإفساداً، وتبجحوا تطاولاً وعناداً، وهذا يهودي آخر اسمه «مرحب» يقتل شقيق محمد بن مسلمة، ويفاخر بقوته وطغيانه، حتى يرفع صوته الأثيم قائلاً [من الرجز]:

قد علمت خيبر أني مرحبُ ... شاكي السلاح بطل مجربُ
إذا السيوف أقبلت تلهبُ ... أطعن أحياناً، وحيناً أضربُ
إن حماي كلحمي لا يقربُ ... يُحجم عن صولتي المجربُ

وهنا قال الرسول ﷺ مشيراً إلى مرحب: من لي بهذا؟.

فسارع محمد بن مسلمة يقول: يا رسول الله، أنا له يا رسول الله، فأنا والله الموتور الثائر، فقد قتل أخي بالأمس، فقال له النبي ﷺ: قم إليه.
وقام إليه البطل الفدائي فصارعه وقاتله حتى قتله(١).
وحينما استشرى بغي هؤلاء اليهود وطغيانهم، أباح الرسول للمسلمين الفتك بكل عدو منهم، فقال: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه».

وهل جزاء العدوان إلاّ العدوان؟ ولذلك يقول القرآن: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

***

وتوالت الأيام وراء الأيام. ولحق الرسول بربه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وظل محمد بن مسلمة ثابتاً على عهده، مجاهداً مناضلاً لا يهاب الموت.
ثم وقعت الفتن بين المسلمين، وحدث بينهم ما حدث من خلاف وشقاق، وصار بأسهم بينهم شديداً؛ وهنا تذكر محمد بن مسلمة أن رسول الله أعطاه ذات يوم سيفاً، وقال له: «قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً، فأت به أُحُداً (يعني جبل أحد) فاضرب به حتى ينكسر، ثم اجلس في بيتك، حتى تأتيك يد خاطئة، أو منية قاضية».

فخاف ابن مسلمة من الفتنة، فاعتزل الناس، وأقام البقية الباقية من حياته في قرية«الربذة» التي مات فيها أبو ذر الغفاري، ولعله كان يتذكر حينئذ وصية الإمام علي لأبي ذرّ التي يوصيه فيها بالرضى بالله، والصبر على طاعته.
ومات محمد بن مسلمة في صفر سنة ثلاث وأربعين للهجرة، وهو ابن تسعة وسبعين سنة.

رضوان الله على الجميع.

***

(١) وقيل إن الذي قتل مرحباً هو الإمام علي. انظر الخلاف في ذلك في تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج ٢ ص ٨٦، والسيرة النبوية لابن كثير، ج ٣ ص ٣٥٧.

الأسد في براثنه

سعد بن أبي وقاص

الحياة عقيدة وجهاد، أو إيمان وعمل، أو معرفة وسلوك، ومن أهم عوامل التوفيق الإلهي في هذه الحياة أن ينظر الإنسان فيدرك، ثم يعتقد ويؤمن، ثم يخلص لإيمانه ولمبادئه، فيلتزمها ويدعو إليها، ويدافع عنها ويضحي من أجلها، ويحقق لها صورة عملية في قوله وفعله وتفكيره، وسائر تصرفاته وتحركاته.

فإذا صفا منه القلب، وطاب القول، وصلح العمل، واستقام السلوك، فقد أصبح موصول الأسباب بالله جل جلاله، يتقبل منه عمله، ويستجيب دعاءه.

ولقد ضرب لنا أجدادنا المؤمنون أروع الأمثال في هذا المجال، ومنهم فارس الإسلام، المجاب الدعوات، الرشيد الخطوات: سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه؛ فقد كان سابع سبعة بادروا إلى الإسلام في أول البعثة النبوية، وعمر دنياه بالإخلاص والطاعة والشجاعة والجهاد الصادق في سبيل الله، حتى استحق أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة من رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ومات وهو راضٍ عنهم، وأحد الستة الذي رشحهم عمر بن الخطاب ليختار المسلمون أحدهم للخلافة من بعده بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي.

وكان سعد أول من رمى بسهم في سبيل الله عز جل، فكان بذلك أول من أراق دماً للكفر الباغي والشرك الطاغي، فقد روت السيرة أن رسول الله ﷺ وجه في السنة الأولى للهجرة سرية يقودها عبيدة بن الحارث، إلى «رابغ»، وكان سعد في هذه السرية، فلما التقى أفراد السرية بأعدائهم سارع سعد فانتزع

سهماً من جعبة سهامه ورمى به، فأصاب واحداً من الأعداء وأدخل ذلك الفزعَ عليهم فتراجعوا، وحقق المسلمون ما أرادوا، وفي ذلك يقول سعد مفاخراً [من الوافر]:

ألا هل جا رسول الله أني حميتُ صحابتي بصدور نبلي
فما يعتد رامٍ من معد السهم مع رسول الله قبلي

ولقد كان سعد بارعاً براعة واضحة في تسديد السهام، وإصابتها أهدافها بدقة. ويروى أنه حدث في غزوة الخندق أن رجلاً من المشركين أكثر من رمي السهام جهة المسلمين، فتناول سعد سهماً وسدده إليه، فأصابه في جبهته، فخر صريعاً، فضحك النبي حتى بدت نواجذه من إصابة سعد المسددة.

وواصل سعد الوقوف إلى جوار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في الغزوات والمعارك، يحمل روحه على راحته، ويقدمها في كل موطن من مواطن البذل والفداء لنصرة دين الله وإعزازه كلمته.

وفي اليوم العصيب الشديد: يوم غزوة أُحد، ضرب سعد بن أبي وقاص مثلاً رائعاً في الثبات والإقدام والإخلاص، فظل يقاوم ويدافع ويفتدي الرسول بنفسه، والرسول يقدر له بطولته، ويذكرها، وينوه بها، فيقول لسعد: «ارم فداك أبي وأمي، ارم أيها الغلام الحزوّر» أي الفتى الشديد القوي.

ويا لها من مكرمة ينالها سعد عند الله تعالى ورسوله ﷺ، حينما يقال له من فم النبوة الطاهرة هذا التعبير الباهر، ولذلك قال الإمام علي بن أبي طالب: «ماجمع رسول الله ﷺ بين أبويه (في التفدية) لأحد غير سعد، فإنه جعل يقول له يوم أحد: ارم فداك أبي وأُمي ارمِ أيها الغلام الحزَوّر»!.

ولقد كان عند سعد استعداد واضح للعمل الفدائي بجرأة وشجاعة، ولذلك أشركه الرسول بعد الهجرة في أكثر من عمل فدائي، وحدث قبل غزوة بدر أن جعله النبي قائداً لسرية قوامها عشرون مجاهداً من المهاجرين، وعقد له لواء، وكلفه معهم بمهمة، فأقبل سعد ومن معه على تنفيذها كما كلفهم الرسول في دقة واحتياط.

ومما يدل على هذا الاستعداد عند سعد أن الرسول ﷺ كان مع المسلمين في وقت فزع وخطر، فقال ذات ليلة: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»، وما كان الرسول يتم عبارته، حتى سمع خشخشة سلاح، فسأل: من هذا؟ فأجابه سعد وهو على مقربة منه: أنا سعد بن أبي وقاص يا رسول الله، جئت أحرسك.

وقد كان سعد أحد الأبطال الأوائل الذين طهروا أرض العرب من الشرك والضلال والاحتلال، ثم حرروا الناس من جرائم الكسروية ومآثم القيصرية، وكان قائد الجيش الذي هزم الفرس وأعداء العرب والمسلمين في معركة القادسية وفتح العراق، ولذلك يوصف سعد في التاريخ بأنه «فاتح العراق».

ولقد أسرف الفرس قديماً في بغيهم وعدوانهم، حتى فكر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في أن يخرج إليهم بنفسه قائداً لجيش التحرير الإسلامي، ولكن بعض من حوله من الصحابة رأوا أن تلك مخاطرة لا تحوج إليها الضرورة، وأصروا على أن يقود الجيش قائد سواه، فطلب منهم أن يختاروا ذلك القائد، فقال له عبد الرحمن بن عوف: «لقد وجدته يا أمير المؤمنين، إنه الأسد في برائنه، إنه سعد بن أبي وقاص»!.

واستراح الفاروق إلى هذا الاقتراح، وشرع في تنفيذه. وكان سعد حينئذ أميراً على هوازن، فاستدعاه الخليفة، وأسند إليه قيادة الجيش، وأوصاه وصية رائعة، قال له فيها:

«يا سعد، إني قد وليتك حربَ العراق، فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه، لا يخلص منه إلاّ الحق، فعوِّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، ولا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه[1]، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلاّ طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة.

(١) سعد من قبيلة بني زهرة وهم أخوال النبي ﷺ، وقد روي أن النبي فاخر بسعد فقال: «هذا خالي فليرني امرؤ خاله!».

فانظر الأمر الذي رأيتَ النبي ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا، فالزمه؛ هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنتَ من الخاسرين»!.

ومضى سعد يسدد مع جيشه الضربات إلى أعداء الله وأعداء عباد الله، فكأنه يد القدر سلطها رب القضاء والقدر على من أكثروا في الأرض الفساد، وطغوا بين العباد، وحينما أصاب المرض سعداً والمعركة دائرة، لم يركن إلى الراحة والهدوء، وإنما أقيم له عريش مرتفع ليقود المعركة منه، وهو لا يستطيع الركوب ولا الوقوف ولا الجلوس، فكان ينحني على حافة العريش ويوجه الجنود في المعركة.

وأمر سعد قارىء الجيش بأن يقرأ في أثناء المعركة «سورة الأنفال» لأنها سورة القتال، وسورة الحث على الجهاد حتى الاستشهاد، وسورة الحض على البذل والفداء، ففيها مثلاً قول الله جل جلاله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾. وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ **[الأنفال: ١٢، ١٥، ١٦، ٣٩، ٤٥، ٤٦].**

***

ومع هذه الصرامة الحازمة في سعد كان يحمل في صدره قلباً نقيّاً طهوراً، لا يعرف حقداً ولا حسداً، ولقد حدث ذات يوم أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام لصحابته: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». وتطلع الصحابة فإذا سعد مقبل، ولما سأله عبد الله بن عمرو بعد ذلك عن السبب في استحقاقه هذه البشرى، أجابه سعد بقوله: لا شيء أكثر مما نعمل ونعبد، غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغناً ولا سوءاً.

وكان سعد يفتدي دينه بأغلى الأشياء لديه، وقد يشير إلى هذا أنه حينما أسلم، وكانت أمه على شركها، فقالت له غاضبة: يا سعد، ما هذا الدين الذي قد أحدثته؟ لتتركن دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فيعيرك الناس بي، ويقولون لك: يا قاتل أمه.

فقال لها سعد: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أترك ديني هذا لشيء.

فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت فجاءها فقال لها في عزم وتصميم: يا أماه، والله لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني، فإن شئت فكلي، أو لا تأكلي.

فلما رأت منه الجد أكلت. وفي هذه الحادثة وأمثالها نزل قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤- ١٥].

***

وسعد المؤمن المجاهد الذي شهد الغزوات والمعارك، وجاهد في سبيل ربه هنا وهناك، وقام بالأعمال الفدائية، لم يكن يرتزق من الحرب، أو يقتصر على القتال، بل كان يعمل وينتج ويكسب، وبجهده وجده واجتهاده وإخلاصه استطاع أن ينال الكثير الطيب النظيف من الكسب؛ فهو إذن يجمع بين الإيمان الوطيد، والعمل المجيد، والجهاد المشكور، والكسب الطهور.

ثم يضيف إلى ذلك كله بذلاً وكرماً، وشهامة وأريحية. ولقد بلغ من حبه للعطاء أن ذهب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في أن يتبرع بثلثي ماله، فأبى النبي، فقال سعد: فبنصفه؟ فأبى النبي، فقال سعد: فثلثه؟ فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «نعم، الثلث والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاّ أُجرت عليها، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك».

والمهم هنا هو أن نتذكر أن سعداً الذي حاز ما حاز من المال والثروة لم يقبل لنفسه يوماً من الأيام أن يتطرق إلى ملكه أي كسب خبيث، أو متاع فيه ريبة أو شبهة، وإنما هو العمل المصحوب بالجد والمداومة، المغسول بالعرق يتصبب من جبينه الطاهر، حتى إن سعداً يستطيع أن يؤكد أنه لم تصل جوفه لقمة من مال حرام في يوم من الأيام، وبذلك التطهر والتحرز والاحتياط من أخذ أي حق لسواه، بارك الله جل جلاله في قليله فصار جليلاً، وفي صغيره فأصبح كثيراً غزيراً، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.

وإذا كان لكل عمل جزاء، ولكل مجهود تقدير، ولكل بطولة تكريم، فما يكون تكريم سعد على إيمانه وإخلاصه، وجهاده ونضاله، وشهامته وكرمه؟

إن جزاءه الطيب عند الله موكول إلى فضل الله الذي لا يحد، وعطائه الذي لا يعد، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يزين حياة سعد بمكرمة تدل على طهارة نفسه، وسمو قلبه، وعلو مكانته عند ربه، فدعا له قائلاً: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك». وقال أيضاً: «اللهم سدد سهمه، وأجب دعوته».

واستجاب السميع العليم لنداء رسوله ورجائه، فما دعا سعد ربه يوماً إلا استجاب دعاءه. ولقد سمع سعد رجلاً فاجراً يسب الإمام علياً وطلحة والزبير، فنهاه عن ذلك فلم ينته، بل قال مستخفاً به: يتهددني كأنما يتهددني نبي. فدعا سعد وقال: اللهم إن كنت تعلم أنه سب أقواماً قد سلفت لهم منك سابقة، وأسخطك سبه إياهم، فأره اليوم آية تكون للعالمين.

ولم يمض إلاّ قليل حتى عدت عليه ناقة شاردة، فوطئته فمات من إصابته؛ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

وامتدت حياة سعد بن أبي وقاص، وطالت حتى تجاوز الثمانين من عمره، ولكنه طول في الخير، وامتداد في عمل البر؛ فقد ظل على صفاته التي باهى بها المسلمون، وتمناها المتمنون، فهو ممن صدق فيهم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «خيركم من طال عمره وحسن عمله».

وحينما حضرته الوفاة تذكر أن خير ما يعتز به المؤمن عند الله تعالى هو

ما قدم من طاعة وجهاد، وكانت عند سعد غباءة قديمة من صوف، فلما أحس بالموت قال لأهله: كفنوني فيها، فإني كنت قد لقيت المشركين يوم بدر وهي عليّ، وإنما كنت أخبؤها لهذا.

رضوان الله على الأسد في براثنه، الفارس المجاب للدعوات!.

***

الفدائي الفقيه

عبد الله بن أنيس

إن العمل الفدائي لا يفلح ولا ينجح إلاّ إذا نهض على دعامتين هما: الإيمان الديني العميق؛ والنضال الثابت الرشيد؛ لأن الفدائي يحمل روحه على راحته، ويمضي بها نحو غايته، فإما نصر وإما شهادة، والمنية لديه أخف من الدنية؛ ولذلك كان شعار العمل الفدائي المعاصر: إنا فدائيون، نفنى ولا نهون. وكأنهم في هذا الشعار قد لمحوا قبساً من نور الله جل جلاله الذي يقول:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولو رجعنا إلى صفحات الفدائيين في تاريخ الإسلام لوجدناهم قدوة في ثبات العقيدة وتوطد الإيمان، ولوجدناهم أمثلة للإقدام والثبات في الميدان.

وهذا واحد منهم، نراه سباقاً إلى الإسلام، معتصماً بعزة الله التي لا تضام ولا ترام، متعرضاً لمواقف البأس والحمام، وهو الصحابي الجليل: أبو يحيى عبد الله بن أنيس بن حرام القضاعي الأنصاري، حليف بني سلمة من الأنصار، وهو جدير بأن يدار عنه الحديث أكثر من مرة، لأنه تعود إظهار الروح الفدائية منذ وقت مبكر في حياته.

وقد شهد بيعة العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار الذين قدموا مكة من المدينة، وبايعوا الرسول على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم، وكانت هذه البيعة في جوف الليل، وفي مكان خفي مستور، ومن حولهم أخطار، وقد تسللوا إليها كتسلل القطا مستخفين، حسبما عبرت السيرة العطرة نفسها، وهذا رسول الله ﷺ يقول لهم وقد اجتمعوا

اجتماعهم السري: «ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة، فإن عليكم من المشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم».

ومن هذا نفهم أن الإقدام على هذه البيعة كان فيه لون من المخاطرة، وكان نوعاً من العمل الفدائي.

وبعد أن أسلم عبد الله بن أنيس أخذ يقدم على أعمال فدائية جزئية متوالية، فهو لا يبالي بجموع المشركين، ولا بسلطانهم، بل كان يهجم على أصنامهم مع معاذ بن جبل وغيره، فيحطمون منها ما يحطمون، ويلوثون منها ما يلوثون، ليشعروا المشركين بضلالهم وفساد عقولهم.

ومن الأصنام التي سخروا بها صنم لعمرو بن الجموح الذي كان حينئذ مشركاً، فكانوا يأتون ليلاً إلى هذا الصنم، ويقذفون به وسط مجمع القاذورات بعد أن يجعلوه منكساً على رأسه. وفي الصباح يأتي عمرو فيجده ملوّثاً، فيأخذه وينظفه، ويقول: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

وتكرر هذا أكثر من مرة، فأخذ عمرو سيفاً، ووضعه في عنق الصنم، وقال له كأنه يسمع أو يعقل: إني لا أعلم من يفعل بك هذا، فإن كان فيك خير فامنع نفسك، وهذا هو السيف معك.

فجاء معاذ وعبد الله ومن معهما، ونزعوا السيف من رقبة الصنم، وربطوا مكانه كلباً ميتاً، وألقوا الصنم في مجمع القاذورات، وأصبح الصباح، وجاء عمرو فرأى ما رأى، فأدرك وتدبر، وعلم أنه كان على ضلال وخبال، حينما عبد ما لا يضر ولا ينفع، ولا يدفع عن نفسه سوءاً، وهداه الله تعالى إلى نور الإسلام.

وبعد حين بعثه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في سرية فدائية وحده، لكي يقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي العنزي عدو الله ورسوله والمؤمنين؛ وأتم عبد الله مهمته، وعاد فرحاً إلى الرسول الذي قال له حين رآه: أفلح الوجه.

ثم أعطاه النبي مخصرة[١] - أي عصا - فلما لقي بها الناس قالوا له: ما هذه؟ فأجابهم: أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها عندي. قالوا له: أفلا ترجع فتسأله لِمَ ذلك؟

ورجع عبد الله إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، لِمَ أعطيتني هذه العصا؟

فقال: «هي آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصِّرون يومئذ». فحفظها عبد الله مربوطة بسيفه حتى مات فدُفنت معه، ولذلك كان يقال لعبد الله بن أنيس: «صاحب المخصرة».

وقد يطيب لنا أن نؤكد هذا الحدث فنسمعه من فم عبد الله بن أنيس نفسه، قال:

«دعاني رسول الله ﷺ، فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعُرَنة، فائته فاقتله، قلت: يا رسول الله، انعته لي حتى أعرفه.

قال: إذا رأيته وجدت له قشعريرة.

فخرجت متوشحاً سيفي حتى وقعت عليه وهو بعُرنة مع ظُعن (نساء في الهودج) يرتاد لهن منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه، أومىء برأسي للركوع والسجود. .

فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك.

قال: أجل أنا في ذلك.

---

(١) المخصرة ما يمسك به الإنسان في يده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكىء عليه (النهاية).

فمشيت معه شيئاً، حتى إذا أمكنني حملت عليه السيفَ حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: أفلح الوجه. قلتُ: قتلتُه يا رسول الله. قال: صدقت. ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس.

فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها. قالوا: أوَلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصِّرون يومئذ».

ثم هاهوذا عبد الله يخرجه رسول الله خامس خمسة من المناضلين الفدائيين الأبطال أصحاب رسول الله، ليدخلوا بين اليهود البغاة، حتى يقتلوا المجرم الأثيم أبا رافع سلام بن الحقيق الذي اشتط في عداوة الرسول، وتأليب المشركين عليه، وإعطائهم المعونات ليستطيعوا بها مقاتلة النبي وأصحابه.

واحتال عبد الله وصحبه، حتى اقتحموا الحصن على اليهودي الخسيس أبي رافع، وعاجلوه بطعنات سيوفهم، وأجهز عليه عبد الله بن أنيس، ولقد صاحت امرأة اليهودي عند دخولهم، وكاد يفتضح أمرهم، وهمَّ أحدهم بضربها بسيفه، ولكنه تذكر أن الرسول نهاهم عن الاعتداء على النساء والأطفال فأمسك يده.

وبعد أن أتموا مهمتهم عاجلوا بالعودة إلى رسول الله وأخبروه وكادوا يختلفون في تحديد من أجهز على عدو الله. فقال لهم الرسول: أروني سيوفكم، فأروه إياها، فقال مشيراً إلى سيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله.

فزاد سرور عبد الله بهذا الإنصاف النبوي الكريم.

***

ولم يكن هذا العمل الفدائي المتواصل من عبد الله بن أنيس - رضي الله عنه - قائماً على قوة العضلات، وجراءة القلب، وقوة العزم، وصلابة الإرادة،

وعمق الخبرة بالقتال والنضال، فحسب، بل كان قائماً مع ذلك أو قبل ذلك على الإيمان الديني الوطيد، وعلى وضوح الرؤية الشاملة لمبادئ الإسلام وتعاليمه، وعلى التعمق في فهم الدين الحنيف. فالمجاهد ابن أنيس الذي شهد غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، لم يشغله العمل الفدائي عن التفقه في الدين، وطلب العلم الإسلامي من منبعه الأصيل، وهو رسول الله عليه صلوات الله وسلامه، فقد روى عنه الكثير من الأحاديث. وكان يكرر سؤاله عما يريد أن يفقهه من أمور الدين.

بل يروي التاريخ الإسلامي بعد ذلك أن عبد الله بن أنيس رحل مسيرة شهر ليلقى جابر بن عبد اللّه الأنصاري، فيسمع منه بعض الأحاديث التي سمعها من الرسول حول المظالم والقصاص بين أهل الجنة والنار.

وهكذا كان عبد اللّه بن أنيس بطلاً في الميدان، وقدوة في الحرص على تعاليم الإيمان.

رضوان الله على الفدائي الفقيه: عبد اللّه بن أنيس الذي توفي سنة ثمانين بالشام على المشهور.

***

الفدائية المؤمنة

نسيبة بنت كعب

من الظواهر التاريخية التي تستحق الدراسة والمتابعة أن المرأة العربية المؤمنة قد شاركت خلال مراحل النضال في معارك مختلفة، بألوان من النضال والكفاح، فهي لم تكتف بالغضب أو الشكوى أو الأنين، أو المقاومة السلبية للعدو الباغي، أو إثارة العزائم في صدور الرجال، بل شاركت عمليّاً في حركات المقاومة الفدائية التي تنهض على معاني التضحية والبذل والإقدام.

والإسلام يعلمنا أن المعركة الممتدة بين الإيمان والطغيان معركة من أجل الجميع، لأنها تكون للدفاع عن الحريات، وصيانة الحرمات، واستخلاص الوطن السليب من أيدي أعداء الله وأعداء عباد الله، فيلزم أن يشترك فيها الجميع بطريق مباشر أو غير مباشر.

ولذلك قال الفقهاء إن الجهاد فرض كفاية، يتحتم أن ينفر إليه العدد الكافي من أبناء الأمة، يحملون أرواحهم على أكفهم، ويخرجون إلى لقاء أقدارهم في ساحة العزة والكرامة، فإما أن يحققوا نصراً فيكونوا غزاة في سبيل الله، وإما أن يلاقوا شهادة تنقلهم إلى أسمى نعيم وأعلى تكريم في رحاب الله جل علاه، فإذا بلغت المعركة مستوى التعبئة العامة، أو الزحف العام، ووطئ العدو أرض الإسلام والمسلمين بطغيانه وبهتانه، أوجب الإسلام الجهادَ على الجميع، فيصبح فرض عين، فيخرج الشيوخ والشباب، والرجال والنساء، حتى إن الزوجة تخرج دون إذن زوجها، لأن الموقف حينئذ موقف حياة للجميع، أو مذلة للجميع.

والمرأة المسلمة على عهد رسول الله ﷺ قد أدت واجبها في ميادين النضال والكفاح: قامت أولاً بالحراسة، وإعداد الزاد والعتاد، ووقفت مرابطة

خلف الصفوف المناضلة، تسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وتمرض المرضى؛ ثم تشترك في القتال إذا احتاجت المعركة إليها في حومة الوغى.

ولقد تألقت في تاريخ المرأة المؤمنة أسماء نساء بقيت ذكريات كفاحهن ونضالهن نوراً يضيء الطريق لكل مسلمة تريد أن تجمع لنفسها بين عزة الدنيا ونعيم الآخرة، من أمثال أم أيمن بركة بنت محصن، زوجة زيد بن حارثة، التي أسلمت في أول الدعوة، وهاجرت الهجرتين، وبايعت الرسول عليه الصلاة والسلام، وشهدت غزوة بدر، وغزوة أحد، والرُّبيع بنت معوذ التي بايعت رسول الله بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكذلك الفُرَيعة ـ أو الفارعة ـ بنت مالك، وهي أخت أبي سعيد الخدري، وقد شهدت أيضاً بيعة الرضوان، وهي البيعة التي عاهد المسلمون فيها ربهم ورسولهم على الموت في سبيل الله، والتي قال الله فيها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

ومثل السيدة عائشة، والسيدة أم سلمة، فقد روى أنس قال: «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سلمة، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما[(١)]، تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم.

ومثل صفية بنت عبد المطلب التي قاتلت في غزوة بني قريظة، ونزلت من الحصن الذي كان يقيم فيه النساء والأطفال، فقتلت أحد اليهود، ثم عادت إلى حصنها.

وكذلك أم سنان الأسلمية التي خرجت في غزوة خيبر، وشاركت في

(١) أي خلاخل سيقانهما.

أعمال المعركة، وقال لها الرسول: إن لك صواحب قد أذنت لهن، فكوني مع أم سلمة.

وكذلك أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي، التي شهدت معركة القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وأخبرت أنها وصواحب لها قد شددن عليهن ثيابهن، وأخذن الهراوي بأيديهن، ومضين يعالجن الجرحى، ويجهزن على من يستطعن من المشركين.

ومن أمثال «أم خلاد» التي شهدت غزوة أحد مع زوجها وولدها وأخيها، واستشهد الزوج والولد والأخ، فحملتهم هذه الصحابية الجليلة على بعيرها تريد دفنهم في المدينة، فلقيتها عائشة أم المؤمنين في الطريق، فقالت لها: عندك الخبر يا أم خلاد، فما وراءك؟

قالت أم خلاد: أما رسول الله ﷺ فصالح: وكل مصيبة بعده جللٌ (أي هينة) واتخذ الله من المؤمنين شهداء.

قالت عائشة مشيرة إلى من حملت من الشهداء: من هؤلاء؟

فأجابت أم خلاد: أخي وابني، خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح.

قالت عائشة: فأين تذهبين بهم؟

أجابت: إلى المدينة أقبرهم فيها.

وزجرت أم خلاد البعير ليتابع مسيره فما استطاع، فلما وجهته جهة الميدان تحرك وأسرع حتى بلغ مكان المعركة، وهناك دفنهم الرسول معاً، وقال لها: «يا هند، ترافقوا في الجنة: عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله».

ففرحت وقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني معهم.

وعمرو بن الجموح هو الذي قال لرسول الله ﷺ قبيل غزوة أحد: «يا رسول الله، إن أولادي يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، والله أني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة».

وكان أولاده قد قالوا له: إن الله قد وضع عنك الجهاد، ولك عذرك. وذلك لأنه كان مصاباً في رجله، والقرآن يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٧].

وعرض الرسول على أولاده أن يحققوا رغيبته، فاستجابوا وخرج ونال الشهادة، وهنا قال الرسول: «والذي نفسي بيده لقد رأيته وهو يطأ بعرجته في الجنة».

وعمرو بن الجموح هو الذي قال عنه النبي لنفر من بني سلمة: «سيدكم عمرو بن الجموح».

وكان لعمرو أربعة أبناء يجاهدون معه.

***

ومن هؤلاء المجاهدات المضحيات الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وهي من طليعة نساء المدينة اللواتي سَارَعْنَ إلى الإسلام، فقد كانت إحدى امرأتين رحلتا مع طلائع الأنصار إلى مكة، حيث كانت المبايعة منهم لرسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثالثة.

ثم خرجت نسيبة إلى غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم، وولديها حبيب وعبد الله، أي أن الأسرة كلها خرجت لتؤدي واجب الوفاء والمضاء في سبيل الله، وتطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام - وهو في طريقه إلى الغزوة - فرأى هذه الأسرة المؤمنة المجاهدة تمضي إلى الميدان في ثقة ويقين، فقال لهم: «رحمكم الله أهل بيت، بارك الله فيكم أهل بيت».

فانتهزت أم عُمارة هذه الفرصة الطيبة وقالت: يا رسول الله، ادع الله أن نرافقك في الجنة.

فقال: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة.

فطار الفرح بنسيبة، وقالت: ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا بعد ذلك.

وبدأت الغزوة، وقاتلت فيها أم عمارة بشجاعة وجراءة، وأصاب جسمها اثنا عشر جرحاً، ما بين طعنة برمح، أو ضربة بسيف، وكان أحد هذه الجراح من ضربة لئيمة مجرمة ضربها بها عدو الله عمرو بن قمئة المشرك، فأحدثت جرحاً عميقاً بعيد الغور في كتفها.

وهذه هي أم سعد بنت سعد بن الربيع تلتقي بعد ذلك بنسيبة، فتسألها عن ذكريات جهادها ونضالها، وتقول لها: يا خالة، أخبريني خبرك يوم أحد، فتقول أم عمارة: خرجت في أول النهار أنظر الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين (أي كانوا منتصرين حينئذ)، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي بالقوس، حتى خلصت الجراح إليَّ.

فسألتها أم سعد عن جرحها العميق في كتفها، فقالت لها: مَنْ أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقمأه الله (أي أذله الله وحقره). لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل ابن قمئة يقول: دلُّني على محمد، لا نجوتُ إن نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وهكذا لم تخف ربيبة الإسلام وبنت الإيمان من الضرب أو الطعان، بل أقبلت إنسانةً ثائرة عازمة على أن تبذل كل طاقتها في سبيل دينها وحريتها وكرامة أمتها، فقابلت ضربة العتل الأثيم بضربات لها قوتها وشدتها، ولكن اللعين كان قد حصن جسمه، فوضع عليه درعين لا درعاً واحدة، ونسيت أم عمارة حينئذ كل شيء إلاّ أنها في ميدان، يحتاج إلى وفاء وفداء، فمضت تطعن وتضرب، حتى قال فيها رسول الله ﷺ: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلاّ رأيت أم عمارة تقاتل دوني».

ولقد رأى النبي في غزوة أحد رجلاً معه ترس لا يتترس به، وأم عمارة ليس معها ما تحمي به نفسها، فقال الرسول لذلك الرجل مشيراً إلى أم عمارة: «ألق ترسك لمن يقاتل»، وأعطاها الرجل ترسه فتترست به، ومضت تواصل القتال.

وطُعنت أم عمارة طعنات كثيرة، ورأى الرسول الدم يسيل من جسمها فنادى على ابنها ليعاونها قائلاً: «يا ابن عمارة، أمك، أمك، اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان».

فعادت أم عمارة تسأل الرسول أن يدعو ربه لتكون هي وأسرتها معه في الجنة، فدعا لها بذلك، فطارت فرحاً وقالت: «ما أبالي ما أصابني من الدنيا».

وحينما جُرح ابنها عبد اللّه، أخذ الدم يسيل بغزارة، فقال له النبي: «اعصب جرحك»، وسمعت أم عمارة قول الرسول، وكان معها عصائب قد علقتها في وسطها، فأخذت منها، وربطت لابنها جرحه، ثم قالت له: «انهض فضارب القوم».

فقال لها النبي معجباً: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة»؟

ثم شاهد النبي بعد قليل من أصاب ابنها، فأشار النبي إليه وقال لها: «هذا ضارب ابنك»، فسارعت نحوه وضربته في ساقه، فوقع على الأرض، ثم أجهزت عليه، فقال لها النبي: «الحمد لله الذي أظفرك، وأقر عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينيك».

ومضت الأيام، وظلت نسيبة تخدم الإسلام، وتؤدي واجبها في الحرب والسلام، وشهدت مع رسول الله بيعة الرضوان، وهي بيعة المعاهدة على الشهادة في سبيل الله، ولحق الرسول بربه تبارك وتعالى، وظهر اللعين مسيلمة الكذاب بتمرده المجرم، ووقف في وجهه المؤمنون، وفيهم حبيب بن زيد بن عاصم، وهو ولد نسيبة، ووقع حبيب في يد مسيلمة أسيراً، فعذبه، فاحتمل صابراً.

وجعل مسيلمة يقول لحبيب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم.

فيقول له: أتشهد أني رسول الله؟.

فيقول: لا أسمع.

فقطّع مسيلمة جسم حبيب حتى مات!!

وعلمت نسيبة بمصرع ابنها، فنذرت ألاّ يصيبها غسل حتى يُقتل مسيلمة، وخرجت إلى معركة «اليمامة» مع ابنها الآخر عبد الله، وكانت حريصة على أن تقتل مسيلمة بيدها، ولكن القدر أراد أن يكون القاتل له هو ابنها عبد الله الذي ثأر لشقيقه حبيب.

تقول أم عمارة: تقطعت يدي يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة، وما كان لي ناهية - أي مانع - حتى رأيت الخبيث مقتولاً، وإذا ابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه، فقلت له: أقتلته؟ قال: نعم. فسجدت لله شكراً.

وقد اشترك في قتل مسيلمة مع عبد الله: وحشي بن حرب، وبمقتل هذا الطاغية تطهرت الأرض العربية المؤمنة من المؤامرة الأثيمة التي أريد بها القضاء على كلمة الإسلام ووحدة المسلمين.

***

إن المرأة المؤمنة حين ترى قومها وأمتها في مرحلة فاصلة من مراحل نضالها الواسع، وكفاحها الشامل، يحق عليها أن تنسى زينتها ومتعتها، وتنسى ثيابها وحليتها، وتتذكر على الدوام أن بلادها في حاجة إلى كل نبضة من نبضات قلبها، وكل خطوة من خطوات قدميها، وكل حركة من حركات يديها، وكل ومضة من ومضات عقلها، وكل جهد مادي ومعنوي من جهودها، وتظل هكذا على طريق النضال والكفاح، حتى تتحرر الديار، ويزول العار، ويؤخذ الثأر، ويومئذ تشرق شمس الحياة العزيزة الكريمة من جديد.

***

وصية فدائية

من قائد لابنه القائد

إننا سنظل بحاجة إلى استمداد من منابع الهدى والرشاد، لنفقه مبادئ النضال والجهاد، فنزداد بصراً بسبيلنا، وتوفيقاً في عملنا وإصراراً على طلب حقنا، واستمراراً في البذل والتضحية من أجل حرماتنا، حتى يبلغ الكتاب أجله، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وليكن استمدادنا هذه المرة من شيخ البلاغة وإمامها بعد رسول الله ﷺ، وهو سيف الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، وهو القائل: «لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنية في أمري»، «استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه»، «الوقوع في المكروه أسهل من توقع المكروه»، «الناس من خوف الذل في ذل»، «الشريف دون حقه يُقتل»، «كن للعدو المكاتم أشد حذراً منك للعدو المبارز»، «الصبر مطية لا تكبو»، «الصبر على المشقة يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر».

يروي التاريخ أنه حدث في إحدى المعارك أن أعطى الإمام علي الراية لابنه محمد بن الحنفية[1]، وهو ولده من زوجته خولة بنت جعفر، وسميت بالحنفية لأنها من قبيلة بني حنيفة العربية ـ ثم قال له يوصيه: «يا بني، تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تِدْ في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم ثم غُضَّ بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه»!

---

(١) توفي في المدينة سنة إحدى وثمانين، ودفن في مقبرة البقيع، وعمره خمس وستون سنة.

وقد أراد عليٌّ من ولده بهذه الوصية أن يلتزمها ويطبقها، حتى يكون قدوة لغيره من المجاهدين والمحاربين، ولنتذكر أن الموصي هنا هو البطل المقدام الذي كان يدخره رسول الله ﷺ للموقف العصيب واليوم الرهيب، فإذا ضعف حملة اللواء مثلاً عن الفتح استنهض النبي همة علي، وقال عنه: «سأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» فإذا عليّ يحقق الظن الحسن، ويفتح الفتح المبين.

وما أجمل ابتداء عليّ في وصيته حين يفتتحها بذلك النداء الحبيب، وتلك الكلمة الحلوة العذبة، الدالة على الحب والإخلاص: «يا بني» أي يا أعز الناس عليّ، ويا أقربهم إليّ، ويا أغلاهم عندي، إنك ولدي، وفلذة كبدي، ومع ذلك أدعوك إلى موقف البذل والثبات، فإنه شرف لو تعلم عظيم.

وأول شعار في هذه الوصية هو قول الإمام: «تزول الجبال ولا تزل» وهذا الكلام فيه معنى الشرط، كأنه قال: إن زالت الجبال فلا تزل أنت، وهذا للمبالغة في الحث على الثبات، وقد كان بعض العرب يقولون على هذا النمط: لا نفر حتى يفر الحجر. فيا بني، لو فرضنا أن الجبال الراسية الراسخة تتحرك أو تضطرب أو تتزلزل أو تتزحزح من مكانها، فواجبك أن تظل أنت راسخاً راسياً مطمئناً بذكر الله، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وأن تبقى حيث يريدك بارئك، وحيث يتطلبك الوفاء والإخلاص.

ويا بني، كن مثلاً من أمثلة الثقة واليقين، مستقرّاً في إيمانك، سائراً على طريقك، مصرّاً على حقك، لا تتبدل ولا تتحول، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين أوجز للمؤمن النصح فقال: «قلْ آمنتُ بالله، ثم استقِمْ». والإيمان الوطيد العميق الصادق هو أساس الاستقامة والمداومة على طريق الحق.

وهذا التوجيه العلوي مستمد من نور القرآن المجيد الذي يعلّم المؤمنين به كيف يثبتون في الجهاد، وكيف يطمئنون في مواقف الهول، وكيف يُقبلون ولا يفرون، وكيف يتقدمون ولا يتأخرون، إلاّ لحكمة: كالمخادعة للعدو، أو إرادة الانضمام إلى طائفة أخرى من الجيش المؤمن المناضل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥ـ ١٦] ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الفرار من الزحف ـ أي من الجهاد ـ المشروع الواجب المفروض ـ كبيرة من أشنع الكبائر التي بتوعد الله فاعلها بأشد ألوان العقاب.

كما أخبرنا أن التضحية الصادقة هنا هي مفتاح الغفران والرضوان، فقد سأله بعض الناس عن الجهاد: هل يكفّر الخطايا؟ فأجابه: «إن قُتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر». أي غفر الله لك وأدخلك من الجنة الفردوس الأعلى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ـ ٤﴾.

***

ثم قال الإمام علي لولده: «عُضّ على ناجذك». والمراد بالعض الضغط الشديد، والناجذ واحد النواجذ، وهو الضرس بين الأضراس، أو الناب بين الأنياب، وهذا التعبير العربي البليغ كناية عن العناية بالأمر، والاهتمام له والعزيمة فيه، لأن من عادة الإنسان إذا تحفز لشيء أو عني به، أو أقدم عليه بهمة، أن يضغط على أسنانه، كأنه يعاون إرادة قلبه بالضغط على أسنانه، وكأن الإمام علياً يحث ابنه على أن يقدم نحو واجب النضال والكفاح في همة نفسية، وقوة حسية، ويقظة روحية، وصلابة بدنية، حتى يتحقق له العزم الجامع بين صدق الباطن وصلاح الظاهر.

وإذا عض الإنسان على أسنانه اشتدت أعصاب رأسه، وتماسكت عظامه كما قال السابقون، بل لقد قالوا: إن العاض على نواجذه ينبو السيف عن دماغه، لأن عظام الرأس تشتد وتصلب، وكأن الإمام يريد من ابنه أن يستحضر قوته، أو لعله يريد منه أن يثير في نفسه عوامل الغيظ من أعدائه الظالمين له، وكوامن الغضب على المنتهكين حرمته.

وهذا يشير إلى ما يلزم من شحن نفوس المجاهدين بقدسية المعركة التي ارتكبها أعداؤهم، ووجوب غسل العار والأخذ بالثأر ممن هزئوا بمقدساتهم، وتطاولوا على حرماتهم، فإن الهوان والإيمان لا يجتمعان.

ولقد قال الإمام علي في موطن آخر: «عضوا على النواجذ، فإنه أنبى للصوارم عن الهام». وأنبى أبعد، والصوارم: جمع صارم وهو السيف القاطع، والهام: جمع هامة وهي الرأس، أي أن الغضب الكريم الذي يثير المظلومين المهضومين المعتدى عليهم يفجر فيهم طاقات القوة والمنعة، فلا تكون رؤوسهم فريسة طيعة لسيوف أعدائهم، ولو كانت قاطعة.

ثم قال الإمام لابنه: «أعر الله جمجمتك». الإعارة هي الإقراض والسلف، والجمجمة هي الرأس، ويكنى بها عن حياة الإنسان، لأن الإنسان متى زال عنه رأسه فقد زالت حياته الدنيوية، والرأس هو أشرف جزء في الإنسان، فهذا من إطلاق اسم الجزء على الكل، والمعنى: قدم نفسك وحياتك عاريّة وقرضاً وسلفاً لربك، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، والذي لا يضيع عنده قرض ولا سلف، والذي يعيد إليك رأسك بعد بَذْلِكَ له، يعيده إليك في حياة أسمى وأعلى وأبقى، وكن مستعداً للتضحية بحياتك في سبيل بارئك، متى دعاك إلى التضحية بها في مجالات الحق والدفاع عن الحرية والعزة والعقيدة. وما أفضلها من تضحية، وما أربحها من تجارة!

وما أروع الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال: «والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل».

وقد نفهم من عبارة: «أعر الله جمجمتك» أن المؤمن الشجاع المقدام قد يكتب الله له السلامة والنجاة، لأن الإمام استعمل مادة «الإعارة»، والعارية مردودة، والسلف عند الكرام مصون يعود إلى أصحابه، فكيف به عند أكرم الأكرمين: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ولذلك قال بعض السابقين: لو أن الإمام قال لولده: «بع الله جمجمتك»

لكان ذلك إشعاراً له بأنه سيلقى الشهادة، على حد قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]. وكأن عبارة: «أعر الله جمجمتك»[١] بُشرى أجراها إلهام الله على لسان الإمام علي، لبكون تفاؤلاً وإشارة إلى أن ابنه سينتصر، وسيحفظ الله عليه حياته، ويرد إليه عاريته.

وعاد الإمام يقول لابنه القائد الشاب: «تِدْ في الأرض قدمك». وكلمة «تِدْ» معناها اجعل قدمك في الأرض ثابته كالوتد المغروس فيها، فهو ثابت لا يتحرك. وهذا التعبير العلوي العميق يتضمن التوجيه إلى التمكن من أرض المعركة، بعد حسن اختيارها، وحسن تحصينها، واستخدام كل جزء فيها على أحسن وجه، وبذل كل جهد لكي يكون الجيش المؤمن المناضل مسيطراً على الميدان، متمكناً منه، ثابتاً فيه ثبات الأوتاد في باطن الأرض، كما أنه يوجّه إلى الثبات والاستقرار، والاحتفاظ بالموقع الذي يجب الاحتفاظ به في المعركة، حتى لا يُحدث الأعداء ثغرة في صفوف المجاهدين، أو يحتلوا قطعة من أرض المؤمنين، ولذلك طالب القرآن الكريم برسوخ الأقدام في مواطن القتال والالتحام، فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

ولا شك أن الثبات في القتال يحتاج إلى مجاهدة الفزع، ومقاومة الخوف، والتغلب على شهوات النفس وأهوائها، وحملها على ما يليق بها، وإن كان مرّ المذاق، أو شديد الاحتمال، فقد قال الإمام علي: «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه».

وحينما قال القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا

(١) يروى أن يزيد بن المهلب أخذ هذه اللفظة فخطب بها أصحابه في معركة فقال لهم مشيراً إلى أعدائهم: «أعيروني سواعدكم ساعة، تصفقون بها خراطيمهم، فإنما هي غدوة أو روحة، حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين».

﴿كَأَنَّهُم بُنيَٰنٌ مَّرصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]أراد أن يلفت أنظار المجاهدين وأفكارهم إلى أن البنيان المرصوص الكامل يقام على أساس وخطة ونظام، ويحتاج إلى استكمال وإتمام، وهو بعد هذا يكون قوياً متيناً، فتثبيت الأقدام في الأرض ـ كما ينصح الإمام ـ يتضمن الحث على الإعداد والاستعداد وحسن البلاء وطول الصبر ـ أو «النَّفَس» ـ في الجهاد.

ثم قال الإمام علي: «ارم ببصرك أقصى القوم، ثم غض بصرك». أي أحط بجميع حركات الأعداء، ومواقعهم وأعدادهم وأسلحتهم، واجعل دراستك لأحوالهم دراسة شاملة كاملة، تصل آخر جزء من أمورهم وشؤونهم، حتى تكون على بصيرة من موقفك وموقفهم، وحتى تقابلهم بما يهزمهم والحديد بالحديد يفلح.

وبعد استكمال دراستك توكل على ربك في عزم وحزم، ولا تظل مضطرب النظر حائر البصر، ولا تجعل بصرك موزعاً أو مفزعاً، بل غض بصرك المتردد يميناً وشمالاً، ولا تجعله ينبهر بما يرى منهم فتفزع أو تخاف، ولا يهولنك شيء منهم.

وكان العرب يصفون الشجاع بقولهم: «فلان غشمشم» أي لا يشغل نفسه بالتطلع إلى ما بين يديه أو ما حوله في أثناء الحرب، بل يقتحم ما أمامه من أخطار، مع قلة مبالاة بالأهوال، ومن شعر الشريف الرضي في الفخر قوله:

يعودُهم مني غلام غشمشم   معين على البأساء غير مُعان!

وكان سيد الشهداء حمزة يقدم في المعركة لا يشغل نفسه بالنظر إلى ما أمامه أو حوله.

ولا تعارض بين قوله: «ارم ببصرك أقصى القوم» وقوله: «غض بصرك» لأن الأمر الأول يعني لأن يفتح عينيه جيداً، ويدرس أحوال عدوه كلها، ثم إذا بدأ القتال أبعد عنه عوامل الفزع، فلا تبهره قوة العدو، ولا تخيفه كثرته، وكأنه يقول له: إذا أقدمت على القتال والهجوم، فاقصد إلى غايتك المرسومة المدبرة على بصيرة، فإن طريق النصر واضح: إعداد واستعداد، ثم إقدام وجهاد، ثم حرص على شرف النصر أو نعمة الاستشهاد.

وهذا لا يتيسر على وجهه الطيب إلاّ مع التحلي بنعمة الإيمان، فإنها هي التي تعمر صدر صاحبها بالثبات والاطمئنان، وتورثه النعيم والسعادة ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧]. ولعل هذا هو الذي جعل الإمام يختم وصيته بقوله: «واعلم أن النصر من عند الله سبحانه». وهذا مستمد من هدى القرآن الذي يقول: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ [آل عمران: ١٢٦] . ويقول: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ١٥٠]. وإنما يتولى الله بالنصر الذين يؤمنون به وينصرونه، بطاعته والاستجابة لأوامره: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ومتى انطوى صدر المجاهد المناضل على أن النصر من عند الله، انقلب ليثاً هصوراً يشعر بأن اللّه معه، يسنده ويؤيّده، ويهبه الفوز العظيم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

***

ولقد كان الإمام علي جديراً كل الجدارة بأن يصوغ لابنه هذا المنهاج الفدائي الرائع، فأنما صاغه من وحي بطولته الفذه التي عرفتها الميادين والمعارك، وهو الذي أعطى ابنه محمداً راية في إحدى المعارك، وقد تكاثرت السهام من حولهما كأنها شآبيب المطر، وقال له:

اطعن بها طعنَ أبيك تُحمدِ   لاخير في الحروب إذا لم توقدِ

بالمشرفيّ والقَنا المسددا

وحينما تردد محمد في إحدى المعارك قال له أبوه مشجعا وحاثًّا على المضي في الجهاد: امح الأولى بالأخرى.

وكان محمد جديراً كل الجدارة بأن ينفذ الوصية، فهو الذي جاءه رجل وقال له: جئتك في حويجة (إي حاجة صغيرة). فقال له: فاطلب لها رجيلاً (أي رجلاً صغيراً).

ولا عجب رجل جليل تناسبه جلائل الأعمال: «إن العظائم كفؤها العظماء».

وهو القائل: «من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر».

وحينما أراد بعض الخبثاء أن يفسد بين محمد وأخويه الحسن والحسين، وقال له ذلك الخبيث: لماذا يعرّضك أبوك للحرب، ولا يعرض أخويك الحسن والحسين؟ أجابه محمد مفوتاً عليه غرضه الدنيء: «إنما هما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه»!.

ويروى أن الأنصار قالت للإمام علي: يا أمير المؤمنين، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين، لما قدمنا على محمد أحداً من العرب. فقال: أما إنه قد أغنى وأبلى، وله فضله، ولا ينقص فضلُ صاحبيه عليه، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين، ولا نظلمهما له، ولا نظلمه ـ لفضلهما ـ عليه ـ حقه.

ولمحمد هذا قال خزيمة بن ثابت [من الطويل]:

محمدُ، ما في عُودك اليوم وصمةٌ ... ولا كنت في الحرب الضروس معرّدا[١]

أبوك الذي لم يركب الخيل مثله ... عليٌ، وسمّاك النبيُّ: محمّدا

فلو كان حقًّا من أبيك خليفةٌ ... لكنت، ولكن ذاك ما لا يُرى بدا

وأنت بحمد الله أطول «غالب»[٢] ... لساناً، وأنداها بما ملكت يدا

وأقربها من كلّ خير تريده ... قريش، وأوفاها بما قال موعدا

وأطعنهم صدرَ الكمي برمحه ... وأكساهم للهام عضباً مهنّدا

سوى أخويك السيدين، كلاهما ... إمام الورى، والداعيان إلى الهدى

أبى الله أن يعطي عدوك مقعداً ... من الأرض، أو في الأوج مرقى ومصعدا

رضوان الله تعالى على الجميع.

* * *

(١) معرداً: أي منهزماً.

(٢) غالب: يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك.

فدائيون يتنافسون على الموت

قال لي قائل: ألا ترى معي أن صدر الإسلام كان عصراً ذهبياً فريداً لا يمكن أن يتكرر أو يعود؟.

فأجبته قائلاً: إنني مع إيماني بأن خير القرون هو القرن الذي أشرقت جوانبه بنور رسول الله عليه الصلاة والسلام، أُؤمِنُ بأن الخير لا ينقضي ولا يمّحي من أمة محمد سيد المرسلين، وهو الذي أخبرنا بأن أمته لا تجتمع على ضلالة؛ والخير فيه وفي أمته بمشيئة الله جل جلاله إلى يوم القيامة.

وهذا موقف من تاريخنا المعاصر يؤيد ما أقول: فنحن نعرف أن الانجليز اللئام قد احتلوا أرض فلسطين في أواخر سنة ١٩١٧، وحرصوا منذ ذلك التاريخ على أن يحققوا وعدهم الأثيم الزنيم المعروف باسم «وعد بلفور»، وهو الذي قضوا فيه بانتزاع فلسطين العربية الإسلامية من أيدي أصحابها الشرعيين، ليعطوها اليهود غنيمة باردة، حتى تقع بذلك أكبر مهزلة في التاريخ، وهي أن يعطي مَنْ لا يملك مَنْ لا يستحق.

ولم يرض أهل فلسطين بهذا الواقع المر الأليم، فأخذوا يقاومون ويجاهدون قدر طاقتهم واستطاعتهم، والعرب والمسلمون يومئذ لاهون عنهم غافلون، مشغولون بشواغل الحياة أو مطامع الأحياء؛ وكان أهل فلسطين في نضالهم لا يواجهون عدوّاً واحداً، بل يواجهون عدوين شرسين مجرمين، هما المطامع الاستعمارية متمثِّلة في انجلترا، والصهيونية العالمية متمثِّلة في اليهود الذين عاونهم المكر الانجليزي على أن يدخلوا أرض فلسطين ويغتصبوها من أهلها.

وتغلغل اليهود الطارئون كما أرادوا في أرض فلسطين ومرافقها وطاقاتها، ولكنهم في سنة ١٩٢٨ توقحوا فزحفوا مدججين بالسلاح إلى «حائط البراق

الشريف» في القدس، وهوالذي يعد جزءاً لا يتجزأ من حرم المسجد الأقصى ثالث مساجد الإسلام المقدسة، ورفعوا فوقه العلم اليهودي، وهو يهتفون: الحائط حائطنا.

وكان الانجليز حينئذ يؤيدون اليهود بكل أنواع التأييد؛ وأهل فلسطين عزل بلا سلاح يذكر، ومع ذلك لم يسكتوا، وأخذوا يدافعون عن حرماتهم ومقدساتهم، واشتعلت منهم ثورة سنة ١٩٢٩، وسقط كثير من القتلى والجرحى المسلمين بنيران اليهود والانجليز معاً، وعلى الرغم من ذلك توقح المندوب البريطاني - وتاريخ بريطانيا في الوقاحة طويل عريض - وأخذ يصدر أحكامه بالإعدام على من يهوى ويختار من أهل فلسطين المجاهدين.

وكان في طليعتهم ثلاثة من الرجال الأبطال الفدائيين المؤمنين، الذين وصلوا حاضر الجهاد الإسلامي بماضيه، وهم الشهداء الأوفياء: فؤاد حجازي، ومحمد جمجوم، وعطا الزير. وحدد صباح يوم الثلاثاء ١٧ يونيه(حزيران) سنة ١٩٣٠ موعداً الإعدام في هؤلاء الأبطال الثلاثة، على أن يكون الساعة الثامنة موعداً لإعدام الشهيد فؤاد حجازي، والساعة التاسعة موعداً لإعدام الشهيد جمجوم، والساعة العاشرة موعداً لإعدام الشهيد عطا الزير.

واستقبل الأبطال الحكم بشجاعة نادرة وبطولة رائعة، وكان فؤاد حجازي شاباً في الثانية والعشرين من عمره، وحينما جاءه أهله ليزوروه قبيل تنفيذ الحكم، قال لهم في ثبات وإيمان: «إذا كان إعدامنا نحن الثلاثة، يزعزع شيئاً من كابوس الانجليز عن الأمة العربية الكريمة، فليحل الإعدام في عشرات الألوف مثلنا، لكي يزول هذا الكابوس عنا تماماً».

وأما الشهيد عطا الزير فقد قال: «نحمد الله على أننا نحن الذين لا أهمية لنا نذهب فداء الوطن، لا أولئك الرجال الذين يستفيد الوطن من جهودهم وخدماتهم». وأمن الشهيد محمد جمجوم على كلام زميله، وطلبوا حناء ليخضبوا بها أيديهم كما جرت العادة عند أهل بلدة «الخليل» الفلسطينية في الأعراس والأفراح.

وأعدم الشهيد فؤاد حجازي أولاً، وهو ثابت مستبشر فخور بأنه كان أول

الشهداء الثلاثة لقاء لربه، وصور الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان روعة هذه الساعة، فقال على لسانها [من الكامل]:

أنا ساعة النفس الأبيّه … الفضل لي بالأسبقيّهْ
أنا بكر ساعات ثلاث … كلها رمز الحميّهْ
قسماً بروحك يا «فؤاد» … صعدت جوانحها زكيّهْ
عاشت نفوس في سبيل … بلادها ذهبت ضحيّهْ

وتخاصم محمد جمجوم وعطا الزير، كل منهما يريد أن يسبق أخاه في ساعة التنفيذ، وسبق عطا الزير فذاق طعم الشهادة، وكأنه يرتشف رضاباً أو رحيقاً، وصور الشاعر هيبة ساعته، فقال على لسانها [من الكامل]:

أنا ساعة الرجل الصبور … أنا ساعة القلب الكبيرِ
بطلي أشد على لقاء الموت … من صُمِّ الصخورِ
يلقى الإله مخضب الكفَّين … في يوم النشورِ
قسماً بروحك يا «عطاء» … وجنّة الملك القديرِ
وصغارك الأشبال تبكي … الليث بالدّمع الغزيرِ
ما أنقذ الوطنَ المفدّى … غيرُ صبّارٍ جسورِ!!

وكان محمد جمجوم ثالث الشهداء، وحينما أمروه بالتقدم إلى المشنقة طلب منهم أن يفكوا الأغلال من يديه، حتى يتقدم طائعاً مختاراً، فرفضوا، فما كان منه إلاّ أن استجمع كل عزيمته، وحطم الأغلال بقوة عضلاته ثم تقدم باسماً فذاق الشهادة؛ وصور الشاعر هيبة تلك الساعة، فقال على لسانها [من الرمل]:

أنا ساعة الموت المشرف … كلّ ذي فعل مجيد
بطلي يحطّم قيده … رمزاً لتحطيم القيود
قسماً بروح «محمّد» … تلقى الردى حلو الورود
قسماً بأمك عند موتك … وهي تهتف بالنشيد
ما نال مَن خدم البلاد … أجل من أجر الشّهيد!

وإذا كان المؤمن الحسن الظن بربه يتخيل أن مظاهرة إلهية سماوية علوية قد قامت بها ملائكة الرحمن في ذلك اليوم، لاستقبال هؤلاء الشهداء على

أبواب جنات النعيم، فإن أهل فلسطين قد ودعوا شهداءهم بما يليق بمكانتهم، فقد كان يوم الثلاثاء ١٧ يونية سنة ١٩٣٠ يوماً مشهوداً في فلسطين، فقد علم أبناؤها بالساعات الثلاث التي سيعدم فيها الشهداء، فتعالت أصوات المودِّعين فوق المآذن في صباح ذلك اليوم، تستنزل الرحمات على الشهداء الأوفياء، بل قرعت الأجراس في الكنائس حداداً عليهم، وخفقت قلوب الرجال والنساء عند مصرع هؤلاء الشهداء، وأخذت الجموع تردد النشيد الثائر: «يا ظلام السجن خيم»، وكلما دقت الساعة دقاتها إيذاناً بإعدام شهيد وقفت الجماهير خاشعة داعية، تودع هؤلاء الشهداء بالإجلال والإكبار، وتستنزل اللعنات على الطغاة المجرمين.

وهكذا كان العمل الفدائي في فلسطين ـ خلال ما يقرب من نصف قرن مضى ـ هو التعبير الصادق العميق عن البطولة المستكنة في صدور أبناء هذه الأمة المؤمنة، من أمثال فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم، الذين يجب أن تنقش أسماؤهم على صفحات الصدور، ليكونوا مع أمثالهم قدوة لغيرهم، ليكونوا برهاناً على أن هذه الأمة لا تعقم، بل الخير باق فيها إلى ما شاء الله[1].

***

(١) ضم كتاب: «جهاد شعب فلسطين» للأستاذ صالح مسعود أبو يصير كثيراً من أنباء الفدائيين الفلسطينيين.

الشيخ المجاهد

عز الدين القسام

كنتُ ذات يوم أتحدث إلى مجموعة من الشباب عن واجبهم نحو قضية فلسطين المغتصبة، وإزالة احتلال الصهيونية للوطن العربي، وكنت أقول لهم: إنكم معقد الأمل وموطن الرجاء.

وبعد انتهاء الحديث أقبل عليَّ شاب، وقال لي في غضب وانفعال: إن القرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢] وأنت قد أكدت الحديث عن التضحية والجهاد والفداء، فهل أديت واجب الجندية؟

قلت له: لا، لأنهم أعفوني منهما حين بلغت سنها، بحجة أنني كنت حافظاً للقرآن الكريم، وطالب علم ديني في الأزهر الشريف، ولعلهم كانوا يستندون في ذلك إلى قول الله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢].

فعاد الشاب المنفعل يقول: ولماذا لا تحمل السلاح الآن، وتدخل الميدان لتكون قدوة؟

فحاولت الاعتذار إليه بقولي: إن ذراعي اليمنى كسرت مرتين، وفيها خلل والتواء لا تُحسن معه استعمال السلاح.

فقال في ضيق: على كل حال، الذي أعرفه أن صفحات الجهاد الميداني والعمل الفدائي في تاريخ فلسطين، تخلو من ذكر أحد من العلماء.

وهنا تنفست الصعداء، وقلت له بهدوء: يا بني، لقد عرفت شيئاً، وغابت

عنك أشياء، فإن أول من نظم العمل الفدائي في النضال الفلسطيني ضد الصهيونية والانجليز هو الشهيد المرحوم: الشيخ عز الدين القسام أحد علماء المسلمين.

فدهش الفتى وقال: هذا اسم لم أسمع به قبل اليوم.

قلت: أستطيع أن أسمعك عنه بعض الحديث:

كان الشيخ عز الدين القسام أحد علماء الإسلام في بلاد الشام، واشترك في الثورة العربية التي قامت بها سورية ضد الفرنسيين المحتلين، وجاهد فيها بقدر ما استطاع، وحين وقفت هذه الثورة لم يجد القسام لنفسه مكاناً ملائماً في سورية، فانتقل إلى «حيفا» في فلسطين، وهو يؤمن بأن فلسطين هي القسم الجنوبي من سورية، لأن الشام في الأصل يتكون من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن.

وكان رجلاً عالماً يحيد الخطابة والتدريس والتوجيه، فنظم دروساً دينية في مسجد حيفا، ولكنه لم يكن يحصر دروسه في مسائل فقهية مألوفة، بل كانت دروسه في الغالب استعراضاً لمواقف البطولة في الإسلام، وحثاً على الجهاد العملي والقتال الصادق ضد المحتلين من الانجليز واليهود.

وكان للشيخ عز الدين القسام «لازمة» يختتم بها دروسه، وهي ترديده لقول الله تبارك وتعالى مشيراً إلى أعداء الله وأعداء رسوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۝٥١﴾ [المائدة: ٥١]. وهو يذكر بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٩].

وكثر رواد هذه الدروس التي يلقيها الشيخ عز الدين القسام باسم الدين، داخل بيت من بيوت الله، هو مسجد حيفا بفلسطين، وكانت هذه الدروس تفعل فعل السحر في نفوس مستميعها، فهي تثيرهم، وتحرك عواطف النضال وحب الاستشهاد في نفوسهم، وأثمرت هذه الدروس ثمراتها، فبدأ فريق من أبناء فلسطين يستجيبون لتوجيهات الشيخ العالم، ويطبقون نصائحه في الجهاد.

ومنذ أوائل سنة ١٩٣٥م أخذت نتائج تلك الاستجابة تظهر في المثلث العربي الذي تكونه البلاد الثلاث: جنين ـ نابلس ـ طولكرم. حيث أخذ هؤلاء الأبطال يقومون بنسف القطارات، ومهاجمة المعسكرات الانجليزية واليهودية، واغتيال الضباط الانجليز، وقتل أي خائن يتنكر لعروبته، ويتعاون مع المحتلين المجرمين.

وكانت أعمال هؤلاء الأبطال تتم في سرية عميقة وتنظيم دقيق، ومع ذلك أخذت تشعل نار الحماس والإقدام في نفوس أبناء فلسطين، فتكاثر عدد المنضمين إلى حركة الشيخ القسام، التي كان يمسك بزمامها من وراء العمود الذي يجلس إليه للتدريس في مسجد حيفا، ولم تعلن هذه الحركة الفدائية الثائرة عن نفسها إلاّ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٣٥.

وتطلع الشيخ القسام فرأى أن عمله قد أثمر، وأن زرعه قد أينع، وأن كلماته قد صنعت ما تصنع النار القوية في صهر المعادن، وهنا سأل الشيخ الداعية نفسه هذا السؤال:

أيليق بك أن تقول للناس ما لا تلتزمه وأنت قادر عليه، أو أن تدفعهم إلى مجال نضال خطير ولا تسبقهم إليه؟ أيكون تلاميذك هناك في الميدان يلاقون المتاعب والمصاعب، ويتعرضون لمشاق الجهاد حتى الاستشهاد، بتوجيه منك وإرشاد. وأنت هنا يا عز الدين تكتفي بالكلام، وتقنع بأن تقبع في المسجد خلف عمود من أعمدته، وأنت قادر على حمل السلاح؟ إن هذا لا يليق بك يا داعية العزة والكرامة!.

وأعلن الشيخ القسام بين خلصائه أنه سينتقل من معبد المسجد إلى معبد الميدان، وأنه سينضم عملياً إلى صفوف المجاهدين ليقودهم هناك، وتحولت ثورة القسام ورفاقه إلى حركة عصيان مسلح ضد حكومة الانتداب الانجليزية واليهود.

وارتعدت فرائص الانجليز حين سمعوا ذلك، فجعلوا كل همهم أن يتخلصوا من الشيخ القسام العقل المفكر المدبر للثورة، فجمعوا عدداً ضخماً من جنودهم، وحاصروه مع رفاقه في غابة غلى مقربة من «جنين». وجاهد

الأبطال جهاد الصدق، وقاتلوا في ثبات حتى الموت. ونال الشيخ القسام نعمة الشهادة مع فريق من زملائه، في اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وكان استشهادهم سبباً في اندلاع ثورة كبرى في أرض فلسطين. ورثاه شاعر عربي فقال [من الكامل]:

أولت عمامتُك العمائم كلها ... شرفاً تقصّر عنده التيجانُ
إن الزعامة والطريق مخوفة ... غير الزعامة والطرقُ أمانُ
يارهط عز الدين حسبك نعمة ... في الخلد، لا عَنَتٌ ولا أحزان
شهداء بدر والبقيعِ تهللت ... فرحاً، وهش مرحّباً رضوان!

ثم... كان معاوية يقول للناس: «أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا». وكان خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يقول: «لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يُحكم أمر نفسه، ويكمل الذي خُلق له من عبادة ربه، إذن لتواكل الناس الخير، ولرُفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقل الواعظون والساعون بالنصيحة في الأرض»!.

ورحم الله عبداً سمع فاتعظ، وقدَر فاستجاب!.

***

الكتاب الثاني

فدائيّون في تاريخ الإسلام

شعاع من كتاب الله

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ [التوبة: ١٢٠ـ ١٢١].

تصدير

إن روح الفداء هي الصفة الأساسية اللازمة للأمة المجاهدة، حينما تبتليها الأقدار بتمحيص نفوسها وتطهير حواسها، وتطالبها بأن تنفض عن كيانها وبنيانها غبار الذل وتراب الهوان.

وأسمى ألوان الفداء هو ما كان ناهضاً على أساس الإيمان بالله جل جلاله، وبعدله وحسابه، وبحياة أخرى خالدة، ينتصف فيها رب الأرباب من كل طاغ، وينصف فيها كلَّ مجاهد، ولا يضيع فيها أجر من أحسن عملاً، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ـ ٨].

وإن أجدر الأمم بأن تعي دروس الفداء، وتستهدي به في نضالها وأعمالها، هي هذه الأمة المؤمنة، التي ورثت دعوة السماء، وحمّلها ربها أمانة الجهاد في سبيل الحق والعدل والحرية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولقد جرى هذا القلم منذ حين بحديث ذي شجون عن «الفداء في الإسلام»، وكان لهذا الحديث وقعه ونفعه. واليوم يعود هذا القلم ليزكي نفسه وصاحبه بحديث ذي شجون، يعرض ملامح طائفة ماجدة من الفدائيين في تاريخ الإسلام، تتوالى صورهم وسيرهم، فإذا هي حوافز تحرك الهمم، وتشد العزائم، وتجلو العبرة بعد العبرة، والعظة من وراء العظة: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وإذا كانت سيرة كل بطل من هؤلاء الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، قد جاءت هنا مركّزة موجزة في صفحات معدودة، فإنها صالحة لامتداد

الحديث عنها إذا انفردت واستقلت، لأن ما ذكرتُه بشأنها من ملامح أساسية وأحداث رئيسية، يصلح مدداً يعاون الباحث أو المتحدث على تحليل العظات، أو استخلاص العبر.

وعلى الله قصد السبيل.

أبو حازم

أحمد الشرباصي

المجاهد الصبي

رافع بن خديج

أصبح من الحقائق المسلَّمة أن المقاتل الذي يخرج إلى الميدان دون يقين أو إيمان لا يصلح للإقدام أو الثبات، بل هو عرضة دائماً للاستجابة إلى دواعي الانهزام أو الاستسلام أو الفرار، لأنه يخرج إلى المعركة كارهاً مضطراً، شاعراً بأنه يؤدي عملاً ثقيلاً كريهاً، يتمنى لو استطاع الخلاص منه، وربما ينحرف به التفكير أو التصرف قبل ذلك، فيُحدث في جسمه عاهةً تجعله غير صالح لشرف الجندية، وقد يهرب عند طلبه لأداء واجبها، ويختفي في مزرعة القصب أو الذرة، حتى يقبض عليه «الخفير»، ويسلمه إلى «العمدة»، وهذا يسلمه إلى «ضابط نقطة الشرطة»، وهذا يسلمه إلى «المركز»، والمركز يسلمه إلى «المحافظة»، والمحافظة تسلمه إلى «الداخلية»، والداخلية تبعث به إلى «المعسكر».

وبرغم ما تحقق لنا من تقدم في حياتنا ما زال فينا ـ مع الأسف ـ من ينظر إلى أداء الواجب العسكري المقدس نظرة الكراهية والنفور، ويخيل إليه أن الميدان أكثر رعباً من مستشفى «قصر العيني» في نظر جدّاتنا حينما كن يقلن: «الداخل إلى القصر العيني مفقود، والخارج منه مولود»!

هكذا كانت حالنا إلى عهد قريب، وهكذا بقي حال بعضنا إلى اليوم، فماذا كان شأن سلفنا الصالح في هذا المجال؟. هذا حديث عطر ينبغي أن يساق، وأن يثير فينا العبر والعظات:

لقد كان المؤمنون على عهد الرسول لا يعانون مشقة في استدعاء المقاتلين إلى الميدان، وإنما كانوا في بعض الأحيان يعمدون إلى رد فريق ممن يحرصون على مواطن الاستشهاد في الجهاد، ولذلك تقص علينا سيرة

المصطفى ﷺ أنه كان في كثير من الغزوات يستعرض الجيش، ويرد منه من كان صغيراً أو عليلاً أو مشغولاً بأمر آخر له قيمته.

وهذا - مثلاً - هو أبو عبد الله رافع بن خَديج بن رافع الأنصاري، يدخل الإسلام وهو صبي غلام؛ وتُقبِل غزوة بدر، فيسارع بالخروج إليها، ولكن النبي ﷺ يرده إلى «المدينة» كارهاً، لأنه ما زال صغيراً[1]، وقد تعارف الصحابة، وعلى رأسهم رسول الله أن أقل سن للمجاهد هو خمس عشرة سنة.

ويظل الغلام رافع بن خديج متحرقاً إلى الجهاد، ويظل يتعلم الرماية حتى يتقنها ويبرع فيها، ويمضي عام على غزوة بدر، وتقبل غزوة أُحد، فيسارع رافع بالخروج، ويستعرض الرسول ﷺ الجيشَ قبل الغزوة، ويرد منه من لم يبلغ الخامسة عشرة، وكان ممن ردهم يوم أُحد[2]: أسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وأُسيد بن ظهير، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة، وسعد بن خيثمة، وزيد بن أرقم، وسعد بن حبتة (حبتة هي أمه) وهو الذي قاتل في غزوة الخندق بشدة، فدعاه الرسول ﷺ، ومسح على رأسه، ودعا له بالبركة في ولده ونسله، فاستجاب الله تعالى دعاءَ رسوله، وكان من نسل سعد: الإمام أبو يوسف القاضي الفقيه المشهور، وقد أجاز الرسول هؤلاء الفتيان في غزوة الخندق، بعد أن بلغوا الخامسة عشرة، وبعد أن طال شوقهم وتحرقهم إلى الجهاد والنضال، وقد تألق هؤلاء الفتيان فيما بعد، فصاروا أئمة يهدون بأمر الله تعالى، وقادةً يقاومون الطغيان، ويوطدون دعائم الإيمان.

وكان ممن ردّهم رسول الله يومئذ عَرابة بن أوس بن قيظي الأنصاري الذي صار فيما بعد سيداً في قومه، كريماً جواداً، تضرب به الأمثال في ذلك، حتى قال فيه الشاعر الشماخ [من الوافر]:

---

(١) حينما رده الرسول مع حرس المدينة، وكان معه في الحراسة بديل بن ورقاء وأوس بن ثابت وأوس بن عرابة.

(٢) كان عدد الذين ردهم الرسول يوم أُحد، لأنهم لم يبلغوا الخامسة عشرة: سبعة عشر، أجاز منهم اثنين فقط، وروي أنه رد عشرين يومئذ.

رأيـت عـرَابـةَ الأوسـيَّ يـسـمـو إلـى الـخـيـرات مـنـقـطـعَ الـقـريـنِ
إذا مـا رايـةٌ رُفـعـت لـمـجـدٍ تـلـقَّـاهـا عَـرابـةُ بـالـيـمـيـنِ!

وطمع رافع بن خَديج ألا يرده الرسول هذه المرة، ولكن الرسول الحكيم الأمين ردّه مع رفاقه، وهنا قال بعض الصحابة للنبي إنّ رافعاً رام يجيد الرماية، وإن قامته طويلة لأن نموه مبكر، فأذن له الرسول بالخروج إلى الجهاد، فطار رافع بذلك فرحاً، وكأنه حقق لنفسه أمنية غالية من أماني الرجال الأبطال.

وقد يظن ظان أن ردّ هؤلاء كان دليلاً على وفرة الجنود من المسلمين، ولكن هذا غير الواقع، لأن المؤمنين الذين جاهدوا في غزوة أُحد كانوا سبعمائة، وكان أعداؤهم من المشركين ثلاثة آلاف، أي أكثر من أربعة أمثال المؤمنين، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضن بهذه الورود الناشئة على الموت، ويدخرها لأيام كريمة مقبلة، وكان في الوقت نفسه يستعين بهؤلاء الفتيان في أعمال أخرى تتصل بالمعركة وتنفع المسلمين، فكان يتخذ منهم ما نستطيع أن نسميه الآن بالحرس الوطني أو رجال «الدفاع المدني».

وهذا عبد اللّه بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يشير إلى ذلك فيقول: «كانت غزوة بدر وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فلم أخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كانت غزوة أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، فخرجت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآني استصغرني فردني، وخلفني في حرس المدينة في نفر ردّهم، منهم زيد بن ثابت، وعَرابة بن أوس، ورافع بن خَديج، وكان رافع أطولنا يومئذ، فأنفذه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ فلم يرده معنا، وكانت غزوة الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، وأنفذني فغزوت معه».

وقد يخيل لبعض الناس أن ما فعله رافع بن خَديج كان تهوراً أو تعرضاً للهلاك، ولكن الأيام أثبتت روعة القرآن الكريم حين علّم المؤمن كيف تكون الثقة باللّه تعالى والاعتماد عليه، بقوله في سورة التوبة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الآية: ٥١].

فقد اشترك «رافع» في الغزوة: غزوة أُحد، وجاهد جهاداً كريماً، ولم يصب إلاّ بسهم خلّف له جرحاً، ونزع رافع السهم فأخرجه، ولكن بقية منه

ـ وهو النصل ـ بقيت داخل جسمه، ويروى أن النصل الذي أصاب رافع بن خديج أصابه في لبته (أي رقبته)، وروي أنه أُصيب بالسهم في ثُنْدُوَتِه (والثندوة هي الثدي)، وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لرافع حينئذ: إن شئت نزعت السهم، وتركت القُطْبة (أي نصل السهم) وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد».

ورضي رافع، وقدَّر الرسول لرافع ما بذله فقال له: «أنا أشهد لك يوم القيامة». ويروى أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم مسح بيده الشريفة على مكان النصل الذي بقي في جسم رافع، ومسه بريقه، فلم يَضِرِ، أي لم يجمع المدَّة[1].

ومضت الأيام والأعوام، ورافع بن خديج يزداد معها تألقاً وإشراقاً في ساحاتِ الجد والجهاد، حتى أصبح عريفَ قومه، أي القيِّم بأمور قبيلته أو جماعته من الناس، وظل يجاهد ويناضل، وكان يحب الإمام علياً رضي الله عنه وكرّم الله وجهه، ويراه على الحق، ولذلك انضم إليه، وجاهد معه في موقعة «صفّين»، وحمل حملات صارمة ضد الخارجين على الإمام.

وإلى جوار هذا الجهاد الطويل في الميدان لم ينس «رافع» جانبَ العلم والفقه والدين، فروى عشرات من الأحاديث النبوية التي سجل جانباً منها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وكان عبد اللّه بن عمر يروي الحديث عن رافع، وعبد اللّه بن عمر هو مَن هو، وكان ابن رافع ـ واسمه رفاعة ـ محدِّثاً أيضاً يروي عن أبيه، كما كان حفيد رافع ـ واسمه عباية ـ محدثاً أيضاً، يروي عن جده.

وفوق هذا وذاك كان رافع «يتعانى المزارع ويفلحها» كما يعبّر الإمام السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة»[2]. أي يقوم بأعمال الزراعة، ويشق الأرض، ويستنبتها ليحسن الجمع بين أمور الدين وأمور الدنيا.

(١) النهاية. ج ٣ ص ٢٨. طبعة الحلبي.

(٢) التحفة اللطيفة، ج ٢ ص ٥٦.

وقد طالت حياة رافع بن خَديج ثم طالت، حتى بلغ ستاً وثمانين سنة، عمرها بالأعمال الطيّبة، فكأنه ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «خيركم مَنْ طال عمره وحسن عمله».

وبعد هذا العمر الطويل تحركت بقية السهم في جسمه، فانتكس جرحه، وتُوفي بالمدينة، في زمن عبد اللّه بن مروان، سنة أربع وسبعين، وكأن الله العلي الكبير قد أراد أن تتصل وفاة رافع ـ بعد عمر طويل ـ بسبب من الجهاد حتى لا يبعد عن معنى الاستشهاد الذي شهد له به رسول الله ﷺ، فمات رافع بسبب تحرك البقية الباقية من السهم في جسمه، وهذه البقية أثر من آثار الجهاد.

وصلى على رافع عبد اللّه بن عمرو رضوان الله عليهما، وأخذ بعمودي نعشه، فجعله على منكبه، وجعل يمشي بين يدي النعش حتى انتهى إلى القبر.

رضوان الله تعالى على المجاهد الشهيد: رافع بن خَديج.

***

اليتيم المجاهد

سَمُرة بن جُندب

إذا كان هناك عرف خاطئ مشهور عند بعض الناس، وهو استخفافُهم باليتيم الذي تتولى أمه تربيته، ووصفهُم إياه في سخرية واستهزاء بأنه «تربية امرأة» أو «تربية نساء»، فإن هؤلاء الناس يزدادون استخفافاً وسوء ظن بمصير اليتيم الذي يفقد أباه، ثم تتزوج أمه رجلاً آخر.

ولكن تاريخ الإسلام العاطر الباهر يقدم إلينا بعض النماذج الطيبة من اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وتزوجت أمهاتهم غير هؤلاء الآباء، ومع ذلك تربوا تربية حسنة؛ ووجدوا في ظل المجتمع الإسلامي من يأخذ بأيديهم إلى مواطن الرجولة والبطولة، ومواقف التضحية والفداء.

ومن هؤلاء الصحابي الجليل الشهير: أبو سليمان[1] سَمُرة بن جُنْدُب بن هلال بن حَريج الفزاري، الذي توفي أبوه وهو صغير، فكفلته أمه، وكانت امرأة مسلمة صالحة، وهاجرت بابنها إلى المدينة، وهناك واجهت الاغتراب والترمل وكفالة اليتيم، ولكن الله الرحمٰن الرحيم ساق إليها رجلاً من الأنصار، فتزوجها وأحسن معاملتها، وتكفل لها بابنها سمرة، فجعله محل عنايته، ورباه أحسن تربية.

يقول النووي عنه في ذلك: «توفي أبوه وهو صغير، فقدمت به أمه المدينة، فتزوجها أنصاري، وكان في حجره حتى كبر»[2]، وهذا الأنصاري اسمه «مُرّي بن سنان».

---

(١) كثرت الروايات في كنيته، فهو أبو سليمان، أو أبو سعيد، أو أبو عبد الرحمٰن، أو أبو عبد الله، أو أبو محمد (انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ج ١ ص ٢٣٥).

(٢) المرجع السابق.

وتطلعت عين سمرة إلى ميدان الجهاد وهو ما زال فتى يافعاً، قد تجاوز سنواته العشر بقليل، ولكن الرسول ﷺ كان يترفق بهذه البراعم الناشئة من فتية الإسلام، فيردها ـ كما حدثتنا السيرة العطرة ـ عن ميادين الغزوات، حتى تبلغ عشرة من عمرها على الأقل.

وجاءت غزوة أُحد، ورأينا فيها كيف استطاع الفتى الناشئ «رافع بن خديج» أن يحصل على إذن رسول الله ﷺ بشهوده الغزوة، مع صغر سنه، لأنه كان يجيد الرماية.

وهنا انتهز سمرة بن جندب الفرصة، فسارع إلى زوج أمه، يقول له: لقد أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج، وردّني، وأنا أصرعُه!

وذهب زوج الأم فأعلم بذلك رسولَ الله ﷺ، ولعل بعض الصحابة قد شاركه هذا الإعلام.

وجيء بسمرة إلى رسول الله ﷺ، فقال سمرة: يا رسول الله، أجزتَ رافعاً ورددتني، ولو صارعتُه لصرعتُه!

فأعجب الرسول ﷺ بتلك الشجاعة المبكرة، وأذن لسمرة بأن يصارع رافعاً. وتغلب سمرة على صاحبه، لا يريد بذلك تباهياً أو تطاولاً، وإنما هي النزعة القوية إلى التضحية، والرغبة الطامحة إلى موطن البطولة، والشوق العارم إلى الجهاد في سبيل الله.

يقول السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة» ما نصه:

«كان النبي ﷺ يعرض غلمَان الأنصار، فمرَّ به غلام فأجازه في البعث، ثم عُرض عليه سمرة بعده، فردّه، فقال: يا رسول الله، أجزتَ هذا ورددتني، ولو صارعته لصرعتُه.

قال: دونك ـ فصارعه سمرة، فصرعه، فأجازه». وقد ذكر السخاوي أنه نقل ذلك عن ابن إسحاق[١].

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج ٢ ص ٢٤٠.

وحينما سمع سمرةُ بموافقة النبي على اشتراكه في الغزوة أدركته نشوة الفرح والسرور، وبعد قليل اندفع إلى حومة الوغى، وليس حرصُه على الشهادة بأقلّ من حرصه على إعلاء كلمة الله عز وجل.

وتكررت مشاركة سمرة في الغزوات مع رسول الله ﷺ، لا يفتر ولا يقصّر، وكلما أقبل على الموت في ساحة الحق والشرف، آثرت عناية الله تعالى أن تستبقيه ليكون أحد الشواهد الكثيرة على أن الأمر كله بيد الله، وأن المجاهد قد يحرص على الموت فيفر الموت منه، وفوق تدبيرنا لله تدبير.

***

ثم هذا هو سمرة بن جندب، نراه بين الصفوة الكريمة من المجاهدين، الذين حملوا أرواحهم على أكفّهم مختارين، وسعوا بها إلى الرسول الصادق الأمين، حيث بايعوه على الموت ـ بلا تردد أو إبطاء ـ في بيعة الرضوان[1] الخالدة الماجدة، التي قال فيها رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

ويقول أيضاً: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

ثم مضى سمرة بن جندب في حياته، يجاهد قدر طاقته، ويخدم دينه بكل ما في استطاعته، وكلما جدّ الجد، ودعا داعي الجهاد، سارع فاستجاب.

وحينما أدرك أن الخوارج قد أساءوا بتمردهم على الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وقف في وجوههم، واشتدّ عليهم، ومن هنا أبغضوه ونالوا منه.

ثم انتقل سمرة إلى «البصرة» فأقام فيها، وكان المسؤولون في الدولة

---

(١) نص الذهبي على أن سمرة بن جندب كان من أهل بيعة الرضوان، انظر كتابه «العبر في خبر من غبر» ج ١ ص ٦٥ طبعة الكويت.

يستعينون بجهوده، فيستخلفونه على «الكوفة» حيناً، ويستخلفونه على «البصرة» حيناً آخر، فكان يقيم في كل منهما ستة أشهر، وكأنه أراد أن يدلل على أن رجل الجهاد الإسلامي لا يعجز عن أن يكون رجل مجتمع يحسن البناء والتعمير.

ولكن الجهاد والاستخلاف لم يشغلا سمرة عن الواجب المقدس في نظر المسلم، وهو طلب العلم، والتفقه في الدين، وكأنه عرف منذ أول الطريق أن الرسول قد قال: «من يرِد الله به خيراً يفقهه في الدين». فنال من علم الإسلام ما نال، وروى من الحديث النبوي مائة وثلاثة وعشرين حديثاً، وروى عنه أعلام كبار، منهم: أبو رجاء العطاردي، وعبد الله بن بريدة، والحسن البصري، والشعبي، وابن سيرين، وابن أبي ليلى، وعلي بن ربيعة، وأبو نضرة، وغيرهم.

واتسع علم سمرة منذ شبابه، حتى جاء في صحيحي البخاري ومسلم أنه قال: «لقد كنتُ على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلاّ أن ههنا رجالاً هم أسنُّ مني».

وهكذا يجمع سمرة بين سعة العلم وحسن الأدب وجمال التواضع، وكأنه كان يتذكر قول رسول الله ﷺ: «ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا، ويوقِّر كبيرنا».

كما كتب سمرة لبنيه رسالة حوت كثيراً من العلم والمعرفة، حتى يقول عنها ابن سيرين: «في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير».

ومع هذا وذاك وذلك أخذ سمرة أبناءه بأدب الإسلام، فعودهم التخفف من زينة الحياة، والإقبال على ما عند الله، ولقد جاء في حديثه أن أحد أبنائه أسرف ذات ليلة في طعام عشائه حتى أُتخم، وقيل لسمرة: إن ابنك لم ينم البارحة بَشَماً (أي أكل حتى أتخم فلم يستطع النوم).

فقال سمرة: لو مات ما صليت عليه!

وهي كلمة زاجرة رادعة فيها عظة للذين يسرفون في دنياهم، ويأكلون كما تأكل الأنعام.

والعجيب أن الفتى الذي سارع إلى مواطن الموت مرات ومرات، قد طال عمره ثم طال، وامتدت حياته ثم امتدت، حتى قارب عمره خمسة وسبعين عاماً، فمات سنة ستين للهجرة في مدينة البصرة[1].

بل الأعجب من ذلك أن سمرة لم يمت بسيف أو رمح أو سهم، بل مات بالماء الساخن، فقد روى ابن الأثير في «النهاية» ما يفيد أن رسول الله ﷺ قال لعشرة أنفس فيهم سمرة: «آخركم يموت في النار» فكان سمرة آخر العشرة موتاً.

قيل إن سمرة أصابه كُزازٌ شديد ـ والكزاز داء يصيب الإنسان من شدة البرد، أو هو الرعدة من شدة البرد ـ فكان لا يكاد يدفأ، فأمر بقدر عظيمة، فملئت ماء وأوقد تحتها، واتخذ فوقها مجلساً، وكان يصعد إليه بخارُها فيدفئه، فبينا هو كذلك خُسِفت به فحصل في النار[2].

وروى ابن عبد البر سبب موت سمرة بقوله: «سقط في قِدْر مملوء ماءً حاراً»[3].

***

(١) وقيل سنة تسع وخمسين، وقيل سنة ثمان وخمسين.

(٢) النهاية في غريب الحديث، ج ٥ ص ١٢٦. طبعة الحلبي.

(٣) التحفة اللطيفة، ج ٢ ص ٢٤٠.

الشهيد الناصح لله ولرسوله

سعد بن الربيع

من الحقائق التي قررها الإسلام وأكدها أن الجهاد لا يعلو ولا يسمو إلاّ إذا تنزه عن الغرض والعرض والمرض، فكان خالصاً لوجه الله عز وجل. ولذلك قال سيد الأنام محمد ﷺ: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وحينما يبلغ المجاهد هذه المرتبة النبيلة ينسى نفسه وحسه، وينسى هواه ودنياه، ولا يفكر إلاّ في عقيدته، يريد دائماً أن يؤيدها ويوطدها، ولا يقصد غير محبة الله تعالى، يحرص دائماً على أن يرسّخها ويؤكدها، وبذلك يفوز المجاهد فوزاً عظيماً.

وهذا واحد من أولئك الأماجد الذي آثروا ما عند الله على ما عند الناس، وهو الصحابي المجاهد النقيب الشهيد سعد بن الربيع بن عمرو بن زهير الأنصاري، وبعضهم يقول إن اسمه «أسعد»، وهذا تحريف[١].

وهناك شخصان آخران يسميان باسم «سعد بن الربيع»: الأول منهما هو أبو الحارث سعد بن الربيع بن عمرو بن عدي، ويُعرف بابن «الحنظلية» والحنظلية هي أمه، أو أم جده، والآخر منهما هو سعد بن الربيع بن عدي بن مالك، من بني جحجبا، قُتل يوم اليمامة، وقال أبو نعيم: صوابه سعيد بن الربيع[٢].

---

(١) انظر التحفة اللطيفة للسخاوي، ج ١ ص ١٥٤.

(٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ج ١ ص ٢١١.

ومن ميزات «سعد» صاحبنا أنه كان كاتباً في الجاهلية، وكانت الكتابة حينئذ ميزةً ملحوظة، لأن العرب كانت أمة أمية، والذين كانوا يكتبون منها في جاهليتها قليلون، ومن عرف منهم الكتابة حينئذ نظروا إليه بعين الاحترام.

***

وتفتح قلب سعد بن الربيع للحق الإلهي في وقت مبكر، فكان أحد الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية، وفيها قال الرسول لهؤلاء الطلائع من مسلمي أهل المدينة:

«تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة».

وقام القوم فبايعوا رسول الله على ذلك، وهنا أخذ سعد بن زرارة ـ وهو من أصغر القوم ـ بيد النبي وقال لقومه: مهلاً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلاّ ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخُذُوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فَذَرُوه، فبيِّنوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله.

فقال القوم: أمط عنا يا سعد، فوالله لا ندع هذه البيعة، ولا نسلبها أبداً.

وبعد حوار زاد هذه البيعة تأكيداً وتمجيداً قال الرسول ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، يكونون على قومهم بما فيهم» فكان سعد بن الربيع أحد هؤلاء النقباء، وقال الرسول ﷺ لهؤلاء النقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي».

وكان سعد بن الربيع أحد الأنصار الذين تعلقوا بخطام الناقة التي حملت رسول الله ﷺ في هجرته، وعرضوا عليه أن ينزل في ضيافتهم، وكان جوابه لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة.

وآخى الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين سعد بن الربيع وعبد الرحمٰن بن عوف فإذا بفضيلة الإيثار تتجلى في سعد، فيعرض على ابن عوف أن يقاسمه ـ مناصفةً ـ ما لديه من مال، حتى قيل إنه كان لسعد زوجتان[١]، وابن عوف لا زوجة له، فعرض عليه سعد أن يطلق إحداهما ليتزوجها بعد انتهاء عدتها، فشكر ابن عوف له هذا العرض النبيل، وقال: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق.

وأصر ابن عوف على أن يخرج إلى السوق فتاجر وربح، وصار صاحب غنى وثراء.

***

ثم بدأت حياة الجهاد في الميدان بغزوة بدر، فنال سعد بن الربيع شرف الاشتراك فيها، وصدق الجهاد خلالها، ثم عاود الخروج مع رسول الله ﷺ في غزة أُحد، فلم يتوان ولم يقصّر، بل أقدم وثبت وصدق في الجهاد، وعرّض نفسه للطعنات يتلقاها عن يمين وشمال، ويعطي أعداءه أمثالها أو أضعافها.

وكأن الرسول قد شاهده في هذا الموقف العصيب فأشفق عليه، ولذلك ما كادت المعركة الشرسة يوم أُحد تضع أوزارها حتى قال الرسول وقد أصابته جراحات لصحابته: «هل من رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع: أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فإني رأيت الأسنة قد أُشرعتْ إليه». والأسنة جمع سنان، والسنان هو الرمح، وأشرعت إليه: أي سُدِّدت نحوه ووُجّهت إليه.

فقال رجال من الأنصار، هو أُبي بن كعب[٢]: أنا أنظر لك ذلك يا رسول الله.

---

(١) يروى أنه كان له زوجتان: الأولى حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير، والأخرى عميرة بنت محمد بن مسلمة.

(٢) وقيل هو محمد بن مسلمة، وقيل زيد بن حارثة، وقيل غير ذلك، ولا مانع من أن يكون النبي قد أرسلهم كلهم.

فقال له النبي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟

وبحث أُبي بن كعب عن سعد حتى وجده مثخناً بجراحه، وفيه رمق - أي بقية روح - فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أقرئك السلام، وأن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال سعد: وعلى رسول الله السلام، أنا في الأموات، قد طُعنت اثنتي عشرة طعنة، وإني قد أُنفذت مقاتلي[١]؛ فأبلغ رسول الله ﷺ مني السلام وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقُل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن يُخْلَصْ إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

ثم عاد سعد يقول له: اقرأ على قومي مني السلام، وقل لهم: يقول لكم سعد بن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر، لا عذر لكم عند الله إن قُتل رسول الله ﷺ ومنكم أحد حيّ!..

وما هي إلاّ لحظات حتى أسلم سعد بن الربيع روحه وأُبيّ بن كعب إلى جانبه.

وعاد ابن كعب إلى الرسول ﷺ، وأبلغه رسالة النقيب المجاهد الشهيد، فتأثر بها رسول الله، وقال عنه: رحمه الله، لقد نصح لله ولرسوله حياً وميتاً.

***

ومعنى «نصح» هنا هو: أخلص، لأن مادة النصح فيها معنى الخلوص، وفي النصحية معنى الإخلاص، والنصح لله - كما في النهاية - هو صحة الاعتقاد في وحدانية الله، وإخلاص النية في عبادته، والنصح للرسول هو التصديق بنبوته، والانقياد لما أمر به ونهى عنه؛ وفي الحديث: «الدين النصحية لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم». ونصح الأئمة أن يطيعهم في

---

(١) أي اخترقتها الطعنات والضربات. والمقاتل المواضع التي تسبب القتل إذا أصابها الضرب.

الحق، ولا يرى الخروج عليهم، ونصيحة عامة المسلمين هي إرشادهم إلى مصالحهم.

فقول الرسول عن سعد: «لقد نصح لله ولرسوله حياً وميتاً» معناه أنه أخلص عمله وجهاده لله ولرسوله طيلة حياته، وثبت على هذا الإخلاص حتى لقي ربه جل جلاله.

وهكذا رأينا أنه لم يكن هناك من شاغل يشغل سعد بن الربيع وهو يجود بآخر أنفاسه، إلاّ أن يطمئن على سلامة رسول الله ﷺ، لأنه الداعية الأول الذي تتمثل فيه الدعوة، ولأنه المبلّغ عن ربه، ولأن المشركين ـ عليهم اللعنات ـ كانوا يحصرون همهم في القضاء على رسول الله، ظناً منهم أنه إذا مات فقد انتهت الدعوة، مع أن كتاب الله المجيد يقول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨] ويقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٥].

ودفن سعد بن الربيع مع خارجة بن زيد بن أبي زهير في قبر واحد!

***

ومضى سعد إلى ربه وخلف من ورائه مالاً، وخلف زوجة وبنتين، وأخذ عم البنتين ـ أخو سعد ـ تركة أخيه، ظناً منه أنها حق له، ولم تكن المواريث قد تحددت بعد، فذهبت المرأة ومعها طفلتاها إلى رسول الله ﷺ وقالت له:

يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك يوم أُحد شهيداً، وإن عمهما قد أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، وهما لا تنكحان (لا تتزوجان) إلاّ بمال.

فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك.

وبعد قليل نزلت آية المواريث، فبعث الرسول إلى عم البنتين وقال له: أعط بنتي سعد الثلثين، وما بقي فهو لك!..

ويروى أنه قد نزل في شأن هـذه الواقعة قول الله تعالى في سورة النساء ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٧].

ومضت الأيام والأعوام، وصار أبو بكر الصديق خليفة على المسلمين، وذات يوم دخلت عليه بنت سعد بن الربيع، فقام لها واحتفى بها، ووضع رداءه لتجلس عليه، ثم دخل عمر الفاروق، فسأل عنها، فقال له أبو بكر: هذه ابنة من هو خير مني ومنك.

قال عمر: ومَنْ هو يا خليفة رسول الله؟

أجاب أبو بكر: رجل تبوّأ مقعده من الجنة، وبقيتُ أنا وأنت، هذه بنت سعد بن الربيع.

فرحب بها عمر، وعرف لها مع أبي بكر قدرها.

رضوان الله على الجميع!..

***

الثري الأعرج المجاهد

عبد الرحمن بن عوف

ما أروع المؤمن الفدائي حين يُحسن الجمع بين الجهاد الصادق في سبيل الله، والعبادة الخالصة لوجه الله، والكسب الطيّب الذي لا يخالطه ما يغضب الله.

وحين نعود إلى سير الأبطال من أجدادنا تبهرنا أضواء عزتهم، وعبادتهم وقوتهم المادية والمعنوية في الحياة. ومن هؤلاء الصحابي المجاهد العابد، الغني التقيّ، الباذل الوفي: أبو محمد عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة، وكان اسمه في الجاهلية «عبد عمرو» وقيل «عبد الكعبة» فسماه الرسول ﷺ «عبد الرحمٰن». وأمه هي الشفاء بنت عوف، أسلمت وهاجرت، وأولى زوجاته هي أم كلثوم بنت عتبة بن شيبة، وأول أولاده «سالم». وقد ولد عبد الرحمٰن سنة أربع وأربعين قبل الهجرة (٥٨٠م)، وتوفي سنة ثنتين وثلاثين للهجرة (٦٥٢م). وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنة من رسول الله ﷺ، حيث قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمٰن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة».

وكذلك قال ﷺ في العشرة البررة: «أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأشدهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليّ بن أبي طالب، ولكل نبي حواري وحواريّي طلحة والزبير، وحيث ما كان سعد بن أبي وقاص كان الحق معه، وسعيد بن زيد من أحِبّاء الرحمٰن، وعبد الرحمٰن بن عوف من تجار الرحمٰن، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله وأمين رسوله».

وقد نظم أحد الشعراء أسماء هؤلاء العشرة في قوله[من الطويل]:

لقد بُشِّرَتْ بعد النبيِّ محمد بجنة عدن زمرةٌ سعداءُ
سعيد، وسعد، والزبير، وعامر وطلحة، والزهري، والخلفاءُ

وعامر هو أبو عبيدة عامر بن الجراح، والزهري هو عبد الرحمٰن بن عوف، لأنه عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة، كما سبق، والخلفاء هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

وعبد الرحمٰن بن عوف هو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وقد قال بعض من تقدم من الشعراء في صدر الإسلام يذكر هؤلاء الثمانية، ومن بينهم عبد الرحمٰن بن عوف [من المتقارب]:

فيا سائلي عن خيار العبا د، صادفتَ ذا العلم والخبرَهْ
خيارُ العباد جميعاً قريشٌ وخيرُ قريش ذوو الهجرَهْ
وخيرُ ذوي الهجرة السابقون ثمانيةٌ وحدهم نُضرَهْ
عليٌّ، وعثمان، ثم الزبير وطلحة، واثنان من زُهرَهْ
وشيخان قد جاورا أحمداً وجاور قبراهما قبرَهْ
فمَنْ كان بعدهم فاخراً فلا تذكروا عندهم فخره(١)

والاثنان من بني زهرة هما سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن عوف، والشيخان هما أبو بكر وعمر. وعبد الرحمٰن بن عوف هو أحد الخمسة الذين أسلموا في مطلع الدعوة على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهم عبد الرحمٰن بن عوف، وطلحة بن عبيد اللّه، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص.

وعبد الرحمٰن بن عوف هو أحد الستة أصحاب الشورى في أمر الخلافة، الذين تُوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم كما أخبر الفاروق رضوان الله عليه، وهم علي وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمٰن بن عوف.

جاء في حديث البخاري المروي عن عمرو بن ميمون أن عمر عند

---

(١) مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٧٧ طبعة دار الاندلس ببيروت.

مصرعه قال له الناس: أوصِ يا أمير المؤمنين، استخلف. فقال: ما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر ـ أو الرهط ـ الذين تُوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فسمّى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمٰن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ـ كالتعزية له.

***

وقد أسلم عبد الرحمٰن بن عوف مبكراً، قبل أن يدخل النبي دار الأرقم بن أبي الأرقم التي اتخذها مجتمعاً لأتباع الدين، ومدرسة للدعوة، ونال عبد الرحمٰن من الأذى والعذاب في سبيل الله تعالى ما نال، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وهناك آخى رسول الله ﷺ بينه وبين المجاهد النقيب الشهيد: سعد بن الربيع، وشبيهُ الشيء منجذب إليه، ويد النبوة الطاهرة قادرة على جمع القرين بالقرين، وربط النظير بالنظير.

ولم يحمل ابن عوف معه متاعاً من مكة حين هجرته. فعرض عليه أخوه في الإسلام: سعد بن الربيع أن يقاسمه ماله مناصفة، فأبى عبد الرحمٰن ذلك شاكراً ومقدراً، وخرج إلى السوق متاجراً، وكان في التجارة بارعاً ماهراً، وتوالى عليه الربح الطيب والكسب الحلال، حتى قال: «لقد رأيتُني لو رفعتُ حجراً لوجدت تحته فضة وذهباً». ولكن لم تشغله تجارته ولا أمواله عن حسن العبادة لله، ولا عن حسن المسعى في معاونة عباد الله.

وارتفعت راية الجهاد لإنقاذ العباد، وتطهير البلاد، وتأديب الطغيان والكفران، وتأييد الحق والإيمان؛ ارتفعت راية النضال، فكان عبد الرحمٰن بن عوف من المسارعين إلى الاستظلال بظلها، وصدق الجهاد في سبيل الله من حولها، فشهد غزوة بدر، وشهد غزوة أُحد، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من الثابتين الذين لم يقبلوا لأنفسهم الفرار أو التقهقر في غزوة أُحد، حتى سقطت ثنيتاه، (الثنايا من الأسنان هي الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل) وأُصيب بإحدى وعشرين جراحة، وكانت أغلب الطعنات تصيبه في رجليه، وأُصيب بالعرج، ولكن هذا العرج لم يمنعه مواصلة الجهاد، بل استمر فيه وداوم عليه.

وقد أرسله النبي ﷺ إلى «دُومة الجندل» ليصلح أمرها، ويقوِّم عوجها. ودُومة الجندل ـ بضم الدال، وقد تفتح ـ هي أرض بالشام، وهي بقرب تبوك، وفيها بنو كنانة من بني كلب، وقيل هي حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيِّئ من أعمال المدينة، وروي أنها على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول، وروي أنها على ثلاث عشرة مرحلة من المدينة، وعلى عشر مراحل من الكوفة، وعلى عشر مراحل من دمشق. وسميت دومة الجندل لأن فيها حصناً مبنياً بالجندل وهي الحجارة، وسميت «دومة» لأن مكانها مستدار الجندل، والدومة مجتمع الشيء ومستداره[1].

وحينما همّ عبد الرحمٰن بالمسير إلى «دومة الجندل» أدناه الرسول وعمَّمه بيده الكريمة، وسدل له طرفي عمامته بين كتفيه، وكأنما أراد الرسول بذلك أن يبعث الهمة والعزيمة في صدر ابن عوف، فعبد الرحمٰن حين يسعى إلى غرضه سيتذكر أنه متوَّج بعمامة لفتها على رأسه أطهر يد في الناس، وهي يد رسول الله ﷺ، وهذا وسام دونه كل وسام، وهو حين يسير وهذه العمامة فوق رأسه سيحس كأن رأسه قطعة من السماء، وليس بعضو في جسم، فهو يمضي واثقاً شجاعاً كأنه موصول الأسباب بالسماء.

ودعاء له الرسول بالتوفيق والنصر، ثم قال له: «سر باسم الله، وإن فتح الله عليك فتزوجْ بنتَ شريفهم» (يعني كبيرهم وأميرهم). وقد حقق عبد الرحمٰن ما أراده الرسول، ففتح الله عليه، وتزوج بنت شريفهم وهي تُماضر بنت الأصبغ، وولدت له ابنه أبا سلمة.

واستمر عبد الرحمٰن على جهاده الصادق، وعبادته المخلصة، وسعيه المثمر، وجاء عمر الفاروق إلى الخلافة، فجعل عبد الرحمٰن على مسيرة الجيش الإسلامي، ولما أراد عمر في إحدى المعارك أن يخرج بنفسه ليقود الجيش، أخلص له ابن عوف النصيحة فقال له: «يا أمير المؤمنين، فُديت بأبي وأمي، أقمْ وابعث، فإنه إن انهزم جيشُك فليس ذلك كهزيمتك».

---

(١) انظر في مادة «دومة الجندل» معجم البلدان لياقوت، وتهذيب الأسماء للنووي.

وإلى جوار هذه الروح القتالية والنزعة الجهادية عند عبد الرحمٰن بن عوف كانت له المناعة الأخلاقية التي تزينه بالفضيلة ومحامد الخصال، وحسبه في ذلك ما يروى أن الرسول ﷺ قال له: «أنت أمين في أهل الأرض، أمين في أهل السماء».

كذلك يروى أن النبي ﷺ في غزوة تبوك خلف عبد الرحمٰن بن عوف، إذ جاء النبي فوجد عبد الرحمٰن يؤم الناس، فصلى معهم مؤتماً به، وأتم ما فاته، ثم قال: «ما قُبض نبي حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته، وإن عبد الرحمٰن بن عوف سيد من سادات المسلمين».

ولأمرٍ ما أراد القدر أن يقف عبد الرحمٰن بن عوف موقف الإمام في الصلاة للمسلمين في موقف عصيب، فقد روى المسعودي في كتابه «مروج الذهب» أنه حينما اغتيل عمر بن الخطاب صلى بالناس عبد الرحمٰن بن عوف، وفي حديث البخاري الذي يرويه عن عمرو بن ميمون أن عمر بن الخطاب تناول ـ عقب طعنه ـ يد عبد الرحمٰن بن عوف فقدّمه للصلاة، فصلى بهم صلاة خفيفة[١].

كما أشار الرسول إلى اتصاف عبد الرحمٰن بصفات ثلاث هي: الصادق، البار، الصالح، فقد روي أن الرسول ﷺ قال لزوجاته: «إن الذي يحنو عليكن بعد موتي هو الصادق البار الصالح».

فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى باع عبد الرحمٰن أرضاً له إلى عثمان بأربعين ألف دينار، وقسم هذا المال على أمهات المؤمنين، فلما وصل سهم عائشة إليها قالت: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يحنو عليكن من بعدي إلاّ الصالحون، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة».

وقد جاء في رواية «النهاية» لابن الأثير أنها قالت: «اللهم اسق عبد الرحمٰن بن عوف من سلسل الجنة» والسلسبيل هو اسمُ عين في الجنة،

---

(١) مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٠٤.

والسلس هو الماء البارد، أو الشراب البارد، وقيل السهل في الحلق، وقيل هو الخالص الصافي من القذى والقذر والكدر، ويروى: «من سلسال الجنة» والسلسل والسلسال بمعنى[١].

وكان عبد الرحمٰن بن عوف كثير المال واسع الثراء، وكان مع هذا كثير الإنفاق واسع العطاء، ولذلك قال عنه مؤرخ الإسلام الذهبي في كتابه «العبر في أخبار مَنْ غبر» هذه الجملة: «كان غنياً شاكراً، بعد أن كان فقيراً صابراً»[٢].

وقيل إن الرسول ﷺ قال لعبد الرحمٰن: «يا ابن عوف، إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلاّ حَبْواً - أو زحفاً - فأقرض الله عز وجل يُطلقْ قدميك». وإن صح الحديث فلعل الرسول قد قال له هذا في وقت مبكر، وإنما قلت: «إن صح الحديث» لأنه قد جاء في كتاب «مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية» أن من قال إن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه لا يدخل الجنة إلاّ حبواً، ويدخل الجنة بعد الصحابة، فهو كاذب مفتر باتفاق أهل العلم بذلك، بل يستحق العقوبة البليغة.

ثم جاء في الكتاب ما نصه: «والحديث المذكور عن عبد الرحمٰن رضي الله عنه باطل، رواه أبو نعيم من طريق رجل اتفق أهل العلم على رد أخباره، بل هو مخالف للنصوص وإجماع السلف والأئمة. فإنه من أهل الشورى الذين هم أفضل الأمة بعد أبي بكر وعمر، وأهل الشورى هم عثمان وعبد الرحمٰن والزبير وطلحة وسعد، رضي الله عنهم أجمعين.

فهؤلاء الستة جعل عمر رضي عنه الله الخلافة فيهم، وأخبر أن الرسول ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ، ثم إن ثلاثة قدموا ثلاثة، قدموا عثمان وعلياً وعبد الرحمٰن. ثم إنهم جعلوا عبد الرحمٰن يختار للأمة، ورضوا بذلك.

فمن هو بهذه المنزلة كيف يتأخر دخوله الجنة، أو يدخل حبواً؟. ولو دخلها لغناه حبواً لدخلها سائر الصحابة الأغنياء حبواً، كعثمان وطلحة والزبير،

---

(١) انظر النهاية لابن الأثير، ج ٢ ص ٣٨٩و ٣٩٢ طبعة الحلبي.

(٢) العبر، ج ١ ص ٣٣.

وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير، بل من الأنبياء من هو غني كإبراهيم وداود وسليمان ويوسف، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

وأطلق ابن عوف يديه في الإنفاق، ليطلق الله قدميه من الوثاق: قرى الضيف، وأطعم المسكين، وأعطى السائل، وأنظر المعسر، وخفّف عن الضعيف، وتصدق بشطر ماله على عهد الرسول، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل في سبيل الله على خمسمائة فرس، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، .ثم تصدق بسبعمائة راحلة كانت قادمة من الشام، وأعتق عدداً كبيراً.

أغلب الظن أن الله تعالى ـ وهو خير الشاكرين ـ قد أطلق قدمي ابن عوف، ولا نزكّي على الله أحداً.

ولقد رُوي أن الرسول قال لابن عوف: ما بطّأ بك عني؟.

فأجاب: ما زلت بعدك أحاسب، وإنما ذلك لكثرة مالي. ثم قال: هذه مائة راحلة جاءتني من مصر، فهي صدقة على أرامل أهل المدينة.

إذن فقد كان عبد الرحمٰن بن عوف يتاجر مع مصر، ومعنى ذلك أنه كان بهذا يعاون على توثيق الارتباط بين مصر والمدينة.

وكان ابن عوف يقدر التبعة الملقاة على عاتقه فيما يتعلق بالواجبات المستحقة في ماله؛ ولذا رُوي أنه دخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال لها: يا أماه، خفتُ أن تهلكني كثرةُ مالي. فقالت له: يا بني، أنفق.

وأخذ عبد الرحمٰن ينفق، وينفق، وكلما اتسع حظه في الربح والكسب اتسعت يده في البذل والإعطاء، وكلما اتسعت يده في ذلك شعر بالراحة والاطمئنان، ولذلك كان يردد قوله: «حبذا المال أصون به عرضي، وأقرضه ربّي، فيضاعفه لي».

وكأنه يشير بذلك إلى قول الله جل جلاله في سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله في السورة نفسها: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقوله في سورة الحديد: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١]. وقوله في سورة التغابن: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

ولقد جاء في تفسير «زاد المسير» لابن الجوزي أن الواحدي روى أن قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢] نزل في عبد الرحمٰن بن عوف، حين تصدق بأربعة آلاف درهم، وكانت نصف ماله.

وأخرج ابن المنذر عن ابن المسيب قال: الآية نزلت في عبد الرحمٰن بن عوف وعثمان بن عفان، في نفقتهما في جيش العسرة (انظر زاد المسير، ج ١ ص ٣١٧).

ومع إنفاق ابن عوف الواسع المتتابع كان يقول: «بُلينا بالضراء فصبرنا، وبُلينا بالسّراء فلم نصبر[١]». ولعله قال هذا من شدة محاسبته لنفسه وخوفه من تبعات ثرائه.

ومن شعوره النبيل وتقديره الجميل لما تحمّله رسول الله ﷺ في سبيل الله والدين، أنه جلس مع بعض صحابته، وجيء لهم بطعام فيه خبز ولحم، فبكى، فقيل له: يا أبا محمد، ما يبكيك؟

فقال: مات رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير، ولا أرانا أُخّرْنا لما هو خير منها.

---

(١) الضراء: الحالة التي تضر: وهي نقيض السراء. يريد أن الله اختبرنا بالفقر والشدة والعذاب، فصبرنا على ذلك، فلما جاءتنا السراء، وهي الدنيا والسعة والراحة، بطرنا ولم نصبر. وقد جاءت العبارة في إحياء علوم الدين للغزالي هكذا: «ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا-بفتنة- السراء فلم نصبر». ولكنه نسبها إلى الصحابة.

وقُدّم إليه ذات يوم طعام هنيء فقال معتبراً: قُتل حمزة فلم نجد ما نكفّنه وهو خير مني، وقُتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، فلم نجد ما نكفنه فيه، وقد أصبنا منها ما قد أصبنا (يعني الدنيا)، وإني لأخشى أن يكون قد عُجّلت لنا طيباتنا في الدنيا.

ويبدو لنا من بعض مواقف لعبد الرحمٰن بن عوف أنه كان رجلاً عامر القلب بإيمانه ويقينه، وإن لم يظهر ذلك في بعض الأحيان على خارجه ومظهره، والله تعالى ـ كما أخبرنا رسول الله ﷺ ـ لا ينظر إلى صورنا وأقوالنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

ولقد حدث ذات مرة أن تلا أحد المسلمين بعض آياتِ القرآن في مجلس الرسول ﷺ، فبكى مَن حوله، وظل عبد الرحمٰن ساكناً خاشعاً بلا بكاء فقال رسول الله: «إن لم يكن عبد الرحمٰن بن عوف قد فاضت عيناه فقد فاض قلبه». وهذه تزكية نبوية محمدية دونها كل تزكية.

وهذا الموقف يذكرنا بذلك الرجل التقي الخفي الذي قيل له: لماذا لا نراك تهتز وتضطرب عند سماع العبر؟ فتمثّل بقول الله جل جلاله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۝٨٨﴾ [النمل: ٨٨].

***

وإلى جوار ما سبق كان عبد الرحمٰن بن عوف على جانب كبير من العلم والفقه والبيان، وقد روى عن رسول الله ﷺ خمسة وستين حديثاً، وكأن قربه من الرسول كان سبباً في أن يغترف من مناهل البلاغة النبوية بقدر ما يستطيع، وحين نراجع كلام ابن عوف نجد فيه المتانة والقوة والمعرفة لكثير من المفردات المكنونة في هذه اللغة، ومن شواهد ذلك أنه رأى رجلاً يحلف عند المقام، فقال ابن عوف: «أرى الناس قد بهَأوا بهذا المقام»(١) وكلمة «بهأوا» معناها: أنسوا به حتى قلّت هيبته في نفوسهم، وهي كلمة نادرة في الاستعمال، ولكن

(١) النهاية، ج ١ ص ١٦٤.

العربي الأصيل يعرفها ويدرك مدلولها بوضوح، فيقول: بهأتُ بالرجل إذا أنس به، وهذه ناقة بهاء أي تأنس بالحالب.

ومن شواهد بلاغة ابن عوف وحكمته وبصره بشؤون الأمة وحرصه على مصلحتها خطبته التي ألقاها في مؤتمر الشورى الذي انعقد عقب موت عمر بين عبد الرحمٰن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وكان سادسهم طلحة غائباً، وقد بدأ عبد الرحمٰن الكلام فقال:

«يا هؤلاء، إن عندي رأياً، وإن لكم نظراً، فاسمعوا وتعلموا، وأجيبوا تفقهوا، فإن حابياً خير من زاهق، وإن جرعة من شروب بارد أنفع من عذب موبٍ. أنتم أئمة يُهتدى بكم، وعلماء يُصدر إليكم، فلا تَفُلوا المُدى بالاختلاف بينكم، ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم، فتوتروا ثأركم، وتؤلتوا أعمالكم.

لكل أجلٍ كتاب، ولكل بيت إمام، بأمره يقومون، وبنهيه يَرِعُون، قلّدوا أمركم واحداً منكم تمشوا الهوينى، وتلحقوا الطلب، لولا فتنة عمياء، وضلالة حيراء، يقول أهلها ما يرون، وتُحِلُّهم الحَبْوكرى، ما عدت نياتكم معرفتكم، ولا أعمالكم نياتكم. احذروا نصيحة الهوى، ولسان الفرقة، فإن الحيلة في المنطق أبلغ من السيوف في الكِلَم، علّقوا أمركم رحب الذراع فيما حل، مأمون الغيب فيما نزل، رضاً منكم وكل رضا، ومقترعاً منكم وكل منتهى؛ لا تطيعوا مفسداً يتنصح، ولا تخالفوا مرشداً ينتصر، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

لقد قال ابن عوف في هذه الخطبة: «فإن حابياً خير من زاهق». والحابي من السهام ما يزحف إلى الهدف، والسهم الزاهق ما جاوز الهدف، والمعنى أن سهماً يبلغ الهدف ولو بهدوء خير من سهم يجاوز الهدف ولو كان سريعاً، فالتمهل والتعقل في علاج الأمور خير من التسرع والتعجل.

وقال: «إن جرعة من شروب بارد أنفع من عذب موبٍ» والشروب هو الشراب، والموبي مخفف من الموبئ وهو ما يسبب الوباء، أي أن قليلاً من الماء الطيب البارد خير من كثير من الماء الفاسد المفسد.

وقال: «ولا تفلوا المُدى بالاختلاف بينكم»، والمدى: جمع مدية وهي السكين، وقد كنى بفلّها عن النزاع والشقاق، أراد لا تختلفوا فتقع الفتنة بينكم، فينثلم حدكم.

وقال: «ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم، فتوتروا ثأركم، وتُؤلتوا أعمالكم»: وتوتروا: من الوَتْر هو الثأر، يقال: وترت فلاناً إذا أصبته بوتر، وأوتره أظفره به، والثأر ها هنا العدو، لأنه موضع الثأر، والمعنى: لا تجعلوا عدوكم يظفر بثأره منكم.

وفي رواية: «فتوبِّروا آثاركم» والتوبير: التعفية ومحو الأثر، قال الزمخشري: هو من توبير الأرنب، وهو مشيها على وبر قوائمها، لئلاّ يقتص أحد أثرها، وكأن المعنى، لئلاّ تهلكوا أنفسكم.

و«تؤلتو أعمالكم» أي تنقصوها، يقال: ألته يألته إذا نقصه، وفي القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١] أي: ما نقصناهم من عملهم شيئاً. وفي سورة الحجرات: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

وقال «وبنهيه يرعون» يرعون من ورع يرع - بوزن ورث يرث - من الورع، وهو التقوى.

وقال: «وتحلهم الحَبوْكَرى»: الحبوكرى رمل يضل فيه السالك والحبوكرى أيضاً الداهية.

وقال: «فإن الحيلة في المنطق أبلغ من السيوف في الكلم»: والمراد بالحيلة هنا حسن التأني والتأني في الكلام، والكَلْم - بفتح فسكون - الجرح، والمعنى أن الكلام الذي يحتال له صاحبه ويتفنن فيه قد يؤثر أكثر من جراح السيوف.

وفي رواية: «إن الحيلة بالمنطق أبلغُ من السّيُوب في الكلم». والسيوب:

ما سُيّب وخُلّي فساب، أي ذهب، يقال: ساب في الكلام، أي خاض فيه بحمق وهذر. أي إن التلطف والتقلل في الكلام خير من الإكثار فيه.

وقال: «علّقوا أمركم رحب الذراع فيما حل» أي أسندوا أمركم إلى واسع القوة والقدرة، وفي رواية: «قَلِّدُوا أمركم رحب الذِّرْع» والذرع هو الوسع والطاقة. والمراد واسع الطاقة.

وقال: «ومُقتَرعاً منكم» أي مختاراً بإرادتكم.

وقال: «لا تطيعوا مفسداً يتنصح» أي يتشبه بالناصحين وليس منهم.

وبجوار هذه الثروة اللغوية في الخطبة نجد فيها روح الشجاع الجريء الصادع برأيه، والحريص على سلامة الأمة وعزتها.

ولقد وكل أكثر زملائه إليه مهمة القيام بالأمر، فقال له عثمان بن عفان في خطبة: «فأنا أول مجيب لك، وداع إليك»، وقال له الزبير في خطبته: «فأنا مجيبك إلى ما دعوت، ومعينك على ما أمرت». وقال له سعد بن أبي وقاص: «والأمر إليك يا ابن عوف بجهد النفس، وقصد النصح».

وهذه الكلمات مما يزيدنا علماً بمكانة عبد الرحمٰن بن عوف الذي حمل التبعة في هذه المهمة الخطيرة، ومضى يختار للأمة مَنْ يلي أمرها، مدققاً ما وسعه التدقيق، وانتهى مسعاه بتولي الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

***

وقد امتدت حياة ابن عوف حتى تجاوزت السبعين عاماً، وقيل إنه عاش خمسة وسبعين عاماً، ثم لحق بربه سنة ثنتين وثلاثين للهجرة، وكان سعد بن أبي وقاص ممن حمل جنازته، وقال عنه: واجبلاه. ودفن في مقبرة «البقيع» وهي مقبرة أهل المدينة، تاركاً وراءه عدداً كبيراً من الأولاد.

ودفن عبد الرحمٰن بن عوف إلى جوار الصحابي المناضل المحتمل للأذى في سبيل الله عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وحينما علم الإمام علي رضي

الله عنه وكرم الله وجهه بموت ابن عوف تألم وقال: «اذهب ابن عوف، فقد أدركت صفوها، وسبقت رنَقَها»[1] والرنق الكدر.

وقال عثمان حين مات عبد الرحمٰن وقد ترك ثروة كبيرة: «إني لأرجو لعبد الرحمٰن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون».

وقال عمرو بن العاص في رثاء عبد الرحمٰن: «هنيئاً لك، خرجت من الدنيا ببطنتك لم يتَفَضْفَض منها شيء». وقد ضرب عمرو البطنة مثلاً في أمر الدين، أي خرج من الدنيا سليماً لم يثلم دينه شيء. وتفضفض الماء نقص[2].

رضوان الله تعالى على المجاهد الباذل، تاجر الرحمٰن، عبد الرحمٰن بن عوف..

(١) في تهذيب الأسماء للنووي «كدرها». وفي التحفة اللطيفة للسخاوي، «زيفها». والمعاني متقاربة. وعبر أبو نعيم عن ذلك في الحلية بقوله: «أدرك الورق، وسبق الرنق». ج ١ ص ٩٨ ولكنه في ص ١٠٠ روى كلمة الإمام علي وفيها لفظة: «رنقها».

(٢) النهاية لابن الأثير، ج ١ ص ١٣٧ طبعة الحلبي.

المجاهد الأعرج الشهيد

عمرو بن الجموح

الفداء هو قمة الجهاد، والجهاد هو طريق النصر، وقد صرح القرآن الكريم بذلك حين أخبرنا أن التباطؤ عن الجهاد حين لزومه يكون سبباً لعذاب الله تعالى وعقابه ونقمته، مع ما يؤدي إليه من صغار وهوان، فهو يقول في تحريض موجع وتبكيت مؤلم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩].

والقرآن يدعو عقب ذلك إلى النفير العام والجهاد الشامل حتى يتحقق النصر، فيقول: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

وقد أدرك أبناء الإيمان في صدر الإسلام هذا المعنى خير إدراك، فاتخذوا الجهاد حتى النصر طرقاً إلى العزة والكرامة، فناضلوا هم وأبناؤهم وكل قادر فيهم، طالبين إحدى الحسنيين: إما أن يعيشوا أعزة أحراراً، وإما أن يموتوا وينالوا الشهادة كراماً أطهاراً، وما عند الله خير للأبرار.

وهذا أحدهم: إنه الصحابي الجليل، المناضل الشهيد، عمرو بن الجموح بن زيد بن كعب الأنصاري، الذي كان سيداً من سادات العرب، وشريفاً من أشرافهم، وكان خير قبيلته بني سلمة، حتى قال الرسول ﷺ لقومه: سيدكم عمرو بن الجموح.

ولقد روى التاريخ الإسلامي أن النبي قال يوماً لرجال من قبيلة بني سلمة: من سيدكم يا بني سلمة؟.

فأجابوا: سيدنا الجَدّ بن قيس(١)، على بُخْلٍ فيه.

فعلق رسول الله على ذلك بقوله: وأيّ داءٍ أدْوى من البخل(٢)؟ بل سيدكم الجعد(٣) الأبيض عمرو بن الجموح.

وأشار إلى هذا شاعر من الأنصار فقال [من الطويل]:

فسوّد عمرُو بن الجموح لجوده ... وحقٌّ لعمرو بالندى أن يسوّدا

إذا جاءه السوّالُ أذهب مالَه ... وقال: خذوه، إنه عائد غدا

ومن هذا الخبر نفهم أن عمرو بن الجموح كان - إلى جوار بطولته - كريماً جواداً معطاءً، ولا غرابة في ذلك، فمن يحمل روحه على يده، ويستعد للتضحية بها دون تردد في سبيل ربه، لا يبخل بالمال الذي يغدو ويروح، لأن الجود بالنفس غاية الجود والعطاء، وقد قال أحدهم [من البسيط]:

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ولكن سيادة عمرو في قومه لم تصبه بالغطرسة على الناس، أو التكبر على الجهاد، بل خرج هو وأولاده يؤدون ضريبة العزة والشرف، وفريضة الجهاد والكفاح، فناضلوا نضال الأحرار الأبرار، كما يفعل كل مؤمن غيور على حرماته ومقدساته.

وكان لعمرو بن الجموح أربعة أبناء، ظهرت فيهم الرجولة المبكرة، وتجلت منهم البطولة الباهرة، فواصلوا الجهاد مع رسول الله ﷺ ووصفتهم

---

(١) الجد بن قيس من بني سلمة: كان من منافقي بني جشم بن الخزرج، وتخلف عن غزوة تبوك، واستأذن الرسول في التخلف، مع أنه كان غنياً قوياً، فأذن له الرسول وأعرض عنه. وفيه وفي أمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

(٢) يعني: أي عيب أقبح من البخل؟.

(٣) الجعد هنا صفة مدح، أي شديد الأسر والخلق، والناقة الجعدة: هي المجتمعة الخلق الشديدة.

كتب السيرة بأنهم كانوا مثل الأسود، وهم خلاّد، والمنذر، ومعاذ، ومعوّذ. ويروى أن أحد أبنائه اسمه «أبو أيمن»، وقد ذكرت بعض المصادر أن أبا أيمن مولى لعمرو بن الجموح، وليس ابناً له، ولكن السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة» قال إنه ابن عمرو، وجاء مثل هذا في كتاب «عيون الأثر» لابن سيد الناس[1].

***

وقد شهد عمرو بن الجموح بيعة العقبة الثانية، وكان معه ابنه معاذ، فكانا بذلك من طلائع الأنصار المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان والجهاد والتضحية والفداء في سبيل الله والحق: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ **[البقرة: ١٧٧]**.

وشهد كذلك غزوة بدر، وهي أول معركة دارت بين الإيمان والكفران وهنا من يتشكك في حضور عمرو هذه الغزوة، ولكن ابن كثير نص على شهوده هذه الغزوة[2]، وقد بذل عمرو في يوم بدر ما استطاع، على الرغم من أنه كان أعرج شديد العرج، واشترك معه في هذه الغزوة الميمونة ثلاثة من أبنائه هم: خَلاّد، ومعاذ، ومعوذ[3]، ولعلهم شاهدوا مبلغ الجَهْد الذي عاناه والدهم يجاهد مع عرجه الشديد.

ولذلك حاول الأبناء الأربعة أن يمنعوا أباهم الاشتراك في الغزوة الثانية، وهي غزوة أُحد، وقالوا له: إن لك عذرك. وذلك لأن الله تعالى يقول في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴿١٧﴾﴾ **[الفتح: ١٧]**.

فأبى عمرو عليهم ما أرادوا فإن صرخة الجهاد تدوّي في أعماقه، وإن

---

(١) التحفة اللطيفة، ج ٢ ص ٢٨. وعيون الأثر، ج ٢ ص ٣١.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة الحلبي.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢ ص ٤٩٤ و٥٠٢.

نزعة النضال تموج في دمائه، وإن شوقه إلى المجاهدين وأجر الشهداء، ومكانة الفدائيين مما يجعله يحرص على طلب الموت في أكرم مجالاته وهو ساحة الجهاد في سبيل الله عز وجل.

وذهب عمرو إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه شاكياً له ومستعيناً به، كي يمكّنه من تحقيق أمنيته. قال له: يا رسول الله، إن أبنائي يريدون حبسي عن هذا الوجه ـ يعني الجهاد ـ والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة؛ يعني أنه يتمنى الاستشهاد في الجهاد ليكون مصيره إلى الجنة.

يا لجلال الرجال، ويا لروعة الأبطال!.

إن عمرو بن الجموح يدعوه داع إلى النضال، ولا يكلفه أحد بالخروج إلى الميدان، وإنه ليس مطالَباً في الدين بهذا الخروج، ولكنه مؤمن يحتسب عمله لوجه ربه، ويتقرب به من ثوابه، وهذا مستوى من حب الجهاد إن توافر في أبناء أمة سادت وقادت بين العالمين.

وكأن الرسول ﷺ قد أُعجب بهذه الروح الفدائية البطولية التي لا تقبل العجز أمام العلة أو الضعف الحسي، وقال له: أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك.

ولكن عمرو بن الجموح يصر على تحقيق أمنيته، فقال الرسول ﷺ لأبناء عمرو:

«ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة».

ويروى أن عمرو بن الجموح قال للنبي: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلتُ في سبيل الله حتى أُقتَل، أأمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ (وأشار إلى رجله العرجاء).

وأجابه الرسول قائلاً: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة».

وفرح عمرو بهذه البشرى، وسارع بإعداد نفسه وحمل سلاحه، وخرج

مع أبنائه الأربعة إلى ميدان المعركة، يقودهم المجاهد الأعظم ﷺ. وفي أول الطريق جعل عمرو يتجه نحو القبلة، يدعو ربه بضراعة قائلاً: اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، ولا تردّني إلى أهلي خائباً. . .

هكذا يكون الإيمان، وهكذا يكون إيثار ما عند الله على ما عند الناس، وتقديم شأن الآخرة على شأن الدنيا. إن ابن الجموح يرجو ربه أن يعجل إليه الشهادة كأنها عروس تُزف إليه، وإنه يعد سقوطه شهيداً في المعركة رفعةً له وشرفاً، ويعد سلامته في المعركة، وعودته إلى أهله سالماً خيبة وخسراناً. نعم هكذا يكون الإيمان! . .

ودارت رحى الحرب، واشتد القتال، وكان يوماً عصيباً شديداً، ولكن ابن الجموح يظل مناضلاً مقاوماً، وعلى مقربة منه ابنه «خلاّد» الصحابي ابن الصحابي، البدري ابن البدري، وظل الوالد والولد على طريق الثبات والإقدام، حتى نالا الشهادة معاً في غزوة أُحد.

وحينما تحدث الرسول ﷺ عن استشهاد ابن الجموح قال: «والذي نفسي بيده إن منكم مَنْ لو أقسم على الله لأبَرأه (أي صدَّقه واستجاب له) منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته».

ولا تعارض بين هذه الرواية التي تقول: «يطأ في الجنة بعرجته» والرواية الأخرى التي تقول: إن رِجلَه ستكون صحيحة في الجنة، لأنه يمكن الجمع بين الروايتين بأنه في أول دخوله الجنة يطؤها برجلٍ غير صحيحة، ثم تصير صحيحة[١].

***

وجاءت هند بنت عمرو بن حرام ـ وهي زوجة المجاهد الأعرج البطل الشهيد عمرو بن الجموح ـ جاءت إلى أرض المعركة، وحملت جثة زوجها

---

(١) انظر السيرة الحلبية، ج ٢ ص ٣٧.

عمرو بن الجموح شهيداً، وحملت كذلك جثة ابنها خَلاّد شهيداً، وحملت جثة أخيها عبد اللّه بن عمرو بن حرام شهيداً. . .

حملت هند الزوج والابن والأخ على جمل تريد أن تدفنهم في المدينة، ولقيتها السيدة عائشة رضي الله عنها في أول الطريق، فسألتها عن آخر أنباء المعركة، فقالت لها هند: أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جَلَل (أي هينة صغيرة) واتخذ الله من المؤمنين شهداء.

ثم سألتها عائشة وهي تشير إلى جثث الشهداء: فمَن هؤلاء؟.

فأجابت هند: هؤلاء أخي عبد اللّه، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح[1].

ثم زجرت هند الجمل ليسير نحو المدينة فلم يطعها وبرك، وأقامته ووجّهته نحو ميدان المعركة، فأسرع المسير، فحولته جهة المدينة وحملته على المسير فتوقف، فرجعت به هند إلى رسول الله ﷺ، وهو ما زال في أرض المعركة يصرّف شئوناً تتعلق بها، وأخبرته بشأن الجمل، فقال لها: إنَّ الجمل مأمورا! .

لكأن الله تبارك وتعالى قد ألهم الجمل ـ وهو الحيوان الأعجم ـ ألا يسير بالشهداء الثلاثة نحو المدينة، فليس مكانهم اللائق بهم هناك، وإنما المكان اللائق بهم هنا، حيث سالت دماؤهم، وحيث شهدت ساحة الميدان رجولتهم وبطولتهم. . . هنا حيث يرقدون في مواطن استشهادهم لتخلد ذكرى هذا الموطن، ولتثير هذه الذكرى في نفوس الأجيال بعد الأجيال أقوى العظات وأبلغ العبر.

وأمر رسول الله ﷺ بدفن جميع الشهداء في ساحة المجد والخلد، حيث دار القتال واشتد النضال، وكان رسول الله يجمع في الدفن بين الأشباه والأقران، فإذا كانت هناك رابطة بين مجاهدَيْن في الحياة جمع بينهما في قبر واحد.

---

(١) انظر كتابي الفداء في الإسلام.

ولقد كان عمرو بن الجموح صهراً وصديقاً لعبد اللّه بن حرام، ولذلك قال سيد الأنام ﷺ: «انظروا فاجعلوا عبد اللّه بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، فإنهما كانا متحابين متصافيين».

وهكذا جمع الله عز وجل بين البطلين المناضلين في الحياة على طريق الكفاح والجهاد، حيث كانا رفيقيْ سلاح، وزميليْ ميدان، وجمع بينهما في الآخرة على طريق الثواب والإسعاد: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

***

والعجيب من أمر عمرو بن الجموح أنه كان في الجاهلية قبل الإسلام سادنا للإصنام (أي يخدمها ويتولى أمرها)، وكان له صنم من خشب يضعه في داره ويسميه «مناة»، كما كان أشراف الجاهلية يفعلون، فلما أسلم فتيان من بني سلمة، ومنهم معاذ بن عمرو ومعاذ بن جبل، كانوا يتسترون بالليل، ويحملون الصنم من مكانه، ويطرحونه وسط الأقذار، منكساً على رأسه.

ويصبح عمرو، ويبحث عن الصنم حتى يجده فيقول غاضباً: ويلكم، من عدا على إلهنا هذه الليلة؟.

ثم يأخذه فيغسله ويطهّره ويطيّبه، ويقول: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته.

وتكرر هذا جملة مرات، فجاء عمرو بسيف، وعلّقه في رقبة الصنم وقال له: إني والله لا أعلم من صنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع، وهذا هو السيف معك.

وجاء الليل، وتسلل الشبان، فنزعوا السيف من رقبة الصنم، ووضعُوه في رقبة كلب ميت، وجعلوه مكان الصنم، وأخذوا الصنم مرة أخرى، وألقوا به وسط القاذورات.

ولما أصبح عمرو ورأى ما حدث أدرك ما كان فيه من غفلة، وأسلم للّه وجهه، وقال في ذلك أبياتاً يخاطب بها الصنم، وهي [من الرجز]:

والله لـو كـنـتَ إلـهـاً لـم تـكـن أنـت وكـلـبٌ وسـطَ بـئـر فـي قَـرَنْ
أفّ لـمـلـقـاك إلـيـهـا مُـسْـتَـدَنْ الآن فـتـشـنـاك عـن سـوء الـغَـبَـنْ
الـحـمـد لـلّـه الـعـلـي ذي الـمـنـن الـواهـبِ الـرزّاق ديّـان الـدِّيَـنْ
هـو الـذي أنـقـذنـي مـن قـبـل أنْ أكـون فـي ظـلـمـة قـبـر مُـرْتَـهَـنْ

والقَرَن ـ بفتح القاف والراء ـ هو الحبل، ومستدن: أي مستذل. والغبن ـ بفتح الغين والباء ـ الضعف والنسيان. وديان: قهار.

وبعد أن أشرق نور الإسلام في صدر ابن الجموح أخذ على نفسه أن يولم (أي يقيم وليمة) كلما تزوج رسول الله ﷺ إحدى نسائه.

وحفيد عمرو بن الجموح هو الحُباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح الذي كان يقال له ذو الرأي، لأنه الذي أشار على الرسول ﷺ بتغيير المكان الذي عسكر فيه.

روت السيرة أنه لما نزل رسول الله ﷺ في غزوة بدر على أقرب ماء من مياه بدر إلى جهة المدينة، جاءه الحباب بن منذر وقال له:

يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل: أمنزل أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟.

قال الرسول: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

فقال الحباب: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ونغوّر ما وراءه من القُلُب (جمع قليب وهو البئر) ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون فاستحسن الرسول ذلك من رأيه، وفعله.

وحمد الله تعالى للحباب رأيه. روى ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ يجمع الأقباص(جمع قبص وهو الجماعة من الناس) وجبريل عن يمينه، إذ أتاه مَلَك من الملائكة، فقال: يا محمد، إن الله يقرأ عليك السلام. فقال رسول الله ﷺ: «هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام».

فقال الملك: إن الله يقول لك: إن الأمر الذي أمرك به الحباب بن المنذر.

فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل، هل تعرف هذا؟.

فقال: ما كل أهل السماء أعرف، وإنه لصادق، وما هو بشيطان.

فنهض رسول الله ﷺ ومَنْ معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر القُلُب فغُوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية[١].

رضوان الله على الجد وعلى الحفيد.

***

(١) السيرة النبوية، لابن كثير، ج ٢ ص ٤٠٢.

مجاهدون أبناء امرأة

جرى العرف الخاطئ عند بعض الناس على أنهم إذا أرادوا الاستخفاف بشخص من الأشخاص، أو التهوين من شأنه، نسبوه إلى أمه، وقد يسرفون في السخرية بهذا الشخص، فيقولون عنه ـ كأنهم يطعنونه في الصميم ـ: إنه ابن أمه، أو إنه امرأة، أو إنه تربية امرأة؛ مع أن كل كبير وصغير من الرجال ابن امرأة، وربته امرأة، وقد تكون المرأة في بعض الأحيان ـ بعقلها وفضلها، وإيمانها ويقينها ـ أفضل من بعض الرجال أصحاب الشوارب الكثيفة!..

وهذه امرأة من صدر الإسلام، ومن مدرسة محمد ﷺ. ولدت الرجال، وربّت الأبطال، ونسب التايخ هؤلاء الرجال إليها، فازدادوا بهذه النسبة فخراً وشرفاً؛ إنها عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، من بني مالك بن النجار، رزقها الله تعالى بثلاثة أبناء من زوجها الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار، وهؤلاء الأبناء هم عوف ومعاذ ومعوذ(١).

ومن العجيب أنه كلما ورد اسم واحد منهم في كتب السيرة والتاريخ قيل عنه: إنه ابن عفراء، وإن ذُكروا معاً قيل عنهم: إنهم أبناء عفراء، وتستطيع اليد أن تمتد على سبيل المثال، فتتناول كتاب «الدرر في اختصار المغازي والسير» للإمام الحافظ يوسف بن عبد البر النمري، وتتطلع العين إلى مواطن ذكر هؤلاء الأبناء فيه، للتأكد من ذلك(٢).

وكان عوف بن عفراء أحد ستة من أهل المدينة بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى، وكان أحد اثني عشر رجلاً بايعوا بيعة العقبة الثانية، وكان معه

(١) بتشديد الواو، مفتوحة، أو مكسورة.
(٢) انظر الصفحات: ٧١ و٧٢ و٧٦ و١١٤ و١١٧، و١٣٥ ـ طبعة دار التحرير سنة ١٣٨٦ هـ.

في هذه البيعة شقيقه معاذ، ثم اشترك الأشقاء الثلاثة: عوف ومعاذ ومعوّذ في مبايعة الرسول ﷺ، في بيعة العقبة الثالثة، فكانوا ضمن السبعين رجلاً من الأنصار الذين جعلهم ربهم تبارك وتعالى طلائع الإيمان في المدينة المنورة.

وكان معاذ بن عفراء يتولى رعاية شئون يتيمين يملكان مربد تمر في المدينة، والمربد هوالمكان الذي يوضع فيه التمر ليجف، كالبيدر أو الجرن للحنطة، والمربد أيضاً هو الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم؛ وهذا المربد هو الذي بركت فيه ناقة رسول الله ﷺ عند الهجرة، فاشترى الرسول المكان، وبنى فيه مسجده الطهور، وهو المسجد الذي صار مركز القيادة في المجتمع الإسلامي الأول.

وقد آخى الرسول ﷺ بين معاذ بن عفراء وعمر بن الخطاب عقب الهجرة، ويا لها من مؤاخاة تسمو وتعلو؛ ولقد كانت المؤاخاة الإسلامية بين المهاجرين والأنصار، عقب الهجرة بخمسة أشهر، وكان عدد المتآخين مئة، منهم خمسون مهاجراً، وخمسون أنصارياً، وكانت هذه المؤاخاة على الحق والمواساة والتوارث، وظلت تلك المؤاخاة حتى نسخها قول الله جل جلاله: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۝٧٥﴾ [الأنفال: ٧٥].

وكانت قبل هذه المؤاخاة مؤاخاة أخرى بين المهاجرين فقط، وكانت مؤاخاة على الحق والمواساة دون التوارث.

***

وجاءت غزوة بدر الكبرى...

ودفعت المرأة المسلمة المؤمنة «عفراء» بأبنائها الثلاثة إلى الميدان، وعند بداية المعركة خرج ثلاثة من جبابرة المشركين يتحرشون بالمسلمين، ويطالبون ببدء الاشتباك والعراك، فخرج إليهم أبناء عفراء، وقيل خرج اثنان منهم، وكان الثالث هو عبد الله بن رواحة، رضوان الله على الجميع، فرفض المشركون المنازلة معهم، وطالبوا أن يكون الاشتباك مع أفراد من المهاجرين.

روي إن المشركين قالوا للثلاثة: من أنتم؟ فأجابوا: نحن رهط من الأنصار. فقال المشركون متجبرين: ما لنا بكم من حاجة، لستم لنا بأكفاء، نريد أكفاءنا من قومنا.

وكانت العاقبة أن خرج لهم ثلاثة من المهاجرين ودارت الدائرة على المشركين الثلاثة، فكانوا من الهالكين، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

واتسع القتال يوم بدر، وضرب المسلمون أمثلة رائعة في الإقدام والثبات وصدق الجهاد، ولقد تحدث عبد الرحمٰن بن عوف عن ذكريات يوم بدر، فقال كما جاء في الصحيحين:

إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثة سنهما، فتمنيت لو كنت بين أضلعَ منهما(أي بين أقوى منهما وأشد) فغمزني أحدهما وقال: يا عم، هل تعرف أبا جهل بن هشام؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: بلغني أنه كان يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا (أي لا يفارق شخصي شخصه، حتى يموت منا الأقرب أجلا). وغمزني الآخر، وقال لي مثل ما قال الأول..».

وتطلع عبد الرحمٰن بن عوف فرأى أبا جهل، فدل الغلامين عليه، فسارعا إليه، وابتدراه بسيفيهما، فضرباه فصرعاه، وهو بين الحياة والموت، ثم ذهبا إلى رسول الله ﷺ، وأخبراه بما فعَلا، فقال لهما: أيكما قتله؟.

فقال كل منهما: أنا قتلتُه.

فهدّأ النبي من روعهما وقال لهما: هل مسحتما سيفيكما؟.

قالا: لا.

فنظر النبي ﷺ إلى السيفين ثم قال: كلاكما قتله!..

وكان هذان الغلامان هما عوف ومعاذ ابنا عفراء، وقد روى البخاري أن عبد الرحمٰن بن عوف قال: «إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما

سراً من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل. فقلت: ياابن أخي، ما تصنع به؟ قال: عاهدتُ الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه.

وقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله، فما سرني أنني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء».

ويروى في بعض المصادر أن معاذ بن عمرو بن الجموح اشترك معهما في ذلك، أو اشترك مع عوف وحده، وقد بقي في أبي جهل رمق، فجاء عبد الله بن مسعود، فأجهز عليه واحتز رأسه.

وفي الصحيحين أيضاً إن الرسول ﷺ قال عقب غزوة بدر: من ينظر ماذا صنع أبو جهل؟ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله، فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَد، ليست به حركة، وليس بينه وبين الموت إلاّ القليل، فأجهز عليه كما جاء في السيرة(١).

ويروى أن معاذ بن عفراء حينما طعن أبا جهل أقبل عليه ولد أبي جهل، وضربه بسيفه، فأُصيبت يد معاذ، ولكنها بقيت معلّقة فيه بجلدة، فاحتمل ذلك، وظل يجاهد وهو يسحب يده المعلقة، فلما آذته وضع قدمه عليها، ثم تمطى حتى فصلها عنه، واستمر يناضل.

وظل الشقيقان ابنا المرأة المسلمة «عفراء» يجاهدان في المعركة حتى نالا نعمة الشهادة في سبيل الله عز وجل، ففازا بذلك فوزاً عظيماً.

بل جاء في بعض الروايات أن عفراء قدمت إلى الجهاد سبعة أبناء لها، لأنها تزوجت مرتين، وولدت أبناء من كل زوج، وقد شهد هؤلاء السبعة غزوة بدر، وكان منهم الحارث بن رفاعة، وهم معوذ ومعاذ وعوف، وأربعة من زوجها بكر بن عبد ياليل، وهم خالد وأساس وعاقل وعامر، واستشهد منهم يوم بدر: معاذ ومعوذ وعاقل(٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢ ص ٤٤٣.

(٢) السيرة الحلبية، ج ١ ص ٥٥٨، وقيل إنه كان لها ابن اسمه رفاعة.

ويروى أن الرسول ﷺ قال حينما علم بمصرع أبي جهل عليه لعنة الله: «إن لكل أمة فرعوناً، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل، قتله الله شر قتلة، قتله ابنا عفراء، وقتلته الملائكة، وتدافّه ابن مسعود[1]»أي أجهز عليه.

وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ وقف عند جسدي ابني عفراء، ثم قال: «رحم الله ابني عفراء، فهما شركاء في قتل فرعون هذه الأمة، ورأس أئمة الكفر.

فقيل: يا رسول الله، ومن قتله معهما؟.

قال: الملائكة، وابن مسعود قد شَرَكَ في قتله».

ومن الثابت أن الملائكة قد شاركت يوم بدر في المعركة، تطميناً لقلوب المؤمنين، وتثبيتاً لعزائمهم، وإشعاراً لهم بأن جند السماء تقاتل معهم، وبذلك يزداد المجاهدون إيماناً على إيمانهم، ويقيناً فوق يقينهم، فيصلح العشرون منهم للثبات أمام المائتين من الأعداء، كما قال الحق جل جلاله في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥].

ولقد صرح القرآن المجيد باشتراك الملائكة في المعركة يوم بدر، فذلك حيث يقول أيضاً في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

وقد يعترض غافل فيقول: وما الحاجة إلى اشتراك الملائكة في المعركة، وهذا قد يوهم أنه لولا الملائكة لما جاهد المسلمون الجهاد المثمر المؤدي إلى النصر؟.

ولا يليق بمؤمن عاقل أن يتقبل مثل هذا الاعتراض، لأننا نستطيع أن نفهم

(١) عيون الأثر، لابن سيد الناس، ج ١ ص ٢٦٢.

في يسر أن اشتراك الملائكة مع المؤمنين كان للتثبيت والتشريف والتبريك، وقد جاهد المسلمون يوم بدر أصدق الجهاد، وحينما يحس المؤمن المجاهد بأنه يقاتل وإلى جانبه ملائكة الرحمٰن، وهم عباد الله المكرمون، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، تسمو معنوياته إلى أعلى عليين، ويصبح مقداماً جسوراً، يستعذب الموت، ويستطيع الشهادة، ويخوض نيران المعركة خوضاً بلا احتياط ولا إبطاء ولا تردد.

ولعله من صنع الله العجيب أن يأتي عوف بن عفراء ـ وهو في غزوة بدر ـ ويسأل الرسول ﷺ قائلاً:

يا رسول الله، ما يضحك الربَّ من عبده؟.

والضحك في حق الله عز وجل كناية عن غاية رضاه، ولقد روي أن الرسول وقف على قبر طلحة بن البراء بن عمير البلوي الأنصاري، فقال: «اللهم الق طلحة وأنت تضحك إليه، وهو يضحك إليك» أي القه لقاءَ كلقاء المتحابّين المطهرين لما في نفسيهما من غاية الرضا والمحبة؛ فهي كلمة وجيزة تتضمن الرضا مع المحبة وإظهار البشر[١].

وفي الحديث: «ثلاثة يضحك الله تعالى إليهم يوم القيامة: رجل قام من الليل، والقوم إذا صَفُّوا للقتال، والقوم إذا صُفوا، للصلاة». وفيه أيضاً: «إن الله يضحك إلى اثنين: رجل قام من جوف الليل فتوضأ وصلى، ورجل كان مع قوم فلقوا العدو فانهزموا، وحمل عليهم، فالله يضحك إليه».

وقيل للرسول ﷺ: أي الشهداء أفضل؟ الذين يُقلون في الصف، ولا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك الذين يتلبطون (أي يتمرغون ويضطجعون) في الغرف العُلى من الجنة، يضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه».

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي، ج ٢ ص ٣٢٨ والسيرة الحلبية، ج ١ ص ٥٥٠.

ولما مات سعد بن معاذ صاحت أمه، فقال لها النبي ﷺ: «ألا يرقأ دمعك، ويذهب حزنك، فإن ابنك أول من يضحك الله إليه».

لقد سأل عوف الرسولَ ـ كما سبق ـ: يا رسول الله، ما يُضحك الربَّ من عبده؟.

وأجاب الرسول عوفاً فقال: غمسه يده في العدو حاسراً.

والغمس هو التوغل بين الأعداء في أثناء القتال، وقد جاء في الحديث: «فانغمس في العدو فقتلوه» أي دخل فيهم وغاص. والحاسر هو الذي لا درع عليه ولا مغفر(١).

وفي حركة كأنها «لا شعورية» سارع عوف إلى درعه فنزعه، وكأنه فعل ذلك وهو في غمرة شاملة من الحرص على الشهادة والزهد في الحياة، ثم تقدم فقاتل جتى نال الشهادة رضوان الله تعالى عليه.

ولا يقولن قائل: إن هذا القول الكريم من الرسول ﷺ يتعارض وأخذ الحيطة والحذر، لأن الرسول ﷺ قد قال هذا في موطن كأنه يراد من أهليه أن يكونوا مُثُلاً عليا في صدق الإقبال على الحياة، ولا يراد من ذلك أن يقاتل كل المجاهدين حاسرين، فإن الله تعالى يقول: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴿٧١﴾﴾ [النساء: ٧١]. وفي السورة نفسها يقول تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴿١٠٢﴾﴾ [الآية: ١٠٢]، ويقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويروى أن معوذ بن عفراء كانت له بنت تسمى «الرُّبَيِّع»، غزت مع رسول الله ﷺ، وقالت: كنا نغزو مع النبي ﷺ، فكنا نسقي القوم، ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

ولقد دخلت «الرّبيّع» على أسماء بنت مخربة، فسألتها أسماء عن اسمها ونسبها، فذكرت لها الربيع ما أرادت، فقالت لها أسماء: أنت بنت قاتل سيده؟ (تعني أبا جهل). فردت عليها الربيع في ثبات قائلة: بل أنا ابنة قاتل عبده!!.

***

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ج ٣ ص ١٧١ وج ١ ٢٢٦.

هكذا كان أبناء عفراء، أبناء المرأة المسلمة التي ربت وأدبت وضحت، وبمثل هذة المؤمنة يفخر الإسلام والمسلون، وبمثل أبنائها تعلو كلمة الحق وتزهق كلمة الباطل، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

رضوان الله جل جلاله على عفراء، وعلى أبناء عفراء!.

***

مجاهد وجبت له الجنة

قتادة بن النعمان

إن شريعة الحق والعدل والإيمان تستلزم تقدير المجاهدين وإثابة المحسنين، حتى لا يضيع عملُ عامل، ولا يتساوى حقير وفاضل، والقرآن الكريم يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

والصنيع الجميل محفوظ دائماً عند خيار الرجال، مهما طالت عليه الآجال.

وليس هناك أجمل ولا أفضل في شرعة الله تعالى من حمل الروح على الكف، والإقبال بها في صدق وإخلاص نحو مواطن التضحية والفداء، في سبيل عقيدة أو حرمة أو حق، ومن هنا كان تكريم المجاهدين ـ مادياً ومعنوياً ـ أمراً مقدساً في نظر الإسلام؛ وهذا التكريم لا يقتصر على ذواتهم، ولا ينتهي بانتهاء حياتهم، بل يمتد ويمتد حتى يشمل منهم الأبناء والأحفاد.

والله جل جلاله قد أبان لعباده في تعاليم دينه أنه سبحانه يحفظ الإنسان الصالح في أولاده وذريته، ولذلك كان رسول الله ﷺ يعنى العناية الظاهرة الملحوظة بتقدير المجاهدين وتكريمهم والثناء عليهم، وكان يوجه الأنظار إلى تكريم أبنائهم وذرياتهم، ووجوب صيانتها عن معاطب الاحتياج أو الضياع، وقد اهتدى خلفاؤه وصحابته وأتباعه من بعده بهذا الهدي القويم.

ويمكننا أن نأخذ من تاريخنا في صدر الإسلام مثلاً يدلنا على أن الأمة الواعية السامية تحفظ الجميل، وتتذكر الصنع الحميد، وتتلمس الوسيلة، لتمجيده وتخليده، وهذا المثل نستمده من سيرة الصحابي البطل المجاهد: أبي

عمرو[١] قتادة بن النعمان بن زيد الظفري الأنصاري، وهو أخو أبي سعيد الخُدْري لأمه.

وأبو سعيد هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي الخدري، استصغره النبي ﷺ يوم غزوة أُحد فردَّه، ثم غزا بعد ذلك مع النبي ثنتي عشرة غزوة، وروى عن الرسول ألفَ حديث ومائة وسبعين حديثاً، وقد روى عن جماعة من الصحابة، وروى عنه جماعة من الصحابة وعدد كبير من التابعين، وكان من فقهاء الصحابة وعلمائهم وفضلائهم البارعين.

وقال سهل بن سعد: «بايعت النبي ﷺ أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدري على أن لا تأخذنا في الله لومة لائم». وروى حنظلة بن أبي سفيان الجمحي عن أشياخه قالوا: لم يكن من أحداث الصحابة أفقه ـ أو أعلم ـ من أبي سعيد الخدري، ومناقبه كثيرة، وقد توفي بالمدينة يوم الجمعة سنة أربع وستين، أو أربع وسبعين[٢]، ودفن بالبقيع.

***

وكان البطل قتادة بن النعمان من سابقي الأنصار إلى الإسلام، فقد شهد بيعة العقبة، وهو من سابقي المؤمنين المجاهدين، فقد قاتل محسناً متقناً، في غزوات بدر وأُحد والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وظل على هذا الجهاد طيلة حياة الرسول، ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى لم ينقطع قتادةُ عن الجهاد، ونحن نراه عقب وفاة الرسول ضمن الجيش الذي قاده أسامة بن زيد بوصية الرسول، وسيره أبو بكر الصديق، رضوان الله على الجميع.

وقد حدثت لقتادة حادثة في غزوة أُحد فيها العظة التي نريد، والعبرة التي نبغي، فقد كان من القلة الطيبة التي ثبتت إلى جوار رسول الله ﷺ، تدافع عنه في ساعة الشدة، وكان يرد السهام عن سيد الأنام ﷺ، فوقع سهم في وجهه،

---

(١) تروى له أكثر من كنية، فهو أبو عمرو، أو أبو عمر، أو أبو عثمان، أو أبو عبد الله.

(٢) ذكر النووي هذا في كتاب «تهذيب الأسماء»، واكتفى الذهبي في كتابه «العبر» بأنه مات سنة أربع وسبعين ج ١، ص ٨٤.

فخلع إحدى عينيه من محجرها[1] حتى سالت بعروقها على خدّه، ومع ذلك لم يكف عن النضال.

ولما وقف القتال أراد بعض الصحابة أن يقطع قتادة عينه ويتخلص منها، ولكنه ذهب إلى رسول الله ﷺ وعينه سائلة على وجنته، فتناولها الرسول بأصابعه الطاهرة في رفق، وردّها إلى موضعها بيده الشريفة في رحمة وحنان، وجعل يدعو ربه ويقول: «اللهم قِ عين قتادة، كما وَقى وجهَ نبيك بوجهه، فاجعلها أحسن عينَيْه، وأحدَّهما نظراً، اللهم اكسُه جمالاً».

وكلمة «قِ» فعل أمر، من وقى الشيء يقيه، إذا صانه وستره عن الأذى، وقد جاء في الحديث: «مِنْ عصى الله لم تقهِ من النار واقية».

واستجاب ربك جل جلاله لدعاء نبيه، ورجاء حبيبه وصفيه، فسلمت عين قتادة وبرئت وصحت، بل صارت فيما بعد أجملَ عينيه وأحدَّهما، وأجملهما وأصحَّهما، وصارت لا تُعرف، ولا يُدْرى أيهما التي كانت قد سالت، وكانت لا ترمد إذا رمدت عينه الأخرى. وهذه العبارات كلها هي من حديث التاريخ ورواية السيرة، لا من خيالي ولا من مقالي.

ولقد قال الإمام البوصيري في همزيته ضمن وصفه ليد النبي الشريفة [من الخفيف]:

وأعادت على قتادة عيناً ... فهي حتى مماته النجلاءُ

والعين النجلاء هي العين الواسعة.

***

ويروي لنا قتادة رضي الله عنه هذه الحادثة بصراحته وصدقه، فيقول:

---

(١) ذكر النووي أن أبا نعيم قال: إن قتادة سالت عيناه دمعاً، ولكن العلماء غلطوه، وإنما سالت إحداهما فقط، وكذلك يروي بعضهم عن قتادة أن عينيه سالتا يوم أُحد، ولكن نقاد الروايات قالوا إن هذه رواية غريبة، والصحيح أن عيناً واحدة هي التي سالت يومئذ (انظر السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣، ص ٦٦). وقد قيل إن خلع العين كان في غزوة بدر، وقيل في غزوة الخندق، ولكن الأصح أن ذلك في غزوة أُحد.

كنت يوم أُحد أتقي السهام بوجهي عن وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرُها سهماً ندرت منه حدقتي[١]، فأخذتها وقلت: يا رسول الله، إن لي امرأة أحبها، وأخشى أن تراني فتقذَرني (أي تكرهني وتجتنبني).

فقال لي النبي ﷺ: «إن شئتَ صبرتَ ولك الجنة، وإن شئت رددتُها، ودعوتُ الله تعالى لك.

فقلت: يا رسول الله، إن الجنة لجزاء جزيل، وعطاء جليل، ولكن ردّها، وتسأل الله تعالى لي الجنة. فردّها لي، ودعا لي بالجنة.

وكأن قتادة رضي الله عنه أراد ألا يفقد حبَّ زوجته، وألا يعيش معها بهيئة قد تسؤوها ولا تفرحها، وكأنه أيضاً أراد أن يستكثر من الخير، وأن ينال من حظ الدنيا مع نعيم العقبى، مهتدياً بقول الله جل جلاله: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي حظ ونصيب ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢]

وقوله عز شأنه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعاً عن عباده.

وقوله تباركَ وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [صۤ: ٥٤]، أي انقطاع وفناء.

فطمح قتادة في أن تصح له عينه، ليستقيم أمره في دنياه، وأن يكون من أهل الجنة، فيكمل نعيمه في أخراه؛ ولم يبخل عليه رسول الله، بل استمد له

---

(١) ندرت: سقطت ووقعت. والحدقة: العين، وقوله: «فأخذتها» أي رفعتها بيدي حتى تتدلى.

من فضل الله الواسع العميم، فكان هذا تكريماً أي تكريم للمجاهد الصادق الأمين.

وهذه الرعاية النبوية من سيد الأنام لقتادة قد صادفت التربة الكريمة الطيبة التي أثمرت خير الثمر. ومن ملامح طيبها أن قتادة كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، وكان شديد التعلق بآثاره؛ ولقد رمى رسول الله ﷺ يوم غزوة أُحد بقوس حتى اعوجت[(١)] ولم تعد صالحة للاستعمال، فأخذها قتادة، واحتفظ بها عنده كأثر كريم عزيز، له ذكراه المجيدة العاطرة.

وفي السيرة العطرة قصة مشابهة لقصة قتادة بن النعمان.

عن رافع بن مالك: لما كان يوم بدر تجمع الناس على أُبيّ بن خلف، فأقبلتُ إليه، فنظرت إلى قطعة من درعه قد انقطعت من تحت إبطه، فطعنته بالسيف فيها طعنة، ورُميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء[(٢)].

❋❋❋

ودارت الأيام، ولحق قتادة بن النعمان بربه جل جلاله، وأفضى إلى الجنة والرضوان بمشيئة الرحمٰن.

وجاء إلى الخلافة خامس الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ودخل عليه ذات يوم رجل يفخر ببعض الأعمال التي لم يأبه لها خامس الراشدين، وبعد قليل دخل عليه غلام من ذرية قتادة بن النعمان قيل إنه حفيده عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان، قيل بل كان الداخل هو ابن قتادة، وكان لقتادة ولد اسمه «عمرو» روى عنه الحديث كما ذكر النووي.

وأقبل الخليفة على الغلام يسأله متعرفا إليه: مَنْ أنت؟ فقال الغلام: يا

---

(١) القوس مؤنثة: وقد تذكر.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٤٤٨.

أمير المؤمنين، أنا ابن قتادة بن النعمان، أبي شهد بيعة العقبة، وشهد بدراً وأُحُداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ثم قال الغلام [من الطويل]:

أنا ابن الذي سالت على الخدّ عينُه فرُدَّت بكفّ المصطفى أحسن الردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسنَ ما عينٍ، ويا حسنَ ما ردّ[1]

فأشرق وجه خامس الراشدين، وتهلل جبينه، وظهرت البهجة على محياه، وأقبل على الغلام وكأنه قد وجد كنزاً، أو لاقى حبيباً غالياً، وكأنه أراد أن يعرّض بالذين يفخرون بدنياهم، فاستشهد بقول أمية بن أبي الصلت في سيف بن ذي يزن، وهو قوله[من البسيط]:

تلك المكارم، لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا!

وكان استشهاد الخليفة بهذا البيت مناسباً، ولذلك قال عنه ابن كثير: «فأنشده عمر في موضعه حقاً».

و«القعبان» مثنى قعب، والقعب هو ما يُحلب فيه، وهو أيضاً القدح يروي الرجل. وشيبا: أي خُلطا، والشوب في الأصل: الخلط، والمراد مزج اللبن بالماء.

أرأيت؟ إن خامس الراشدين قد قال هنا لأنه يعلم أن الإسلام لا يزن الإنسان بالنسب أو الحسب، أو الجاه أو المال، أو السلطان أو القوة، وإنما يزنه بعمله، وخير الناس من قدم الطاعات إلى ربه، واعتز بالمكارم التي يحتسبها لوجهه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال سيد الخلق: «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح».

واستمع خامس الراشدين إلى مطالب الغلام سلالة المجاهد البطل قتادة بن النعمان، وقضى له ما أراده وفوق ما أراد، بعد أن مضى على وفاة

(١) أي ما أحسنها من عين، وما أحسنه من رد.

قتادة عشرات وعشرات من السنين، والصنيع الجميل محفوظ دائماً عند الأخيار من الرجال، مهما تطاولت عليه الآجال.

وهكذا أخلص قتادة لله نيته، وقدّم بين يديه جهاده وطاعته، فحفظ الله له ذريته، فوق ما يكرمه به حين يتفضل عليه فيدخله جنته، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

وهناك من الدلائل على إخلاص قتادة في دينه وإيمانه ما فيه عظة وعبرة، فقد كان قتادة مثلاً يكثر من تلاوته سورة الإخلاص، وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. كان يتلوها ويرتلها ويرددها كثيراً، وخاصة في أوقات انفراده، حتى روى أخوه لأمه أبو سعيد الخدري فقال: «بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بقل هو الله أحد، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل نصف القرآن ـ أو ثلثه».

كما جاء في حديث آخر أن رسول الله ﷺ سمع قتادة بن النعمان يقرأ سورة: قل هو الله أحد، ويرددها، فقال: «وجبت»(١).

والضمير في قوله «وجبت» يعود إلى الجنة، أي ثبتت الجنة، وإنما تثبت الجنة هنا لأن القارئ يقرأ سورة التوحيد، والتوحيد عماد الدين، ومن ملأه اليقين بعقيدة التوحيد أخلص عمله لله الواحد الأحد، فعرف طريقه إلى الجنة، فسلكه وتابع المسير عليه، حتى يدخل جنة النعيم.

نعم إنها سورة التوحيد، فهي تقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أي هو الله الواحد الذي لا رب سواه، ولا شريك له. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي ـ الذي يُصْمد إليه، أي يقصده كل الناس في حاجاتهم، ويقصدونه لدفع المكاره والشدائد عنهم.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ أي ليس أباً لأحد، وليس ابناً لأحد، فلا

(١) انظر الروض الأنف للسهيلي، ج ٢ ص ١٣٧، طبعة مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.

والد له ولا ولد، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾: أي ليس هناك ما يعادله أو يساويه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

إنها سورة التوحيد، وشهادة التوحيد إذا عمرت نفس صاحبها وقادته إلى صراطها، كانت مفتاح الجنة، ولذلك جاء في حديث طلحة: «كلمة سمتعها من رسول الله ﷺ موجبة». فقال عمر: أنا أعلم ما هي، لا إله إلاّ الله. ومعنى موجبة: أنها كلمة أوجبت لقائلها المخلص فيها دخول الجنة بفصل الله وكرمه.

ومن كلام قتادة الدال على إخلاص نيته، واتجاهه إلى الله بعمله، قوله: «إن الله ليعطي العبد على نية الآخرة ما يسأله من الدنيا، ولا يعطيه على نية الدنيا إلاّ الدنيا».

وكان قتادة رضي الله عنه يكره الرياء، ويعرف خطره على المرائي المنافق، ولذلك كان يقول: «إذا راءى العبد قال الله تعالى: أنظروا إلى عبدي يستهزئ بي».

ويا ويل من يستهزئ بالله القوي القاهر، شديد العقاب أليم العذاب.

أليس هو القائل: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ④⑧﴾ [الزمر: ٤٨].

والقائل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ①⓪⑥﴾ [الكهف: ١٠٦].

***

وبعد حياة عامرة عاطرة توفي قتادة بن النعمان بالمدينة، سنة ثلاث وعشرين، وهو ابن خمس وستين، وصلى عليه عمر بن الخطاب، ونزل في قبره محمد بن مسلمة والحارث بن خزيمة. رضوان الله على الجميع.

***

المجاهد الفقير

سهل بن حنيف

يحسب بعض الناس أن القلة تكون سببَ الضعف والهوان أمام الكثرة، وهذا حسبان خاطئ يعتمد على ميزان غير رشيد، لأنه يتأثر بالكم لا بالكيف، وبالعدد لا بالنوع، وبالمقدار لا بالجنس، مع أن الله جل جلاله يقول: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠].

ولقد سمعنا من أفواه الحكماء ما يفرقون به بين القلة الطيبة الكريمة والكثرة الخبيثة اللئمية، وهذا أحدهم يقول [من البسيط]:

إنا نريد إذا ما الظلم حاق بنا ... عدلَ الأناسيّ، لا عدل الموازينِ
عدل الموازين ظلمٌ حين تنصبها ... على المساواة بين الحر والدونِ
ما فرّقت كفةُ الميزان، أو عدلَت ... بين الحليّ وأحجار الطواحين[(١)]!

ولقد انتصر أصحاب محمد ﷺ وهم مئات معدودة على الألوف المؤلفة من لئام البشر، لأن أتباعه كانوا الطاهرين الذاكرين الشاكرين الصابرين لعهد الله تعالى وميثاقه، فأيدهم ربهم ومجّدهم: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

ويحسب بعض الناس كذلك أن الفقر يكون عائقاً لأصحابه عن مراتب السيادة والقيادة، وهذا جهل بالتاريخ وبحقائق الأمور، فهؤلاء ـ مثلاً ـ هم المؤمنون الذي قادهم سيد المؤمنين محمد ﷺ، ليخوضوا أول معركة في غزوة بدر، لقد كانوا فقراء إلى جوار قلة عددهم بالنسبة إلى عدوهم، حتى إن

(١) الأبيات للعقاد.

الرسول ﷺ كان يدعو ربه تبارك وتعالى من أجلهم، فكان يقول مناجياً ومنادياً:

«اللهم إنهم جياع فأطعمهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم».

ولكن هؤلاء الجياع العراة الحفاة استطاعوا بفضل ربهم سبحانه، وقوة يقينهم، أن ينتصفوا لأنفسهم وأن يقيموا ميزان العدالة في الأرض، وأن يخسفوا بجبروت البغي إلى الحضيض، وأن ينسفوا بنيان الظلم الطويل العريض: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨٢].

***

وهذا أحد الفقراء في مدرسة محمد الزهراء.

إنه أحد الفقراء الذين عاشوا فضلاء، وجاهدوا شرفاء، ولاقوا ربهم أوفياء، وما بدلوا تبديلاً: إنه الصحابي الفقير المحتسب، المجاهد المناضل المقدام، أبو ثابت[١] سهل بن حُنَيف بن واهب الأنصاري، رضي الله عنه وكان قليل المال، لا يكاد يجد ما يكفي مطالب حياته الضرورية، ولذلك نرى الرسول ﷺ حينما تأتيه مغانم بني النضير ـ بلا قتال أو نزال ـ يقسمها بين المهاجرين الفقراء دون الأنصار الأغنياء، لكي يقترب مستوى المهاجرين المادي من مستوى إخوانهم الأنصار.

أعطى الرسول المهاجرين، ولم يعط أحداً من الأنصار، ولكنه ضم إلى المهاجرين شخصين من الأنصار هما سهل بن حنيف وأبو دجانة لشدة حاجتهما وفقرهما.

ولكن هذا الفقر لم يمنع رسول الله أن يؤاخي عقب الهجرة بين سهل بن حُنيف وعلي بن أبي طالب، وفي هذه المؤاخاة إشعار بمكانة سهل وتنويه

---

(١) ذكرت له الروايات أكثر من كنية، فهو أبو ثابت، أو أبو سعد، أو أبو سعيد، أو أبو الوليد.

بفضله، لأن الرسول قد اختار له ابن عمه، وربيب بيته، وزوج ابنته، وطليعة تلاميذه: علياً رضوان الله عليه.

وآخى الرسول من جهة أخرى بين سهل وعبد اللّه بن مسعود، وهذا تشريف آخر للمجاهد الفقير سهل بن حنيف، فعبد اللّه بن مسعود كان سادس ستة دخلوا الإسلام في طليعته، وهو صاحب الهجرتين، والذي أجهز على أبي جهل فرعون الأمة في غزوة بدر، وهو أحد أصحاب البيعة المباركة: بيعة الرضوان، والمجاهد الموصول الجهاد، والذي شهد له الرسول بالجنة.

والمرء على دين خليله، فكذلك كان المجاهد العظيم سهل بن حُنَيف، فقد شهد الغزوات والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي طليعتها غزوة بدر، وثبت إلى جوار رسول الله في اليوم العصيب الشديد: يوم أُحد، وبايعه على الموت، وجعل ينضح[1] بالنبل عن الرسول، والرسول يقول: «أنبلوا سهلاً، فإنه سهل». أي أمدوه بالنبال ليواصل الرمي بها، فإنه بارع في الرمي سريع في إصابة الأعداء، لا يصعب عليه ذلك، بل هو عنده سهل ميسور.

وظل سهل إلى جوار الرسول حتى نجا وانتهت المعركة، ومعه مجموعة من الصحابة شملهم التوفيق، فبايعوا كذلك رسولهم مبايعة الأوفياء، وجاهدوا جهاد الأبطال الشرفاء.

جاء في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة عن دفاع الصحابة يوم غزوة أُحد عن رسول الله: «وأكثر من حامى عنه في تلك الحال علي عليه السلام وأبو دجانة وسهل بن حنيف، وحامى هو عن نفسه» ثم جاء قوله: «فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه، وهو يقرب من الجبل حتى صار في أعلى الجبل، أصعد من فم الشعب إلى تدريج هناك في الجبل، ورقى في ذلك التدريج صاعداً حتى صار في أعلى الجبل، وتبعه النفر الثلاثة فلحقوا به»[2].

***

(١) ينضح: يرمي. وقد قال النبي للرماة يوم أُحد: «انضحوا عنا الخيل لا نؤتى من خلفنا» أي أرموهم بالنشاب، يقال: نضحوهم بالنبل إذا رموهم.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج ص ص٤٩٠و٤٩١ طبعة بيروت.

وعاد الرسول الأمين من غزوة أُحد إلى المدينة وفيه جراحات وإصابات، ومعه تلميذه وصهره وابن عمه، وفي يد كل منهما سيف مخضب بالدماء، ولما دخلا البيت مدَّ رسول الله ﷺ يده بالسيف إلى ابنته البتول الطاهرة: فاطمة الزهراء، وقال لها: «اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم».

ثم ناولها عليّ سيفه كذلك وقال لها: «وهذا فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم»(١).

فقال له الرسول: «لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة» وهكذا تذكر نبي الإنصاف هذين البطلين اللذين جاهدا مع علي، فنوّه بهما وأثنى عليهما.

وكأن الرسول تذكر عقب هذا بطلين آخرين مع علي وزميليه، فعاد يقول لابن عمه علي: «إن تكن أحسنت القتال فقد أحسن معك عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، والحارث بن الصمة، وسهيل بن حُنيف، وأبو دجانة».

وفي رواية أخرى: «لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة».

وكأن الله تعالى قد ألهم رسوله تكرير التذكير لعلي بشأن سهل بن حنيف، فكان هذا رمزاً مطوياً إلى ما سيأتي به الغد حينما نشاهد سهل بن حنيف يواصل الجهاد بعد وفاة رسول الله ﷺ، ويتألق جهاده أكثر وأكثر إلى جانب الإمام علي حينما خاض تلك المعارك القاسية الشرسة، فكان سهل بن حنيف في صف الإمام، يناصره ويدافع عنه ويخلص له حتى آخر حياته.

وهذا هو الإمام علي نراه يريد المسير إلى الشام مجاهداً الباطل وأهله، ويجمع من كان معه من المهاجرين والأنصار، ويقول لهم بعد أن يحمد الله

---

(١) قيل إن علياً قال لفاطمة وهو يناولها السيف:

أفاطم هاء السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بلئيم

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد ... وطاعة رب بالعباد رحيم!

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٩٥.

ويثني عليه: «أما بعد، فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مباركو الأمر، مقاويل بالحق، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم».

وكان ممن تكلم سهل بن حنيف، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: «يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سالمت، وحرب لمن حاربت، ورأينا رأيك، ويميننا يمينك؛ وقد رأينا أن تقوم في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صُنع لهم في ذلك من الفضل، فإنهم أهل البلد؛ وهم الناس، فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب. فأما نحن فليس عليك خلاف منا، ومتى أمرتنا أطعناك».

ونلمس في هذا الكلام من سهل جملة أمور: أولاً أنه يحب الإمام علياً، ويخلص له الطاعة والمتابعة، وثانياً أنه على أتم الاستعداد للجهاد، وثالثاً أنه أخلص للإمام المشورة والرأي.

وهذا هو سهل يخطب الناس يوم «صفين» داعياً إلى صدق الجهاد ومقاومة الخوف والجبن، فيقول: «يا أيها الناس، اتهموا رأيكم، فإنا والله ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا مع رسول الله ﷺ لأمر يفظعنا إلاّ أسهلنا إلى أمر نعرفه».

وبادل علي سهلاً حباً بحب، وحينما خرج الإمام إلى العراق وثق بسهل فاستخلفه على المدينة، ثم عاد فاستخلصه لنفسه، يستعين به في الرأي والمشورة. وحينما كان سهل والياً لعلي على المدينة تركها بعض الناس وانضموا إلى معاوية الذي كان خصماً لعلي، فكتب الإمام إلى سهل رسالة يقول فيها:

«أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غياً، ولك منهم شافياً، فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم إلى العمى والجهل[1]،

---

(١) الإيضاع: الإسراع في السير.

فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون[١] إليها، قد عرفوا الحق ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة[٢]، فهربوا إلى الأثرة، فبُعداً لهم وسحقاً.

إنهم والله لم يفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل، وإنا لنطمع في هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه، ويسهّل لنا حَزنه[٣]، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[٤].

وهذه الرسالة تدل على جملة أمور: تدل على أن سهل بن حنيف كان حزيناً لما أصيب به المسلمون من فرقة حينئذ، ولما يفعله بعض الناس من حب الدنيا وتقديمها على الحق والواجب، وتدل على أن سهلاً قد آثر طريق الكفاح والنضال مع علي، على طريق التمتع والغنى عن طريق سواه، وتدل على أن الإمام علياً كان يقدر سهلاً تقديراً كريماً.

❋❋❋

وإذا كان سهل بن حنيف قد أحسن الكفاح وواصل الجهاد، فإنه لم ينس تفقهه في دينه، ولقد روى الحديث الشريف عن جماعة، ورواه عنه جماعة، ويذكر النووي أن سهلاً روى أربعين حديثاً عن رسول الله ﷺ، وكان لسهل ولد هو «أبو أمية أسعد بن سهل بن حنيف» روى الحديث عن أبيه، وهو صحابي كأبيه، وكان لسهل عقب في المدينة، ولكنه سكن الكوفة. والعقب: الذرية.

وكان لسهل أخ اسمه «عثمان بن حنيف»، وهو أيضاً صحابي، شهد غزوة أُحد، واستعمله الإمام علي على البصرة، ولكن طلحة والزبير تغلبا عليه، ومات عثمان بن حنيف في خلافة معاوية.

❋❋❋

(١) مهطعون: مسرعون.

(٢) أسوة: متساوون. والأثرة: حب الذات.

(٣) الحزن ـ بفتح فسكون: الشديد الصعب.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج ٥ ص ٢٣.

توفي سهل بن حنيف سنة ثمان وثلاثين، وصلى عليه الإمام علي بن أبي طالب، ويروى أنه كبّر عليه ست تكبيرات، مع أن المعهود في صلاة الجنائز هو أربع تكبيرات فقط، ولما سئل الإمام عن زيادة التكبيرتين الأخيرتين علل ذلك بأن سهل بن حنيف قد شهد غزوة بدر، فهو إذن «بدري» من البدريين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم: «اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم». وكأن الإمام قد اجتهد فزاد هاتين التكبيرتين إرادة لزيادة التكريم لسهل، على الجميع رضوان الله تعالى.

إن القلة لم تمنع السابقين الأكرمين من النصر، فكيف إذا أصبح المسلمون كثرة؟

وإن الفقر لم يمنع السابقين الأكرمين من الفوز، فكيف إذا أصبح المسلمون أغنياء؟

ألا إن لله عباداً إذا أرادوا أراد، وإنما يريد الله ما يريدون، لأنهم أسلموا أنفسهم لله، وأخلصوا دينهم لله، فوافقت إرادتهم إرادة الله، لأن مشيئتهم خضعت لمشيئة الله، ولأن إرادتهم ذلّت لإرادة الله، فأصبحوا إذا أرادوا فقد أراد الله.

رضوان الله على هؤلاء!

***

صاحب أول لواء في الإسلام

عبيدة بن الحارث

ينبغي لنا أن نتذكر أن الطلائع الفدائية التي تسبق إلى تمهيد الطريق في الجهاد، وتبادر إلى التعرض لمواطن الاستشهاد، يكون لها من الفضل ما ليس لسواها، ويكون لمجهودها تقدير خاص، ولو بدا هذا المجهود محدوداً، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[الواقعة: ١٠ـ ١١] وقد قال شوقي [من الكامل]:

إن الزعامة والطريق مخوفة ... غير الزعامة والطريق أمانُ

وهذا واحد من طلائع المجاهدين الفدائيين في مدرسة محمد ﷺ:

إنه أبو معاوية[1] عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، الذي سبق إلى الإسلام قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأسلم هو وأبو سلمة بن عبد الأسد[2]، وعبد اللّه بن الأرقم، وعثمان بن مظعون، ـ رضوان الله عليهم ـ في وقت واحد.

وكان لعبيدة قدر ومنزلة عند الرسول ﷺ كما يقول التاريخ. وهاجر مع أخويه الطفيل والحصين في سبيل الله تعالى، وآخى النبي بين عبيدة وعُمير بن الحُمام المجاهد الشهيد الذي سمع الرسول قبيل غزوة بدر يقول: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلاّ أدخله الله الجنة». والاحتساب أن ينوي الإنسان بعمله وجه الله سبحانه، وفي حديث

(١) وقيل إن كنيته أبو الحارث.

(٢) انظر كتابي الفداء في الإسلام، ص ٩٣ وما بعدها.

عمر: «أيها الناس احتسبوا أعمالكم، فإن من احتسب عمله كُتِب له أجر عمله وأجر حسبته». وغير مدبر: أي غير فار ومنهزم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥ـ ١٦].

فلما سمع عمير هذا قال: «بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلاّ أن يقتلني هؤلاء».

وكان في يده تمرات يأكل منها، فألقاها وقال: «والله لئن بقيت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة»، وحمل سيفه، وسارع إلى المعركة، وهو يردد قوله:

ركضاً إلى الله بغير زادِ ... إلاّ التُّقى وعمل المعادِ
والصبر في الله على الجهادِ ... وكل زاد عرضة النفادِ
غير التقى والبر والرشادِ

وهذه المؤاخاة تدل على تقارب الأقران وتداني الأبطال، وكان الرسول ﷺ قد آخى بين المهاجرين بعضهم وبعض قبل الهجرة، وقبل مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، فآخى فيما آخى بين عبيدة بن الحارث وبلال بن أبي رباح مؤذن الرسول ﷺ ومحتمل الابتلاء في سبيل الله عز وجل.

***

وفي شهر شوال من السنة الأولى للهجرة بعث النبي ﷺ عبيدة في سرية فدائية مكونة من ستين فارساً ـ وقيل من ثمانين ـ كلهم من المهاجرين، ليس فيهم أحد من الأنصار، وعقد له الرسول لواءً أبيض، واللواء هو الراية أو العلم، قد يحمله أمير الجيش بنفسه، وقد يكل حمله إلى سواه، ويمشي به في مقدمة الجيش، ويقال إن أول من عقد الأولوية هو إبراهيم عليه السلام.

وكان هذا اللواء المعقود لعبيدة أول لواء يعقد في الإسلام[1]، وأمره

(١) قال ابن إسحاق: كانت راية عبيدة فيما بلغنا أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام =

بالمسير إلى «بطن رابغ»، وهناك وقع أول قتال في الإسلام مع الكافرين، وكان عدد المشركين مائتين، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب الذي كان لم يسلم بعد. ومع ذلك أبلى عبيدة ومن معه بلاء حسنا في سبيل الله عز وجل.

تقول السيرة إن النبي أمر عبيدة بالمسير إلى «بطن رابغ»، وهو وادٍ من الجحفة، وقيل إنه واد بين البرواء والجحفة، فسار عبيدة حتى بلغ «ثنية المَرَة»(١) وهي موضع بناحية الجحفة. والتقى الفريقان على ماء يقال له «الأحياء» وهو ماء في بطن رابغ، على عشرة أميال من الجحفة، وهو أسفل من ثنية المَرَة، وحدث بينهما الترامي بالسهام. ولم يلتحم الفريقان في قتال بالسيوف.

وفي هذه السرية فرّ من صفوف المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار، وقال عنهما ابن عبد البر في كتابه «الدرر»: كانا قديمي الإسلام، إلاّ أنهما لم يجدا السبيل إلى اللحاق بالنبي ﷺ إلى يومئذ.

***

ثم جاءت الغزوة الأولى، غزوة بدر الكبرى التي كان شعار المسلمين العام فيها هو قولهم: أَحَد أحد، والتي كانت فيها شعارات داخلية خاصة للتعريف والتمييز، فشعار المهاجرين هو: يا بني عبد الرحمٰن، وشعار الخزرج هو: يا بني عبد اللّه، وشعار الأوس: يا بني عبد اللّه. وسمّى النبي الخيلَ المجاهدة فيها: خيل الله؛ وأكثر فيها من دعائه وندائه ربّه فيها بقوله: يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم.

= لأحد من المسلمين. وقال البعض: إن بعث حمزة كان قبل بعث عبيدة بن الحارث، فراية حمزة هي أول راية، وقيل إن أول أمراء السرايا هو عبيد اللّه بن جحش الأسدي. وقيل أن بعث حمزة وبعث عبيدة كانا معاً فاشتبه ذلك على الناس. وكان يحمل اللواء مع عبيدة: مسطح بن أثاثة.

(١) ضبطها ياقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ٨٥ بالحروف فقال إنها بفتح الميم وتخفيف الراء، كأنه تخفيف المرأة من النساء.

وفي هذه الغزوة كان عبيدة بن الحارث من أفراد الطليعة الأولى التي تعرضت للاشتباك مع المشركين في أول الغزوة، فهو أحد أبطال ثلاثة هم علي وحمزة وعبيدة، وكل منهم صارع فصرع مشركاً، فقضى علي وحمزة على غريميهما: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وكان عبيدة أسنَّ المجاهدين في غزوة بدر، إذ كان في الثالثة والستين من عمره، فقد وُلد قبل مولد الرسول ﷺ بنحو عشر سنوات، فتبادل عبيدة مع خصمه شيبة بن ربيعة ضربتين، وجُرحَ عبيدة، وسارع علي وحمزة فأجهزا على شيبة، وحملا عبيدة الجريح إلى صفوف المسلمين، بعد أصابته ضربة في ركبته أطاحت رجله، وصار مخ ساقه يسيل وينزف منه الدماء.

تروي السيرة أنه خرج من المشركين في أول الغزوة عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن ربيعة، وطلبوا المبارزة من المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، وطلب منهم أن يتقدموا لملاقاة هؤلاء المشركين الذين رفضوا مبارزة نفر من الأنصار، واستجاب الأبطال الثلاثة.

ولنلاحظ هنا أن الرسول قدّم عند أول مبارزة ثلاثة من أقاربه هم عمه حمزة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وابن عمه عبيدة، لأنه ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، ولذلك جاء في بعض الروايات أن الرسول ﷺ قال لهؤلاء الثلاثة: «قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقكم الذي بُعث به نبيكم، إذ جاءوا ببطلانهم ليطفئوا نور الله، قم يا حمزة، قم يا علي. . .» فقاموا وجاهدوا بما استطاعوا كما رأينا، وكانت المبارزة التي عرفنا.

وفي هذه المبارزة نزل قول الله تعالى في سورة الحج: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ

﴿مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾[1][الحج: ١٩ـ ٢٤].

روى البخاري ومسلم أنا أبا ذر رضي الله عنه كان يقسم قسماً أن قوله تعالى: ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربهم**...﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه (علي وعبيدة)، وعتبة وصاحبيه (شيبة والوليد)، يوم تبارزوا في غزوة بدر.

ورُوي مثل هذا عن قيس بن عباد حيث قال: «هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة».

وعن عطاء ومجاهد قالا: هم المؤمنون والكافرون؛ وهذا القول يشمل أشخاص المبارزة وغيرهم، لأن المؤمنين يرشدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرين يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل.

***

ويروى أن عبيدة لما رأى رجله مقطوعة قال [من الطويل]:

ستبلغ عنا أهلَ مكة وقفةٌ ... يهبُّ لنا من كان عن ذاك نائيا
بعتبة إذ ولى، وشيبة بعده ... وما كان فيها بكر عتبة راضيا
فإن تقطعوا رجلي فإني مسلم ... أرجي بها عيشاً من الله دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أخلصت ... مع الجنة العلياء من كان عاليا
وبعتُ بها عيشاً تعرق صفوه ... وعالجته حتى فقدت الأدانيا
فأكرمني الرحمٰن من فضل مَنّه ... بثوب من الإسلام غطى المساويا
وما كان مكروهاً إليّ قتالُهم ... غداة دعا الأكفاءَ من كان داعيا
ولم يبلغ ـ إذ سألوا النبيّ ـ سواءنا ... ثلاثتنا حتى حضرنا المناديا
لقيناهُم فالأسدِ تخطر بالقنا ... نقاتل في الرحمٰن من كان عاصيا
فما برحت أقدامنا من مقامنا ... ثلاثتنا حتى أزيروا المنائيا

---

(١) خصمان: ليس المراد فردين، وإنما المراد قسمان أو فريقان. وقطعت لهم: فصلت، كأن الله تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم، كما تفصل الثياب الملبوسة. والحميم: الماء الحار في غاية الحرارة. ويصهر به: يذاب به ما في بطونهم من شحوم وأمعاء، وكذلك تذوب جلودهم. ومقامع: جمع مقمع، وهي آلة يضرب بها مثل المطرقة، أو سوط. والحريق: الغليظ من النار، العظيم الإهلاك.

ولقد أضجعوا عبيدة إلى جوار رسول الله ﷺ بعد أن حملوه من أرض المعركة، وهو بين الحياة والموت، فمد عبيدة عنقه حتى وضع خدّه على قدم النبي الشريفة، وهو يحس في ذلك راحة ومتعة، ثم قال عبيدة للنبي: يا رسول الله، أما والله لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لعلم أني أحقّ منه بما قال، حيث يقول[من الطويل]:

كذبتم وبيت الله يُبْزى محمدٌ[1] ولما نطاعن دونه ونقاتل
ونسلمه حتى نُصَرّع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وهذان البيتان من قصيدة طويلة قالها أبو طالب عم النبي في مدح الرسول والدفاع عنه.

ثم سأل أبو عبيدة النبي قائلاً: ألست شهيداً يا رسول الله؟

فأجابه النبي قائلاً: أشهد أنك شهيد.

وبعد أنتهاء الغزوة حمل المسلمون المجاهد الجريح عبيدة بن الحارث في طريق عودتهم إلى المدينة، ولكنه أسلم الروح في الطريق عند مكان يقال له «الصفراء»، وهو اسم قرية من ناحية المدينة، وروي أن وادي الصفراء كان كثير النخل والزرع والخير، وهو في طريق الحاج، وقد سلكه النبي ﷺ أكثر من مرة، وبينه وبين «بدر» منزلة. فدفنوه هناك والرسول ﷺ يؤكد لصحابته صدق استشهاد عبيدة بن الحارث، فيشير إليه ويقول: «أشهد أنك شهيد».

وكأنه يريد ـ والله تعالى أعلم بمراد رسوله ـ اشهدوا معي أنه شهيد، أو اشهدوا أنني أشهد أنه شهيد. وأنعمْ بها من شهادة يقررها الصادق المصدوق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ.

ولقد روت السيرة العطرة أن النبي ﷺ نزل بعد ذلك مع أصحابه عند «الصفراء»، فقال الصحابة متعجبين: إننا نجد ريحَ مسك.

---

(١) يبزى ـ بالبناء للمجهول ـ أي يقهر ويغلب، أراد: لا يبزى، فحذف «لا» من جواب القسم وهي مرادة، أي لا يقهر ولم نقاتل عنه وندافع (النهاية).

فقال سيد الخلق: وما يمنعكم وها ههنا قبر أبي معاوية؟ (يعني عبيدة بن الحارث رضي الله عنه).

وهذا يذكرنا بما قرره رسول الله ﷺ في موطن آخر من أن دم الشهيد يبدو في لون الدم، ولكن روحه يكون يوم القيامة كريح المسك؛ ولا عجب في هذا التكريم الإلهي العظيم، وليس ببعيد على قدرة الله جل جلاله أن يهب مَنْ يشاء من عباده، ما يشاء من إكرامه، وقد رفع سيد الأنبياء مكانة الشهيد إلى أعلى عليين حتى أخبر بأنه سيشفع في سبعين من أهل بيته، وقد جاء هذا في الحديث الصحيح!

رضوان الله تبارك وتعالى على المجاهد الفدائي الشهيد، صاحب أول لواء في الإسلام: عبيدة بن الحارث، وسلام عليه في الخالدين.

* * *

المجاهد صاحب الأذن الواعية

زيد بن أرقم

من شأن المؤمن أن يكون ابن وقته كما يقول الأثر الإسلامي الحكيم، وأن ينهض بكل ما يستطيعه من تبعة وواجب، ولا يدخر وسعاً في الإسهام بأي جهد مهما كان قليلاً لبناء مجتمعه، وتحصين وطنه، وصيانة دينه، فهو يصلح بقوله وعمله، ويشارك بماله واستقامة حاله، وهو يرعى عقيدته وجماعته باليقظة والحذر، والتدبر والنظر، والتأهل للخطر، وتوقي الشر والضرر.

وبتلاقي الجهود الفردية من كل نفس مؤمنة يعلو البنيان، ويتوطد الكيان: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ۝٢٩﴾ [1] [الفتح: ٢٩].

وهذا نموذج للمسلم اليقظ الواعي، الساعي في طريق الصلاح والإصلاح، بكل ما استطاع، وهو الصحابي المجاهد المناضل: أبو عامر[2] زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري، الذي نشأ يتيماً في حجر المجاهد البطل الشهيد عبد الله بن رواحة أحد القادة الثلاثة الشهداء في غزوة مؤتة[3]، وقد أحسن عبد الله بن رواحة تربية الغلام اليتيم وتوجيهه، حتى صار زيد من كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وأنعمْ بها من مكانة وأكرمْ بها من منزلة.

---

(١) شطأه: فراخه المتفرعة منه. فآزره: قوّاه، فاستغلظ: صار غليظاً. فاستوى على سوقه: قام على قضبانه.

(٢) روي له أكثر من كنية فهو أبو عامر، وأبو عمرو، وأبو سعد وأبو سعيد، وأبو حمزة، وأبو أنيسة.

(٣) اقرأ قصته في كتاب «الفداء في الإسلام»، ص ١٢٢ـ ١٣٢.

ولقد غزا زيد بن أرقم سبع عشرة غزوة مع رسول الله ﷺ، وتحركت نزعة الجهاد في نفس زيد وهو ما زال فتى ناشئاً، فطمع أن يشارك بالكفاح في غزوة أُحد، ولكنه كان دون الخامسة عشرة من عمره، فاستصغره النبي وردّه، وأراد النبي في الوقت نفسه أن يقدّر شجاعة زيد المبكرة، فجعله مع جماعة من أقرانه الشباب في فرقة لحراسة المدينة.

ولكن شقيقه: أوس بن أرقم كان أكبر منه سناً، فاشترك في غزوة أُحد، ونال نعمة الشهادة التي أكرمه بها ربه جل جلاله، وبقي زيد بلا شقيقه لقدر يريده صاحب القضاء والقدر سبحانه.

وحينما خرج عبد اللّه بن رواحة إلى غزوة مؤتة ليكون أحد قوادها الثلاثة اصطحب معه ربيبه زيداً، وفي هذا يقول زيد: «كنت يتيماً لابن رواحة، فخرج بي إلى غزوة مؤتة، مُرْدفي على حقيبة رحله». أي أركبني خلفه على دابته.

وفي هذا اليوم وعت أذنُ زيد الوصية التي أوصى بها الرسول المجاهدين، وحفظها زيد على الرغم من طولها، ورواها، وفي مطلعها قول الرسول ﷺ «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله. . .».

وفي هذه الغزوة نال عبد اللّه بن رواحة نعمة الشهادة، وهو الذي كان يقوم مقام الوالد لزيد بن أرقم، وعاد الشاب اليتيم وحيداً فريداً، بلا والد ولا ولي أمر، ولكنه لم يضع ولم يضل ولم ينحرف، فالله ولي المؤمنين، وراعي الصالحين، والمجتمع الإسلامي يومئذ له ظلاله الواقية، فهو يصون المستضعف فيه فلا يهون. وواصل زيد الجهاد والنضال في سبيل الله تعالى.

وفي غزوة بني المصطلق التي كان شعار المسلمين فيها: «يا منصور أمت»، اشترك زيد بن أرقم. وقد حدث في هذه الغزوة حادثة مؤسفة؛ فقد ازدحم أجيران من أُجراء المسلمين على الماء فتصارعا، فقال أحدهما مستثيراً: يا للأنصار، وقال الآخر: يا للمهاجرين.

وكادت الفتنة تقع بين المسلمين وهي أساس البلاء، وكادت الوحدة تنفرط وهي رأس مالهم كله، وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فغضب وقال للمسلمين:

«أبدعوى الجاهلية تدعون وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها فتنة» أي خبيثة مجتنبة مذمومة في الشرع.

واستغل هذه الحادثة المنافق اللعين عبد اللّه بن أبي بن سلول، فجلس وسط جمع من أصدقائه وأمثاله، وأخذ يطعن المسلمين، ويغري قومه بالامتناع عن معاونة المسلمين، وقال فيما قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه أخزاه الله وأذله، ويعني بالأذل رسول الله ﷺ، وزاده الله عزاً ومجداً.

وكأن المنافق اللعين لم يلتفت إلى وجود الشاب المؤمن الغيور زيد بن أرقم على مقربة منه، وإذا بزيد ينتفض غضباً، وينبري لابن سلول صاحب المكانة بين قومه، ويرد عليه قائلاً له في شجاعة وثبات: «أنت والله الذليل المنتقص في قومك، ومحمد ﷺ في عز من الرحمٰن، وقوة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً».

يا لروعة الشباب المزدان باليقين والإيمان!

إن زيداً لم يخف في الله لومة لائم، ولم يخش في الحق معاتبة معاتب، ولم يهب مكانة ابن سلول في عشيرته حتى كادوا يجعلونه عليهم ملكاً قبل هجرة المصطفى ﷺ، بل اندفع وهو الفتى الشاب يواجه المنافق الكبير سناً وجسماً، ويصارحه بأن نقيصة النفاق الخسيسة قد احتوشت قلبه، ويرد عليه طعنه، ويدافع عن رسول الله خير دفاع، ثم يقول زيد لابن سلول إنه لن يستطيع قلبه أن يميل إلى حبه أبداً بعد أن سمع منه ما قال، وعرف أنه من أهل النفاق.

وخشي المنافق اللعين أن تسوء العاقبة إذا بلغ الأمر مسمع النبي، فقال لزيد مخادعاً مراوغاً: «اسكت فإنما كنت ألعب» أي ألهو وأمزح. ولكن زيداً لم يسكت ولم يلعب، بل سارع وأبلغ الرسول ما حدث، وسارع ابن سلول فأخذ يتنصل وينكر ويقسم أنه ما قال هذا الكلام، وشهد معه بعض أقرانه من المنافقين، ولم يسع الرسول إلاّ أن ينتظر كلمة الوحي، لأنه مأمور أن يأخذ بالظاهر، والله يتولى السرائر.

وكأن الرسول ﷺ قد أراد أن يتثبت من النبأ ـ شأن القاضي الدقيق ـ فقال لزيد: لعلك غضبت عليه؟ (أي نسبت إليه ما لم يقل) فقال زيد: والله يا رسول الله لقد سمعتُه منه.

فقال له النبي: لعله أخطأ سمعك؟

فعاد زيد إلى تأكيد الخبر، وأضاف قوله: «والله لقد سمعت ما قال، ولو سمعتُ هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ، وإني لأرجو أن يُنزل الله تعالى على نبيه ما يصدق حديثي».

يا لقوة العقيدة، ويا لعمق الإيمان!..

إن زيداً المسلم يحلف بالله تعالى أنه لو سمع هذا الطعن على الرسول وأصحابه من أبيه الذي يعد صاحب الفضل الأول عليه بين الناس، وأقربهم إليه، لما تردد في إبلاغه إلى النبي، وليصب أباه ما يصيبه من الأذى، فحق الله والعقيدة مقدم عنده على سائر الحقوق.

وتألم زيد لأنه لم يجد ما يعينه على إثبات صدقه، حتى قال يصور حزنه: «فوقع عليّ من الهم ما لم يقع على أحد قط». وقال أيضاً: «فوجدت في نفسي، ولامني الناس» ووجدت، أي غضبت وحزنت.

وقال كذلك: «فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، وجلست في البيت».

وما كان الله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين ليترك زيداً في غمه وهمه وعزلته، بل حقق أمله، واستجاب رجاءه، وأحقّ الحق، وأبطل الباطل، فأنزل على نبيه بعد قليل سورة «المنافقون» التي فضح فيها أهل النفاق، وكشف فيها طواياهم الخبيثة الخسيسة، وهتك الستر عن دناءة ابن سلول ووضاعته، وفي مطلع هذه السورة الكريمة بيّن الحق جل جلاله طبيعة النفاق القائمة على الخداع والكذب والجبن وفساد القلوب، فقال يخاطب رسول الله ﷺ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ١ و٢]... إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ

إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون ٨]...

وتجلت البشرى فقرأ رسول الله ﷺ سورة «المنافقون» على الصحابة رضي الله عنهم، وكأن الله تعالى قد جعل زيد بن أرقم سبب خير وإصلاح، فأنزل في شأن قصته هذه السورة التي مازت بين أهل الحق وأهل الضلال.

وتروي السيرة أن النبي أخذ بأُذن زيد وقال له: «إن الله قد صدقك، وفت أذنُك، وصدق الله حديثك» ومعنى وفت أذنك، كأنه جعل أذنه في السماع كالضامنة بتصديق ما حكت، فلما نزل القرآن الكريم بتصديق الخبر صارت الأذن كأنها وافية بضمانها، خارجة من التهمة فيما أدته إلى اللسان.

وفي رواية أنه قال له: «وعت أذنك يا غلام، وصدق الله حديثك، وكذّب المنافقين»، وفي رواية أنه قال: «إن الله قد أنزل عذرك وصدقك».

ثم قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه لصحابته مشيراً إلى زيد بن أرقم: «هذا الذي أوفى الله بأذنه»(١) أي أظهر الله صدقه في إخباره عما سمعته أذنه، ولذلك كان المسلمون يقولون عن زيد إنه «ذو الأذن الواعية»؛ ويتذكرون عند ذلك قول الله تعالى في سورة الحاقة: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٢].

***

وجمع زيد إلى جهاد الميدان، ومقاومة الباطل، وتغيير المنكر بما يستطيع، جهادَ العلم والفقه، فروى عن رسول الله ﷺ عشرات من الأحاديث، وقد روى عنه هذه الأحاديث أعلام كبار من سادة هذه الأمة أمثال أنس بن مالك وعبد اللّه بن عباس، وحسبك بهما سمو قدر وعلو شأن، وإنه لصنع القدر الحكيم أن يروي هذان العلمان عن المجاهد صاحب الأذن الواعية، الذي نشأ يتيماً، وعاش مجاهداً: زيد بن أرقم.

---

(١) وفي رواية: «هذا الذي أوفى الله بإذنه».

وكذلك روى عنه خلائق من التابعين.

وامتدت حياة زيد بن أرقم ثم امتدت، وهو لا ينقطع عن الجهاد والسعي في الخير بكل ما يتيسر له من أسباب، وعلى الرغم من أنه اشترك في سبع عشرة غزوة مع الرسول، وتعرض بعد ذلك لمواقف كفاح ومواطن خطر، لم يصب ولم يقتل بطعان أو سنان، وكأن هذا صنع الله العلي الكبير، الذي يريدنا أن نتذكر على الدوام هديه العظيم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥١].

فهذا زيد يطلب الموت في أماكن كثيرة، ولكن الموت يفر منه، ويتعرض للأخطار في سبيل الله ولكن الأخطار لا تنال منه، ويظل في عناية الله ورعايته، يجاهد بما يستطيع.

ولما كُفَّ بصر زيد في أواخر أيامه لم يقبل أن ينقطع عن الإسهام في السعي الحميد بما يطيق، فأخذ يفتي الناس، ويعلمهم أمور دينهم، كأنه لا يريد أن يقطع نفسه عن مجهود ما يقدمه في سبيل الله ومصلحة الأمة.

وظل زيد ساعياً في الخير حتى لحق بربه في مدينة الكوفة سنة ست وخمسين[١] للهجرة.

رضوان الله تعالى عليه!.

* * *

(١) وفي رواية: سنة ثمان وستين.

فدائي ضد أبيه

عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول

إن عباد الرحمٰن هم الذين يدركون جيداً أن العقيدة فوق كل شيء، وأن المؤمن يضحي في سبيلها بكل عزيز ونفيس، لأنها حق الله تعالى، والله هو الذي خلق ورزق، وهو الذي يرفع ويضع، وهو مالك الملك كله، وإليه تصير الأمور.

وإذا كان هول الحساب الإلهي يوم القيامة يُنسي المرء كلَّ مذكور: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ـ ٣٧]، فإن الإيمان الصادق العميق يجعل صاحبه ينسى كل شيء في سبيله، ويضحي بكل غالٍ وثمين لافتداء هذا اليقين.

ومن هنا رأينا صحابة رسول الله ﷺ يعادون أمهاتهم وآباءهم، وأقرباءهم وأعزاءهم في سبيل الله تعالى، لأنه الحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه.

وهذا هو أبو عبيدة بن الجراح يشهد غزوة بدر، ويقتل أباه المشرك فيها، بد أن نسي الأبوة والبنوة، ولم يذكر إلاّ ربه ودعوته التي تستوجب إزهاق الباطل وإحقاق الحق، مهما كانت السبيل[1].

وقد رسم القرآن الكريم المنهج في هذا الباب، فقال في سورة التوبة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ

(١) انظر كتاب «أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣ـ ٢٤].

وقال في سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال في سورة النساء: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣ـ ١١٤].

ومن عجيب صنع الله في خلقه وكونه أن نشهد جلال الإيمان بإزاء ضلال الكفران، وإذا ضوء الإيمان يعلو ويسمو على مختلف العلاقات والقرابات، فهذا والد وولده في عهد النبوة، يفترقان غاية الافتراق، فيكون الوالد صورةً قذرة للكفران والنفاق، ويكون الولد مثلاً رائعاً في الإيمان ومكارم الأخلاق، وهما من أسرة واحدة، بل هما أصل وفرع، بل كلٌّ منهما يسمى «عبد اللّه»، ولكن شتان بين اسم يطلق على غير مسمى واسم يلتزم صاحبه بمعناه ومغزاه.

فعبد اللّه الأب هو عبد اللّه بن أُبي بن سَلول، الذي كان زعيماً للمنافقين وكهفاً لهم يأوون إليه في «المدينة»[1]، وكان يطعن في الرسول والمسلمين من وراء ستار، وهو الذي خذل المسلمين في غزوة «أُحد» حين رجع بقرابة ثلث الجيش، متعللاً بكاذب المعاذير، وكان يتصل باليهود ويتآمر معهم سراً ضد

(١) هذا تعبير ابن عبد البر في كتابه «الدرر»، ص ١٠٢.

المسلمين، وهو الذي قال ليهود بني النضير الغادرين: «إنا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم». وتطاول على السيدة عائشة فتحدث في حقها بكلام خبيث.

وأما عبد اللّه الابن فهو عبد اللّه[1] بن عبد اللّه بن أُبي بن سلول: الصحابي الأنصاري الجليل، كان من كتّاب الوحي، ومن صلحاء المسلمين وفقهائهم، وقد شهد غزوة بدر، وغزوة أُحد، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، واستخلفه النبي ﷺ في بعض أسفاره.

وقد حاول الابن أن يصلح شأن أبيه فما استطاع، حتى لقد جاء في بعض الروايات أن هذا الابن المسلم المستقيم كان جالساً مع رسول الله ﷺ، فهمّ الرسول بشرب ماء، فقال له: «بالله يا رسول الله، أما أبقيت فضلة من شرابها أسقها أبي، لعل الله يطهر بها قلبه». فأبقى النبي من شرابه فضلة، وحملها الولد إلى أبيه، فسأله: ما هذا؟ فقال له ابنه: هي فضلة من شراب النبي ﷺ، جئتك بها تشربها لعل الله يطهر بها قلبك.

فأفحش الوالد المنافق في الرد بقوله: فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها؟!!

وغضب الابن المؤمن غضباً شديداً حينما سمع ذلك، وذهب إلى الرسول يستأذنه في أن يقتل أباه، ولكن الرسول الكريم قال له: «بل ترفق به وتحسن إليه».

***

ولقد عرفنا أن عبد اللّه الأب المنافق قد تطاول على رسول الله في غزوة بني المصطلق ـ وهي التي تسمى غزوة المريسيع، وهو اسم ماء من ناحية قديد إلى الساحل وكانت في السنة السادسة من الهجرة ـ وقال في التحريض على الرسول ما قال، ومنه قوله: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ...».

(١) كان اسمه «الحباب» ولما أسلم سماه الرسول «عبد اللّه»، وكأن هذا تصحيح لاسم أبيه المنافق.

وأبلغ زيد بن أرقم ذلك إلى الرسول، وأنكر المنافق اللعين، وجاء القرآن الكريم فاضحاً له في سورة «المنافقون»، وهنا قال عمر للنبي: يا رسول الله، مُرْ به عباد بن بشر فليقتله.

فقال الرسول: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس فقالوا إن محمداً يقتل أصحابه؟ (لأن عبد اللّه الأب كان يعد في نظر الناس أحد المسلمين حتى ذلك الوقت).

وجاء بعض الصحابة إلى الرسول يقول له في شأن هذا المنافق الحقود: «اعفُ عنه يا رسول الله، فقد كان اصطلح أهل هذه البُحيرة على أن يعصّبوه بالعصابة، فلما جاء الإسلام شرق به». والبحيرة هي مدينة رسول الله ﷺ، وهي تصغير بحرة، والبحرة البلد، ويعصبوه: أي يسوّدوه ويملّكوه، وكانوا يسمون السيد المطاع معصَّباً، لأنه يعصَّب بالتاج. وشرق به: أي غَصّ به، وهو مجاز فيما ناله من أمر رسول الله ﷺ وحل به، حتى كأنه شيء لم يقدر على إساغته وابتلاعه، فغص به.

وروي أن أُسيد بن حُضير هو الذي قال للنبي:

«يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلْكاً»!

وكأن الله تعالى قد أراد هذا الموقف لحكمة بالغة، وهي أن تظهر روح الفدائية المثالية الباهرة من عبد اللّه الابن المؤمن، أمام عبد الله الوالد المنافق، فحينما أراد هذا الوالد دخول المدينة وقف ابنه في وجهه وقال له: «قف، فوالله لا تدخلها حتى تقر بأنك الذليل، وبأن رسول الله ﷺ هو العزيز»!

وتردد الوالد في إقراره بذلك فقال له ولده: «والله لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك» فقال الوالد مرتاعاً لولده: «ويحك، أوَحقاً تفعل ذلك»؟ فأجابه: نعم.

فخنع المنافق وذل، واعترف على نفسه بالهوان والضعة، وأقر لله ولرسوله

بـــالـــعـــزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

وهمَّ الوالد المنافق عقب ذلك الاعتراف المخزي بأن يدخل المدينة، فاعترضه ولده مرة ثانية، وقال له «قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ في ذلك».

وعلم الرسول بالموقف، فأعطى الإذن، فخلى الولد سبيل أبيه.

***

ثم يبلغ عبد اللّه الابن المؤمن قمة الروح الفدائية حين يعتزم في إصرار قتل أبيه المنافق الكافر، مضحياً في سبيل عقيدته بكل غال وعزيز؛ فقد أُشيع بين المسلمين أن النبي عليه الصلاة والسلام سيقتل ذلك المنافق الخائن، وعلم ابنه عبد اللّه المؤمن بذلك، فماذا يصنع؟

إن دينه فوق كل مكانة، وهو يفتدي عقيدته بكل شيء، وحق الله عنده فوق كل الحقوق، ولكنه مع ذلك ولد لوالد، وابن لأب، وقد نصح لأبيه مرات ومرات، وحاول ردعه عن غيه في محاولات ومحاولات، فأبى واستكبر، ولكن هذا لا يلغي رابطة الدم بينهما...

إن عبد اللّه المؤمن يذهب ـ وهو فريسة معذّبة لمجموعة من العواطف المزلزلة ـ إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؛ فهناك عاطفة البنوة التي تذكره بارتباطه بأبيه، وهناك معها ـ بل فوقها بتعبير أدق ـ عاطفة الإيمان والعقيدة، وهناك مكانة النبي المفتدى بالآباء والأمهات، وهناك عاطفة النخوة العربية التي تدفعه على كره منه إلى التكفير في الأخذ بالثأر لو أن شخصاً آخر قام بقتل أبيه، وهناك حرصه على أخوة الدين التي تمنعه أن يقتل المسلم الذي يقوم بقتل أبيه لو حدث ذلك، وهناك عاظفة الحرص على سلامة الأمة المؤمنة وعدم تعريضها للفتنة.

كان الله في عونك يا عبد اللّه، أيها الولد المؤمن المعذَّب!

وذهب عبد اللّه الابن إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول له: يا

رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل أبي عبد اللّه بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني وأنا أحمل إليك رأسه، (أي أقتله بيدي) فوالله لقد علمت الخزرج أنه ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار»!..

هكذا تحدث عبد اللّه المؤمن، فأظهر كامل استعداده للقيام بعمل فدائي، يقطع فيه رقبة أبيه في سبيل ربه وعقيدته.

فماذا كان جواب النبي الحكيم المصلح؟

لقد قال لعبد اللّه: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا». ثم قال له: «بَرَّ أباك، ولا يرى منك إلاّ خيراً»!

وبهذه الروح الفدائية السامية، وهذا الصفح النبوي الرائع، أصبح عبد اللّه الأب المنافق المفضوح المعفو عنه بين شقّي الرحى، فلم يستطع بعد ذلك أن يرفع رأساً، أو يحرك في الفتنة ذنباً، فظل مخلصاً مجاهداً في سبيل الله، حتى فاز بنعمة الشهادة في معركة «اليمامة» في السنة الثانية عشرة للهجرة، عليه رضوان الله تعالى.

هذا، ولقد أورد الإمام السهيلي في كتابه «الروض الأنف» عبارة جليلة يعلق بها على تقدم عبد اللّه إلى قتل أبيه، مفضلاً العقيدة على حق الأبوة، فقال مشيراً إلى عبد اللّه الابن المؤمن:

«استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه، من أجل تلك المقالة، وفي هذا العلمُ العظيم والبرهانُ النيّر من أعلام النبوة، فإن العرب كانت أشد خلق الله حمية وتعصباً، فبلغ الإيمان منهم، ونور اليقين من قلوبهم، إلى أن يرغب الرجل منهم في قتل أبيه ووالده، تقرباً إلى الله، وتزلفاً إلى رسوله، مع أن الرسول عليه السلام أبعد الناس نسباً منهم.

وما تأخر إسلام قومه وبني عمه، وسبق إلى الإيمان به الأباعد، إلاّ لحكمة عظيمة، إذ لو بادر أهله وأقربوه إل الإيمان به لقيل: قوم أرادوا الفخر

برجل منهم وتعصبوا له، فلما بادر إليه الأباعد وقاتلوا على حبه مَنْ كان منهم أو من غيرهم، عُلم أن ذلك عن بصيرة صادقة، ويقين قد تغلغل في قلوبهم، ورهبة من الله أزالت صفة كانت قد سدكت في نفوسهم[1] من أخلاق الجاهلية، لا يستطيع إزالتها إلاّ الذي فطر الفطرة الأولى، وهو القادر على ما يشاء»[2].

***

بهذا الإيمان العميق المتغلغل في طوايا النفوس والأرواح، المتمكن من حنايا القلوب والعقول، تزلزلت أعمدة الكفران أمام كتائب الإيمان؛ وبهذه النزعة الفدائية المسيطرة على منابت الحواس، المصرّفة للجوارح والأنفاس، تمكن أهل اليقين من صيانة عقائدهم وأوطانهم، وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم.

***

(١) أي لازمت نفوسهم وعمقت فيها.

(٢) الروض الأنف للسهيلي، ج ٢، ص ٢١٨.

الشهيد المدفون بأغلاله

حجر بن عدي

إذا توافر للإنسان أيمان وطيد بدعوة الحق وملة الصدق، وعبادة مخلصة لرب السموات والأرض، وسعي في الحياة مشكور حميد، وشجاعة مقدمة في مواطن الرجولة والبطولة، وثبات على المبدأ والعقيدة حتى الموت، فقد ازدان بعناصر للشخصية المؤمنة تجعله أهلاً لبقاء الذكر وعَظم الأجر، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ولقد خلّف سيد الإنسانية محمد ﷺ رجالاً من بعده، امتدت أياديهم الطاهرة في مناصرة الحق ومقاومة الباطل، فلم يقبلوا الدنية في دينهم ولا في دنياهم، ولم يسكتوا على ظلم، ولم يناموا على ضيم، بل غسلوا بزكي دمائهم آثار أعدائهم.

ومن هؤلاء الصحابيُ المجاهدُ حُجْر بن عديّ بن جبل بن الكندي الكوفي رضي الله عنه. وكان من قبيلة كندة، ومن رؤساء أهل الكوفة، وكان يقال له «حُجْر الخير» لكثرة مسارعته في العمل الصالح والسعي المشكور.

وقد وفد حجر مع أخيه هانىء بن عديّ على رسول الله ﷺ، وإذا كان بعضهم قد قال إن حُجراً ليست له صحبة؛ فإن الذهبي في كتابه «العبر» يقول عنه: «لحجر صحبة ووفادة وجهاد وعبادة». وذكر ابن الأثير في كتابه «البداية والنهاية» أن حجراً وفد على النبي عليه الصلاة والسلام[1].

(١) انظر العبر، ج ١ ص ٥٧ طبعة الكويت، والبداية والنهاية، ج ٨ ص ٥٠ طبعة السعادة.

وكان هانىء هذا من عُبّاد الناس وزهادهم، وكان كثير الصلاة والصيام، ما أحدث قط إلاّ توضأ، ولا توضأ إلاّ صلى ركعتين. وكذلك كان أخوه حجر، فقد وصفه التاريخ بأنه «الذي أخلقت العبادة وجهه»[١]، أي أبلته وحتّته من طولها وكثرتها.

وهكذا يتلاقى أهل الأسرة المؤمنة الصالحة على الخير والبر.

وأضاف حجر إلى هذا أنه تلقى الحديث عن طائفة من الأعلام، كعلي وعمار وشراحبيل بن مرة، ثم روى عنه الكثيرون[٢]، وكان ثقة معروفاً بالصدق والأمانة. وكان فيه مع هذا كله نزعة إصلاحية شعبية ترى أن خير الله تعالى يجب أن يكون للجميع، وأن العدالة الاجتماعية هي الشعار الأصيل لمجتمع الإسلام الكريم، ولذلك يروي التاريخ أن معاوية كتب - وهو في الحكم - إلى المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة يستمده بمال يبعثه إليه من بيت المال، فأرسل المغيرة إليه عيراً (قافلة) تحمل أموالاً، فاعترضها حجر، وأمسك بزمام أولها، وصاح قائلاً: «لا والله، حتى يوفّى كل ذي حق حقه».

❋❋❋

وإذا كان التاريخ لم يحدثنا بأن حجراً قد شهد الغزوات مع رسول الله ﷺ، لأن العهد قد تأخر به، وحيل بينه وبين ذلك، فإنه استعاض عن ذلك بمشاركته الباسلة في معركة «القادسية» التي كانت موقفاً مشهوداً، أعز الله فيه كلمةَ المسلمين، وخذل أعداءهم الباغين؛ وكان حجر بن عدي من أبطال الجيش الإسلامي المجاهد في الشام: الشام الذي كان يطلق على سورية ولبنان وفلسطين والأردن. وقام حجر مع مجموعة من رفاقه في السلاح والجهاد باسترداد قرية «عذراء» من أيدي المحتلين الدخلاء، و«عذراء» قرية بغوطة دمشق من إقليم «خَوْلان».

---

(١) العقد الفريد، ج ٧ ص ١٧١ طبعة الاستقامة..

(٢) البداية والنهاية، ج ٨ ص ٥٠.

ويقول ياقوت عن «عذراء»: إذا انحدرت من ثنية العقاب، وأشرفت على الغوطة، فتأملت على يسارك، رأيتها أول قرية تلي الجبل، وبها منارة وبها قُتل حجر بن عدي الكندي، وبها قبره، وقيل إنه هو الذي فتحها»[(١)]. ورُوي أن حُجراً هو الذي انفرد بفتح «برج عذراء»، وفي هذا ما يشير إلى جراءته وبطولته.

وكذلك شهد حُجر موقعة الجمل وموقعة صفين إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وقد كان حُجر يحب الإمام علياً ويؤيده ويدافع عنه، ويقاوم الذين يعارضونه أو ينتقدونه، وكان يُكبره ويجلُّه، لأنه ابن عم الرسول، وزوج ابنته، وبطل المعارك والحروب، والمدافع عن الحق المضيَّع، والمتحلي بصفات الإيمان والتقوى، ولذلك كان حجر يرسم في كلامه صورة رائعة باهرة للإمام علي إذا تحدث عنه، وهو الذي مدحه بقوله [من الرجز]:

يا رب، سلّم لنا عليّا ... سلّم لنا المباركَ المضيّا
المؤمنَ، الموحِّد، التقيّا ... لا خطلَ الرأي، ولا غويّا
بل هادياً، موفّقاً، مهديا ... واحفظه ربي، واحفظ النبيّا
فيه فقد كان له وليّا ... ثم ارتضاه بعده وصيّا

هكذا أورد الأبيات ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»، ولكن نصر بن مزاحم المنقري رواها في كتابه «وقعة صفين» بالصورة التالية:

يا ربّنا، سلّم لنا عليّا ... سلّم لنا المهذّب النقيّا
المؤمن، المسترشد، المرضيّا ... واجعله هادي أمّة مهديّا
لا أخطل الرأي، ولا غبيّا ... واحفظه ربّي حفظك النبيّا
فإنّه كان له وليّا ... ثم ارتضاه بعده وصيّا[(٢)]

(١) معجم البلدان، ج ٤ ص ٩١ طبعة بيروت.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ١٢٩، طبعة بيروت، ووقعة صفين، ص ٤٣٤، طبعة الحلبي سنة ١٣٦٥هـ.

وتروي المصادر التي عُنيت بسيرة الإمام علي أن حُجر بن عدي أظهر مع بعض الناس البراءة واللعن ممن خرجوا على طاعة الإمام من أهل الشام، ولما نهى الإمام علي ذلك قال حجر ومن معه: يا أمير المؤمنين، ألسنا محقّين؟ قال: بلى قال حجر ومن معه: أوليسوا مبطلين؟ قال الإمام: بلى.

قال حُجر ومن معه: فلمَ منعتنا من شتمهم؟.

قال الإمام: «كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين، تشتمون وتتبرأون، ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم، فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن عملهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر. ولو قلتم مكان لعنكم أياهم وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم. واصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به، كان هذا أحبَّ إليّ وخيراً لكم».

فقال حجر وصاحبه عمرو بن الحمق: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك ونتأدب بأدبك.

ثم قال عمرو بن الحمق: إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة ما تؤتنيه، ولا التماس سلطان يُرفع ذكري به، ولكن أحببتك لخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله ﷺ وأول من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد، فلو أني كُلِّفت نقل الجبال الرواسي ونزحَ البحور الطوامي، حتى يأتي عليّ يومي في أمر أقوّي به وليك، وأوهن به عدوك، ما رأيت أني قد أديت فيه كلّ الذي يحق عليّ من حقك.

فقال أمير المؤمنين علي: اللهم نوِّر قلبه بالتقى، واهده إلى صراط مستقيم، ليت أن في جندي مائة مثلك.

فقال حُجر: أذاً والله يا أمير المؤمنين صحّ جندُك، وقلّ فيهم مَنْ يغشك.

ثم قام حجر فقال: يا أمير المؤمنين، نحن بنو الحرب وأهلها، الذين

نلقحها وننتجها، قد ضارستنا وضارسناها[١]، ولنا أعوان ذوو صلاح، وعشيرة ذات عدد، ورأي مجرب، وبأس محمود، وأزمّتنا منقادة لك بالسمع والطاعة، فإن شرَّقت شرقنا، وإن غرَّبت غربنا، وما أمرتنا به من أمر فعلناه.

فقال الإمام: أكلُّ قومك يرى مثل رأيك»؟.

قال حجر: ما رأيت منهم إلاّ حسناً، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة، وبحسن الإجابة.

فقال له الإمام خيراً[٢].

***

وظل حُجر يبذل ما يستطيع من جهده ووسعه في مناصرة الإمام علي، حتى نال الإمام الشهادة في سبيل ربه، وكأن هذه الشهادة قد زادت حُجراً محبةً لابن عم الرسول، وحرصاً على السير في طريق محبته، ومقاومة أعدائه، ومن هنا ثار حجر في وجه الطغاة المستبدين في عهده، ولما عجز هؤلاء عن استمالته إليهم، تكاثروا عليه وأسروه، وكبلوه بالقيود والأغلال، وحملوه إلى كبيرهم ليبطشوا به بطشهم في دنيا الإثم والبغي.

ويروى أنه حينما أخذوه رأى بناته في طريقه وهنّ يبكين، فتماسك وتجلد، وقال لهن مواسياً:

«إن الذي يطعمكن ويكسوكن هو الله تعالى، وهو باقٍ لكن من بعدي، فعليكن بتقوى الله وعبادته، وإني إما أن أُقتل في وجهي، وهي شهادة، وإما أن أرجع إليكن مكرّماً، والله خليفتي عليكن».

وهكذا تذكر حجر بن عدي في موقف الهول الذي تزيغ فيه أبصار، وتضطرب أقدام، وترجف أرواح، أن الله هو الأعلى، وهو الأبقى، وأن تقواه

---

(١) نلقحها: يقال ألقح الفحل الناقة إذا أولدها. وننتجها: نولدها، والناتج للإبل كالقابلة للنساء. وضارست الأمور: جربتها وعرفتها. والمراد أننا أهل الحرب الخبراء بها المجربون لها.

(٢) روي هذا الخبر في شرح البلاغة، ج ١ ص ٦٢٦ وفي كتاب وقعة صفين، ص ١١٥. وبين الروايتين اختلاف يراجع، والمنقول هنا عن وقعة صفين.

هي خير حصن: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]. وبذكر أن مصيره أحد أمرين، فإما أن يسقط شهيداً في سبيل عقيدته، وله بهذا الأجرُ والذخر والذكر عند الله عز وجل، وإما أن يعود إلى أهله مكرَّماً، لم يدنّس جبينه بتنكر لمبدئه، أو تقصير في جهاده، والخالق سبحانه هو خير خليفة في الأهل والولد: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].

***

وظل حُجر بن عدي ليلة مصرعه يتعبد ويتهجد، وما طلع نور الفجر هجم عليه الجبابرة ليقتلوه، فقال لهم: دعوني حتى أتوضأ، وأصلي ركعتين.

فلما صلاهما خفف فيهما ثم قال: لولا أن يقولوا بي جزع من الموت لطوّلتهما.

وسيق البطل إلى مصرعه، ومن خلفه بضعة نفر من أصحابه، وأدرك حجر في هذه اللحظة أنه على أبواب الآخرة، وكأنه قد دار بذهنه مثل ما دار بذهن سفيان الثوري جزع جزعاً واضحاً عند الموت، فقيل له: ألست تذهب إلى مَنْ عبدته، وفررت بدينك إليه؟ فأجابهم بقوله: ويحكم، إني أسلك طريقاً لم أعرفه، وأقدم على ربّ لم أره.

وبدا شيء من الارتجاف على حُجر، فقيل له في ذلك، فأجاب: وما لي لا أجزع وأنا أرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً؟.

وقد روى التاريخ أن الذين قتلوا حُجراً مع أصحابه كانوا قد حفروا لهم قبورهم، وأحضروا أكفانهم ونشروها أمامهم، ثم شرعوا عليهم السيوف، وقتلوهم.

ثم زالت الرجفة، واستعاد البطل تماسكه، وأقبل على الموت بلا خوف؛ ولكنه رجا قتلته أن يدفنوه في قيوده، فوعدوه بذلك، ثم فعلوا، وكأنهم ـ من أوهامهم ـ قد خافوا إذا فكوا قيوده ولو في قبره أن يعود إليهم ليهز صروح الظلم والطغيان.

ونال حجر نعمة الشهادة سنة خمسين للهجرة ـ وقيل سنة ثلاث وخمسين ـ وضمه قبره الزكي بقيوده التي تشهد له عند ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم.

آثر حُجر أن يموت شهيداً على أن يبدل رأيه، أو يغيّر موقفه، أو يرضى الدنية لنفسه، ولو أنه آثر العافية، واستسلم للقوم، واعتذر إليهم، وتابعهم على ما يراه باطلاً، لما ناله هذا الابتلاء، ولكنه فضل ما عند الله على ما عند الناس، وما عند الله خير للأبرار.

ولقد نسبوا إلى الإمام علي من قبل ذلك أنه قال: «يا أهل العراق، سيُقتل منكم سبعة نفر بعذراء، مثلهم كمثل أهل الأخدود». وهو يريد أنهم سيصبرون على إيمانهم، حتى يضحوا بأرواحهم في سبيل عقيدتهم والقرآن الكريم يشير إلى قصة أولئك المؤمنين الشهداء حين يقول:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١ ـ ١٠].

وروي أن الحسين بن علي حينما علم بأن حجر بن عدي قد نال الشهادة ودُفن بأغلاله قال: «أدفنوه في قيوده؟ حجّهم والله» أي أقام عليهم الحجة أمام الله عز وجل.

وكان عبد الله بن عمر جالساً محتبياً، فلما سمع بمقتل حجر فزع، وفك حبوته، ونهض واقفاً، وأجهش بالبكاء، والعبارة الواردة في «النهاية» لابن الأثير عن ذلك هي: «لما نُعي إليه حُجر غلبه النحيب» والنحيب هو البكاء بصوت طويل ومدّ(١).

(١) النهاية، ج ٥ ص ٢٧، طبعة الحلبي.

وكذلك نسبوا إلى السيدة عائشة إنها قالت: «بلغني أنه سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء»[١].

ولقد قالت هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية ترثي حجر بن عدي [من الوافر]:

ترفَّعْ أيها القمر المنيرُ ... تبصّرْ: هل ترى حُجراً يسيرُ؟
ألا يا ليت حُجراً مات يوماً ... ولم يُنحر كما نُحر البعيرُ
تجبَّرتِ الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسديرُ
وأصبحت البلاد له مُحولاً ... كأن لم يُحْيِها مزن مطيرُ
ألا يا حُجر: حجر بني عدي ... تلقتك السلامة والسرورُ
فإن تهلك فكلّ زعيم قوم ... من الدنيا إلى هُلك يصيرُ
فرضوان الإله عليك ميتاً ... وجنات بها نِعَمٌ وحورُ

رضوان الله تعالى على ضجيع قرية «عذراء»: حجر بن عدي الشهيد المدفون بأغلاله!!.

***

(١) البداية والنهاية، ج ٨ ص ٥٥.

الشهيد بلا صلاة

الأسود الراعي

لا جدال في أن الاستشهاد قمة الجهاد، وأن الشهادة هي زينة العبادة، لأنها تضحية بالروح، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، كما قال القدماء، وبلوغ هذه المرتبة يحتاج إلى تربية دينية وخلقية واسعة المدى، حتى يقدم المرء على بصيرة، ويضحي بنفسه في يقين.

ولقد كان أتباع محمد عليه الصلاة والسلام في صدر الإسلام يتخرجون من مدرسته، ويتدربون على منهجه وخطته، ويستقيمون في أقوالهم وأعمالهم وعبادتهم على طريقته، ثم يخلصون البذل والفداء لوجه الله ودعوته.

ولكن الناس في عصور الضعف والانحراف لا يلتزمون الصراط، بل يخلطون حقاً بباطل، ويؤدون للّه واجباً ويهملون واجبات، ولذلك نراهم يخافون الحساب على النقط السود التي علقت بصحائفهم، فإذا أقبل وقت الجهاد، ولزم التعرض للاستشهاد، أخذ كثير من هؤلاء يتساءلون عن مصير الشخص الذي ارتكب سيئات في حياته، وقصر في أداء واجبات لربه، ثم خرج إلى المعركة، وقاتل حتى مات في حومة النضال: أيكون شهيداً برغم سيئاته الماضية، وقلة رصيده في مجال الطاعة وعمل الخير؟ أيغفر الله له ما ارتكب من ذنوب وآثام؟..

والجواب عن ذلك السؤال المتكرر معروف لكل مَنْ درس الإسلام واستنار بهدي محمد عليه الصلاة والسلام، وهو أن المسلم العاصي إذا أقبلت المعركة، وهمّ بدخولها، فأقلع عن غيّه في صدق، واستجاب لربه ودينه بحق، ورجع عن ذنوبه في إخلاص وعمق، واعتزام على ألاّ يعود إلى ما كان فيه من سفه وحمق، وحمل سلاحه، ونشر جناحه، ومضى يؤدي واجبه في المعركة،

ثم أصابه الموت، ولو بعد وقت قصير، فإنه يكون حينئذ شهيداً كريماً عند ربه تبارك وتعالى، ويغفر الله له ـ بمشيئته وفضله ـ ما سلف من ذنوبه.

وكأن دماء هذا الشهيد التي سالت من جسده تكون طهوراً أي طهور، تغسل ذنبه، وتزين ثيابه؛ ولعل هذا بعض السر في أن الشهيد لا يغسَّل، بل يدفن بثيابه ودمائه، لتظل هذه الدماء الزكية عنواناً على أن صاحبها قد أقبل على ربه في خاتمة حياته، ففتح الله تعالى له واسع أبوابه، ومدَّ له من كريم أسبابه، وتقبله بقبول حسن بين أحبابه، وناداه من عالم الجلال قائلاً:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ـ ٣٠].

ولقد جاء رجل إلى سيدنا رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله، أتكفَّر عني خطاياي؟.

فأجاب رسول الله قائلاً: نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلاّ الدَّين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك.

وكأن ذكر الدَّين هنا ـ وهو القرض ـ تحذير للمسلم من تحمُّل تبعة الديون، وإذا كان على الشهيد بعض هذه الديون، وترك مالاً من بعده فإن أهله يحب عليهم أن يؤدّوه أولاً من هذا المال.

ولذلك قال سيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه: «الشهيد يغفر له في أول دفعة» أي مع أول طائفة يغفر الله تعالى لها من أهل المغفرة، أو يغفر له عند سيلان أول دفعة تسيل من دمه عند الجهاد.

***

وفي سيرة سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بعض المواقف التي تعلمنا أن الإقبال على الله سبحانه بإخلاص يمحو ما سبقه من خطايا، وأن الخاتمة المجيدة العظيمة لا تتوقف في غفران الله تعالى على طول الأجل أو كثرة العمل.

فهذا رجل على عهد الرسول كان كافراً واسمه «أسلم» ـ وقيل يسمى

يسار ـ ولقبه هو «الأسود الراعي»، وكان عبداً حبشياً؛ وكان هذا الراعي الأسود أجيراً عند أحد اليهود، يرعى له غنمه، ثم تفتَّح قلبه للإيمان، فأقبل على النبي ﷺ وهو يحاصر حصون خيبر بمن فيها من لئام اليهود الذين أكثروا في الأرض الفساد، وقال الراعي الأسود للنبي: اعرض عليَّ الإسلام.

وكان الرسول لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام، ويعرضه عليه فاستجاب لرغبته وشرح له أصول الإسلام، فانشرح صدر الأسود الرعي، وأطلق لسانه يصوّر جنانه، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!.

ثم قال الراعي مشيراً إلى قطيع من الغنم كان معه: يا رسول الله، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، فكيف أصنع بها، وهي للناس، الشاة والشاتان وأكثر من ذلك، وإنها عندي أمانة.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أخرجها من عسكرنا، وارمها بالحصى، فإنها سترجع إلى ربها(أي صاحبها) وإن الله سيؤدي عنك إمانتك.

وأطاع «أسلم» فزجر الغنم بشيء من الحصى إلى حصن صاحبها، وهو يقول: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبداً. فسارت الغنم كأن قائداً يقودها، أو سائقاً يسوقها، حتى بلغت حصن صاحبها.

وبعد قليل حمل «أسلم» سلاحه، وأقبل يجاهد مع إخوته المؤمنين في معركتهم الحاضرة، ثم أصابه حجر ـ وقيل أصابه سهم غَرْبٌ، أي لا يعرف راميه ـ فمات، فنال الشهادة في سبيل الله عز وجل قبل أن يؤدي للّه تعالى أي صلاة، ولذلك كان جابر بن عبد اللّه يقول: «قُتل شهيداً، ولم يسجد للّه سجدة»!!.

وحمل الصحابة جثمان أخيهم الشهيد من وسط أرض المعركة إلى المكان الذي يوجد فيه رسول الله ﷺ، فقال حين رآه وعرفه: لقد أكرمه الله، وساقه إلى خير، وقد كان الإسلام من نفسه حقاً»!.

ثم حدق الرسول العظيم ببصره الكريم إلى جثمان «أسلم» الشهيد، وقال

يخاطبه: «لقد حسّن الله وجهك، وطيّب ريحك». ثم أعرض الرسول عنه بوجهه قليلاً، فقيل له: يا رسول الله، لم أعرضت؟ فقال مبشراً ومذكراً: إن معه الآن زوجتيه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه، وتقولان له: ترّب الله وجه من ترّب وجهك، وقتل الله مَنْ قتلك.

وفي رواية رواها ابن كثير في السيرة النبوية أنه قال: «لقد رأيت زوجتيه من الحور العين، تتنازعان جبته عليه، تدخلان فيما بين جلده وجبته»(١). والله تعالى أعلم بحقائق هذه الأمور وكيفية إدراك الرسول ﷺ لها.

هكذا مضى «الأسود الراعي» إلى ربه شهيداً مغفوراً له، دون أن يطول عليه الأمد في الدنيا وهو مسلم..

ويقرب من هذا ما روته السيرة العطرة أيضاً، وهو أن رجلاً من قبيلة «بني النَّبيت» من الأنصار، جاء إلى الرسول ﷺ، فأعلن إسلامه، وقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك عبده ورسوله. ثم تقدم فجاهد مع إخوته المؤمنين حتى قُتل شهيداً، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «عمل هذا يسيراً، وأُجر كثيراً».

ولكن ينبغي لنا أن نتذكر جيداً أن الإنسان منا لا يضمن أن يطول به المدى في الغي والانحراف، ولا يضمن أن تمر عليه الأيام والأعوام، ثم تهيّىء له الأقدار بعد ذلك توفيقاً في الاهتداء كتوفيق «الأسود الراعي» فالواجب أن يسارع الإنسان فيفيق من غفلته، وأن يفيء إلى ربه، وأن ينتهز الفرصة قبل أن تصير غصة، وأن يعجل بتوبته واستقامته: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وإذا كان الله جل جلاله قد أوسع باب الرحمة، وفسح مجال الغفران، فقال في سورة الزمر: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣] فلعله أراد بذلك ـ وهو أعلم بمراده ـ ألا يقطع عباده من حسن الرجاء والأمل، وها

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣ ص ٣٦٢، طبعة الحلبي.

هوذا سبحانه يقول عقب الآية السابقة مباشرة: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤].

فلنقرن الآية الأولى بالآية الثانية كما قرنهما الله تعالى في كتابه، ولنتذكر أن هذا يمشي على صراط التعبير القرآني البليغ الواعد المتوعد في آن واحد، فيقول: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠].

ولننعم النظر المتدبر جيداً في سورة الزمر بعد الآيتين المتقدمتين، فقد مضى القرآن عقبهما يقول: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٥٥- ٦١].

***

وتاريخ العهد النبوي يعرض علينا صورة قرين وشبيه للأسود الراعي، وهذا الشبيه هو عمرو بن ثابت بن وقش من قبيلة بني عبد الأشهل، وكان يلقب «الأصيرم». وقد أسلم جميع بني عبد الأشهل، رجالاً ونساء، في يوم واحد، عقب إسلام سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير، ولم يبق أحد منهم إلاّ أسلم، حاشا عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم غزوة «أُحد»، حيث كان شاكاً متردداً في قبول الإسلام، وكان قومه من المسلمين يدعونه إلى الإسلام فيقول: لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه.

وعندما أقبلت غزوة «أُحد» انشرح صدر عمرو للإسلام، وقذف الله في قلبه نور الإيمان، وسارع فحمل سلاحه، وتوجه إلى رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، ودخل بين صفوف المجاهدين، فقاتل حتى أُثبت (أي جُرح) ووجدوه

بين القتلى والجرحى وهو بين الحياة والموت، فقال له بعض من لم يعرف إسلامه: ما جاء بك يا عمرو؟.

فقال: جاء بي الإسلام، آمنت بالله وبرسوله، وأخذت سيفي وحضرت، فرزقني الله الشهادة، ومات عمرو في أيديهم قبل أن يسجد للّه تعالى سجدة فقال الرسول ﷺ «إنه لمن أهل الجنة»!.

ولذلك كان أبو هريرة يقول والناس حوله: أخبروني برجل يدخل الجنة لم يصلّ للّه تعالى سجدة.

فيسكت الناس، فيقول أبو هريرة: هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش!.

ولقد روت السيرة أنه لم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، بل كانوا كلهم حنفاء مخلصين، رضي الله عنهم أجمعين. وكانت أسرة عمرو بن ثابت هذا أسرة جهاد واستشهاد، فقد روى التاريخ عن والده: ثابت بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل، أنه كان صحابياً، وكان في غزوة أحد شيخاً كبيراً طاعناً في السن، فجعلوه مع حُسَيْل بن جابر قرينه في كبر السن، مع النساء والصبيان.

ولكن الشيخين الكبيرين أحسا بألم الغياب عن الجهاد، فقال كل منهما لأخيه: ما ننتظر، إنما نحن هامة اليوم أو غداً، فلنلحق بالمسلمين حتى نرزق الشهادة. وفي رواية أن كلا منهما قال لصاحبه: ما بقي من أعمارنا إلا ظمء حمار[1]، إما نحن هامة اليوم أو غداً، أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ.

وخرج الرفيقان إلى المعركة، وسقط ثابت بن وقش شهيداً في ساحة أحد[2]. . .

(١) الظمء: ما بين الوردين، أو ما بين الشربتين، والحمار أقصر الدواب ظمأ، أي ما بقي من أعمارنا إلا القليل.

(٢) انظر الدرر لابن عبد البر، ص ١٥٩، والتحفة اللطيفة للسخاوي، ج ١ ص ٣٨٦.

وفي غزوة «أُحد» هذه سقط من أسرة ثابت أربعة شهداء، هم: ثابت بن وقش، وأخوه رفاعة بن وقش، وابنه سلمة بن ثابت بن وقش، وابنه عمرو بن ثابت بن وقش.

إنها أسرة جهاد واستشهاد!..

قد يذكرنا هؤلاء النفر الكرام بمخيرق اليهودي الذي كان من أحبار اليهود. ولكن نور الهداية أشرق في صدره قبل غزوة أُحد، فقال لقومه يوم السبت، ورسول الله ﷺ في أُحد: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي، وأن نصره عليكم حق.

فقالوا له: ويحك اليوم يوم السبت.

فقال في عزم: لا سبت.

ثم سارع فأخذ سلاحه، وحضر القتال مع النبي ﷺ، وأُصيب، فقال الرسول عنه: «مخيرق خير يهود»!.

رضوان الله تبارك وتعالى على أهل الإيمان واليقين.

***

المجاهد المعنق ليموت

المنذر بن عمرو الساعدي

إن المجاهد المؤمن الصادق يضع نفسه وحسه «تحت الطلب» لخدمة عقيدته ومبدئه، فهو مستعد دائماً لحمل التبعات ومواجهة الأزمات، وهو يقذف بروحه في أتون المعركة بلا خوف من سطوة عدو، أو مكر مخادع، أو خيانة لئيم، فالله الكبير موجود، والحق ظاهر واضح، والنهاية بفضل الله مضمونة مأمونة: فإما عزة بنصر، وإما نعيم بشهادة، والله ولي الصابرين.

لقد تعرض أصحابُ رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام لأشد ألوان المكر والغدر والخداع، فما ضعفوا ولا استكانوا، بل استخفوا بالشدائد واستهانوا، وأدوا واجباتهم بقدر طاقاتهم، ومضوا إلى ربهم كراماً عظاماً، مخلفين وراءهم أروع السير وأخلد الذكريات.

وهذا واحد منهم: إنه الصحابي الجليل المجاهد المنذر بن عمرو الساعدي، أحد بني النجار، من الأنصار السابقين إلى الإسلام، فقد كان ضمن السبعين رجلاً الذين بايعوا رسولَ الله بيعة العقبة الثالثة، وكان أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم النبي من هؤلاء السبعين ليكونوا أمراء على قومهم، اقتداءً بقول الله تبارك وتعالى في أتباع موسى عليه السلام: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

وكان المنذر أحد الذين تعرضوا لناقة الرسول وهي تدخل المدينة عند الهجرة، وتعلق بخطامها وطلب من الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن ينزل في ضيافته، ولكن النبي كرر كلمته المأثورة فقال: دعوا الناقة فإنها مأمورة.

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المنذر بن عمرو وأبي ذر الغفاري الذي قال

فيه سيد الخلق: «ما أظلت السماء، ولا أقلت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر».

ولقد نال المنذر بن عمرو الشرفَ الأسمى حين شهد غزوة بدر الكبرى، حيث ظهر فيها إخلاصه للّه تعالى، ومبادرته إلى مواطن الابتلاء والشهادة؛ وكان المنذر يقال له: «المُعْنِق ليموت» أي المسرع إلى طلب الشهادة والموت في سبيل الله، وهو لقب غلب عليه وشُهر به، والأكثرون يقولون عنه: أعنق ليموت. ويقال: أعنق يُعنق إعناقاً فهو معنق، أي أسرع في طلب الموت يحرص عليه، وقد جاء في الحديث: «لايزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً». أي لا يزال مسرعاً في طاعة الله، منبسطاً في عمله.

وقد جاء في «النهاية» لابن الأثير أن الرسول ﷺ حينما بلغه قتلُ حرام بن مِلحان قال: «أعنق ليموت»، أي أن المنية أسرعت به، وساقته إلى مصرعه[1].

ولكن المعروف أن هذا قد قيل في شأن المنذر بن عمرو، ولا يستحيل أن يكون الوصف قد تكرر بإطلاقه على حرام بعد المنذر.

وكان المنذر حينئذ فتى قوياً جَلداً، وكان إذا أدى واجب الميدان يجتمع بكوكبة من شباب الإسلام، وينتحون ناحية، ويأخذون في قراءة القرآن الكريم والاستماع إليه، ثم يصلون من الليل ما استطاعوا، حتى إذا دنا الصبح، جمعوا من الحطب ما قدروا، وأحضروا من الماء العذب ما استطاعوا، ثم وضعوا ذلك على أبواب حجرات النبي ﷺ. فهم مجاهدون من أهل الفداء، وهم قانتون أتقياء، وهم أهل الصنع الجميل والوفاء.

وفي شهر صفر من السنة الثانية للهجرة أرسل الرسول ﷺ سرية مكونة من عشرات من الشباب، قيل إنهم ثلاثون، وقيل إنهم أربعون، وقيل إنهم سبعون، أرسلهم إلى بئر معونة، لا ليفسدوا في الأرض، ولا ليهلكوا الحرث والنسل، ولكن ليبشروا بكلمة الحق، ويصدعوا بقولة الصدق، لأن أبا براء

(١) النهاية ج ٣ ص ٣١٠، طبعة الحلبي.

عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة، كان قد وفد على النبي ﷺ، فدعاه إلى الإسلام، فلم يُسْلم أبو براء ولم يبعد، ولكنه قال النبي: لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك.

فقال النبي: إني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء: أنا لهم جار.

فبعث النبي السرية المشار إليها، وقد وصفت السيرة أفراد هذه السرية الأبطال بأنهم «من خيار المسلمين»، وكان منهم الحارث بن الصمّة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي، ونافع بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق؛ وجعل الرسولُ المنذر بن عمرو أميراً وقائداً لهذه السرية.

وكان يقال لهؤلاء المجاهدين: «القُرّاء» لكثرة قراءتهم القرآن المجيد. يقول ابن برهان الحلبي: «ويقال لهؤلاء: القراء، أي لملازمتهم قراءة القرآن، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا في ناحية المدينة، يصلون ويتدارسون القرآن، فيظنّ أهلوهم أنهم في المسجد، ويظن أهل المسجد أنهم في أهليهم، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا الماء، واحتطبوا، وجاءوا بذلك إلى حُجَر النبي ﷺ.

ومن كلام بعضهم أنهم كانوا يحتطبون بالنهار، ويتدارسون القرآن بالليل، وكانوا يبيعون الحطب، ويشترون به طعاماً لأهل الصُّفّة.

وقد يقال: لا منافاة، لجواز أنهم كانوا يفعلون هذا مرة، وهذا أخرى أو بعضهم يفعل أحد الأمرين، وبعضهم يفعل الآخر»[١].

ووصل المجاهدون «بئر معونة» وهي من مياه بني عامر؛ بالقرب من حَرّة بني سليم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سليم أقرب، والحرة هي الأرض التي فيها حجارة سود.

وهناك أرسل المنذر واحداً من المجاهدين معه، وهو الصحابي الجليل: حرام بن مِلْحان، وكان رجلاً أعرج، ومع ذلك جاهد وناضل، أرسله المنذر

---

(١) السيرة الحلبية، ج ٢ ص ٢٩٤.

إلى عدو الله اللعين: عامر بن الطفيل، وهو رئيس المشركين هناك، وابن أخي أبي براء عامر بن مالك، وأعطاه المنذر كتاباً من رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل يدعوه فيه إلى الإسلام والطاعة، وأدى حرام بن ملحان مهمته، فدفع الكتاب إلى عامر، وقال له ولمن معه: «يا أهل بئر معونة، إني رسولُ رسولُ الله ﷺ إليكم، فآمنوا بالله ورسوله».

وما كان من عدو الله عامر بن الطفيل إلاّ أن تكبر وتجبر، فلم ينظر في كتاب رسول الله، وأوعز إلى بعض الخونة من رجاله أن يطعن حرام بن ملحان من الخلف، فطعنه طعنة نفذت من الجانب الآخر، ولما رأى حجام الدم يسيل منه تلقاه بكفه، ثم رشه على وجهه، وقال: فزتُ وربِّ الكعبة[1]. ومضى إلى ربه شهيداً.

وسارع اللعين عامر بن الطفيل فجمع جموعاً كثيرة من قبائل عُصية ورِعْل وذكْوان، وحاصروا أفراد السرية وطوقوهم، وأعملوا فيهم سيوفهم، ودافع الفدائيون المؤمنون عن أنفسهم ببطولة وبسالة، ولكنهم نالوا نعمة الشهادة جميعاً، وفي طليعتهم أميرهم المنذر بن عمرو، ما عدا شخصاً واحداً منهم، هو كعب بن زيد النجاري، فقد بقي جريحاً وعاش حتى نال الشهادة في غزوة الخندق.

تقول السيرة عن هؤلاء الكافرين وبطشهم بأفراد السرية: «فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا عن آخرهم رحمهم الله، إلاّ كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه وبه رمق، فارْتُثَّ من بين القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً يرحمه الله[2]. وارتثَّ: فعل مبني للمجهول، حملوه من المعركة رثيثاً، أي جريحاً.

وكان هناك ثلاثة[3] من أفراد هذه السرية قد ذهبوا قبل هذه المعركة

---

(١) عيون الأثر، ج ٢ ص ٤٥.
(٢) الروض الأنف، ج ٢ ص ١٧٤.
(٣) روي أنهما اثنان فقط.

الغادرة ليبحثوا عن ضالة لهم، ولما عادوا بعد مصارع إخوانهم رأوا طيراً تحوّم في السماء، يسقط من خراطيمها قطع الدم المتجمد، فقال أحدهم: إن لهذه الطير لشأناً.

وقال آخر: قتل أصحابنا والرحمٰن (يقسم بالله الرحمٰن).

وعجلوا بالمسير فرأوا أجساد الأشقاء الشهداء وقد صارت طعاماً للطير، فقال بعضهم لبعض: «ما ترون؟ فقال واحد منهم: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال أحدهم وهو المنذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحة بن الجلاح: لكني ما كنت لأرغب عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجالَ». أي أني لا أحب أبداً أن أترك الاستشهاد في موقف استشهد فيه البطل المجاهد المنذر بن عمرو، ولا أقبل لنفسي أبداً أن أعود إلى قومي لأبلغهم نبأ استشهاده، بل أمضي إلى ما مضى إليه.

وهجم المنذر بن محمد نحو الأعداء، وظل يصارعهم ويقارعهم حتى نال الشهادة كما نالها رفقاؤه في السلاح والكفاح.

ويروى أن هؤلاء الشهداء حينما رأوا الموت قالوا: اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك منا السلام غيرك، فأقرئه منا السلام. واستجاب العلي القدير للنداء وحقق الرجاء، ونزل جبريل يخبر الرسول بذلك، فقال ﷺ: «وعليهم السلام».

ثم خرج الرسول ﷺ إلى قومه ليخبرهم بما أوحي إليه، وأبلغهم استشهاد أولئك الأبطال، وقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم في عالم الخلد فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بأنا رضينا عنك، ورضيت عنا. وفي رواية أن الرسول قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إن إخوانكم قد لقوا المشركين، وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربنا، بلّغ قومنا أنا قد لقينا ربنا، ورضينا عنه، ورضي عنا ربّنا، فأنا رسولهم إليكم، أنهم رضوا عنه، ورضي عنهم».

ورضاهم عن الله معناه رضاهم بقضائه وقدره، واستبشارهم بما كتب لهم من مصير، ورضى الله عنهم معناه أنه تقبّل جهادهم، وأثابهم على أعمالهم.

والقرآن الكريم يقول في سورة المائدة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩]. ويقول في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠] ويقول في سورة المجادلة: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢] ويقول في سورة البينة: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

وحزن رسول الله ﷺ حزناً بليغاً على مصرع هؤلاء الشهداء، حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما رأيت رسول الله ﷺ وجدَ (أي حزن وغضب) على أحد كما وجد على أصحاب بئر معونة».

وظل رسول الله عليه الصلاة والسلام ثلاثين يوماً يدعو في صلاة الغداة (الصبح) بالويل والثبور على المجرمين الذين قتلوا شهداء بئر معونة، وبهذا الدعاء كان بدء القنوت في الصلاة في الإسلام، كما صار القنوت مستحباً عند النازلة في سائر الصلوات المكتوبة، وقال العلماء إن دليل ذلك هو دعاء النبي على الذين قتلوا المجاهدين في بئر معونة، رضوان الله تعالى على أولئك الشهداء.

ولقد قال عبد اللّه بن رواحة في رثاء نافع بن بُدَيْل بن ورقاء أحد أولئك الشهداء [من الخفيف]:

رحم الله نافع بن بديل ... رحمة المبتغي ثواب الجهادِ
صابر، صادق، وفيّ، إذا ما ... أكثر القوم قال قولَ السدادِ

وقال حسان بن ثابت يرثي هؤلاء الشهداء، ويذكر قائدهم المنذر بن عمرو [من الوافر]:

على قَتْلى معونة فاستهلي ... بدمع العين سحّاً غير نزرِ
على خيل الرسول غداةَ لاقَوْا ... ولاقتهم مناياهم بقدر
أصابهم الفناء بعقد قوم ... تُخُوِّنَ عقدُ حبلهم بغدر
فيا لَهفي لمنذرٍ إذ تولّى ... وأعنقَ في منيَّته بصبرِ

وكـائـن قـد أُصـيـب غـداةَ ذاكـم　　مـن أبـيـض مـاجدٍ مـن سرِّ عـمـرو

ولقد ذكر لنا ابن سيد الناس في كتابه «عيون الأثر» أسماء الشهداء في بئر معونة ـ مع اختلاف يسير فيهم ـ وهذه قائمة الشرف بأسماء هؤلاء رضوان الله عليهم أجمعين.

١ـ المنذر بن عمرو بن خنيس. (قائد السرية).

٢ـ عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق.

٣ـ الحكم بن كيسان، مولى بني مخزوم.

٤ـ المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح.

٥ـ أبو عبيدة بن عمرو بن محصن.

٦ـ الحارث بن الصمة بن عمر.

٧و ٨ـ ابنا عتيك عمرو بن مبذول.

٩ـ أبي بن معاذ بن أنس بن قيس.

١٠ـ أخوة أنس (وقيل اسمه أوس).

١١ـ أبو شيخ بن أبي بن ثابت بن المنذر بن حرام.

١٢ـ حرام بن ملحان بن خالد.

١٣ـ أخوه: سليم بن ملحان.

١٤ـ مالك بن ثابت (في رواية الواقدي فقط).

١٥ـ أخوه: سفيان بن ثابت (في رواية الواقدي فقط).

١٦ـ عروة بن أسماء بن الصلت.

١٧ـ معاذ بن ماعص بن قيس.

١٨ـ أخوه: عائذ بن ماعص بن قيس (في رواية الواقدي).

١٩ـ مسعود بن سعد بن قيس.

٢٠- خالد بن ثابت بن النعمان بن الحارث (وقيل مات في مؤتة).

٢١- سفيان بن حاطب بن أمية.

٢٢- سعد بن عمرو بن ثقف.

٢٣- ابنه: الطفيل بن سعد بن عمرو.

٢٤- ابن خيه: سهل بن عامر بن سعد بن عمرو بن ثقف.

٢٥- قطبة بن عبد عمرو بن مسعود بن كعب.

٢٦- عبد اللّه بن قيس بن صرمة.

٢٧- نافع بن بديل بن ورقاء.

٢٨- الضحاك بن عبد عمرو بن مسعود (في رواية ابن سعد).

٢٩- عمرو بن معبد بن الأزعر (في رواية ابن القداح).

٣٠- خالد بن كعب بن عمرو بن عوف (في رواية ابن الكلبي).

* * *

وبقي بعد هذا كله أن نعرف شيئاً عن مآل عامر بن الطفيل عليه لعنة الله.

لقد كان عامر هذا قدم على رسول الله ﷺ مع وفد بني عامر، وكان أحد رؤساء هذا الوفد وأحد شياطينهم. وكان بعض الناس قد قال له: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم. فرد عليه بقوله مستنكراً: والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟!

وقال اللعين لأحد أعوانه، واسمه أربد بن قيس بن جزء بن خالد ـ وكان شيطاناً مثله ـ: إن قدمنا على الرجل (يعني النبي) فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعلُهُ بالسيف.

ولما لقي الرسولَ قال له: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم.

قال عامر: أتجعل لي الأمر ـ إن أسلمتُ ـ من بعدك؟

فقال الرسول: ليس ذلك لك ولا لقومك إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء.

قال عامر: فماذا تجعل لي؟

فقال الرسول: أجعل لك أعنةَ الخيل تغزو عليها.

قال عامر: أوليس ذلك إليَّ اليوم؟ أنا الآن في أعنة خيل نجد. اجعل لي الوبر، ولك المدر. (والوبر يراد به البادية، والمدر يراد به المدن والحضر).

فقال الرسول: لا.

قال عامر: يا محمد، خالني (أي تفرد لي خالياً). وتروى الكلمة بتشديد اللام: «خالّني» أي اتخذني خليلاً.

فقال له الرسول ﷺ: لا والله حتى تؤمن بالله وحده.

فعاد اللعين يقول في خداع وعناد: يا محمد خالني. وجعل يكلم الرسول وينتظر من «أربد» أن يفعل ما كان قد كلفه به من خيانة وغدر، ولكن أربد لا يفعل شيئاً. فعاد عامر يقول: يا محمد خالني. وعاد الرسول يجيب بقوله: لا، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له.

ثم خيّر عامر رسول الله بين ثلاث خصال، قال له: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف أشقر وألف شقراء. فلم يقبل الرسول منه قولاً، ولم يلق إليه بالاً.

وهنا تطاول عامر وتوقح فقال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً. وفي رواية أنه قال للرسول: أسلم على أن لي الوبر ولك المدر. فقال النبي: لا. فولى عامر وهو يقول: والله يا محمد، لأملأنها عليك خيلاً جُرْداً، ورجالاً مُرْداً، ولأربطن بكل نخلة فرساً. وانصرف.

فقال الرسول: اللهم اكفني عامر بن الطفيل واهد قومه، اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت، وابعث عليه ما يقتله.

ولما خرج عامر من عند الرسول قال لأربد: «أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوفَ على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً.

فقال أربد: لا أبا لك، لا تعجل عليّ، والله ما هممتُ بالذي أمرتني به إلاّ دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟!

ويروي ابن كثير أن عامراً قال لأربد عقب انصرافهما: «يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدين ويكرهوا الحرب، فسنعطيهم الدية».

قال أربد: أفعل.

فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ خلّياً إلى الجدار، ووقف معه يكلمه؛ وسلّ أربد سيفه، ثم يبست يده على السيف، فلم يستطع الضرب به، والتفت الرسول فرأى ما يحاوله أربد، فانصرف عنهما.

وعاد عامر بن الطفيل إلى بلاده. وفي الطريق شعر بتعب، فنزل في بيت امرأة من بني سلول، وسلول يومئذ أقل العرب وأذلهم ـ كما يقول الميداني في مجمع الأمثال ـ فأصابه طاعون في عنقه، وظهرت له غُدة في حلقه، فجعل يصيح ويقول مستنجداً بقومه: يا بني عامر، أغُدَّة كغدة البعير وموتٌ في بيت سلولية؟ يعني كيف يجمع بين هاتين المصيبتين؟

وأجهد نفسه حتى ركب فرسه وأخذ رمحه، وأقبل يجول وهو يصيح، وكأنه في سكرة الموت، ثم سقط عن فرسه ميتاً، وجاء أصحابه فواروه التراب عليه لعنة الله.

وعاد أربد وهو مصرّ على كفره، وهو يظن أنه ناجٍ، فأرسل الله عليه صاعقة وهو راكب جَمَله، فأحرقتهما، وعلى الباغي تدور الدّوائر.

ويروي عبد اللّه بن عباس رضوان الله عليهما أن الله تبارك وتعالى أنزل في قصة عامر وأربد قوله عز من قائل في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ

كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ
يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ
خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ
ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ٨ـ ١٣].

وذهب عامر وأربد إلى السعير وبئس المصير[١].

ومضى الشهيد المعنق ليموت: المنذر بن عمرو إلى جنة عرضها السموات، والأرض، فعليه من ربه الرحمة والرضوان.

***

---

(١) انظر في قصة عامر وأربد: تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٠٦. ومجمع الأمثال للميداني، ج ٢ ص ٥٦. والسيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ١٠٩.

المجاهد طيلة حياته

أبو طلحة الأنصاري

حينما تتعرض الأمة لمعركة مصيرية فاصلة، وتقبل مرحلة التعبئة الشاملة والزحف العام، يصبح كل فرد في هذه الأمة مطالباً بأن يقوم بعمل من الأعمال التي تسهم في المعركة، وتعاون على كسبها، سواء أكان هذا العمل قتالاً في الميدان والتحاماً مع الأعداء، أم كان معاونة للمجاهدين، وإمداداً لهم، وإعداداً لسلاحهم، ورعاية لأسرهم، أم كان حراسة أو إطعاماً أو سقاية أو تمريضاً أو غير ذلك من شؤون تتسع وتنفسح حتى تشمل كلَّ قادر على أي معونة مباشرة أو غير مباشرة لخدمة المعركة.

ولعلنا نفهم هذا من قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١] أي بادروا وسارعوا بالاشتراك في الجهاد بأي مجهود، وفي أي مكان تكونون، وعلى أي حالة كنتم: شباباً أو شيوخاً، ركباناً أم مشاة، أقوياء أم ضعفاء، فقراء أم أغنياء.

ولذلك نجد أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه يواصل جهاده طيلة حياته، ولما قيل له في ذلك أجاب: سمعت الله عز وجل يقول: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ولا أجدني إلاّ خفيفاً أو ثقيلاً.

ونجد سعيد بن المسيب رضي الله عنه يجاهد ثم يجاهد، ويفقد إحدى عينيه، فيقال له: إنك عليل صاحب عذر، فلا يجب عليك الجهاد، فيجيب قائلاً: لقد استنفر الله الخفيفَ والثقيلَ، فلا بد لي من الخروج، فإن لم أستطع الجهاد كثّرت السواد، وحفظتُ المتاع.

وها هو ذا تاريخنا الإسلامي المناضل يقدّم إلينا نموذجاً من نماذج المجاهدين الأوفياء، أصحاب الإقدام والتضحية والفداء، وهو الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري: زيد بن سهل بن الأسود بن حزام بن عمرو بن زيد بن مناة بن عدي بن مالك بن النجار. وهو من طلائع أهل المدينة الذين استجابوا لله ولرسوله، فشهدوا بيعة العقبة مع رسول الله ﷺ، وآخى النبي بين أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح المجاهد البطل المعروف.

وقد ألزم أبو طلحة نفسَه ألاّ يفوته موقف من مواقف الجهاد والغزو مع رسول الله، ابتداءً من غزوة بدر حتى سائر المشاهد الأخرى. وكان ماهراً في الرماية بالقوس، حتى تقول السيرة: «كان أبو طلحة شديد القَدّ» أي قوياً شديداً في الرمي بالقوس، وكان إذا رمى رفع النبي رأسه، وتطلع إلى قذيفته، لينظر إلى أين تنتهي، معجباً ببراعته ومهارته، ولذلك تقول السيرة: «كان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى استشرفه النبي لينظر إلى مواقع نبله» أي يحقق نظره ويطلع عليه.

وكان أبو طلحة فارساً يعنى بتربية الأصيل من الخيل، ليستخدمها في النضال، لا في سباق القمار، ولا في اللهو، ولقد حدث أكثر من مرة أن ركب النبي ﷺ جوادَ أبي طلحة، وقال معجباً به: «إني وجدته بحراً» أي واسع الجري[1].

وكان أبو طلحة يعرّض نفسه للقتل دون النبي حتى يفديه بروحه، ولذلك تقول السيرة: «وكان أبو طلحة يشوّر نفسه بين يدي رسول الله» أي يعرضها على القتل. وكان أبو طلحة يترّس على الرسول صيانة له ودفاعاً عنه، ثم يرمي دونه ويرمي، وقد فعل مثل هذا في غزوة أُحُد والرسول مثخن بجراحه، وكان النبي يسوّي له النصال ويجمع السهام، ويعطيها له حتى يواصل الرمي بها. وقد جاء في كتاب «النهاية» لابن الأثير: «كان أبو طلحة يرمي ورسول الله ﷺ يقتّر بين يديه» أي يسوي له النصال ويجمع السهام.

---

(١) سُمي البحر حبراً لسعته، وتبحر فلان في العلم: اتسع فيه (النهاية).

ويصوّر ابن سيد الناس في كتابه «عيون الأثر» شدة بلاء أبي طلحة يوم أُحد، وكيف ظل يجاهد ويناضل حتى أُجهد إجهاداً شديداً فوق طاقته فيقول ما نصه: وعن أبي طلحة: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد فجعل سيفي يسقط من يدي، وآخذه، ويسقط، وآخذه، وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ. . . .» الخ.

وحسب أبي طلحة مجداً وشرفاً أن يقول عند سيد الورى ﷺ: «صوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة»[1].

***

وكان لأبي طلحة زوجة صالحة مجاهدة، هي أم سليم بنت ملحان[2]، وكانت متزوجة قبله والد أنس بن مالك، ويصفها أبو نعيم في «الحلية» بقوله عنها: المستسلمة لحكم المحبوب، الطاعنة بالخناجر في الواقع والحروب. وقال عنها رسول الله ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا برميصاء امرأة أبي طلحة».

ولقد نعرف جانباً من فضلها إذا عرفنا أنها أسلمت قبل زوجها أبي طلحة، ولما تقدم إلى خطبتها قالت له: إني فيك لراغبة، وما مثلك يُرَدّ، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، فإن تُسلم فذلك مهري، لا أسألك غيره، لا أريد منك صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، فإن أسلمت تزوجتك.

وتلبث أبو طلحة قليلاً، ثم انشرح صدره لنور الإسلام، وذهب إلى النبي ليعلن إسلامه، فلما رآه الرسول مقبلاً قال لصحابته من حوله: «جاءكم أبو طلحة وعزة الإسلام بين يديه».

ونطق أبو طلحة بالشهادتين: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، وصار

(١) وقيل في رواية: «خير من فئة». كتاب العبر للذهبي، ج ١ ص ٣٥ طبعة الكويت.

(٢) قيل: اسمها سهلة، وقيل رملة، وقيل أنيسة، وقيل رميثة، وقيل الرميصاء. ولعلها كانت تنادى بهذه الأسماء.

مسلماً، فكان الإسلام هو مهر زوجته، وقال بعضهم: «فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه، إنها رضيت بالإسلام مهراً فتزوجها». وعاشت أم سليم مع زوجها أبي طلحة عيشة طويلة تزينها الأمانة والمودة والإخلاص، ولقد جاء في صحيح البخاري عن رجل من الأنصار قال: رأيت لأبي طلحة تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

وكانت أم سليم امرأة عاقلة مؤمنة، ويروى أنه كان لها طفل من زوجها أبي طلحة، فمات الطفل وأبو طلحة خارج الدار، فغطته أمه في جانب من البيت، فلما دخل عليها زوجها ليلاً سألها عن الطفل، فقالت: هو أهدأ ما يكون، ثم قدمت إليه طعامه فأكل، ثم تزينت له فواقعها، وعند السحر قالت له:

يا أبا طلحة، ألم ترَ آل فلان استعاروا عارية فتمتعوا بها، فلما طلبها أهلها منهم شقَّ عليهم ذلك. فقال أبو طلحة: ما أنصفوا. فقالت: فإن ابنك كان عارية من الله عز وجل، وإن الله تعالى قد قبضه واسترد عاريته ووديعته!.. فاسترجع أبو طلحة وصبر.

ولما ذهب أبو طلحة إلى رسول الله عند الصباح قال له الرسول: يا أبا طلحة، بارك الله لكما في ليلتكما وحملت أم سليم في هذه الليلة بابنها عبد الله!

ولقد اشتركت أم سليم مع زوجها في غزوة حنين، وكانت تمسك بيمينها خنجراً وبيسارها بعير زوجها. ويروى أن أبا طلحة حينما رأى الخنجر في يدها قال لها: ما هذا يا أم سليم؟ قالت: خنجرٌ اتخذته، إن دنا مني بعض المشركين بعجته به (أي شققت به بطنه).

فقال أبو طلحة للرسول: يا رسول الله، أما تسمع ما تقول أم سليم، تقول كذا وكذا.

فقال النبي: «يا أم سليم، إن الله عز وجل قد كفى وأحسن».

وعن أنس بن مالك قال: لما كان يوم أحد رأيت عائشة وأم سليم،

وإنهما مشمرتان، أرى خدم سوقهما[١]، تنقلان القرب على متنيهما، ثم تفرغانهما في أفواه القوم، وترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغان في أفواه القوم.

ولقد روى أبو نعيم في «الحلية» أن رسول الله ﷺ لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سليم، إلاّ على أزواجه، ولما قيل له في ذلك قال: «إني أرحمها، قُتل أخوها معي».

وكانت أم سليم تحب رسول الله حباً جماً، ومن شواهد ذلك ما رواه أبو نعيم أيضاً من أن الرسول نام القيلولة في بيت أم سليم. فجاءت بقارورة وجعلت تجمع فيها عرق رسول الله ﷺ، ولما استيقظ الرسول ورآها تفعل ذلك سألها: «يا أم سليم، ما الذي تصنعين»؟ فقالت: «هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو أطيب الطيب»!!.

***

وعلى الرغم من عبادة أبي طلحة وجهاده، كان رجلاً بصيراً بشؤون الحياة. وكان كما يروي البخاري في صحيحه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وهي أرض مثمرة كانت بقرب المسجد في المدينة، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

ولما نزل قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢] قال أبو طلحة للرسول ﷺ: «يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله[٢]، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله».

(١) الخدم: جمع خدمة وهو الخلخال، والسوق: جمع ساق، والمتون: جمع متن وهو الظهر.

(٢) في جوابه يقول طلحة عن بيرحاء: «إن لي مخرفاً وإنني قد جعلته صدقة». والمخرف: البستان من النخيل.

فقال الرسول معجباً: «بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ. وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: «افعلُ يا رسول الله».

ثم قسمها أبو طلحة بين أقاربه وبني عمه كما أرشده الرسول ﷺ.

***

وامتدت حياة أبي طلحة ثم امتدت، ومع ذلك ظل يجاهد ويجاهد: جاهد طيلة حياة الرسول حتى لحق الرسول ﷺ بربه، ثم جاهد أبو طلحة طيلة خلافة أبي بكر رضي الله عنه حتى لحق أبو بكر بربه، ثم جاهد أبو طلحة طيلة خلافة عمر رضي الله عنه حتى لحق عمر بربه...

ثم ارتحل أبو طلحة إلى الشام مجاهداً مناضلاً، وهو يردد قول ربه تبارك وتعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ثم يقول مفسّراً: «كهولاً وشباناً، ما سمع الله عذر أحد».

ولقد عزم ذات مرة على الخروج إلى المعركة، فأشفق عليه أبناؤه من طول النضال وامتداد القتال، فعاد أبو طلحة يكرر شعاره القرآني: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

ثم قال لهم: يا أبنائي، أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً فجهزوني للقتال. فقالوا له: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فاسترح ونحن نغزو عنك.

فأبى وعاد يرتّل شعاره: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾.

ثم خرج أبو طلحة في كتيبة مؤمنة ركبت البحر لتعز دعوة الله براً وبحراً وظل في طريق نضاله حتى لقي ربه وهو فوق أمواج البحر الطويل الممتد. وكأن رفاقه أبوا إلاّ أن يدفنوه في يابسة، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه فيها إلاّ بعد تسعة أيام، فدفنوه فيها، ويقول التاريخ إن جثته لم تتغير خلال تلك الأيام، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وهناك وسط الماء والهواء والسماء رقد المجاهد الذي ظل على جهاده طيلة حياته.

وقد كانت وفاته سنة ثنتين وثلاثين، وقيل سنة أربع وثلاثين للهجرة، وهو ابن سبعين سنة، وهناك رواية تقول إنه توفي بالشام، وأخرى تقول إنه توفي في المدينة، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ومهما يكن من شأن تعدد الروايات فالمجمع عليه أنه عاش مجاهداً طول حياته، رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

* * *

الشهيد المكفوف

عمرو بن أم مكتوم

نحن نعرف من مبادىء ديننا العظيم أن الجهاد فريضة على كل قادر من رجالنا، وأن الجهاد يجب على الرجال والنساء عند الزحف العام من الأعداء. ولكن هذا لا يعني أن الدين يمنع أحداً عن الجهاد بأي طريق أو أسلوب، ما دام قادراً على خدمة المعركة بأي وسيلة، سواء أكانت كلمة حافزة، أم رأياً رشيداً، أم معاونة بمال، أم حراسة ومراقبة، أم إمداداً بطعام أو شراب أو ذخيرة، أم دفاعاً بأي مقدار من الدفاع.

وإذا كانت عصور الظلمات قد شهدت أناساً يلزمهم الجهاد، ثم يفرون منه أو يعرضون عنه، فإن عصر الرسول ﷺ قد شهد قوماً كراماً عظاماً حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، وسارعوا على اختلاف أحوالهم إلى الميدان يطلبون نصر الرحمٰن أو نعيم الجنان؛ فالفتيان يحاولون بكل ما استطاعوا أن يجاهدوا قبل أن يبلغوا سن القتال، والمرأة المؤمنة تسهم في المعركة بقدر ما تستطيع، والأعرج المؤمن يخرج إلى القتال راضياً أن ينال الشهادة ليطأ بعرجته في الجنة، والمكفوف الذي حرم نعمة الإبصار في الدنيا يريد أن يجاهد ليستشهد فيحظى بنور الفردوس عند الله، والذي لا يجد سلاحاً أو دابة تحمله يذرف الدمع من عينيه أسفاً على قلة حيلته، ومع ذلك يبذل ما في طاقته، ويصهر ذاته ليتكامل مع إخوته.

وهكذا ضرب هؤلاء الأبطال أروع الأمثال في الإجماع على كلمة الجهاد والنضال، ولم يفكروا يوماً أن يفصموا عروة وحدتهم، أو يشقوا عصا طاعتهم، أو يتنكروا لروح أخوّتهم، أو يتنازعوا حول عقيدتهم، لأنهم كانوا يخافون النذير

الإلـهـي الـصـارم: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفۡشَلُوا۟ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومن هؤلاء الرجال الأبطال: الصحابي الجليل، والمهاجر السباق، والمجاهد المخلص، والمكفوف الشهيد: عمرو بن أم مكتوم، وهو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم القرشي العامري، وهو الذي سماه الرسول باسم «عمرو» ـ وقيل إن اسمه عبد اللّه، أو الحصين ـ وأمه هي عاتكة بنت عبد اللّه بن عَنْكَثة، وتعرف بأم مكتوم[١].

وهو صاحب الموقف الخالد الذي سجله القرآن الكريم، وجعله وحياً إلهياً يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وافتتح بذكره سورة «عبس» فقد روت السيرة العطرة أن ابن أم مكتوم جاء في أول الدعوة إلى رسول الله ﷺ في وقت كان يتحدث فيه إلى زعماء المشركين، راجياً إسلامهم ليتبعهم غيرهم فقال للرسول: أقرئني وعلمني مما علمك الله.

فكره الرسول منه أن يقطع عليه كلامه، فعبس في وجهه، وأعرض عنه إلى ما كان مشغولاً به من أمر الدعوة، واستمهله قليلاً، فنزل قول الله تبارك وتعالى يخاطب نبيّه ويعاتبه:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾﴾ [عبس: ١ ـ ١١].

وكان الرسول خير من يتذكر، فحرص بعد ذلك على إكرام ابن أم مكتوم، وكان كلما رآه قال له: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، هل لك من حاجة؟

وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقدم إلى ابن أم مكتوم الفاكهة ممزوجة بالعسل، وتقول:

---

(١) تراجع قصته بتفصيل في الجزء الأول من كتابي: «في عالم المكفوفين» ص ٢٨ ـ ٣٤ طبعة سنة ١٩٥٦م.

«ما زال هذا له من آل محمد منذ عاتب الله عز وجل فيه نبيَّه ﷺ».

وكان ابن أم مكتوم المكفوف البصر من أوائل المهاجرين: هاجر بعد مصعب بن عمير أول مبعوث في الإسلام من الرسول ﷺ إلى أهل المدينة، وهناك شارك المؤمن المكفوف في تعليم المسلمين كتاب الله عز وجل.

عن البراء قال: كان أول مَنْ قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار بن قصي، فقلنا له: ما فعل رسول الله ﷺ.

فقال: هو مكانه، وأصحابه على أثري.

ثم أتانا بعده عمرو بن أم مكتوم الأعمى، فقالوا له: ما فعل من وراءك: رسول الله وأصحابه؟

فقال: هم أولاء على أثري.

وكذلك جعل الرسولُ ابنَ أم مكتوم مؤذناً له بالاشتراك مع بلال بن أبي رباح[1]، وطالما ارتفع صوته بكلمات الأذان السامية: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله.

وهنا نتذكر أن الرسول قد مدح المخلصين الطائعين من المؤذنين بقوله: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». وقوله أيضاً: «المؤذن يُغْفَر له مدى صوته».

وكان ابن أم مكتوم على الرغم من كفّ بصره دقيقاً في تقدير الوقت وضبطه، حتى روي عن ابن عمر قوله: كان ابن أم مكتوم يتوضأ الفجر فلا يخطئه، ولذلك جاء في الحديث عن السحور: كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم.

---

(١) العقد الفريد، ج ٣ ص ٢٦٦. وج ٥ ص ٩.

وإذا كان قد ورد في السيرة أن ابن أم مكتوم كان لا يؤذن للفجر إلاّ إذا قيل له: أصبحت أصبحت! فإن هذا لا يناقض ما قبله، بل قد يؤكده، لأن فيهما أن ابن أم مكتوم كان لا يؤذن للفجر إلاّ عند دخول وقته بالضبط.

وكان ابن أم مكتوم - مع كف بصره - رجلاً قليل المال رقيق الحال، لا يفخر بثروة، ولا يباهي بمتاع، ولذلك كان من أهل «الصّفة»[1] الذين يبذلون جهدهم في سبيل الله تعالى، ثم يأوون إلى مكان معروش في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ.

ولقد نال ابن أم مكتوم ما نال من تكريم النبوة المطهرة، ومن ألوان ذلك التكريم أنه استخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة في أثناء الغزوات، ومن الغزوات التي استخلفه فيها: بدر، وأُحد، والأبواء، وبواط، وذو العشيرة، والسويق، وغطفان، وحمراء الأسد، وذات الرقاع... واستخلفه في حجة الوداع. فكان يؤم الناس في صلواتهم، ولا يحرمه ربه الأجر والثواب، فكلٌّ ميسّر لما خُلق له. ولقد روي أن الرسول ﷺ قال لصحابته وهو راجع من إحدى الغزوات: «إن بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً، ولا سرتم مسيراً إلاّ كانوا معكم، أولئك قوم حبسهم العذر».

وقال أنس: إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وعنده ابن أم مكتوم، فقال: متى ذهب بصرك؟ فقال: وأنا غلام. فقال: قال الله تبارك وتعالى: «إذا ما أخذت كريمة عبدي (يعني عينه) لم أجد له بها جزاء إلاّ الجنة».

ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥- ٩٦].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ٢ ص ٤. وقد روى أن الرسول أنزل ابن أم مكتوم دار الغذاء، وهي دار مخرمة بن نوفل.

قال أكثر من واحد إن المراد بقوله: «غير أولي الضرر» هو ابن أم مكتوم وأمثاله.

ومع هذا كان ابن أم مكتوم معروفاً بشجاعته ـ كما يقول التاريخ ـ على الرغم من كف بصره، ولقد ثار في نفسه شوق عارم إلى المشاركة الفعلية في النضال داخل ساحة الميدان، وإن لم يكن ذلك واجباً عليه، لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٧].

ولعل هذا الشوق العارم كان يضطرم في صدره منذ عهد بعيد، ولكن استخلاف الرسول له على المدينة كان يشغله، ثم تهيأت أمامه الفرصة لتلك المشاركة حينما أقبلت معركة «القادسية» التي كانت من أهم المعارك الفاصلة بين المسلمين وأعدائهم، فخرج ابن أم مكتوم مع سعد بن أبي وقاص قائد الجيش إلى هذه المعركة، وكان يحمل اللواء.

وروي أنه كان يحمل راية سوداء، عليه درع له حصينة سابغة، وجعل يقول لرفاقه في الجهاد: «ادفعوا إليّ اللواء، فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين».

وقاتل المجاهد المكفوف بما استطاع في المعركة حتى نال الشهادة خلالها، ومضى إلى ربه راضياً مرضياً، بعد أن أثبت أن المؤمن المخلص لا يستسلم للعجز، بل يحاول ويناضل حتى يبلغ الكتاب أجله.

قال النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» عن ابن أم مكتوم:«وشهد فتح القادسية، وقُتل بها شهيداً، وكان معه اللواء يومئذ، هذا هو المشهور، وذكر ابن قتيبه في المعارف أنه شهد القادسية، ثم رجع إلى المدينة فمات بها»[1].

(١) تهذيب الأسماء، ج ٢ ص ٢٩٦.

ثم عاد يقول عنه: «واستشهد بالقادسية» وقال الواقدي: «رجع منها إلى المدينة فمات بها»[١].

وقال الإمام الذهبي في كتابه «العبر» ضمن أحداث السنة الخامسة عشرة: «واستشهد عمرو بن أم مكتوم الأعمى المؤذن»[٢].

ومن هذه النصوص نفهم أن الراجح المشهور هو أن ابن أم مكتوم مات شهيداً في معركة القادسية.

رضوان الله على المكفوف المجاهد الشهيد!..

***

(١) المرجع السابق.

(٢) كتاب العبر، ج ١ ص ١٩ طبعة الكويت.

الزاهد الشهيد

أويس القرني

إن الله تبارك وتعالى هو ولي النعمة، ومصدر الرحمة، ومن فضله على الأخيار من عباده أنه بيّن لهم معالم الطريق، ويسّر أمامهم أسباب التوفيق، ودلهم على أبواب الخير، وحذرهم معاطب الشر، فقال لهم فيما قال:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي هذه الآية الكريمة أرشد الله سبحانه إلى ما في الوحدة وائتلاف القلوب والاعتصام بحبل الله جل جلاله من قوة وعزة، ونعمة وبركة، وما في الفرقة والاختلاف من ضعف وذلة، وخسران ونقمة.

وكلمة «حبل الله» في الآية الكريمة تحتمل أكثر من معنى، فقد يكون المراد بها هو الإسلام. والله تعالى هو الذي يقول: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]. وقد يكون المراد بها هو الطاعة، والله تعالى يقول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢]. وقد يكون المراد بها هو الجماعة، والله تعالى هو الذي يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولكن الظاهر أن المراد بحبل الله تعالى هنا هو القرآن المجيد، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩] ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض». وفي حديث زيد بن أرقم: «حبل الله هو القرآن». والمراد بالحبل هنا هو النور

الممدود الهادي إلى سواء السبيل، والله جل جلاله يقول: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ـ ١٦].

وإنما كان القرآن الكريم نوراً وضياء، لأنه أزال الغمة، وكشف الظلمة، وهدى الأمة، وجمعها على كلمة الحق والعدل والعزة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]. ولأنه رسم للأحرار الأخيار منهج الجهاد والاستشهاد فإما حياة بشهامة وكرامة، وإما استشهاد يفضي إلى دار الخُلد والسلامة.

ولقد اهتدى بهذا القرآن العظيم أسلاف لنا كرام، آمنوا بربهم، واقتدوا بنبيهم، واعتصموا بحبل خالقهم، واجتمعوا عليه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس. زانوا المحاريب بالعبادة والنجوى، وزانوا الميادين بالبطولة والفداء، فمكّن الله لهم في الأرض، وأعز من شأنهم بين العالمين، ولله عاقبة الأمور.

* * *

وهذا واحد منهم: آمن بالله رباً، واعتصم بالقرآن دليلاً، وزهد في متاع الحياة، وطمع في منزلة الأبرار الأوفياء، وهو أويس بن عامر بن جَزء بن مالك القَرَني ـ من بني قَرَن ـ رضي الله عنه. وفيه يقول أبو نعيم في الحلية: «سيد العباد، وعلم الأصفياء من الزهاد أويس بن عامر القرني».

وأصله من اليمن، وسكن الكوفة، وأدرك جزءاً من عهد النبي ﷺ، ولكنه لم يره، وكان زاهداً مخشوشناً، متقشفاً في ثيابه وطعامه، فقيراً لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً ذا بال، حتى كان في بعض الأحيان لا يجد من الثياب ما يرتديه ليخرج به إلى الناس.

ومع ذلك كله مضى في طريقه مستقيماً، يعتصم بحبل الله القوي المتين، ويعكف على كتاب الله الإمام المبين، ويقدم العون ما استطاع إلى عباد الله

بإخلاص ويقين. ربما لا يعبأ به الكثيرون، ولا يدرون شأنه، ولكن مكانه عند الله عظيم.

كان أحد ثمانية من التابعين انتهى إليهم الزهد، كما قال الأشياخ ـ فيما يروي العتبي، وهم: عامر بن عبد القيس، والحسن البصري، وهرم بن حبان، وأبو مسلم الخولاني، وأويس القرني، والربيع بن خيثم، ومسروق بن الأجدع والأسود بن يزيد[١].

ومن فضل الله تعالى على أويس القرني أن الرسول ﷺ بشر به صحابته دون أن يراه، ووصفه لهم، وأخبره أنه من أهل الجنة ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله قال: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس، فمروه فليستغفر لكم»[٢]. وذلك لأن دعاءه مقبول بمشيئة الله وإذنه، لصلاح أويس وإخلاصه.

ويروى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يأتي عليكم أويس بن عامر، مع أمداد أهل اليمن» ـ أي جماعاتهم ـ كان به برص، فبرأ منه، إلاّ موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

وحرص عمر الفاروق على البحث عن أويس حتى لقيه في أثناء خلافة عمر وطلب منه عمر أن يستغفر له فقال أويس: أو يستغفر مثلي لمثلك يا أمير المؤمنين؟

فألح عليه عمر، وأخبره بما قاله الرسول، فاستجاب أويس، ثم استأذن للانصراف، فقال له عمر: إلى أين تريد؟ فقال أويس: إلى الكوفة.

فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها «أي واليها»؟ فأبى أويس وقال: أكون في غبراء الناس (أي عامتهم وجماعتهم) أحب إليَّ.

---

(١) العقد الفريد، ج ٣ ص ١٢٠ .

(٢) في الحلية رواية تقول «أويس القرني خير التابعين بإحسان» ج ٢ ص ٩٦.

وهكذا لم يقبل أويس أن يمتاز على غيره بشيء، وفضّل أن يبقى فرداً كسائر الأفراد في أمة محمد ﷺ، دون محاباة أو تمييز أو استثناء، وحسبه هذا الإيمان العميق الوثيق الذي يربطه بربه، ويصله بهديه وكتابه.

❋ ❋ ❋

ولقد كان لأويس القرني روح نقية صافية، أوتيت من الإلهام ما يذكرها بفضل الله الواسع وعطائه الجليل، فقد أقبل رجل على أويس القرني، وهو لم يره من قبل، فقال له أويس: حياك الله يا هرم بن حبان. فعجب هرم من ذلك، وقال لأويس: يرحمك الله، من أين عرفت اسمي واسم أبي، فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني.

فقال أويس: يا هرم، عرفت روحي روحك حيث كلمتّ نفسي لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل وإن نأت بهم الديار، وتفرقت بهم المنازل.

وهذا اللقاء يذكرنا بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

ولا عجب أن تصفو روح أويس القرني بهذه الصورة الرائعة، فقد سامر مائدة القرآن المجيد، واستمد منها، واعتمد بعد الله عليها، واعتصم بنورها؛ وهذا أحد الناس يرجو أويساً أن يوصيه، فيقول له أويس أول ما يقول: «وصيتي إليك كتاب الله تعالى».

وكذلك زكّى أويس نفسه حين جعلها تشعر على الدوام بشعور الناس، وتمتزج بهم، وتحرص على وحدتهم، حتى كان يقول لمن يوصيه: «إياك أن تفارق الجماعة، فتفارق دينك وأنت لا تشعر، فتموت فتدخل النار يوم القيامة».

❋ ❋ ❋

والأروع من هذا وذاك وذلك في حياة هذا الإمام النقي، والزاهد التقي، والعابد الخفي، أن نراه يلبي دعوة الجهاد حين يجد الجدّ، وتقبل ساعة الهول، فقد ترك عبادته وتهجده، وخرج إلى الميدان، وحمل السلاح، وأرى الناس أن

راهب الليل لا يعجز عن أن يكون فارس النهار وبطل الميدان. واشترك في معركة «أذربيجان» في عهد عمر بن الخطاب؛ ويروي الكثيرون أن أويساً مات شهيداً، ويقولون إنه شهد غزوة «صفين» مع الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وقُتل فيها شهيداً، رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

***

الشهيد الذي اشتاقت إليه الجنة

عمار بن ياسر

إنه الصحابي الجليل أو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر العنسي، الذي كان من السابقين إلى الإسلام هو وأخوه عبد الله، وأبوه ياسر، وأمه سمية بنت خباط التي كانت أمة عند أبي حذيفة، ثم زوجها لياسر بن عامر والد عمار، وهي أول شهيدة في الإسلام. قتلها أبو جهل عليه لعنة الله قتلة شنيعةً، حيث طعنها بحربة في جسمها فماتت، فباء أبو جهل بالخيبة والعار، وفازت هي بالشهادة وعقبى الدار.

وقد أسلم عمار مع صهيب الرومي في وقت واحد، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان الذين أسلموا لا يزيدون عن الثلاثين إلا قليلاً. وكان عمار أيضاً من القلائل الأوائل الذين أعلنوا إسلامهم، كأبي بكر وبلال وخباب وصهيب، وتعرضوا لألوان من العذاب والامتهان بسبب هذا الإعلان.

وكان عمار وأبوه وأمه وأخوه يعذبون في الله تعالى على إسلامهم، وكان النبي ﷺ يمر بهم وهم يعذَّبون، وهو لا يملك لهم شيئاً، وبه من الهم لأجلهم ما الله به عليم، فيقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، وفي يوم اشتد العذاب على عمار، ومرَّ به الرسول فقال عمار: يا رسول الله، لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ.

فقال النبي ﷺ: صبراً أبا اليقظان صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

وجاء في رواية أخرى: صبراً يا آل ياسر، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»[١].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٥ ص ٧٩٥.

وبلغ المشركون من الفجور أنهم أخذوا يكوون جسم عمار بالنار، فدعا النبي قائلاً، يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار، كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم. واشتد العذاب يوماً بعمار ثم اشتد، ثم اشتد، حتى فقد وعيه، وأصبح لا يدري ما يفعل ولا ما يقول فأمره المشركون أن يردد كلمات ضد دينه، فرددها بلسانه دون وعي، ثم أدرك بعد إفاقته ما قال، فحزن حزناً شديداً ولكن الرسول هوّن عليه الأمر بأن قال له: إن عادوا فقل لهم مثل قولك هذا.

وفي ذلك نزل قول الله جل جلاله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦] وكذلك نزل في عمار وأمثاله من المعذبين قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١].

***

وهاجر عمار مع رسول الله صلوات الله عليه، وجاهد معه في غزوات بدر وأحد والخندق وسائر الغزوات، واشترك عقب الهجرة في بناء مسجد الرسول وكان الناس يحملون فيه لبنةً لبنةً (أي حجراً حجَراً) وعمار يحمل لبنتين لبنتين، وكان يجعل منهما لبنة عن نفسه، والأخرى عن النبي، فقال له رسول الله ﷺ: «للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة، ويدعونك إلى النار». ثم قال له: «يا أبا اليقظان، لا تشقق على نفسك».

فقال عمار: يا رسول الله، إني أحب أن أعمل في هذا المسجد. فقال له النبي: «أنت من أهل الجنة، وتقتلك الفئة الباغية».

وأخذت شواهد الإيمان واليقين والإخلاص تتجلى من عمار في اعماله وأقواله وتصرفاته وعواطفه، حتى كأنه قد صار نموذجاً من الإيمان يتحرك على الأرض ويسعى بين الناس؛ ولذلك كان جديراً بتزكية الصادق المصدوق رسول الله حيث قال فيه: «لقد ملىء عمار إيماناً إلى مُشاشه». والمشاش هو رءوس العظام اللينة في داخل الجسم، وقيل: المشاش رأس العظم. وفي رواية: «إلى أخمص قدميه».

وقال الرسول أيضاً: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان». وفي بعض الروايات: «اشتاقت الجنة إلى أربعة: علي وعمار وسلمان وخباب» وفي رواية أن النبي ﷺ قال وقد تهلل وجهه: «اشتاقت الجنة لعمار».

ولقد روي أن عمار بن ياسر أقبل ذات يوم يستأذن على رسول الله ﷺ، فقال النبي: «ائذنوا له، مرحباً بالطيب المطيّب». وعن حذيفة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال النبي: «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا بالذين من بعدي - وأشار إلى أبي بكر وعمر - واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم به ابن مسعود فصدِّقوه».

وكذلك قال ﷺ: «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلاّ اختار أرشدهما، فالزموا سمته».

***

ومضت الأيام والأعوام، والمجاهد الطيب المطيّب عمار يتقلب بين مواطن القتال والنضال، ويغدو ويروح عابداً مجاهداً، مؤيداً دعوة ربه وهدى رسوله، لا يتأخر ولا يتقاصر، بل هو على الدوام يحمل روحه على راحته، ويمضي بها راجياً أحد أمرين: إما أن ينصر بها دينه وعقيدته، وإما أن يبذلها رخيصة في سبيل ربه، لتغلو هناك وتعلو في حمى جنات النعيم.

وكان له بعض الشعر وهو يجاهد، مثل قوله: [من الخفيف]

صدق الله، وهو للصدق أهل ... وتعالى ربي، وكان جليلا
رب عجّل شهادة لي بقتل ... في الذي قد أحبَّ قتلاً جميلا
مقبلاً غير مدبر، إن للقتـ ... ـل على كلّ ميتة تفضيلا
إنهم[(١)] عند ربّهم في جنان ... يشربون الرحيق والسلسبيلا

ولحق الرسول بالرفيق الأعلى، وتعرض المسلمون عقب ذلك لابتلاء شديد تمثّل في حروب الردة، ومن بينها المعركة العنيفة الشديدة: معركة اليمامة التي سارع إليها عمار بن ياسر، وحينما اشتد البأس فيها وحمي الوطيس، وقف

(١) يقصد المجاهدين الشهداء.

عمار فوق صخرة، ونادى على منْ هَمَّ بالتخاذل أو الضعف بقوله: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرعون؟ إليّ إليّ، أنا عمار بن ياسر!

وكأن كلماته كانت خيوطاً إلهية جذابة آسرة تداعى إليها الكثيرون، وانطلقوا يواصلون جهادهم، وعمار يسابقهم وينافسهم، حتى قطعت أذنه وهو يقاتل أشد القتال، وكأنه لم يحس بهذا وهو في حومة الوغى، وخصوصاً أن عمار كان قليل الشكوى، وكأن أقل الناس كلاماً، وأطولهم سكوتاً.

وعادت الأيام تمضي وعمار الذي هاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين يمضي على طريق الحق لا يتنكر له، ولا يبعد عنه، إنه يعمل في كل مجالات الخير، ويبذل كل ما يستطيع من جهد في سبيل الله، ويتفقه في دينه بقدر ما ييسر الله تعالى له، فكان مثلاً أول من بنى مسجداً لله تعالى في الإسلام، حيث بنى مسجد قباء، وروى عن رسول الله ﷺ ما يزيد عن الستين حديثاً. وكان يناصر جانب الخير، ويناهض جانب الشر، ولعله أراد بهذا أن يحقق قولة الرسول فيه: «يا عمار، إنك لتحبنا، وإنا لنحبك، وإنك لمن الأعوان على الخير، المثبطين عن الشر»(١).

وحينما رأى عمار بعض المعروف متروكاً، وبعض المنكر بادياً، نادى قائلاً في أسف: [من السريع]

يا ناعي الإسلام قم فانعه ... قد مات عُرْفٌ، وبدا منكر(٢)

ولما ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه نائباً لسعد بن أبي وقاص على ولاية الكوفة سنة إحدى وعشرين للهجرة نهض بأعباء عمله في استقامة، وفي السنة التالية جعله عمر والياً على الكوفة، فواصل المسير على طريق الاستقامة، وأسهم في فتوح خوزستان.

وكانت لعمار كلمات تدل على روحه الصافية المؤمنة المناضلة على الدوام في سبيل الحق، فمن كلماته قوله: «أنظر ـ إذا أعطى الله العبادَ على

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج ٣ ص ١٣٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٥.

لهم ما منيتك»؟ وكان يقول: «رب مظلوم غافل، وظالم متجاهل».

وكان يحرص على مرضاة ربه ـ حسب اعتقاده ـ مهما كان الثمن، فكان يقول: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت. اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظُبة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت. اللهم إني أعلم مما علمتني أني لا أعمل عملاً صالحاً هذا اليوم هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته»[1].

وكانت له شعاراته الرائعة في الجهاد، مثل قوله: «أيها الناس، الرواح إلى الجنة» وقوله: «صبراً، والله إن الجنة تحت ظلال البيض».

وهكذا كان عمار عملاقاً في أقواله وأعماله، مثالاً للمسلم الغيور في تحركاته وتصرفاته، ولذلك حق للسيدة عائشة أن تقول فيه: «ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه الا قلت إلاّ عمار بن ياسر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه مُلئ إيماناً إلى أخمص قدميه»[2].

ولقد تلا عبد الله بن عباس قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة **الأنعام: الآية ١٢٢**].

ثم قال: إن من جعل الله له نوراً هو عمار بن ياسر، والماشي في الظلمات هو أبو جهل[2].

وقال ابن عساكر: عمار خلط الله الإيمان ما بين قرنه إلى قدمه، وخلط الإيمان بلحمه ودمه، يزول مع الحق حيث زال، ولا ينبغي للنار أن تأكل منه شيئاً...

***

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج ٢ ص ٢٥٧.
(٢) المرجع السابق، ج ٣ ص ٤٣٩.
(٣) المرجع السابق.

ووفى عمار للإسلام في خلافة أبي بكر وعمرو وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين، وحينما أقبل الخليفة الرابع الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه وبسط يده القوية الفدائية في محاربة الطغيان ومقاومة الضلال، كان عمار بن ياسر من أسرع الناس إلى الوقوف بجانبه، وأظهر في القتال مهارة ملحوظة، ولذلك كان الإمام علي يجعله أميراً على الرجالة (المشاة) تارة، وعلى الخيالة (الفرسان) تارة أخرى.

وكان عمار يتحرق شوقاً إلى مواجهة الضالين بالموقف الصارم، فإما أن يستقيموا ويعتدلوا، وإما أن يعتزلوا ويزولوا، وهو يرى في جهادهم تقرباً إلى الله عز وجل، وسبب تشريف وتكريم له ولأمثاله، ولذلك قال للإمام علي قبل معركة «صفين»:

«يا أمير المؤمنين، إن استطعت ألاّ تقيم يوماً واحداً فافعل، اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادعهم إلى رشدهم فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلاّ حربنا، فوالله إن سفك دمائهم، والجد في جهادهم، لقربةٌ عند الله، وهو كرامة منه».

ومضى عمار بقيادة الإمام علي إلى المعركة، متدثراً بالإيمان، طالباً إحدى الحسنيين: إما نصرة للحق، وإما شهادة تأخذ بصاحبها إلى طريق الجنة، وهو يردد كلمات الثبات واليقين، والإصرار على الإقدام، وعدم التردد في الدفاع عن المبدأ، وكان مما يرتجز به يومئذ قوله: [من الرجز]

كلاّ وربّ البيت لا أبرحُ أرضي ... حتى أموت أو أرى ما أشتهي
لا أفتأ الدهر أحامي عن علي ... صهر الرسول ذي الأمانات الوفي
ينصرنا ربّ السموات العلي ... ويقطع الهام بحدّ المشرفي
يمنحنا النّصر على من يبتغي ... ظلماً علينا جاهلاً ما يأتلي

وكان الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه، لعلمهم أنه مع الفئة العادلة بشهادة حديث الصحيحين القائل: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية».

وشاء رب العزة أن يذوق عمار طعم الشهادة في هذه المعركة، في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين.والعجيب كل العجب أن عماراً كان قد بلغ الثالثة

والتسعين من سنوات عمره، ولكن هذا الشيخ الذي شاب شيبته في الإسلام وأشرف على المائة من الأعوام، لم يتقاعس عن موطن الجهاد والاستشهاد وحينما أحس بالموت من طعناته قال: إئتوني بشربة لبن. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن. وأتوه باللبن فشربه، ثم أوصى أن يدفن بثيابه، فدفنه الإمام علي بثيابه، ليلقى بها ربه يوم القيامة. وقال وهو بين الحياة والموت: «الجنة تحت الأسنة، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه»!!

ثم مضى ليلقى الأحباب هناك، مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

رضوان الله تعالى عليه.

***

الشهيد كليمُ الله

أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام

هذا علم من أعلام الإسلام، وسيد من سادات الأنصار المجاهدين. إنه الصحابي الجليل، المناضل الشهيد: أبو جابر عبد اللّه بن عمرو بن حرام، الذي كان سهلاً مطواعاً في استجابته لنور الإيمان، فقد جاءه بعض من أسلم من الأنصار، وقالوا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، ونكره لك أن تكون حطباً للنار غداً.

وما هي إلاّ لحظات فكر فيها أبو جابر وتدبر، ثم انشرح صدره لصوت الإله وخير الحياة، وشهد بيعة العقبة، وكان من النقباء، وكذلك النفوس النقية الطاهرة، لا تستنفد جهداً ولا نصباً في دعوتها إلى طريق الخير، لأن كل مولود يولد على الفطرة، فإذا لم يعكر صفو هذه الفطرة تراب الشهوات، ولا ضلال الأهواء، بقيت صالحة للاستجابة والإنابة، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وأقبلت أول تجربة للتضحية والفداء، وهي معركة بدر الكبرى، وتعرض لها أبو جابر مع كتيبة سيد الأنبياء محمد ﷺ، فكان فيها من الأبرار الأوفياء.

ثم جاءت المعركة الثانية ذات الشدة والهول، وهي معركة «أُحد» التي يروى أن بعض الأنصار قالوا يومها لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من اليهود؟

فأجابهم قائلاً: لا حاجة لنا فيهم!

وكأن سيد الأنبياء ﷺ قد ألهمه ربه أن هذا الصنف من الناس لن يصح

ولن يستقيم، فليس بأمين ولا بمؤتمن، وأن هؤلاء اليهود سيكشفون عن سوء طويتهم وخبث نيتهم بعد قليل، فلا يؤثر فيهم إكرام، ولا يردعهم عن باطلهم إلاّ صارم التأديب وبليغ العقاب، وكأن لسان القدر قد حكم منذ أربعة عشر قرناً بأنه لا بقاء لوُدٍّ أو تعاون بين المسلمين وهؤلاء اليهود الأخساء!

ويروى كذلك أن المنافق اللعين عبد الله بن أبي بن سلول رجع يوم أُحد بثلث الناس، محاولاً بذلك خذل المسلمين، وتبعه أهل النفاق، فأخذ عبد الله بن عمرو بن حرام ينادي عليهم ويقول لهم: «أذكركم الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيكم، تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا». فلم يستمعوا إليه.

ويروى أنه نزل في ذلك قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦ـ ١٦٨].

وكان عند أبي جابر عدد من البنات يتمنى أن يتوافر لهنّ طيب العيش واستقرار الحياة، وحينما همّ بالدخول في غزوة أحد قال لابنه جابر: يا جابر، ما أراني إلاّ مقتولاً أولَ من يُقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك أعزّ عليّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ دَيْناً فاقضه، واستوص بأخواتك خيراً.

يا لروعة الإيمان! . . هذا رجل معيل مثقل بأعباء أسرة أغلبها بنات ضعيفات، ولكنه لا يتردد في الخروج إلى الجهاد، لأن واجب المعركة مقدّم على سائر الواجبات، وهو يحس إحساساً عميقاً دقيقاً كالإلهام الإلهي بأنه سيكون أول شهيد في المعركة، ويقرر أن رسول الله ﷺ أحب إليه وأعز عليه حتى من ولده، لأنه سبب الرحمة والنعمة، ورائد الهداية والوقاية.

وعلى أبي جابر دَينٌ لا ينساه، بل يوصي بأدائه ووفائه، كما يوصيه بأن يكون حفياً وفياً لأخواته، حتى لا يضعن في زحام الحياة وتصارع الأحياء.

ويودع الوالد ابنه، ثم يمضي إلى المعركة، وكأنما كان في توقعه يردد صوتاً للغيب، فقد صدق في قوله، وكان أول شهيد تزدان به معركة أُحد التي سقط فيها بعد ذلك سبعون شهيداً من المهاجرين والأنصار.

ولم ينس لئام المشركين وأخساء الكافرين أن يمثلوا بجثة أبي جابر الشهيد، فقطعوا أنفه وأذنيه، ثم أقبل جابر نحو جثة أبيه وقد غطاها المسلمون بثوب، فجعل يكشف الثوب عنه، ويرى سوء ما صنع المجرمون به، فلا يملك دمع عينيه، وجعل الناس ينهونه والرسول لا ينهاه.

ثم جاءت عمة جابر، ورأت أخاها ممزق الأشلاء فبكت، وهنا قال سيد الخلق ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه». وتظليل الملائكة لجابر يرمز إلى علو مقامه ورفعة شأنه رضي الله عنه.

ومن عجيب صنع الله تعالى أن أبا جابر أصيب بجرح في وجهه، فغطت يده الجرح، وجاء القوم بعد ذلك فرفعوا يده، فسال الدم من الجرح، فردوها إلى مكانها فسكن الدم.

وبعد أن أعطى الرسول جابراً فرصةً ينفّس فيها عن مكبوت حزنه قال له: يا جابر، ألا أبشرك؟ قال جابر: بلى، بشرك الله بالخير يا رسول الله.

فقال النبي: أشعرتَ أن الله أحيا أباك فقال له: تمنَّ عليَّ يا عبدي ما شئت أُعطِكَه. فقال أبوك: يا ربّ، عبدتك حقَّ عبادتك، أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك، وأُقتل فيك مرة أخرى. فقال الله له: إنه سلَفَ مني أنه إليها لا يرجع (أي أن من رحل من هذه الدنيا لا يعود إليها).

وفي رواية أن النبي ﷺ قال لجابر: أعلمتَ أن الله أحيا أباك، فقال: تمنه. فقال: أرد إلى الدنيا فأقتل. فقال: قد قضيتُ أنهم إلى الدنيا لا يرجعون.

وكان أمل أبي جابر الوحيد هو أن يذوق الشهادة، مرة بعد مرة بعد مرة، لا مرة واحدة، وكذا يكون الصادقون من طلاب الشهادة في سبيل الله عز وجل، وقدوتهم العليا في ذلك هو رسول ربهم سبحانه، الذي يقول: «والذي

نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل» والذي يقول: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شيء، غير الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة».

وبعد حين تطلع الرسول إلى وجه جابر، فرآه سابحاً في تفكيره، فقال له: ما لي مهتماً؟ فأجاب: يا رسول الله، قُتل أبي، وترك دَيْناً وعيالاً. فقال النبي: ألا أُخبرك؟ ما كلم الله أحداً، إلاّ من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً (مواجهة) وقال له: سلني أعطك. فقال: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية. فقال: إنه قد سبق مني القول، إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون. فقال أبوك: يا رب فأبلغ من ورائي.

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ـ ١٧١].

وأمر النبي ﷺ بدفن أبي جابر مع عمرو بن الجموح في قبر واحد، لما كان بينهما من الصفاء، ولأنهما زميلان في الجهاد ورفيقان في الاستشهاد.

وعمرو بن الجموح هو الصحابي الذي كان أعرج شديد العرج، ومع ذلك حرص على الجهاد وجعل يقول: إني أرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة. وجعل يقول: اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، ولا تردني إلى أهلي خائباً.

واستجاب الله الدعاء، وحقق الرجاء، وقال فيه رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره (حقق مضمون قسمه) منهم عمرو بن الجموح، وقد رأيته يطأ أرض الجنة بعرجته»!.

رضوان الله على أبي جابر أول شهيد في يوم الهول: يوم أُحد طليعة السبعين من شهداء الصحابة، طالب الشهادة في الدنيا، وطالبها في الآخرة، المؤثر لما عند الله على ما عند الناس.

ورضوان الله على أولئك الأجداد، الذين صدقوا الجهاد، وحرصوا على الاستشهاد، فعلموا العباد والبلاد السير على طريق الخلود المليء بالأمجاد.

ولقد كان رسول الله ﷺ كلما مرّ على قبور الشهداء يوم غزوة أُحد حياهم قائلاً لهم: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، والتزم هذه الطريقة من بعده خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين.

وإنما كان لهؤلاء عقبى الدار الحميد المجيد، لأنهم آمنوا وجاهدوا، ووفوا وصبروا، كما صورهم الحق جل جلاله بقوله في سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٩ـ ٢٢].

فليت الأخلاف يسلكون طريق الأسلاف.

***

الشهيد حميّ الدّبْر[١]

عاصم بن ثابت

ما كان للهوان والذل أن يجتمعا مع الإيمان أبداً، وقد فصل ربنا الأعلى في هذه القضية منذ القدم، فقال في محكم تنزيله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وهؤلاء هم أسلافنا الذين رباهم إمامنا وقائدنا رسول الله ﷺ، قد علّمونا أن المؤمن المجاهد يرحب بالمنية ولا يقبل الدنية. ويصافح أسنة الرماح والسيوف والسهام، ولا يقبل موالاة أعدائه من الكفرة اللئام.

وهذا واحد منهم يعطينا في ذلك درساً يؤدب ويهذب: إنه الصحابي المجاهد الشهيد أبو سليمان عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح[٢] الأنصاري، وهو من المسارعين بالاستجابة للّه عز وجل، وقد آخى الرسول ﷺ عقب الهجرة بينه وبين البطل الشهيد عبد اللّه بن جحش الأسدي[٣] الذي تمنى الشهادة، وتمنى أن يمزق الأعداء جسمه ليكون ذلك شهادة له عند ربه، وتحقق له ما أراد، وشبيه الشيء منجذب إليه، والأبطال أنداد الأبطال.

وشهد عاصم غزوة بدر فنال شرفها الأسنى، ثم شارك في غزوة أُحد، وصرع فيها مَنْ صرع من طواغيت الكفر وزبانية الشرك، وكان منهم أخوان لامرأة تسمى «سلافة بنت سعد بن شهيد»، فنذرت وحلفت أنها إن قدرت على رأس عاصم بعد قتله لتشربنّ في جمجمته خمراً، تشفّياً وانتقاماً لأخويها، ولسفاهة الجاهلية أن تشتط كما تريد.

---

(١) حميّ: بمعنى محميّ أيّ محفوظ، والدبر: جمع دبرة، والدبر هو الزنابير أو النحل.

(٢) ذكرت أكثر المصادر «الأقلح» بالقاف، ولكن ابن كثير نص على أنها بالفاء.

(٣) طالع حديثه في كتابي «الفداء في الإسلام».

وبعد الهجرة بثلاث سنوات تقريباً - وقيل في شهر صفر سنة أربع من الهجرة - بعث النبي ﷺ سريةً للاستطلاع مكونة من عشرين مجاهداً وعلى رأسهم عاصم بن ثابت. وأخذ عاصم ومن معه يتحركون في مهمتهم ليلاً، ويختبئون نهاراً، ثم فاجأتهم قوة من المشركين تبلغ نحو المائة، فلجأ عاصم ومن معه بسرعة إلى ربوة تسمى «فَدْفَد» بقرب ماء لهذيل يسمى «الرجيع» بين عُسْفان ومكة.

وأحاطت الكثرة المشركة بالقلة المؤمنة، وجعل الكافرون يقولون لعاصم ومن معه في مكر وخداع: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً.

وتظاهر المجرمون بأنهم يريدون التفاهم والتفاوض مع هؤلاء المؤمنين، وهم يضمرون الغدر، ولكن عاصماً رفض في تصميم وقال: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، والله لا نقبل لمشرك عهداً، ولا عضداً أبداً.

وشرع يقاتل أعداءه في جسارة وتضحية مع بعض رفاقه، وهو يردد قوله [من الرجز]:

ما علّتي وأنا جَلْدٌ نابلُ ... والقوس فيها وترٌ عُنابَلُ؟
إن لم أقاتلكم فأمي هابل ... الموت حق، والحياة باطلُ
وكل ما شاء الإلهُ نازل ... بالمرء، والمرء إليهِ آيلُ

جلد: أي قوي شديد. ونابل: أي صاحب نبال، أي ذو نبل، والنبل السهام العربية، ولا واحد لها من لفظها، فلا يقال: نبلة، وإنما يقال: سهم ونُشَّابة[1].

وعنابل: غليظ صلب متين. وهابل: ثاكل. وآيل: راجع.

وأخذ عاصم يرمي أعداءه حتى انتهت نباله، فأخذ يطاعنهم برمحه حتى تكسر، فاستل سيفه وهو آخر سلاح معه، وأخذ يضرب به فيهم. وكأنما أحس

(١) النهاية لابن الأثير، ج ٣ ص ١٩١ طبعة الحلبي و ج٥ ص ٤٠.

بنور الله في صدره أن شهادته قد اقتربت، وقد بذل كل جهده، وكان قد عاهد ربه ألاّ يمس مشركاً ولا يمسّه مشرك أبداً في حياته، فقال يدعو ربه: اللهم، إني حميتُ دينَك صدر النهار، فاحم لحمي آخره. واستمر يناضل حتى نال الشهادة.

وأراد أعداؤه عقب استشهاده أن يمثلوا بجثته، وأن يحتزوا رأسه، ويحملوه إلى «سلافة» لتشتريه منهم، ولكنهم حينما هموا بارتكاب جرمهم الوضيع، وجدوا أن أسراباً من النحل والزنابير قد سترت جثته، وصنعت حولها نطاقاً كثيفاً، قالت عنه كتب السيرة: «فأرسل الله على جثته مثل الظُّلة (السحابة) من الدَّبْرِ (أي من النحل والزنابير) فحمته منهم، فلم يقدروا فيه على شيء، فقالوا: ننتظر حتى يأتي الليل، ويتركه النحل، فنأتي لنفعل ما نريد، فأرسل الله جل جلاله سيلاً جارفاً في الوادي، فحمل جثة عاصم إلى حيث شاء الله».

وجاء المجرمون بعد ذلك يبحثون عنه وينقبون، فلم يجدوا لجثته أثراً. أين ذهبت؟ أين اختفت؟ علم ذلك عند علام الغيوب، وربك يفعل ما يشاء ويختار، وإن للّه في كونه أسراراً سيظل الكثير منها غيباً محجباً إلى ما شاء الله.

وهكذا وفى «عاصم» للّه تعالى بنذره وعهده، فلم يقصر في حقه، بل صدق الجهاد في سبيله، فحفظه الله من أيدي أعدائه بعد وفاته، كما حفظه وصانه من مثل ذلك في حياته؛ وحينما بلغت هذه القصة مسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه اهتزّ لها، وقال في إيمان ويقين: يحفظ اللّهُ العبدَ المؤمن!.

نعم يحفظه إذا شاء وأراد، حتى وهذا العبد جثة هامدة، لا تملك من أمر الدفاع عن نفسها قليلاً ولا كثيراً، والله تعالى بيده ملكوت كل شيء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه عقب استشهاد عاصم ورفاقه قال بعض المنافقين: «يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم أقاموا في أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم» يعنون النبي ﷺ.

فأنزل الله تعالى فيهم وفي أمثالهم من المجاهدين المؤمنين الشهداء قوله:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وذلك عقب أن أنزل في شأن أولئك المنافقين الذين قالوا في الشهداء ما قالوا، وفي أمثالهم من المجرمين المخادعين، قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

روي أن هذه الآيات الكريمة نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل: نزلت فيمن عرّضوا بعاصم ورفاقه، وقيل: نزلت في كل من يبطن كفراً أو نفاقاً.

وأراد رسول الله ﷺ أن يكرّم ذكرى هؤلاء الشهداء، وأن يثبت عزائم المجاهدين، وأن يلقي الرهبة في قلوب الكافرين، حتى لا تسوء ظنونهم بقوة المؤمنين، فخرج مع مجموعة من صحابته عقب استشهاد عاصم، وذهب إلى المكان الذي لقي فيه ربه، وترحم عليه وعلى رفاقه، ودعا لهم بالمغفرة والرضوان، وظل أياماً في تلك الناحية، ثم عاد ليواصل أعباء الرسالة من جديد.

إن الإنسان حينما يوثق صلته بربه، ويتمسك بكريم أسبابه، ويعتصم بحبله وبابه، ويبذل غاية جهده في نضاله، يفجر الله له ينابيع الرضى والتوفيق، ويهديه بفضله إلى أقوم طريق.

***

المجاهد بلسانه وسنانه

كعب بن مالك الأنصاري

إن معنى الجهاد في منطق الإسلام يتسع وينفسح حتى يشمل الجهاد بالقلب عن طريق النية المخلصة في بذل ما يستطاع لوجه الله عز وجل، والجهاد باللسان عن طريق الكلمة الصادعة بالحق، الداعية إلى الثبات والصبر، والجهاد بالمال عن طريق البذل والإنفاق، والجهاد بالنفس عن طريق الإقدام إلى ساحة النضال والكفاح.

ومن هنا قال سيدنا رسول الله ﷺ: «المجاهد يجاهد بلسانه وسيفه».

ولقد صدق أصحابه هذا القول الكريم، فباعوا لله قلوبهم وألسنتهم وأموالهم ونفوسهم عن طواعية واختيار. ومن هؤلاء الرجال الأبطال: أبو عبد الرحمٰن كعب[١] بن مالك بن عمرو الأنصاري، أحد شعراء الإسلام[٢]، وكان من سابقي الأنصار إلى الإسلام، وشهد بيعة العقبة مع رسول الله ﷺ وفي ذلك يقول كعب: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام» أي تحالفنا وتعاهدنا.

وقد آخى الرسول ﷺ بين كعب بن مالك والزبير بن العوام، ورُوي أيضاً أنه قد آخى بينه وبين طلحة، والأقران تلتقي بالأقران.

وكان كعب ممن آتاهم الله بلاغة القول وروعة الشعر، والكلمة الطيبة سلاح وأي سلاح، وهذا هو رسول الله يطلب من كعب أن ينشده بعض ما قاله

(١) ومن كناه أيضاً: أبو عبد الله، وأبو محمد، وأبو بشير.

(٢) بل قال عنه ابن كثير: «كعب بن مالك شاعر الإسلام». البداية والنهاية ج ٨ ص ٤٨.

في الدفاع عن دين الله وتأديب المشركين، فيستجيب كعب وينشد، فيقول له الرسول مستزيداً: إيه، فيعود كعب إلى الإنشاد، وهكذا يستزيده الرسول ثلاث مرات، ثم يقول لكعب «لهذا أشدُّ عليهم من مواقع النبل».

ثم قال له: «إنك محسن الشعر» ثم جعله أحد شعرائه الذي يحمون أعراض المسلمين من المشركين، والذين قال لهم الرسول مع كعب: «والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم (أي ترمونهم بالنبل) بما تقولون لهم من الشعر».

ولا عجب في ذلك فكعب هو الذي قال أشجع بيت وصف الرجل به قومه في الشجاعة، والإقدام، وهو قوله من قصيدة له: [من الكامل]

نصل السيوفَ إذا قصرن بخَطونا ... قِدماً، ونلحقها إذا لم تَلحق

وبعد هذا البيت يقول:

فترى الجماجم ضاحياتٍ هامها ... بله الأكف، كأنها لم تُخلَق

ومنها قوله أيضاً:

ويعيننا الله العزيزُ بقوة ... منه، وصدق الصبر ساعة نلتقي
ونطيق أمر نبيّنا، ونجيبه ... وإذا دعا لكريهة لم نُسْبَق
ومتى ينادي للشدائد نأتها ... ومتى نرى الحومات فيها نُعنق
من يتبع قول النبي فإنه ... فينا مطاع الأمر، حقٌ مصدَّق
فبذاك ينصرنا ويظهر عزنا ... ويصيبنا من نيل ذاك بمرفق
إنّ الذين يكذّبون محمّداً ... كفروا وضلّوا عن طريق المتقي

وكعب بن مالك هو الذي هجا قريشاً المشركة ببيت موجع، وكانوا يسمون قريشاً «سخينة»، لأنها كانت تكثر من أكل طعام حار يتخذ من الدقيق والتمر والسمن يسمى «سخينة». فكان الناس يعيّرونها بذلك، وبيت كعب فيها هو قوله[من الكامل]:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليُغلَبَنَّ مُغالب الغلاّب

إي أن كل من يحارب الله جل جلاله فهو مهزوم مقهور، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

ولقد قال رسول الله لكعب ذات يوم معجباً به، وبكلماته المجاهدة التي تسهم في نصرة الحق والإيمان، وتواصل مقاومة البغي والطغيان: «أنت الذي تقول: زعمت سخينة... البيت»؟.

فقال كعب: نعم يا رسول الله.

فقال الرسول: أما إن الله لم ينس لك ذلك، لقد شكر الله قولك حيث تقول:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

وليتنا نهتدي بكعب في هذا المجال فلا ننطق كفراً، ولا نقول هجراً، ولا نكتم حقاً. بل نجهر بالقول الطيب الصادق الثابت: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤]، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [ابراهيم: ٢٧] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر:١٠].

ولقد كان الشعر في أسرة كعب بن مالك معروفاً مشهوراً، فكان والده شاعراً، وكذلك عمه قيس بن أبي كعب، وابنه عبد الرحمٰن، وكثير من أسرته، وكان كعب يقول أشعاراً عن غزوة بدر كأنه قد حضرها، مع أنه لم يشهدها، فإن صحت نسبة هذه الأشعار إليه كانت لوناً من التجاوب العميق بين كعب وإخوانه يوم بدر.

قال كعب شعراً في غزوة «أُحد» منه قوله [من الطويل]:

وفينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القول لا نتطلع[1]
تدلّى عليه الروح من عند ربّه ... ينزَّلُ من جو السماء ويُرفع
نشاوره فيما نريد، وقَصْرنا[2] ... إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ... ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا

(١) لا نتطلع: لا نميل عنه.

(٢) قصرنا: غايتنا.

وكونوا كمن يشري الحياة تقرّباً إلى ملك يُحيا لديه ويُرجَع
ولكن خذوا أسيافكم وتوكّلوا على الله، إن الأمر لله أجمع

وقال كعب قصيدة في أمراء غزوة «مؤته»، ومنهم جعفر بن أبي طالب، ومنها قوله [من الكامل]:

نام العيون، ودمع عينك يهملُ سحّاً كما وكف الرباب المسبلُ(١)
وجداً على النفر الذين تتابعوا قتلى بمؤتة أُسندوا لم يُنقلوا
ساروا أمامَ المسلمين كأنهم طودٌ يقودهُمُ الهزبر المشبلُ(٢)
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه قدّام أولهم ونِعمَ الأوّلُ
حتى تقوضت الصفوف وجعفر حيث التقى جمع الغواة مجدّلُ(٣)
فتغير القمر المنير لفقده والشمس قد كُسفت، وكادت تأفلُ
قوم علا بنيانُهم من هاشم فرعٌ أشم، وسؤدد متأثّلُ(٤)
قوم بهم عصم الإلهُ عباده وعليهمُ نزلَ الكتاب المنزَلُ

ولكعب أبيات تدل على فروسية وشجاعة، وفيها يقول [من الرجز]:

قد علمتْ خيبر أني كعبُ مفرّج الغمّا، جريء، صلبُ
إذ شبت الحرب تلتها الحرب معي حسال كالعقيق عضبُ
نطأكم حتى يذلّ الصعب نعطي الجزاء، أو يفيء النهبُ

ويصور كعب حالة المجاهد المؤمن الطالب للشهادة في سبيل ربه، فيقول [من الطويل]:

يرى القتلَ مدحاً إن أصاب شهادةً من الله يرجوها، وفوزاً بأحمدِ
يذود ويحمي عن ذمار محمد ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كلّ أمر يريبه يجود بنفس دون نفس محمدِ
يصدِّق بالأنباء بالغيب مخلصاً يريد بذاك العزَّ والفوزَ في غدِ!

ويقول عن الذين صدقوا الجهاد مع رسول الله ﷺ [من المتقارب]:

---

(١) سحا: موصولاً. ووكف: نزل وهطل. والرباب: السحاب. والمسبل: المنصب.
(٢) المشبل: ذو الشبل. والشبل ولد الأسد.
(٣) مجدل: مطروح على الأرض.
(٤) سؤدد متأثل: مجد أصيل.

وقتلاهم في جنان النعيم ... كرامُ المداخل والمخرج
بما صبروا تحت ظل اللواء ... لواء الرسول بذي الأضوج[(١)]
غداة أجابت بأسيافها ... جميعاً بنو الأوس والخزرج
وأشياع أحمد إذ شايعوا ... على الحقّ ذي النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة ... ويمضون في القسطل المرهج[(٢)]

وكان كعب يتحدث عن الإسلام في شعره، فيقول [من الكامل]:

ومواعظٍ من ربنا نُهدى بها ... بلسان أزهر طيّب الأثوابِ
عُرضت علينا فاشتهينا ذكرها ... من بعد ما عُرضت على الأحزابِ
حكماً يراها المجرمون بزعمهم ... حرَجاً، ويفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كي تغالب ربَّها ... وليُغلبنّ مغالب الغلاّبِ

وكان كعب بن مالك يدرك ما للحرب النفسية من تأثير، فكان يوجع في تهديده ووعيده للإعداء، حتى يدخل في قلوبهم الرعب، ولذلك قال ابن سيرين: بلغني أن دوساً إنما أسلمت فَرَقاً (أي خوفاً) من كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ حيث يقول [من الوافر]:

قضينا من تهامة كلَّ نحب ... وخيبر، ثم أغمدنا السيوفا
نخيِّرها ولو نطقت لقالت ... قواضبهن؛ دَوْساً أو ثقيفا[(٣)]

حقاً قد كان كعب بن مالك مجاهداً بلسانه، وما أقوى سلاح الكلمة إذا كانت قوية صادقة!.

* * *

وكما جاهد كعب بن مالك بلسانه حرص على أن يجاهد بسيفه وسنانه، فشهد غزوة أُحد وسائر الغزوات مع رسول الله، ما عدا غزوتي بدر وتبوك، وكان الجهد الذي قام به في غزوة أُحد جهداً مباركاً مشهوداً، ثابتاً، وجاهد صادقاً، وأُصيب يومئذ بأحد عشر جرحاً بجسمه في سبيل الله، وثبت مع رسول

(١) الأضوج: جمع ضوج وهو منعطف الوادي.
(٢) القسطل: الغبار. والمرهج: الثائر.
(٣) العقد الفريد، ج ٦ ص ١٢٨.

الله ﷺ، وحينما اشتد الهول، كان كعب بن مالك أول من شاهد الرسول حياً، فلم يملك نفسه أن صاح يبشر المسلمين بقوله: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ.

وسارع الرسول فأشار إليه أن يسكت ويصمت، حذراً وحيطة، وتجمع المسلمون حول رائدهم وقائدهم، ثم نزع النبي درعه، وأخذ درع كعب فلبسه[1]. فكان هذا تكريماً أي تكريم.

ولما انتهت الغزوة كان كعب قد ارتُثَّ، أي أثخنته الجراح الكثيرة، وأوهنت قوته، فأركبوه راحلته، وأخذ الزبير بن العوّام بخطامها سائراً أمامها.

وهكذا أثبت المجاهد بشعره وكلامه أنه صالح كذلك للجهاد بسيفه وحسامه، وصدق رسول الله حيث قال: «المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه».

***

وهناك موقف لكعب بن مالك يدل على شعوره بالتبعة، وإدراكه لمكانة الواجب، ورجوعه إلى الحق، وتمسكه بالصدق، وهذا الموقف هو موقف تخلفه عن غزوة تبوك، مع رفيقين له من الصحابة الكرام، هما هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

وفي هذا الموقف نزل قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ [التوبة: ١١٨].

وتحدثنا السيرة العطرة أن غزوة تبوك جاءت في وقت جدب وشدة وحر، وأن الرسول صرح بها تصريحاً، وكان في غيرها يلمّح تلميحاً، وحث النبي المسلمين على الخروج إلى هذه الغزوة حثاً قوياً كثيراً، ولكن القدر شاء أن

(١) في شرح نهج البلاغة أن النبي طلب من كعب يوم أحد لأمته فلبسها ونزع لأمته، ج ٤ ص ٤٤٨ طبعة بيروت، واللأمة: الدرع.

يتخلف كعب بن مالك عن هذه الغزوة، مع كونه قادراً على الخروج إليها والمشاركة فيها.

ويصوّر كعب حالته بأسلوبه فيقول: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلاّ في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلىّ للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (أي ليس لهم إحصاء مسجل) فما رجل يريد أن يتغيب إلاّ ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال؛ وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارَطَ الغزو (أي فات وقته وتقدم) وهممتُ أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدَّر لي ذلك...».

وبقي كعب في المدينة والجيش في طريقه إلى المعركة، وبه من الهم

والغم ما الله به عليم، وكان يزيده حزناً وأسفاً أنه كان إذا خرج من بيته، وسار في طرقات المدينة، لا يجد فيها من الرجال إلاّ المتهمين بالنفاق،أو أصحاب الأعذار من الضعفاء.

وتروي السير أن الرسول ﷺ لم يذكر كعب بن مالك إلاّ بعد أن صار في «تبوك»، فقال وهو جالس لمن حوله: ما فعل كعب بن مالك؟.

فتعجل رجل من بني سلمة، وقال مندفعاً: يا رسول الله، حبسه بُرداه ونظره في عطفيه (أي التكبر والفخر).

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلاّ خيراً.

وسكت رسول الله ﷺ...

ثم سمع كعب أن الرسول قد تأهب للعودة بها من تبوك إلى المدينة، فزاد همه وتضاعف حزنه، وجعل يحدّث نفسه عن الطريقة التي يخرج بها من غضب الرسول: أيكذب؟ معاذ خلال الإسلام. وظل كعب في حديث نفسه المقعد المقيم. ولما دنا موعد وصول الرسول زاح الباطل عن صدر كعب، وعزم على أن يقرر الحقيقة كاملة للرسول.

وبلغ الرسول المدينة، وأقبل كثيرون نحوه، وقد بدأ بالمسجد كعادته عند الرجوع من السفر، فركع ركعتين، ثم جلس للناس، وأخذ أصحاب المعاذير يعتذرون ويحلفون، وكانوا أكثر من ثمانين رجلاً، فقبل منهم الرسول ظاهر أمرهم وعلانيتهم،واستغفر لهم، وبايعهم، ووكل سرائرهم إلى علام الغيوب.

وأقبل كعب بن مالك وهو من خوفه كأنه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فلما سلم على الرسول تبسَّمَ الرسول تبسُّمَ المغضب وقال لكعب: تعال. فدنا منه كعب حتى جلس بين يديه.

فقال له الرسول: ماخلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ (أي دابتك)؟.

فأجاب كعب قائلاً: بلى، إني واللهلو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلاً، ولكني والله لقد

علمت لئن حدثتك اليوم حديثَ كذب ترضى به عني، ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثت صدق تجد عليّ فيه (أي تغضب) إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان من عذر، ووالله ما كنت قط أقوى ولا أسير من حين تخلفت عنك.

فأشار إليه الرسول وقال: أما هذا فقد صدق. ثم قال له: فقم حتى يقضي الله فيك؟.

وقام كعب يجر قدميه مما به، وإن كان قد أراح ضميره بصدقه وإخلاصه.

وأقبل عليه جماعة يلومونه ويؤنبونه على موقفه وتصرفه، ويذكرون له أنه لم يذنب قبل هذا الذنب، وكان يستطيع أن يعتذر إلى الرسول بمثل ما اعتذر به سواه، فيستغفر الله له. يقول كعب: «فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع فأكذّب نفسي». ولكنه لم يفعل.

ثم سأل كعب الناس فقال: هل لقي هذا معي أحد؟.

فقيل له: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، هما مرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي. قال كعب: فذكرا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى الرسول الناس عن محادثة هؤلاء الثلاثة، فاجتنبهم الناس، وجلس مرارة وهلال في بيتهما يبكيان، فقد كانا كبيرين، ولكن كعب بن مالك كان شاباً جلداً، فكان يخرج ويشهد الصلاة مع المسلمين، ويطوف في الأسواق، ولا يكلمه أحد، وكان يقبل على الرسول في مجلسه فيلقي عليه السلام، فلا يدري: أحرك النبي شفتيه بالرد أم لا، ثم يصلي كعب بقرب الرسول وهو يسارقه النظر، فإذا اشتغل كعب بالصلاة نظر إليه الرسول، وإذا التفت كعب إلى الرسول أعرض الرسول عنه.

وطال المدى على كعب، وتوالت الأيام، وضاقت عليه الأرض، فذهب إلى بيت ابن عمه: أبي قتادة، وهو من أحب الناس إليه، وألقى كعب عليه

السلام، فلم يردّ أبو قتادة السلام، فقال له كعب: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟.

ولم يكن هناك جواب، فأعاد كعب سؤاله؛ فسكت أبو قتادة، فعاد كعب يؤكد السؤال ويلح فيه، فما زاد أبو قتادة على أن قال: الله ورسوله أعلم.

وهنا فاضت عينا كعب بالدموع، وعاد وبه من الحزن ما الله به عليم!.

وذات يوم كان كعب يجول في السوق بالمدينة، وإذا رجل نبطي من أنباط أهل الشام قد قدم بطعام ليبيعه في المدينة، ويقول للناس: من يدلني على كعب بن مالك؟.

ودله الناس على كعب، فجاءه ودفع إليه من ملك غسان في قطعة من حرير، وفتح كعب الرسالة وقرأها، فإذا فيها: «أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك» (أي نعاونك).

فزاد حزن كعب وقال: وهذا أيضاً من البلاء. وسارع فألقى بالرسالة في النار.

ومضت الأيام حتى بلغت أربعين يوماً، وهنا أرسل النبي رسولاً من عنده إلى الثلاثة المخلفين ليأمرهم بأن يعتزلوا زوجاتهم، وجاء الرسول إلى كعب فقال له: رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقال كعب: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. فقال كعب لزوجته: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

وجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله وقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم! فهل تكره أن أخدمه؟.

فقال لها لا، ولكن لا يقربك.

فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا!

وهنا قال بعض أقارب كعب لكعب: لو استأذنتَ رسولَ الله في امرأتك، كما استأذن هلال بن أمية أن تخدمه؟

فقال كعب: والله لا أستأذن فيها رسولَ الله، وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟

وعادت الأيام تمضي حتى بلغ المقدار خمسين، وكان كعب قد صلى الفجر في دار له عالية، وجلس على الحال التي ذكرها الله جل جلاله في القرآن: قد ضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، سمع صوتاً عالياً يقول: يا كعب، أبشرْ!

وخرَّ كعب ساجداً لله، فقد أدرك أن الفرج قد أقبل، وسارع أحد المسلمين بالبشرى إلى كعب على فرس فنزع كعب ثوبيه وأعطاهما لهذا المبشر، ولم يكن يملك غيرهما حينئذ، فاستعار ثوبين ولبسهما، وانطلق إلى رسول الله ﷺ، فتلقاه الناس مهنئين جماعة بعد جماعة، قائلين: ليهنك توبة الله عليك.

ودخل كعب المسجد وأقبل على الرسول، فقال له الرسول ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!

فقال كعب: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

فأجاب الرسول: لا، بل من عند الله.

فقال كعب: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

فقال الرسول: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك.

قال كعب: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

ثم قال كعب: «يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألاّ أتحدث إلاّ صدقاً ما بقيتُ». ووفى كعب بوعده، وحافظ على عهده، ولم يمد لسانه إلى كلمة كذب، وقال عن ذلك فيما قال: «فوالله ما أعلم أحداً من

المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت».

ونزل القرآن بالتوبة الكريمة حيث قال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ـ ١١٩]ولقد فرح كعب بن مالك فرحاً عظيماً لأن الله تعالى قد وفقه وهداه إلى الصدق حتى قال: «فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط ـ بعد أن هداني للإسلام ـ أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ، أن أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥ـ ٩٦].

***

ولم ينس كعب الشاعر الفارس المجاهد الصادق، أن يفقه نفسه في الدين، فروى عن رسول الله ثمانين حديثاً حفظها ووعاها، ونقلها وعمل بها، ثم سار أبناؤه على طريقته، فروى عنه الحديث أبناؤه عبد اللّه وعبد الرحمٰن ومحمد وعبيد الله، ولذلك قال التاريخ إن كل أولاد كعب بن مالك قد رووا عنه الحديث(١).

ومن الأحاديث التي رواها كعب عن الرسول حديث الشهداء الذي يقول: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق (أي تأكل) من ثمار الجنة».

---

(١) الأغاني، ج ١٦ ص ٢٢٦ طبعة دار الكتب المصرية.

وكان لكعب كلمات حكيمة فيها توجيه وتهذيب، ولقد روي أنه قال يوماً لعمر بن الخطاب: أنبئني ما المثلّث؟ فقال عمر: وما المثلّث؟ قال كعب: شر الناس المثلّث، الساعي بأخيه إلى السلطان، لأنه يُهلك ثلاثة: يهلك نفسه وأخاه وإمامه بالسعي فيه إليه.

ومن صنع الله العجيب أن كعب بن مالك الذي جاهد بلسانه وسنانه، وتعرّض للموت مرات في غزوة أُحد، كما تعرض له مرات في الغزوات والمعارك الكثيرة التي خاضها، كان من المعمّرين الذين امتدت حياتهم عشرات وعشرات من السنين، فلم يلحق بربه إلاّ في سنة خمسين[1]، أو ثلاث وخمسين من الهجرة، حيث توفي بالمدينة في زمن معاوية، فمضى إلى ربه راضياً مرضياً، صالحاً نقياً، رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

إن الجهاد يبدأ من النية الطيبة، ويمتد إلى موقف التضحية بالنفس في الميدان، فمن المستطاع لكل منا، قوياً كان أو ضعيفاً، رجلاً كان أو امرأة، شاباً كان أم كهلاً، أن يسهم بلون من ألوان الجهاد، فهناك جهاد القلب، وهناك جهاد اللسان، وهناك جهاد المال، وهناك جهاد التعليم والتقويم، وهناك جهاد الميدان، والله ولي المؤمنين العاملين.

***

(١) قيل مات سنة خمسين وهذا هو الأشهر، وقيل سنة إحدى خمسين، وقيل سنة ثلاث وخمسين. قال ابن كثير: «وغلط ابن الكلبي في قوله إنه شهد بدراً، وفي قوله إنه توفي قبل إحدى وأربعين. فإن الواقدي ـ وهو أعلم منه ـ قال: توفي سنة خمسين» البداية والنهاية، ج ٨ ص ٤٨.

الفدائي الوفي

قيس بن سعد بن عبادة

إذا تتبعنا هدى الإسلام وجدناه يريد أن تتوافر للفرد المؤمن المجاهد مجموعة من الصفات، تجعله أهلاً للنهوض بالتبعات، متمكناً من أداء الواجبات، جديراً بحماية الحرمات وصيانة المقدسات، ومن هذه الصفات أن يكون قوياً في بدنه وعقله، ولذلك جعل الله بسطةَ الجسم والعلم صفة لبعض المختارين من عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وأن يكون عميق الإيمان سريع الاستجابة للحق، ولذلك يقول الله تعالى لعباده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]. وأن يكون سمح النفس مبسوط اليد بالكرم والجود والإنفاق في كل مكرمة، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢].

وأن يكون شجاعاً مقداماً، يتخذ الجهاد سبيلاً أمامه إلى إحدى الحسنيين، فإما انتصار تعقبه عزة وفخار، وإما فداء يؤدي إلى استشهاد يجعل صاحبه من خيرة العباد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولو رجعنا إلى تاريخ الإسلام العاطر الباهر، لوجدناه مليئاً بنماذج أولئك الأوفياء من أهل القوة والبذل والتضحية والفداء، ومن هؤلاء: الصحابي الجليل التقي، المجاهد الباذل الوفي: أبو الفضل[١] قيس بن سعد بن عبادة، الذي

(١) وقيل: أبو عبد الله، وقيل أبو عبد الملك.

جمع الله له من صفات الخير والبر رصيداً يزينه بين الناس، ويدنيه من رضوان رب الناس، فهو أولاً صحابي وابن صحابي، وهو أنصاري وابن أنصاري، وهو جواد وابن جواد، لأنه ولد سعد بن عبادة، البطل الشجاع، زعيم الأنصار، الذي شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان مطبوعاً على الكرم، حتى قال رسول الله عن بيت سعد: «إن الجود شيمة أهل هذا البيت».

وكان قيس بن سعد فارع الطول عملاقاً، وقد خدم النبيَّ ﷺ عشر سنوات، ومع هذا كان ـ كما يقول الإمام النووي ـ «من فضلاء الصحابة، وأحد دهاة العرب، وذوي الرأي الصائب والمكيدة في الحرب والنجدة، وكان شريف قومه غير مدافع، ومن بيت سيادتهم».

ويقول الإمام ابن كثير: «كان قيس سيداً مطاعاً، كريماً ممدَّحاً شجاعاً». وكان مضرب المثل هو وأصوله في الكرم والبذل والإنفاق، حتى قال النووي: «ونقلوا أنه لم يكن في الأوس والخزرج أربعة مطعمون متوالدون متوالون، إلاّ قيس بن سعد بن عبادة بن دُلَيم، وآباوه هؤلاء». والمقصود بالأربعة هنا هم: قيس، وسعد، وعبادة، ودُلَيم.

وكان قيس يدرك أن قيمة المال الحقيقية هي في حسن استخدامه واتقان توجيهه في أعمال الخير والبر؛ وكان يعرف أهمية المال في الحياة، فهو يسعى إلى كسبه بطرقه السليمة القويمة، وهو ينميه ويزيد فيه، لا ليكنزه، أو يُترف به نفسَه، أو يتخذه وسيلة طغيان وإفساد، بل يسهم به في مجالات الإصلاح والخير، والتعاون على البر والتقوى، ولذلك كان يدعو ربّه فيقول «اللهم ارزقني مالاً وفَعالاً، فإنه لا يصلح الفعال، إلاّ بالمال».

وفي مرة أخرى يدعو ربه فيقول: «اللهم ارزقني حمداً ومجداً وشكراً فإنه لا حمد إلاّ بفعال، ولا مجد إلاّ بمال، اللهم وسع عليَّ، فإن القليل لا يسعني ولا أسعه».

وهكذا لم يكن قيس بن سعد سلبياً في الحياة ولا انعزالياً، بل كان منتجاً إيجابياً وكان يقبل على الحياة إقبال المتفتح لها، البصير بها، الآخذ منها، النافع فيها، فهو لا يعرض عنها إعراض المتبطلين أو المتواكلين، وهو لا يخضع

لشهواتها خضوع الأذلاء المستعبِدين، بل يمشي في مناكبها، ويأخذ بأسبابها، ويجمع مَن خيرها ولبابها، ثم يفيض مما جمعه على من حوله إكراماً وإنفاقاً، وتصدقاً ومعاونة.

فكان يوزع طعامه على الجائعين، وكان له مناد ينادي على طعامه ليحضره من يشاء من الناس، وكان يُقرض من ماله الكثير، وقد يترك ما أقرضه لوجه ربه، إن كان المقترض من أهل العسرة والاستحقاق للمعاونة.

وكان في مجال الإحسان نبيلاً ذا شعور دقيق رقيق، حتى روت سيرتهُ الطيبة أن امرأة أقبلت عليه، ورمزت إلى فقرها بقولها له: «اشكو إليك قلة الفيران في بيتي». ففهم قيس ما أرادت وقال: ما أحسن هذه الكناية.

لأن المرأة أرادت أن تقول له أن بيتها لا توجد فيه أطعمة، ولذلك لا تدخل الفئران. ثم قال قيس لأهله: املئوا لها بيتاً خبزاً ولحماً وسمناً. وهكذا يكون حسن الاستجابة لداعي البذل والإنفاق.

وإلى جوار هذا الكرم الكريم من قيس بن سعد كان رجل كفاح وجهاد وكان صاحب شجاعة وإقدام. ولقد شهد كثيراً من المشاهد مع رسول الله ﷺ وكان يحمل راية الأنصار في هذه المشاهد وهو الذي حملها يوم فتح مكة، بعد أن أخذها الرسول من يد والده سعد، لأن الحماسة اندفعت به يومئذ فقال: «اليوم يوم الملحمة»، وكان رسول الله يريد فتح مكة بلا دماء، وظل قيس يحمل لواء الأنصار حتى بعد وفاة الرسول ﷺ.

وكان قيس بن سعد يردد وهو يحمل هذا اللواء بعد لحاق الرسول بالرفيق الأعلى [من البسيط]:

هذا اللواء الذي كنا نحفُّ به ... مع النبي، وجبريل لنا مدد
ما ضر من كانت الأنصار عصبته ... ألا يكون له من غيرهم أحدُ

وقد انضم قيس بن سعد بعد ذلك إلى صفوف المجاهدين مع الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وقد شهد معه معارك صفين، والجمل، والنهروان.

وولاه الإمام علي إمارة مصر، وقال له: «سر إلى مصر فقد وليتكها واخرج إلى ظاهر المدينة واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك، حتى تأتي مصر ومعك جند، فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلى المحسن، واشتد على المريب، وارفق بالعامة والخاصة، فالرفق يمن».

فقال له قيس بن سعد: رحمك الله يا أمير المؤمنين، قد فهمت ما ذكرت فأما الجند فإني أدعه لك، فإذا احتجت إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان له عدة، ولكني أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي، وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان، فالله تعالى المستعان على ذلك»

وأرسل الإمام علي مع قيس رسالة تتلى على الناس في مصر، يقول فيها الإمام:

. «من عبد اللّه علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلاّ هو.

أما بعد، فإن الله بحسن صنعه وقدره وتُدبيره، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله وبعث به أنبياءه إلى عباده، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من الفضل، أن بعث محمداً ﷺ إليهم، فعلمهمْ الكتاب والحكمة والسنّة والفرائض، وأدبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرقوا، وزكاهم لكيما يتطهروا.

فلما قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه. ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحَيْن، فعملا بالكتاب والسنّة، وأحييا السيرة، ولم يعدُوَا السنة، ثم توفيا رحمهما الله، فوُلِّي بعدهما والٍ أحدث أحداثاً، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا فغيَّروا، ثم جاءوني فبايعوني.

وأنا أستهدي الله الهدى، وأستعينه على التقوى. ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنّة رسوله والقيام بحقه، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان على ما تصفون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد بعثت إليكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً، فوازروه وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصحه، نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً، ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وبعد تلاوة هذا الخطاب على أهل مصر وقف قيس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبت الظالمين. أيها الناس، إنا بايعنا خير من نعلم من بعد نبينا محمد ﷺ، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل بكتاب الله وسنّة رسوله فلا بيعة لنا عليكم»[١].

وبايعه الناس، واستقام على يدي قيس أمر مصر حيناً من الزمن، وعلى الرغم من أن الإمام علياً استبدل بقيس غيره على مصر لحكمة رآها، ظل قيس بن سعد وفياً للإمام مخلصاً لطاعته، فهو لا يناضل من أجل المناصب والمراتب، بل لإعلاء كلمة لله، وبقي قيس تحت لواء الإمام حتى استشهد الإمام رضي الله عنه، وصار قيس مع الحسين بن علي بعد ذلك، فكان معه على مقدمة الجيش، وثبت قيس على مبادئه لا يتبدل ولا يتحول، حتى توفي ومضى إلى ربه كريماً عظيماً سنة تسع وخمسين من الهجرة رضي الله عنه.

***

(١) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣٠٠.

الفدائية أم الشهيد

أسماء بنت أبي بكر

إن أسماء بنت أبي بكر الصديق هي البطلة المتألقة في حادث الهجرة، والأم المثالية التي خرَّجت الرجال، وصنعت الأبطال، والفدائية المؤمنة التي بذلت الكثير في سبيل الله عز وجل، ولا غرو فهي بنت أبي بكر القائل: «وما عليَّ أن أغبِّر قدميَّ في سبيل الله ساعة»، والمصمم على صدق النضال في حروب الردة بقوله: «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه».

وقد أسلمت أسماء بعد سبعة عشر شخصاً دخلوا في الإسلام، فهي معدودة من السابقين الأولين رضوان الله عليهم أجمعين؛ وكانت بصيرة بدينها، حريصة على تفقهها فيه، حتى روت عن رسول الله ﷺ خمسة وستين حديثاً، وكانت مثلاً في الإيثار والسخاء، حتى قيل إنها لا تُبقي شيئاً إلى الغد.

وقد نشأت أمينة مؤتمنة، ومن دلائل ذلك أن النبي حينما جاء بيت أبي بكر ليخرجا مهاجرين، كانت هناك أسماء وعائشة، وحينما قال الرسول لأبي بكر: أخرِجْ عن مَنْ عندك. أجاب: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي.

ولم يعترض الرسول، فكان هذا إشارة إلى أن أسماء وعائشة قد ارتفعتا إلى «مستوى المسؤولية»، فلا حرج من شهودهما جلائل الأحداث.

ومنذ ذلك الحين أخذت أسماء تعرف طريق البطولة والفداء. فقد خرج المهاجران العظيمان إلى طريق الرحلة، وعلم المشركون بخروج الرسول فهاجوا وماجوا، وسارع أبو جهل ـ عليه اللعنة ـ هائجاً كالثور إلى بيت أبي بكر وطرق الباب ففتحت له أسماء، فأخذ يرغي بالأسئلة ويزبد:

أين أبوك؟ ومتى خرج؟ وإلى أين سار؟ وجاء الجواب منها هادئاً: لا أعلم! فقال مهدداً: واللات والعزى لئن لم تفصحي لنؤذينك. وجاء الجواب ثابتاً: لا أعلم، وافعل ما بدا لك.

فلطمها الطاغية لطمة أثيمة باغية أطارت قرطها من أذنها، وأسالت دمها الزكي الطهور. ولكنها لم تبال ولم تضعف.

وبعد قليل دخل عليها جدها أبو قحافة وهو مكفوف البصر، وقد علم برحيل ابنه مع المهاجر الأعظم محمد ﷺ، فقال لها: يا أسماء، أظن أن أباكم قد فجعكم في ماله فأخذه معه، كما فجعكم في نفسه برحيله عنكم؟

وكان ما أشار إليه الجد حقاً، فقد حمل أبو بكر معه ماله كلّه، ليخدم به الدعوة والداعية؛ ولكن الفتاة المؤمنة أسرعت بالتفكير في حيلة تُدخل بها الطمأنينة على صدر الجد الكفيف الطاعن في السن، وهداها ربها إلى ذلك بسرعة، فقالت: لا يا جدي، لقد ترك لنا أبي مالاً كثيراً..

وسارت الفتاة بخفة وحذر، فجمعت كومة من الحصى والحجارة الصغيرة، ووضعتها في كوة (طاقة)، وغطتها بغطاء كثيف، ثم عادت إلى جدها قائلة: تعالى يا جدي لأريك المال الذي تركه لنا أبي.

وقادته، ووضعت يده على الكومة المغطاة فحسبها الشيخ المكفوف مالاً، فاطمأن، وقال: إن كان قد ترك لكم هذا فإنه يكفيكم.

وأغنى الله تعالى أسرة أبي بكر وكفاها، فلم تحتج إلى أحد، واستوى عندها الحصى والجوهر في سبيل الله.

وشرعت أسماء تعرّض نفسها للأخطار في سبيل دينها وإيمانها، فهي تحمل الطعام والشراب وغيرهما من الأشياء إلى المهاجرين العظيمين المختبئين في غار ثور، غير هيابة ولا وجلة؛ وعند رحيلهما لم تجد ما تربط به الأمتعة لهما سوى نطاقها ـ وهو حزامها ـ فشقته وربطتها به، فجاءتها البشرى من الرسول: «أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة».

وتمر العصور والأجيال، ويبقى لقب «ذات النطاقين» معروفاً مشهوراً مميزاً للفدائية المؤمنة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضوان الله عليهما[١].

ثم هاجرت أسماء في سبيل الله، وواصلت كفاحها إلى جوار رسول الله، واشتركت في غزوة اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام فارس رسول الله ﷺ.

وولدت البطلةُ بطلاً، وأنجبت المؤمنة الفدائية بفدائي شهيد، وهو ابنها عبد اللّه بن الزبير، فقد هاجرت وهي حامل به، ثم ولدته بعد قليل، فكان أول مولود يولد في الإسلام بعد الهجرة. ويا لها من إشارة ورمز، وفرح المسلمون كثيراً بمولده، لأن لئام اليهود زعموا حينئذ أن المسلمين قد أصابهم سحر جعلهم عُقْماً لا يلدون؛ والتخصص في الافتراء مهنة قديمة لسلالة القردة والخنازير.

وأمر النبي أبا بكر بأن يؤذن بأذان الصلاة في أذني الطفل الوليد، ثم مضغ الرسول تمرة، ووضعها في فم عبد اللّه، فكان أول شيء دخل جوفه هو ريق رسول الله ﷺ، ثم دعا له النبي بالخير والبركة، فنشأ ـ كما يتحدث بذلك تاريخه ـ قوّام الليل، صوام النهار، ملازم المسجد، حتى سموه: «حمامة الحرم» كما سموه «عائذ البيت».

وكان فارس قريش في زمانه، وكان يقال له فارس الخلفاء، ولم يكن ينازعه أحد في ثلاث صفات: العبادة، والبلاغة، والشجاعة! وكانت أمه تقول له: يا بني، عش كريماً، ومت كريماً، ولا يأخذك القوم أسيراً.

وله مواقف مجيدة مشهودة، حيث غدا في اليرموك، والقسطنيطينية، والمغرب وخاض معارك شرسة، وشهد حروباً قاسية، وتألبت ضده عوامل كثيرة أحس معها أن أعداءه سيلجئونه إلى موطن الاستشهاد، فلم يخف على نفسه، وإنما خاف على أمه العجوز «أسماء» التي بلغت المائة من عمرها، فذهب يشاورها، ليثبت أنها لن تحزن ولن تجزع إذا نال الشهادة.

(١) انظر كتاب «المحات عن أبي بكر».

وقال لها فيما قال: «يا أماه، خذلني الناس، ولم يبق معي إلاّ اليسير، ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردتُ من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت له فيما قالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض إليه، فقد قُتل عليه أصحابُك، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتل معك. وإن قلتَ: كنتُ على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن!

فأعجبه ردها وقال لها: «هذا والله رأيي الذي قمت به داعياً إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلاّ الغضب لله أن يُستحل حرمُه؛ ولكني أحببتُ أن أعلم رأيك، فزيديني ديني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمي، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلّمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهَد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي؛ اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، أنت أعلم بي، ولكني أقوله تعزية لأمي لتسلو عني».

فقالت له أسماء: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدمتني أو تقدمتك، ففي نفسي أخرج حتى أنظر ما يصير أمرك. فقال لها: جزاك الله يا أماه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قُتل على باطل، فقد قُتلتَ على حق.

ثم دعت فقالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام الطويل، وذلك النحيب، والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.

ثم قال لها عبد الله ليزداد تثبتاً من صبرها إذا مات ومثّلوا بجثته: أخاف

أن يمثلوا بجثتي بعد موتي يا أماه. فأجابته في ثبات مذهل: يا بني، إن الشاة لا يضرها سلخُها بعد ذبحها.

وهنا بلغ الكتاب أجله، واستبان عبد الله طريقه وعمله، فقبّل يديها ورأسها، وخرج من لدنها وهي تكرر له الدعوات بالصبر والثبات وحسن المصير عند الله عز وجل. ونال عبد الله الشهادة يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ فما جزعت أمه ولا تزلزت، بل صبرت وصابرت. ولما صلبه أعداؤه، وطالت مدة الصلب، لم تزد الفدائية أسماء حين مرت عليه وهو مصلوب أن قالت في شمم وإباء:أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟

ويا لها من كلمة هزت الدنيا، وزانت التاريخ...

وماتت أسماء بعد ابنها بأيام معدودة... عليهما رضوان الله عز وجل.

***

المجاهد الصامت

زيد بن الخطاب

هذا بطل من أبطالنا الفدائيين، القدماء، وهو الصحابي الجليل، المؤمن الشهيد، المجاهد الصامت، أبو عبد الرحمٰن زيد بن الخطاب بن نفيل، وهو شقيق الخليفة العادل عمر بن الخطاب، رضوان الله على الشقيقين. ولا ريب أن شهرة عمر بمآثره ومفاخره حجبت بعض النور المتألق في شخصية أخيه زيد، مع أن زيداً قد وُلد قبل عمر، فهو أسنّ منه، وأسلم زيد قبل عمر، فهو من طلائع السابقين إلى صراط الله رب العالمين، وقد آتاه الله بسطة في العلم والجسم، فكان مؤمناً بصيراً، وكان طويل القامة، ظاهر الطول، أسمر اللون، ففيه هيبة، ولمرآه جلال.

وقد هاجر زيد مع أخيه عمر من مكة إلى المدينة، فآخى رسول الله ﷺ بين زيد ومعن بن عدي الأنصاري، ومن العجيب أن هذين المتآخيين في الله على يد رسول الله، قد تآخيا كذلك في الجهاد لوجه الله، وتآخيا في نيل الشهادة معاً في معركة واحدة، هي موقعة اليمامة، فمضيا أخوين إلى عالم البقاء، كما كانا أخوين في هذه الحياة.

ولم يتخلف زيد عن معركة من معارك الإسلام ضد الكفران، فشهد غزوات: بدر وأُحد والخندق والحديبية، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ومن مواقفه الفدائية البطولية أنه اشترك مع أخيه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في غزوة بدر، فقال له عمر: «خذ درعي» ليتحصن بها ويتقوى فأجابه زيد قائلاً: «إني أريد من الشهادة ما تريد». وأبى أخذ الدرع.

فتركها عمر، ومضيا في غمرة فدائية، وجرأة بطولية، يطلبان ما عند الله، ولا يقيمان وزناً لهذه الحياة.

وظل زيد فدائياً وفياً لله ولرسوله، حتى لحق المصطفى بالرفيق الأعلى، وأقبلت المعركة الشديدة: موقعة اليمامة، التي كانت في عهد أبي بكر، وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية عشرة للهجرة، وكانت راية المسلمين في يد زيد، فرفعها وحماها، وصانها وزكاها، وأقبل بها متقدماً في صفوف الأعداء، يطعن ويضرب ذات اليمين وذات الشمال.

وحين اشتد الأمر على المسلمين من كثرة الأعداء وشراستهم، وقف زيد بين رفاقه ينادي عليهم قائلاً: «أيها الناس، عضوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وأمضوا قُدُماً، فوالله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقاه سبحانه، فأكلمه بحجتي».

ومضى يجاهد ساكتاً صامتاً، حاصراً كل همه في المعركة، ومن حوله مجاهدون يتسابقون إلى الهول، ويتنافسون على الشهادة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وكان أخطر الأعداء على المسلمين في معركة اليمامة اثنين لعينين هما: رأس الفتنة مسيلمة الكذاب والرَّجّال بن عُنفوة الذي كان قد أسلم أولاً ثم ارتدّ عليه اللعنة، ونشر الفتنة بين الناس، وتواطأ مع مسيلمة على الضلال(١).

وكان بعض المسلمين يرون أن الرَّجّال أشد خطراً من مسيلمة، فلو أنه لقي مصرعه لانهدم ركن الفساد، فجعل زيد بن الخطاب نصب عينيه في المعركة أن يقتل ذلك المرتد الأثيم، وظلّ يبحث عنه ويقترب منه، حتى طعنه فقضى عليه، فكان موت «الرَّجّال» سبباً مهماً في هزيمة أعداء الله وأعداء الإسلام.

وكأن زيداً قد أحس بعد قتله الرجّال أنه قد حقق أملاً كبيراً، وفاز في جهاده فوزاً عظيماً، فتغلبت عليه نزعة التضحية البالغة، فنسي الحياة والأحياء،

(١) روي أن الرسول ﷺ كان جالساً بين عدد من أصحابه، فقال لهم محذراً: «إن فيكم لرجلاً ضرسه في النار أعظم من جبل أُحد». وكان «الرجّال» من هذا العدد الحاضر، فنجا كل من عداه، وتمرد هو فاكتسب اللعنة، وارتد عن الدين، وباء بالوعيد الذي تحدث عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وتألقت في عينيه الأضواء، تأتيه من عالم الخلد والبقاء، فآثر ما عند الله على ما عند الناس، فأخذ يتوغل في صفوف الأعداء، بلا مبالاة أو إبقاء، وظل يقاتل ويناضل، والرايةُ بيده مرفوعة، لم تقع إلاّ مع آخر أنفاسه، حيث لقي الشهادة في كرامة ومجادة، وأقبل على ربه خير الشاكرين.

***

وحينما علم عمر بن الخطاب باستشهاد أخيه قدّر له بطولته، وأثنى عليه بما هو أهله، فقال:

«رحم الله زيداً أخي، سبقني إلى الحسنيين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي»!

وكأنما كان عمر يتكلم بلسان الغيب حين قال: «واستشهد قبلي» لأن عمر قد مات هو الآخر بعد ذلك شهيداً، وكان يدعو ربه فيقول: «اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وقلّت حيلتي، وانتشرت رعيتي. فاقبضني إليك، غير مضيّع ولا مفرّط، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام».

واستجاب الله دعاءه، ولا عجب فعمر هو الذي قال فيه سيد الخلق ﷺ: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه».

ومع تقدير عمر لبطولة أخيه، ومعرفته فضله بجهاده واستشهاده، ظل يذكره على الدوام، وكان يقول: «ما هبّت الصّبا إلاّ وأنا أجد منها ريح زيد».

لقد كان عمر يحس نحو أخيه إحساسين: أحدهما من ناحية العقل، والآخر من ناحية القلب، فهو بعقله يغبط أخاه على مصيره الكريم النبيل، ويحمد ربه أن جعل أخاه يلقاه في موطن الشهادة الجليل، ولكن عمر بقلبه يجد ألماً على فراق أخيه، وحزناً في أعماقه لحرمانه منه، ولا تناقض بين هذا الإحساس وذاك.

ولذلك يروى أن عمر حينما رأى قاتل أخيه زيد بعد ذلك، وهو أبو مريم الحنفي، قال له: أنا أشد بغضاً لك من الأرض للدم. وفي رواية أنه قال: لا

أحبك حتى تحب الأرضُ الدمَ. (لأن الأرض لا تقبل الدم، فهو لا يغوص فيها كما يغوص الماء) فقال له أبو مريم: أينقصني ذلك من حقي شيئاً؟ قال عمر: لا. قال أبو مريم: فلا ضير، فإنما يأسى على الحب النساء.

والتاريخ يذكر أن متمم بن نويرة ملأ الدنيا رثاءً وبكاء على أخيه «مالك ابن نويرة» الذي قتله خالد بن الوليد. وحينما التقى متمم بعمر بن الخطاب قال له: «لو قُتل أخي مالك على مثل ما قُتل عليه أخوك زيد ما رثيتُ أخي». وكأنه يقصد أن مالكاً لم يبلغ ما بلغه زيد من يقين والتزام للصراط، فمصرع مالك لم يبلغ درجة الشهادة التي نالها زيد بن الخطاب.

كما روي أن متمم بن نويرة أنشد عمر بن الخطاب قصيدة رثاء قالها في أخيه مالك بن نويرة، فقال له عمر: لو كنت أحسن الشعر لقلت في أخي مثل ما قلت في أخيك؟ فقال متمم: لو أن أخي ذهب إلى ما ذهب إليه أخوك ما حزنت عليه. فقال له عمر: ما عزّاني أحد بمثل ما عزيتني.

***

وأهم ما يجب أن يلفتنا في حياة زيد بن الخطاب هو حسن جمعه بين النضال البطولي الفدائي الخارق لما تعوده عامة الناس، والإيمان العميق الصامت الصادق، والإخلاص في القول والعمل لوجه الله جل جلاله.

ومن هنا لا نستغرب حين نجد بعض المؤرخين يعدُّ زيداً من أهل «الصُفّة»، وهم أولئك الذين ما يكادون يفرغون من واجب جهادٍ أو نضال، حتى يفزعوا إلى مسجد الرسول ﷺ، يستنفدون بقايا طاقاتهم وجهودهم في الاشتغال بالتعبد والقنوت والتمجيد لله قيوم السماوات والأرض، ورحمٰن الدنيا والآخرة.

ولقد كان زيد بن الخطاب إلى جوار بطولته وتضحيته رجلاً لا يرضى بطريق الإيمان بديلاً، ولا يضم إليه قريناً أو عديلاً، وهو رضي الله عنه الذي كان يقول: «إنا لا ننصر كافراً، ولا نوادّ ملحداً ولا فاسقاً».

وكان زيد ـ مع قوته وشجاعته ـ رجلاً سمحاً كريماً منصفاً، يقدر

الجميل، ويحفظ الصنيع، ولا يجحد الفضل، فإذا أحسن إليه أحد قابل الإحسان بالإحسان، لأن ربه تبارك وتعالى يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٠]. ومما يدلنا على هذا الخُلُق النبيل عنده أنه ظل طيلة حياته يذكر للأنصار جميل ما صنعوا مع المهاجرين وهو منهم، فكان يقول عنهم: «أتيناهم ونحن فقراء فأغنونا، ثم أصبنا الغنى فكفوا عنا، ولم يرزؤونا شيئاً»[١].

رضوان الله على الشهيد الصامت زيد بن الخطاب...

***

(١) أي لم يأخذوا منا شيئاً، ولا نقصونا شيئاً.

شهيد نهاوند

النعمان بن مقرن

لا شك أن أعلى وجوه الفداء، وأكثرها خيراً وأثراً، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطي القدوة من نفسه، فإذا الذين من ورائه يسارعون إلى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء.

وتاريخ الإسلام العظيم يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أُسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد وروعة الاستشهاد.

ومن هؤلاء الصحابي المجاهد البطل الشهيد: النعمان بن مُقَرِّن بن عائذ المزني، الذي وَفَد على رسول الله ﷺ وسط سبعة من إخوته، ومعه أربعمائة فارس من قبيلته «مُزينة» فأسلموا كلهم دفعة واحدة، فعزت بهم كلمة المسلمين، حتى قال عبد اللّه بن مسعود: «إن للإيمان بيوتاً، وإن للنفاق بيوتاً، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن»!

يقول النعمان في ذلك: «قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة رجل، فلما أردنا أن ننصرف قال: يا عمر، زوِّد القوم. قال: ما عندي إلاّ شيء من تمر، ما أظنه يقع من القوم موقعاً. قال: انطلق فزودهم». وانطلق بهم فأدخلهم منزلة وأكرمهم.

وصار النعمان من أكبر أبطال المسلمين وحماتهم، وكان لا يحب الابتعاد عن الميدان والجهاد، وقد ناضل نضالاً كريماً في غزوة الخندق، وحمل راية قبيلته مزينة يوم فتح مكة، وشارك في حروب الردة لإطفاء الفتنة، كما شارك في فتح «جند يسابور» و«السوس» و«كسكر» وغيرها من البلاد والأمصار.

وكأن الله جل جلاله قد خلق «النعمان» ليجد لذته ومتعته في حياة الجندية

وميادين النضال، فإذا حيل بينه وبين ساحات القتال أحس بالضيق والقلق، وعمل على أن يعود من جديد إلى الميدان.

وقد حدث أن أُسندت إليه ولاية «كسكر»، فضاق النعمان بهذا العمل الهادئ، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول له: «مثلي ومثل كسكر، كمثل رجل شاب إلى جانبه مومسة تتلوّن له وتتعطر؛ فأنشدك الله لما عزلتني من كسكر، وابعثني إلى جيش من جيوش المسلمين».

ويروي التاريخ أن سعد بن أبي وقاص، قائد جيش المسلمين في جبهة فارس حينئذ ـ هو الذي استعان «النعمان» على جمع الخراج من ولاية «كسكر»، وكان ذلك في عهد الخليفة عمر، فكتب النعمان إلى عمر يقول له:

«إن سعد بن أبي وقاص استعملني على جباية الخراج، وقد أحببت الجهاد، ورغبتُ فيه». فكتب عمر إلى سعد يقول له:

«إن النعمان بن مقرن كتب إليّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج، وأنه قد كره ذلك، ورغب في الجهاد، فابعث به إلى أهم وجوهك: إلى نهاوند».

ونهاوند هي إحدى المدن في بلاد العجم، وكانت يومئذ ساحة للصراع العنيف بين المسلمين وأعدائهم، وكأن الخليفة أراد تمجيد هذه النزعة البطولية، والانتفاع بها في مكانها الملائم لها، فأشار بتوجيهه إلى هذه الساحة المحتاجة إلى أبطال من طراز النعمان بن مقرن الذي استجاب لذلك فرحاً مسروراً.

وفي معركة نهاوند يقول القعقاع بن عمرو المخزومي [من الطويل]:

رمى الله مَنْ ذمَّ العشيرة سادراً ... بداهية تبيض منها المقادمُ
فدع عنك لومي، لا تلمني فإنني ... أحوط حريمي والعدو الموائمُ
فنحن وردنا في نهاوند مورداً ... صدرنا به، والجمع حرّانُ واجمُ

***

وكان عمر بن الخطاب يستعين بالنعمان في بعض الأمور الجليلة، ولذلك جعله أحد أفراد الوفد الذي أمر سعدَ بن أبي وقاص بأن يبعثه إلى «يزد جرد»

ملك الفرس لمناظرته ومحاورته، فقد روى التاريخ أن الخليفة عمر كتب إلى سعد ـ وهو على فتح العراق ـ يأمره بأن يبعث إلى يزدجرد ملك الفرس، رجالاً من أهل المنظر والرأي والجلد يدعونه، فاختارهم وأنفذهم إليه بالمدائن.

وقال النعمان لرفاقه: إن شئتم أجبت عنكم، ومن شاء آثرته. فقالوا: بل تكلم. وتكلم النعمان أمام «يزدجرد» فقال:

«إن الله رحمنا، فأرسل إلينا رسولنا، يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرّفنا الشر، وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدْعُ إلى ذلك قبيلةً إلاّ صاروا فرقتين: فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلاّ الخواص.

فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أُمر بأن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، فدخلوا معه على وجهين: مُكْرَه عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه، من العداوة والضيق.

ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف.

فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن، وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمرٌ من الشر، هو أهون من أمر آخر شرّ منه: الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم، وإلاّ قاتلناكم».

وتكلم بعده المغيرة بن زرارة، ثم رد «يزدجرد» رداً جافاً، وقال للوفد: ارجعوا إلى صاحبكم، وأخبروه أني مرسل إليه قائد الجيش «رستم» حتى يدفنه ويدفنكم في خندق القادسية.

وأمر الملك بإحضار كيس من التراب، وقال احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن.

واستبشر النعمان بهذا التراب، مع أن ظاهره الإهانة، ونظر إليه على أنه

إشارة إلى الفتح، ولما عاد النعمان إلى قومه وسألوه قال مشيراً إلى التراب: لقد جئناكم بأرضهم.

وتحققت البشرى فانتصر المسلمون في يوم القادسية.

وكان يوم القادسية في السنة السادسة عشرة، ويقول ياقوت: «والأشعار في هذا اليوم كثيرة، لأنها كانت من أعظم وقائع المسلمين، وأكثرها بركة». ويقول بشر بن ربيعة عن هذا اليوم [من الطويل]:

وحلَّت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص عليّ أميرُ
تذكرْ - هداك الله - وقع سيوفنا ... بباب قُديس والمكرّ صريرُ
عشية ودَّ القوم لو أن بعضهم ... يُعار جناحي طائر فيطيرُ
إذا برزت منهم إلينا كتيبة ... أتونا بأخرى كالجبال تمورُ
فضاربتهم حتى تفرق جمعهم ... وطاعنتُ، إني بالطعان خبيرُ
وعمرو أبو ثور شهيد، وهاشم ... وقيسٌ، ونعمانُ الفتى، وجريرُ

ومضت الأيام، ومضى أهل الجهاد في جهادهم...

ولكن الأمور تأزمت، واشتدت الأحوال، فقد جمع أعداء المسلمين الفرس مائةً وخمسين ألفاً من المقاتلين، وتأهبوا للانقضاض بهم على المسلمين حتى فكر الخليفة عمر في الخروج بنفسه ليقود الجيش، وسارع فجمع أهل المشورة وقال لهم فيما قال:

«هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قدرت عليه، فأنزل منزلاً وسطاً بين المصرين، ثم استنفرهم، وأكون لهم ردءاً، حتى يفتح الله على المسلمين، ويقضي ما أحب».

وعبارة: «هذا يوم له ما بعده» يروى أن الرسول قالها يوم بدر، وكأنه يريد - كما ذكر الرافعي في إعجاز القرآن - أنه أساس تاريخي لما سيبنى عليه، فليضعوا كل همهم فيه، أو هو يملك الأيام الآتية، فإذا أحرزوه أحرزوها معه، وإن خسروه ذهبت بذهابه.

فأظهر القوم كلهم استعداداً للتضحية، واتجه الرأي إلى بقاء الخليفة في المدينة ليصرف شؤون الأمة، مع تعيين قائد للمعركة الحاسمة المقبلة.

فقال لهم: أشيروا عليَّ برجل أوّليه.فتركوا له الاختيار. وهنا قال: والله لأولينَّ أمرهم رجلاً يكون أول من يصافح الأسنة إذا لقيها غداً، وهو النعمان بن مقرن.

وبحث عن النعمان فوجده في المسجد يصلي، فقعد إلى جانبه حتى أتم صلاته. ثم قال له: ما أراني إلاّ مستعملك يا نعمان قال: أما جابياً فلا، ولكن غازياً. فطمأنه عمر بقوله: فإنك غازٍ. وولاه قيادة الجيش.

ويروي الطبري أن عمر بن الخطاب كتب إلى النعمان كتاباً يقول له فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن. سلام عليك، فإني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلاّ هو.

أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة «نهاوند» إذا أتاك كتابي هذا فسرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غَيْضة[1]، فإن رجلاً من المسلمين أحبّ إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك».

ثم كتب إليه عمر أيضاً:

«إني وقد وليتك حربهم، فسر من وجهك ذلك، حتى تأتي «ماه»[2] فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى «الفَيْرزان»[3] ومن تجمّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا الله، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله».

ثم أراد عمر أن يعين النعمان بقوة، فكتب إلى عبد اللّه بن عتبان يقول:

---

(١) الفيضة: مكان مخوف تأوي إليه الوحوش.

(٢) ماه: معناها قصبة البلد، والظاهر أن المراد هنا هو «ماه بهراذان» وهو اسم ناحية أو بلد في العجم.

(٣) الفيرزان: من قرى أصبهان.

«استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى «ماه» فليوفوه بها، وليسر بهم إلى نهاوند، وقد أمَّرْتُ عليهم حذيفة بن اليمان، حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن.

وقد كتبت إلى النعمان: إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث، فعلى الناس نُعَيم بن مقرن».

***

وخرج النعمان بن مقرن في ثلاثين ألفاً من المجاهدين، وخرج معه أخوه «نُعيم بن مقرن»، فجعله على مقدمة الجيش، وخرج معه أيضاً أخوه «سُوَيْد بن مقرن»، فجعله على ميسرة الجيش، وجعل على الميمنة حذيفة بن اليمان.

هكذا كان القوم يتنافسون على الصدارة في الجهاد، لا يخافون ولا يهابون. وهذا هو النعمان، لا يكتفي بتعريض نفسه للهول، بل يعرّض أخوين له، فيجعلهما في طليعة المناضلين، لا في مؤخرة الصفوف كما يفعل الجبناء!

خرج النعمان بالجيش المؤمن، وتأهل القوم لمعركة «نهاوند»[١] التي كانت من أخطر المعارك في تاريخ الإسلام، وكانت على الأشهر ـ في السنة الحادية والعشرين للهجرة[٢].

ومن براعة عمر في التصرف أنه اهتدى بالهدي النبوي الرائع في تعيين أكثر من قائد للمعركة بالتتابع، كما حدث في غزوة «مؤتة»[٣]، فقال عمر للنعمان:

«أنت الأمير[٤]، فإن أُصبتَ فالأمير حذيفة بن اليمان، ثم جرير بن عبد الله، ثم المغيرة بن شعبة، ثم الأشعث بن قيس»!

---

(١) من مدن العجم. وقيل إن معناها: بلد الخير المضاعف.

(٢) وقيل إنها كانت سنة ١٩، وقيل إنها كانت سنة ٢٠.

(٣) انظر كتابي «الفداء في الإسلام». والجزء الأول من كتاب «بطولات إسلامية».

(٤) أي قائد الجيش.

أرأيت؟ إن الخليفة يعين خمسة قواد بالتتابع لمعركة واحدة، كأنه يوطّن المجاهدين على «طول النّفَس» في الجهاد، وكأنه يقول لهم: إن القتال قد يشتد ويشتد، حتى يسقط قائد وراء قائد وراء قائد وراء قائد. . . ولا بد أن تصبروا وتصابروا وترابطوا، ولا بد أن تستخفوا بالأهوال. وأن تثبتوا حتى يتحقق النصر.

وكذلك كتب عمر إلى النعمان ومن معه يقول ناصحاً في روعة وإيجاز:

«إذا لقيتم العدوَّ فلا تفروا، وإذا غنمتم فلا تَغُلّوا». أي: فلا تخونوا، لأن الغلول هو الخيانة، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٦١].

وكان النعمان قد أتى «ماه بهراذان» وجاءه أهلها يطالبون الصلح، فأجابهم، وكتب لهم كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى النعمان بن مقرن أهلَ ماه بهراذان: أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم، لا يغيِّرون عن ملة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم، على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته؛ وما أرشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق، وقَرُوا جنودَ المسلمين ممن مرَّ بهم فأوى إليهم يوماً وليلة، ووفوا ونصحوا، فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة.

شهد عبد الله بن ذي السهمين، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله.

وكتب في المحرم سنة تسع عشرة.

***

وكمل استعداد القوم للمعركة، وتأهبوا للقتال، وجعل النعمان يوصيهم بما ينبغي أن يفعلوه، فكان مما قاله لهم: «تعاهدوا هَمايَنكم في أحقيكم، وأشساعكم في نعالكم». والهماين جمع: هِمْيان، وهو المنطقة والتكة والحزام. والأحقي ـ بكسر القاف ـ: جمع حَقْو، وهو موضع شد الإزار، والأشساع:

جمع شسع، وهو أحد سيور النعل الذي يدخل بين الإصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدودة في الزمام، وهو السير الذي يعقد فيه الشسع.

وقال لهم أيضاً: «فليثب الرجال إلى أكمّة خيولها» والأكمة ـ بتشديد الميم ـ جمع كمام، وكمام البعير هو الذي يكم به فمه لئلاّ يعض، ويريد بالأكمة هنا مخالي الخيول التي علقت في رءوسها.

وقال لهم أيضاً: «فلتثب الرجال إلى خيولها فيقرّطوها أعنتها». وتقريط الخيول: إلجامها، وقيل حملها على أشد الجري، وقيل هو أن يمد الفارس يده حتى يجعلها على قذال فرسه في حال عَدْوه، وهذا كله كناية عن تمكن الفارس فوق جواده.

وقال لهم أيضاً: «إن هؤلاء ـ يعني المجوس ـ قد أخطروا لكم رِثّةً ومتاعاً، وأخطرتم لهم الإسلام، فنافحوا عن دينكم».

وأخطروا: أي جعلوا خطراً، والخطر هو الرهان، والرّثّة ـ بكسر وثاء مشددة ـ هي رديء المتاع؛ أي أنهم جعلوا متاع الحياة رهناً من جانبهم، وجعلتم أنتم الإسلام رهناً من جانبكم، فهم لم يعرضوا للهلاك إلاّ متاعاً هيناً، وأنتم تعرضون أعظم الأشياء قدراً وهو الإسلام.

***

ثم قال النعمان للجنود: إنني سأهز اللواء أمامكم ثلاث مرات، فإذا هززته الثالثة وكبّرت فاحملوا، ولا يلوين أحد على أحد، وإن قُتل النعمان. أي لا يتوقف أحد في أثناء المعركة عن مواصلة القتال بسبب إصابة شخص مهما كان قدره، حتى ولو كان ذلك المصاب هو القائد النعمان.

وبعد أن أخذ عليهم الأيمان المؤكدة والمواثيق المشددة على ذلك قال:

«وإني داع إلى الله بدعوة، وأقسمت على كل امرئ منكم أن يؤمّن عليها». ثم قال: «اللهم ارزق النعمان اليوم شهادة في نصر وفتح على المسلمين».

ثم رفع يديه إلى السماء وعاد يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عزّ الإسلام، واقبضني شهيداً». وكأن القوم لم يسعهم إلاّ التأمين على هذا الدعاء الجليل.

وجاءت لحظة الانطلاق، وأُعطيت الإشارة، واندفع الأبطال إلى القتال، وفي طليعتهم «النعمان» الذي أخذ يطعن ويطعن، متعرضاً في الوقت نفسه للطعنات عن يمين وشمال، حتى زلق جواده بسبب الدماء الغزيرة التي غطت أرض المعركة وسقط الجواد صريعاً، وسقط من فوقه «النعمان» وجاء أحد أعدائه فعاجله بضربة في خاصرته أعجزته عن الحركة.

وشاهده أخوه «نُعيم» وهو لا يتحرك، فحسبه قد فارق الحياة، فغطاه بثوب في سرعة، وأخذ الراية من يده، ودفع بها إلى «حذيفة بن اليمان» كما أوصى الخليفة عمر.

وكأن مصرع «النعمان» كان ثمن النصر، فما هي إلاّ لحظات حتى دارت الدائرة على الأعداء، وانتصر المؤمنون الأوفياء، وفزعوا إلى جسد «النعمان» فوجدوا به رمقاً، وتحامل النعمان حتى استطاع أن يقول: ما فعل الله بالناس؟ يعني المسلمين وجاءه الجواب: فتح الله عليهم.

ففرح «النعمان» وكأنه أحسّ بأنه سيموت بعد ذلك هانئاً مستريحاً، فقال: الحمد لله كثيراً، اكتبوا بذلك إلى عمر.. ثم فاضت روح شهيد نهاوند إلى بارئها، رضوان الله عليه.

وبعد معركة «نهاوند» لم تقم للفرس أمام المسلمين قائمة، ولذلك سموا هذه الموقعة باسم «فتح الفتوح». ومن يدري... لعل نسمات الإخلاص التي هبت من صدر «النعمان» كانت بعض الأسباب التي حركت ريح النصر للإسلام والمسلمين.

سلام على شهيد نهاوند في الخالدين.

***

الفقيه الشهيد

أسد بن الفرات

حينما قال ربنا جل جلاله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠] أراد ـ وهو أعلم بمراده ـ أن يكون عند كل فرد في الأمة إحساس بروح الجهاد، وإسهام فيه بطريق مباشر أو غير مباشر، حتى تقوم دعائم المجتمع المؤمن على التعمير المثمر المحقق لحياة القوة والرخاء، والاستعداد الكامل لحياة النضال والفداء.

ومن هنا قال رب العزة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال سيد الخلق محمد ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق».

وحينما قال الحق سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨] أراد ـ وهو أعلم بمراده ـ أن يكون جهاد الأمة قائماً على الإيمان العميق بأن كلمة الله ـ وهي كلمة الحق والعزة والقوة والعدل ـ فوق كل شيء. وبذلك اليقين يخلص المؤمن جهاده لربه، وينأى به عن طلب الغنيمة أو الذكر أو الشهرة، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، (أي ليرتفع ذكره بين الناس) والرجل يقاتل لِيُرى مكانه، فمَنْ في سبيل الله؟ فقال رسول الله: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

من أجل هذا لم يكن عجيباً ولا غريباً أن نرى في تاريخ أمتنا أناساً تجردوا للفقه والعلم، وبلغوا بين الناس المراتب العالية، وتقدمت بهم الأعمار حتى أقبلوا على الشيخوخة، ومع ذلك ظلوا على استعداد للقتال، و«صلاحية»

للنضال، إذ لم ينسوا ما تعلموه في تربيتهم الإسلامية الأساسية من فن الجهاد وروح الاستشهاد. وبذلك كانوا خير أمة أخرجت للناس.

***

وهذا أحد رجالنا وأبطال أمتنا: إنه لم يعش في عهد النبوة، ولا في عصر الخلفاء الراشدين، ولا في عصر الصحابة رضوان الله تعالى عليه أجمعين، بل سطع نجمه في مجتمع بعد عصر النبوة بنحو مئة وخمسين عاماً، وكان موضع تألقه بعيداً عن منزل الوحي ومهبط الرسالة، كان هناك في شمال أفريقية، ومع ذلك بقي نور الإيمان مشرقاً في صدره وقلبه، ومرشداً له على طريقه ودَرْبه، ولم يصده تأخر الزمان ولا بُعد المكان عن الإسهام الرائع في بناء مجتمعه على أسس من الدين واليقين، والعلم والفقه، والإعداد والاستعداد، والربط بين كتاب الدرس، وجهاد النفس، وسلاح الميدان.

إنه العالم العامل، والإمام الفقيه، والقاضي القائد: أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان. كان مولده بنجران سنة ثنتين وأربعين ومائة، وانتقل وهو طفل صغير مع أبيه إلى مدينة «القيروان» في شمال أفريقية، ثم انتقل إلى مدينة «تونس»، وحفظ القرآن الكريم، وتربى تربية الإيمان، وسلك مسلك الإحسان، وتفقه على مذهب الإمامين مالك وأبي حنيفة، وارتحل في سبيل طلب العلم إلى مصر والحجاز والعراق، وكان نهماً في طلب العلم، لا يكتفي منه بمقدار محدود.

فقد سمع ـ مثلاً ـ من الإمام مالك كتابه الجليل «الموطأ» في حديث الرسول ﷺ، فلما انتهى الإمام من تدريس كتابه قال له أسد: زدنا أبا عبد الله سماعاً منك فقال له: حسبك ما للناس!

ولكن أسد بن الفرات لا يريد أن يكون في طلب العلم كسائر الناس، إنه يريد مزيداً من المعرفة، ولذلك كان يطلب العلم ما استطاع مع زملائه بالنهار، ثم يخلو في الليل إلى أستاذه محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) محاولاً أن يستوعب ما عنده من علم، واتفق مع أستاذه على أنه إذا غلبه النوم يرشه أستاذه بقليل من الماء في وجهه ليستيقظ، وما زال كذلك حتى حصل ما أراد من العلم.

وكانت نفسه عزيزة أبية، مع حاجته وفقره، وقد قص أبو بكر المالكي أكثر من قصة عن ذلك، في الجزء الأول من كتابه «رياض النفوس».

***

وما هَمَّ أسد بن الفرات بتوديع شيخه العظيم مالك بن أنس رضي الله عنه قال له أسد: أوصني. فقال له مالك: «أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة لهذه الأمة»!

ورجع أسد إلى شمال أفريقية وهذه الوصية تضيء أمام عينيه بثلاث شعب كل منها فيها خير كثير: تقوى الله عز وجل وهي خير الزاد كما أخبر رب العباد، وكتاب الله القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والإخلاص في خدمة هذه الأمة: أمة محمد ﷺ.

وذاع صيت أسد في الفقه، ونشر كتاب «الأسدية» بين الناس، وهو يعد من أهم المراجع الأساسية في فقه المالكية، واختير لتولي القضاء في أفريقية سنة ثلاث ومائتين، فجعل القرآن والسنة عمدته في الأحكام بين الناس.

ومضت الأيام والأعوام وأسد بن الفرات يزداد شهرة بالعلم والفضل، حتى بلغ الستين من عمره، وكان الصراع بين المسلمن والروم قد عنف واشتد، وتطلع المسلمون إلى فتح جزيرة صقلية، وهي يومئذ معقل خطير من معاقل الروم، وتشاور المسلمون فيما بينهم: كيف يكون الفتح؟ ومن يكون قائد الجيش؟

وهنا حدثت المفاجأة، فقد تقدم الشيخ القاضي أسد بن الفرات مطالباً بأن يكون هو ذلك القائد، ليثبت للدنيا أن الرجل الذي بلغ الستين وهو حليف العلم والإفتاء والقضاء، لم يهمل واجب الاستعداد لموقف التضحية والفداء، ولما تباطأ ولي الأمر[1] في الاستجابة لرغبته تألم أسد وقال متحسراً: «وجدوني

---

(١) هو زيادة الله بن الأغلب والي الإقليم حينئذ.

رخيصاً فلم يقبلوني، وقد أصابوا من يُجري لهم مراكبهم من النواتية، فما أحوجهم إلى من يجريها لهم بالكتاب والسنّة»!!

وبعد قليل شرح الله تعالى صدر ولي الأمر للخير، فأرسل إلى القاضي الفقيه يخبره بأنه قد جعله أميراً على الجيش، وكأن أسداً قد خاف أن يكون ذلك معناه أن ينقطع عن الفتوى للناس، فقال لولي الأمر في ذلك: «أصلح الله الأمير، من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه تعزلني عن الإمارة»؟

فأجابه قائلاً: «إني لم أعزلك عن القضاء، بل وليتك الإمارة وهي أشرف من القضاء، وأبقيت لك اسم القضاء، فأنت قاض أمير».

فانشرح صدر ابن الفرات لذلك، والتاريخ يقول إنه لم تجتمع الإمارة والقضاء لأحد ببلد أفريقية إلاّ لأسد وحده، وكان يقال له من أجل ذلك: «القاضي الأمير».

وخرج الفقيه القائد إلى المعركة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين، بجيش فيه عشرة آلاف مجاهد، ليقابل بهم عدواً بلغ مائة وخمسين ألفاً، وخرج وراءه وجوه أهل العلم وجموع الناس لوداعه، ولما شاهد ابن الفرات كثرة الناس من حوله، وقد صهلت الخيول، وضُربت الطبول، ونُشرت البنود، أدركته نزعة التواضع لربه، فقال:

«لا إله إلاّ الله وحده، لا شريك له، والله - يا معشر الناس - ما وُلّيَ لي أب ولا جد ولايةً قط، ولا أرى أحد من سلفي مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلاّ بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وكاثروا عليه، واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة».

وأراد فريق من غير المسلمين أن ينضموا إلى جيش ابن الفرات ليحاربوا معه، فأبى وقال: «لا حاجة بنا إلى الانتصار بالكفار».

وسار الجيش في طريقه حسب الخطة التي رسمها أسد له، وبدأ الهجوم بحراً وبراً، وصيحات التكبير تتعالى من أفواه المجاهدين لتذكرهم حساً ونفساً بأن الله أكبر من كل عدو، وأكبر من كل شيء واللواء في يد ابن الفرات وهو

يقرأ سورة «يس» ثم هتف بجنوده حاثاً لهم على الإقدام، قائلاً لهم عن أعدائهم: «هؤلاء عجم الساحل[1]، هؤلاء عبيدكم، لا تهابوهم»!..

وحمل المسلمون حملة صادقة على أعدائهم، وفي طليعتهم أميرهم وفقيههم أسد بن الفرات، لا يبالي بالرماح ولا بالجراح، بل قاتل قتالاً مجيداً أذهب الذين لم يعرفوه إلاّ فقيهاً أو قاضياً، وانهزم أهل الروم، وسقط منهم كثيرون صرعى، وفتح المسلمون صقلية لأول مرة، وسيطر القائد ابن الفرات عليها، وعلم ولي الأمر «زيادة الله بن الأغلب» بالخبر فكتب بفتح صقلية على يدي أسد بن الفرات إلى «المأمون» سنة اثنتي عشرة ومائتين.

هذه هي عبارة أبي بكر المالكي عن أسد بن الفرات:

«ثم ولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قضاء أفريقية سنة ثلاث ومائتين، فأقام قاضياً عليها، يقضي بين أهلها بالكتاب والسنّة، حتى خرج لغزو صقلية، فجاهد بها الروم، وقاتلهم قتالاً عظيماً، وكانت له بها آثار مشهورة، ومقامات مذكورة، وافتتح منها مواضع كثيرة، ثم توفي رحمه الله تعالى من جراحات أصابته وهو محاصر لسرقوسة، في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين، ودفن بذلك الموضع»[2]. وسرقوسة كانت أكبر مدينة في صقلية.

ويعود المالكي ليقول عن أسد في المعركة:

«فقاتل الروم قتالاً شديداً، حتى هزمهم واستأصلهم، وسكنها المسلمون واستوطنوها».

وهناك في «سرقوسة» رقد البطل الفقيه الشهيد: أسد بن الفرات رضوان الله عليه.

إنه أسد بن الفرات الذي جمع بين العلم والعمل، وبين الفقه والجهاد، وبين سعي الدنيا وسعي الآخرة.

---

(١) يعني الذي كانوا قد هربوا من الساحل لما فتحت أفريقية.

(٢) كتاب رياض النفوس، ج ١ ص ١٧٣.

إنه ابن الفرات الذي كان يعتز بنفسه في مواطن الشدة حتى يقول: «أنا أسمي أسد وهو خير الوحش، وأبي الفرات وهو خير المياه، وجدي سنان وهو خير السلاح»!

إنه ابن الفرات الذي كان ينطق بالحكمة فيقول مثلاً: «ثلاثة لا غيبة فيهم: صاحب بدعة، وأمير غشوم، ومن ألقى جلباب الحياء وظاهر بالسوء».

إيه ابن الفرات الذي كان يعرف للحرفة مكانتها، حتى حدث أن شاباً أكثر من الجلوس في مجلس أسد، ولما سأله أسد عن أمره وعلم أنه صاحب حانوت نَهَرَهُ وقال له: قم. فقال الشاب: ما قصتي أصلحك الله؟ إن كنتَ أنكرتَ صناعتي تركتها. . .

فقال له أسد: «ما أنكرتها»، ولكني أنكرت تعطيلك لحانوتك الذي منه معاشك، وتقوى به على طلب العلم، وصاحب الحانوت إنما هو بالحُرَفاء[1]، فإذا جاءك حريفك اليوم ولم يجدك، وغداً فلم يجدك، وبعد غد مثل ذلك، استبدل بك غيرك، فضررت بنفسك وبمن تعوله.

ولكن إذا عزمت فاجعل لنفسك يوماً أو يومين في الجمعة، يعلم حرفاؤك بمغيبك عن حانوتك في ذلك اليوم أو اليومين، فيأخذون ما يحتاجون إليه قبل مغيبك».

ثم أشار أسد إلى بعض المترددين على مجالسه وقال للفتى: «انظر إلى هؤلاء الذين يأتون، إنما هم أهل حرث وحصاد(أي زراع) فإذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم ترَ منهم أحداً يجيء إلينا، فإذا انقضى حرثهم أو حصادهم عادوا إلى ما كانوا فيه».

***

---

(١) الحرفاء: جمع حريف، وهو العامل في الحرفة، فهو يقصد بالحرفاء المتعاملين معه عن طريق الحانوت.

الإمام المناضل ببيانه وسنانه

ابن تيمية الحراني

هناك كثير من نماذج الفداء في الإسلام قد ظهرت بطولتهم وتجلت في ميادين المعارك والحروب، حيث تسيل النفوس على أطراف الرماح والسيوف، وربما ظن البعض أن معنى الفداء لا يتحقق إلاّ إذا نال الإنسان الشهادة في ساحة الميدان، مع جهادهم نضالهم، ونفوسهم وأموالهم، ثم شاءت الأقدار إن يلاقوا ربهم وهم على فُرُشِهم[1]، ومع ذلك تجلت فيهم صفة الفداء، وزاملوا المخلصين من أهل التضحية والوفاء، لأن الأمر كما قال الحق تبارك وتعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وهل كان بلال بن أبي رباح إلاّ فدائياً حين احتمل ما احتمل من صنوف التعذيب وألوان البلاء على أيدي طواغيت الشرك والكفران، وهو لا يزيد على ترديد كلمة التوحيد قائلاً: «أحد أحد!».؟ ومع ذلك لم يمت بلال في الميدان، بل مات على فراشه رضوان الله عليه.

وهذا نموذج آخر لفداء المؤمنين المعتصمين بالدين، الثابتين على اليقين، يأتي بعد عهد النبوة بأكثر من ستمائة عام، وهو الإمام المجتهد المجدد شيخ الإسلام: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله المعروف بابن تيمية الحراني، ويروى أنه سمي بابن تيمية لأن جده محمداً حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلة اسمها تيمية، فلما رجع وجد امرأته قد

(١) فُرش: جمع فِراش.

ولدت بنتاً فسماها تيمية، وقيل إن أم جده محمد كانت واعظة، وكان اسمها تيمية، فنسبت الأسرة إليها.

وقد وُلد ابن تيمية سنة٦٦١هـ في بلدة «حَرّان» بالشام(١)، من أسرة ذات علم ودين، فأبوه وجده كانا من كبار علماء الإسلام، حتى لُقِّب كل منهما بلقب «شيخ الإسلام».

وقد ارتحل به والده في طفولته إلى دمشق بسبب غارات التتار المخرِّبة على بلاد العروبة والإسلام، وهناك نشأ نشأته الإسلامية العربية، العلمية الفقهية القرآنية الحديثية، القائمة على أُسس من طهارة الأنساب، وتقوى الآباء، وصفاء البيئة، والاستعداد الطيب لخدمة الدين والعلم.

حفظ ابن تيمية القرآن وهو صغير، وتعلم الخط والحساب وهو فتى يافع، ثم أقبل على الفقه واللغة فمهرهما، ثم أقبل على التفسير إقبالاً كلياً وأحكم الأصول وهو ابن بضع عشرة سنة، ممّا بهر علماء عصره، وكان ذكياً حاضر الذهن قوي الذاكرة بصورة باهرة، وكان يجادل ويحاور وهو صغير، وبدأ في الإفتاء قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وأتقن الحديث رواية وحفظاً، وكان لا ينسى شيئاً حفظه، وكان خبيراً بعلوم الحديث خبرة واسعة، وكان دؤوباً على البحث والمراجعة والتدريس والتأليف. وبرع في تفسير القرآن الكريم، والغوص على دقائق معانيه، ووفقه الله تعالى في ذلك إلى أشياء لم يُسبق إليها، وأتقن دراسة المذاهب الفقهية، ولكنه في إفتائه لم يكن يلتزم مذهباً معيناً، بل يفتي بما وضح لديه الدليل عليه.

وإذا كان إمام دار الهجرة مالك بن أنس قد قال: «كل منا يؤخذ منه ويُرد عليه، إلاّ صاحب هذه الروضة» وأشار إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام، فإن الإمام ابن تيمية يؤخذ منه ويرد عليه، وليس هذه بضائره، ولا مما يدعو إلى حجود مكانته، ففيه يقول الإمام ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢هـ بعد اجتماعه

(١) حران ـ بفتح الحاء وتشدد الراء ـ مدينة مشهورة، على طريق الموصل والشام والروم، فتحت في عهد عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم، وإليها ينسب جماعة كثيرة من أهل العلم.

به: «رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها، ويترك ما شاء». ويقول عنه الحافظ اليعمري المتوفى سنة ٧٣٤هـ: «إذا تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وروايته». ويقول عنه الحافظ أبو الحجاج المزّي المتوفى سنة ٧٤٢هـ: «ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ولا أتبع لهما منه».

ويقول عنه ابن فضل الله اليعمري: «كان أمة وحده، وفرداً حتى نزل لحده»!.

ولابن تيمية كتب كثيرة جليلة، منها: الفتاوى الكبرى، ومنهاج السنّة النبوية، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي، والحسبة في الإسلام، ورسالة الفرقان، ومعالم الأصول، وغيرها.

وكان كريماً معطاء، يأتيه المال الكثير فيهبه، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، ولم يقبل صلةً لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر.

وقد ازداد ابن تيمية على مرّ الأيام صلابة في دينه، وقوة في يقينه، ولا عجب فهو أشهر الأتباع للإمام المجاهد المحتسب الجليل أحمد بن حنبل الذي احتمل ما لا يحتمله سواه من الأذى في سبيل الاستمساك بعقيدته في كلام الله العزيز، وقرآنه المجيد.

***

وكانت في ابن تيمية صفة بارزة، رفعت من شأنه، وأعزت من مكانه وهي صفة الثبات على العقيدة، والاستمساك بما يثق فيه من رأي، والجهر بكلمة الحق، ولعله كان يستهدي في ذلك بقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

ولقد روى التاريخ أنه كان على عهد ابن تيمية حاكم طاغية اسمه «قطلوبك الكبير» وكان يأخذ أموال الناس غصباً، فذهب إليه ابن تيمية، وواجهه بالحقيقة، وطالبه بالعدل، فأراد الطاغية أن يستخف به ويسخر منه، فقال له: «أنا كنت أريد أن أجيء إليك، لأنك عالم زاهد»!.

وأدرك ابن تيمية ما أراد، فرد عليه كاتباً بقوله: «موسى كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات، ويعرض عليه الإيمان» وهنا بُهت الذي طغى!.

وحينما استبد «قازان» ملك التتار في الأرض التي احتلها من بلاد العروبة والإسلام في قطر الشام، ذهب إليه ابن تيمية مع كبار قومه، وخاطبه منكراً.عليه عدوانه، وطالبه بجملة مطالب عاجلة، فاستجاب لها«قازان».

والتاريخ يروي أن ابن تيمية قد آتاه الله هيبة، تلوح عليه فتجعل الكبار يسمعون منه، ويخضعون له، ويستجيبون إليه.

ثم رأى ابن تيمية أن بلاء الاحتلال التتاري لا بد له من وحدة العرب والمسلمين، ليقفوا صفاً واحداً أمام هذا البلاء الساحق الماحق، فعجل بالذهاب إلى مصر، وقابل سلطانها يومئذ، وحثه باسم الإسلام على المبادرة إلى الاشتراك مع جيش الشام في ردع العدو المشترك.

وقال ابن تيمية للمسؤولين في مصر يومئذ: «إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله والذب عنهم، فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم ويستبدل بكم سواكم».

ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

وتلا كذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩].

ونجح ابن تيمية في مهمته، وكان توحُّد المجاهدين من أقوى العوامل على تحقيق النصر المبين، والقادم بإذن الله بعد حين.

***

لم يقتصر ابن تيمية على الجهاد بلسانه، بل حمل سلاحه، واشترك في معركة«شقحب» التي دارت في الشام بين المسلمين وأعدائهم التتار، في شهر رمضان سنة ٧٠٢هـ، واشترك معه أخوه، وكان ابن تيمية إذا رأى أحد الجنود

على شيء من الخوف ثبّته وشجعه، وبشره بالنصر والأجر والغنيمة وحدثه عن فضل الجهاد والمجاهدين.

وكان يخوض بجواده وسط المعركة خوض رجل لا يخاف الموت ـ كما يعبّر العلاّمة سراج الدين أبو حفص ـ كما أظهر ابن تيمية في فتح «عكا» ألواناً من البطولة.

وكان يؤكد أن النصر سيتحقق للمسلمين المخلصين الأوفياء ضد أعدائهم الأخساء، فإذا قيل له: قل إن شاء الله. أجاب: أقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وهذا من شدة يقينه بوعد الله سبحانه لعباده المؤمنين الصادقين: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]؟!.

وقد استجاب الله جل جلاله لحسن الظن الذي ظنه ابن تيمية، بل لصدق اليقين الذي سيطر عليه، فحقق للمسلمين النصر، وضاعف لهم الأجر، ورفع منهم الذكر، وانهزم التتار شر هزيمة، بعد أن قتل منهم المسلمون عدداً كبيراً: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

وكان ابن تيمية يقول في فتاويه محرضاً على الجهاد: «العدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا ولا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه». ويقول: «من عجز عن الجهاد ببدنه، وقدر على الجهاد بماله، وجب عليه الجهاد بماله». ويقول: «يجب على النساء الجهاد في أموالهن إن كان فيها فضل، وكذلك في أموال الصغار إذا احتيج إليها»(١).

ويا طالما حث ابن تيمية على الجهاد، وحرض على النضال، وخطب عن فريضة الجهاد، مردداً آيات الكتاب العزيز المتحدثة عنه، والأحاديث النبوية الداعية إليه، ووضع رسالة عن الجهاد، نجدها في كتاب «العقود الدرية».

ولعلمه بأهمية الجهاد كان في معركة «شقحب» السالفة الذكر يأمر الجنود بالإفطار، ليكون ذلك أقوى لهم، ويروي لهم الحديث النبوي الذي قال فيه

(١) الفتاوى الكبرى، ج ٤ ص ٦٠٧ و٦٠٨.

الرسول ﷺ لصحابته: «إنكم ملاقو عدوكم غداً والفطر أقوى لكم فأفطروا». وكان ابن تيمية يدور على الجنود وفي يده ما يأكل منه ليقلدوه.

ولقد كشف ابن تيمية عن خديعة لجأ إليها اليهود بالشام كدأبهم، فقد جمعهم في شهر جمادى الآخرة ٧٠١هـ. وطلب منهم أن يؤدوا الجزية المقررة عليهم لحمايتهم والدفاع عنهم: فأبرزوا من عندهم كتاباً زعموا أنه من رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم، وأن هذا الكتاب، بخط الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فدرس ابن تيمية هذا الكتاب، فكشف أن في نقشه ما يدل على كذبه من وجوه عديدة، وواجههم بذلك، وأعلن كذبهم وتزويرهم وألزمهم بأداء الجزية.

ولم يكن هذا قسوة من ابن تيمية على هؤلاء، ولا إخلالاً منه بحق أهل الذمة، لأن هؤلاء قد افتروا وكذبوا، فلم يلزموا أدب أهل الذمة. وابن تيمية نفسه هو الذين يروي عنه التاريخ أنه حين قابل «قازان» ملك التتار طلب منه أن يفك الأسارى الذين أسرهم، واشترط ابن تيمية أن يكون هذا الفكاك شاملاً لجميع المسلمين والذميين على السواء، وتحقق له ما أراد.

***

وكما كان ابن تيمية مجاهداً في ميدان السلاح والعتاد، كان مجاهداً في ميدان السلاح والعتاد، كان مجاهداً في ميدان الفقه والعقيدة، فقد كان يقاوم البدع والخرافات والمنكرات، ويحاربها حرباً عنيفة لا هوادة فيها، وكان يجاهد لإحياء السنّة المطهرة، والعودة إلى الأخذ من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ولقي في سبيل ذلك ما لقي من العنت والشدة والاضطهاد والافتراء.

ولقد نخالف ابن تيمية في بعض آرائه، ولقد نلاحظ عليه لوناً من الحدة أو العنف في نقاشه وهو يدافع عما يراه ويؤمن به، ولكن هذا لا ينفي روعته في جهاده من أجل اعتقاده. ولقد اشتدت الخصومات بينه وبين طائفة من رجال الدين الذين استعانوا برجال الحكم في عصره، فحبسوه أكثر من مرة.

وكانت سنة ٧٠٥هـ هي سنة المحنة بالنسبة إلى ابن تيمية، لأن أعداءه

كادوا له عند الحاكم، واستغلوا حدته من ناحية، وبعض آرائه الدينية من ناحية أخرى، حتى توصلوا إلى حبسه، وظل في السجن عاماً وبضعة أشهر، وحاولوا إخراجه في مقابل أن يتخلى عن بعض آرائه فأبى.

وظل سجيناً في القاهرة حيناً، وفي الاسكندرية حيناً حتى أخرجه السلطان قلاوون وكرّمه، وأراد السلطان أن ينتقم من أعدائه، فأبى ابن تيمية، وجعل يقول: «كل مَنْ آذاني فهو حل من جهتي».

ولذلك يقول عنه أحد أعدائه: «ما رأينا أفتى[1] من ابن تيمية، سعينا في دمه، فلما قدر علينا عفا عنا».

وعاش ابن تيمية سنوات كلها متاعب بعد أن رجع إلى دمشق، وكانوا يحاولون بكل جهد لهم أن يمنعوه من المجاهرة بآرائه فيقول: «لا يسعني كتمان العلم».

ثم عادوا إلى حبسه في قلعة دمشق، فأخذ يتعبد ويبحث ويطالع، ثم منعوا عنه الكتب والورق.

والرائع في موقف ابن تيمية أنه حينما أغلقوا عليه باب السجن قال مستشهداً من القرآن الكريم: .

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

وكان يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فجنتي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»!.

جنته في صدره لا تفارقه، في صدره إيمانه ويقينه، وفي صدره أنوار علمه وبصيرته، وفي صدره ثقته بربه جل جلاله، ومهما فعل به أعداؤه فلن يستطيعوا انتزاع الإيمان من قلبه، فجنته معه حيثما ذهب، وأنى رحل.

(١) أفعل تفضيل من الفتوة، والفتوة مجموعة من مكارم الأخلاق.

وإن حبسه خلوة، يخلو فيها إلى العبادة والتفكر، وإلى المطالعة والبحث، وإلى مزيد من المعرفة والعلم، وإلى بعد عن الشهوات والملذات. وإن قتله شهادة، لأنه مناضل مجاهد، قضى حياته وهو على طريق الجهاد؛ جاهد صغيراً في طلب العلم، حتى حصّل منه الكثير الغزير، وجاهد في سبيل الدين، حيث نشر كلمته وأذاع دعوته، وجاهد في سبيل الإسلام والمسلمين، فامتشق الحسام ولاقى الصدام، وصال وجال في الميدان، وجاهد في سبيل الحق، فجهر بالنصح والنقد والمعارضة للخارجين على صراط الله، وجاهد في سبيل الفقه والعقيدة، فحارب البدع والخرافات والمنكرات، وجاهد الباطل بلسانه وإيمانه، وصدق في عزيمته وإرادته أن يظل هكذا مجاهداً حتى يلقى الله تعالى، فإن قتله أثيم، فإن ابن تيمية رضي الله عنه يمضي إلى ربه بذلك شهيداً.

وإن إخراجه من بلده رحلة في سبيل الله سبحانه، ويكفي أن يعلم الناس أن الآثمين قد نفوا ابن تيمية حتى يتذكروا أن نفيه كان بسبب دفاعه عن حقائق الدين ومبادئه، وهو في نفيه يكسب خيراً عن طريق السياحة في الأرض والتعرف إلى مزيد من الناس، وبث دعوته هنا وهناك.

يا لها من كلمة تصور عظمة ابن تيمية: «إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان ابن تيمية يقول وهو محبوس في القلعة: «لو بذلتُ ملءَ هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة»!.. وتلك كلمة أخرى تضيء وتبهر بأضوائها وأنوارها. إن هذه المحنة التي أصابت ابن تيمية ينظر إليها على أنها محنة عظيمة ونعمة جليلة، لا يسهل عليه أن يؤدي واجب شكرانها للّه عز وجل.

ولم لا! وقد كان ينظر إلى حبسه من أجل عقيدته، وسجنه في سبيل ربه، نظرة الصابر الشاكر الذاكر، فيقول عن الابتلاء في سبيل الله: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

وهناك ما هو أروع وأمتع... إن ابن تيمية يقول: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه».

إذن ابن تيمية في سجنه حر طليق، لأن قلبه معلق بالله، ولأن نفسه لم تخضع لهواه، وغيره حر طليق في نظر الناس، ولكنه ذليل لشهواته وأهوائه، سجين في ظلمات قلبه الذي حرم نور الإيمان.

وظل ابن تيمية في سجنه بدمشق حتى لقي ربه في اليوم الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (٧٢٨هـ.)، وخرجت عشرات الألوف من النساء والرجال تشيعه وتبكي فيه قوة الإيمان وصلابة العقيدة. رضوان الله عليه.

***

وهناك ضميمة يحسن أن نضمها إلى سيرة هذا الإمام المجاهد بلسانه وسنانه وإيمانه، وهي تتعلق بعطفه على أمه، ورفقه بها، وإجلاله لمكانتها، ومما يدل على ذلك أنه حينما أطلقوا سراحه من سجنه في مصر، رأى من الواجب عليه أن يمكث في مصر، ليبرىء نفسه من التهم التي وجّهوها إليه أولاً، ولينشر ما يؤمن بأنه من الحق في دين الله ثانياً، وليرد على ما أذاعه خصومه من مفتريات وبدع ثالثاً، ولكنه كان يحسب حساب أمه المقيمة في الشام، وكان يخشى أن تتألم لفراقه، فكتب إلى مقامها رسالة رقيقة، يعتذر فيها عن تأخُره الذي اضطر إليه، ويشير إلى الضرورات التي حملته على هذا التأخر، وهي ضرورات تتصل بعقيدته ودينه وجهاده، وإن لم يفصل عنها الحديث في الرسالة، ثم يعدها بالمسارعة إليها عقب انتهاء هذه الضرورات، ويصور شوقه العارم إليها في عبارة سهلة أخاذة، فيقول:

«من أحمد بن تيمية، إلى الوالدة السعيدة. أقر الله عينيها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من إمائه وخدمه[١]، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل

(١) أي جعلها من العابدات لله المطيعات لأوامره.

شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين وإمام المتقين، محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور، فإنكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلاّ ذلك. ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين كل ما فيه الخيرة في خير وعافية.

وقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة، والهداية والبركة، ما لم يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظن الظان أنا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط بل لا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثَمّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علاّم الغيوب، وقال النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله وسخطه بما يقسم الله له»، والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع ماله، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيراً كثيراً، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار، والأهل والأصحاب، واحداً واحداً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً»اهـ.

إن هذه الرسالة قطعة رائعة من أدب الجهاد المؤمن، الذي يفضّل رضا الله

على كل ما عداه، فانظر إلى الإمام ابن تيمية في رسالته: كيف يعبِّر عما هو فيه من ابتلاء وتمحيص، بأنه «نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة»، ويشكر الله تعالى على ذلك شكراً عميقاً.

وانظر إليه: كيف عدَّ ما يقوم به من دعوة إلى الله تعالى ودفاع عن دينه، بأنه أمور ضرورية، لو تركها لكان ذلك فساداً في أمور الدين والدنيا، وكيف يغالب شوقه الغلاّب إلى أمه، لأن الله سبحانه قد سخره في هذا الميدان، فلا بد له من الاستجابة، ولا مكان للتردد. وكيف جعل ابن تيمية الواجبَ الذي ينهض به أكبر من التجارة وأغلى من شؤون الحياة، فيقول: «وما نحن فيه يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله»!.

حقاً إنه العالم الذي جاهد بلسانه وسنانه وإيمانه، رضوان الله عليه.

***

شهيد سليل محاربين

ضرار بن الازور

إذا كان الجهاد فريضة باقية دائمة، وكان للجنة أبواب تتفتح للمجاهدين خاصة، تنويهاً بهم وتكريماً لهم، فإن سلف هذه الأمة المؤمنة، كانوا أصنافاً في سلوك الطريق نحو الجهاد، فمنهم مَن كان إذا دُعي للنضال أجاب، وإذا حارب أصاب، ولكنه يُبقي على نفسه، ويحذر مصرعه، ويذكر قول ربه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومنهم من كان يخرج إلى الميدان وقد تساوت عنده الحياة والموت، مردداً قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١]. ومنهم من كان يقذف بنفسه في لهب المعركة بلا مبالاة، مفضلاً الموت على الحياة، راغباً في الشهادة أكثر من رغبته في العودة إلى الدنيا، مردداً قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ (أي يبيعها لله) ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ومن هذا الصنف الأخير الجسور، الذي يفضّل الآجلة على العاجلة، الصحابي المجاهد الشهيد: ضرار بن الأزور بن أوس بن خزيمة الأسدي(١)، الذي كان بطلاً صنديداً، ومقاتلاً شديداً في الجاهلية والإسلام؛ والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، كما قال سيد الأنام

---

(١) هناك خلاف في تحديد نسبه. فقيل: هو ضرار بن الأزور بن طارق. وقيل: ضرار بن الأزور من بني سعد بن ثعلبة، وقيل غير ذلك. ولكنه مشهور باسم: ضرار بن الأزور.

محمد ﷺ. بل كان أيضاً سليل أسرة ألفت القتال والنضال، فقد مات أبوه وجده في الميدان، وكان شاعراً يترجم بشعره عن بطولته وفروسيته، وكذلك شأن القوي الماجد الفاضل، نراه بطلاً في نطقه وكلامه، كما نراه بطلاً في استخدامه لحسامه.

ولقد ترجم سيف الله خالد بن الوليد عن إقدام ضرار بن الأزور وشجاعته، بقوله: «إني أعرف رجلاً لا يخاف الموت، خبيراً بلقاء الرجال، هو ضرار بن الأزور».

وحينما اشتد الصراع بين المسلمين والروم عند أجنادين، وكان خالد مشغولاً بمعارك أخرى، ندب لهذا الصراع ضرار بن الأزور، وقال له: إنني أريد أن أقدمك على خمسة آلاف باعوا أنفسهم لله عزّ وجل، واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى.

فطار الفرح بضرار، وتعجل الخروج للقاء الأعداء، قائلاً لخالد: دعني أسرْ وحدي.

فاستمهله خالد حتى يجتمع له من سيخرج معه، ولكن ضراراً يرى أن الموقف لا يحتمل التلبث أو التمهل، ونزعة الجهاد حتى الاستشهاد تسيطر عليه سيطرة كاملة شاملة، فهو لا يتقيد بما يتقيد به غيره من توقيت أو انتظار.

وبدأ مسيره إلى الميدان فعلاً وهو يقول: من علم الله فيه خيراً أدركني.

وكأن هذه الجملة كانت تطوي سراً عجيباً أو سحراً غريباً، فسارع المجاهدون وراءه حتى أدركوه على الطريق، عند مكان يقال له: «بيت لهيا».

وحينما رأى المجاهدون كثرة عدد الأعداء تردد بعضهم، وفكر في الرجوع، ولكن ضراراً البطل المقدام الذي لا يخاف ولا يهاب استنكر ذلك، وأقدم وهو يقول بأعلى صوته: «والله لا أزال أضرب بسيفي في سبيل ربي، وأتبع سبيل من أناب إلى الله تعالى، ولا يراني الله مهزوماً، ولا أوَلّي الدبر».

وكأنه كان يتذكر بقوله: «والله لا أزال أضرب بسيفي في سبيل ربي» قول الله جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الانفال: ٤٥].

وكأنه كان بقوله: «وأتبع سبيل مَنْ أناب إلى الله تعالى»، قول الله عز شأنه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله تبـاركت آلاؤه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ـ ١٤٨].

وكأنه كان يتذكر بقوله: «ولا يراني الله مهزوماً، ولا أُولي الدبر» قول الله عزّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

وما كاد ضرار يهتف بهذه الكلمات الصادعة بالحق، الرادعة عن التردد، الدفعة إلى الفداء، حتى سانده في رأيه رفيقه في السلاح: رافع بن عميرة الطائي، كما سانده من بعده كثيرون، فانشرح صدر ضرار، وتوطدت عزائم الجنود، وأقبلوا على المعركة، وفي طليعتهم ضرار الذي صاح بصيحة التكبير، فرددها رفاقه في صوت واحد، واندفعوا يجاهدون طالبين إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة.

وأصر ضرار في نفسه، على أن يقتل قائد الروم، واسمه «وردان» مهما كانت النتيجة، وأخذ ضرار يتقدم نحوه، ويصرع كل من يعترض طريقه، وهو يردد قول ربّه حاثاً على الثبات في الجهاد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]. ثم يردد قوله [من الرجز]:

الموت حق، أين لي منه المفرّ	وجنّة الفردوس خير المستقرّ
هذا قتالي، فاشهدوا يا من حضر	وكل هذا في رضا ربّ البشرْ

وبلغ ضرار غايته، وحقق أمنيته، فطعن القائد «وردان» طعنة نفذت من صدره إلى عظام ظهره، وتعلق سنان الرمح بهذه العظام، وحينما همّ ضرار

بانتزاع رمحه من جسم عدوه، تكبكبت عليه مجموعة من الأعداء اللئام فأسروه، وكاد التضعضع يصيب بعض المسلمين عقب هذا الأسر حتى فكروا في الانسحاب.

ولكن رافع بن عميرة الطائي رفع صوته يقول: «يا أهل القرآن، إلى أين تريدون؟ أما علمتم أن من ولّى ظهره لعدوه فقد باء بغضب من الله، وأن الجنة لها أبواب لا تفتح إلاّ للمجاهدين؟ الصبر الصبر، الجنة الجنة. يا أهل القرآن، كروا على الكفار عبّاد الأوثان، وهأنذا معكم في طليعتكم فإن كان صاحبكم أُسر أو قُتل فإن الله حي لا يموت، وهو يراكم بعينه التي لا تنام.

وكأنه كان يتذكر حينئذ قول أبي بكر عقب وفاة الرسول وقد فزع لموته المسلمون: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين».

وتماسك الجنود، وعاودوا النضال، وفعلوا في أعدائهم الأفاعيل واستطاعوا أن يفكوا أسر ضرار، الذي عاد ليجاهد بلا إبقاء على حياة.

ويروي التاريخ أن ضراراً كانت له أخت تسمى «خولة». وكانت من أشجع النساء في عصرها، حتى كانوا يشبهونها بخالد بن الوليد في حملاتها، ولها أخبار كثيرة في فتوح الشام، ولها شعر مؤثر، وقد توفيت في أواخر عهد عثمان سنة خمس وثلاثين.

ولما علمت «خولة» بأسر أخيها خرجت ملثمة مع الكتيبة التي ذهبت لفك إساره، وكانت هذه الكتيبة بقيادة رافع بن عميرة المجاهد الإسلامي العظيم، واشتركت خولة في المعركة، وقاتلت أصدق القتال، وجندلت الكثير من الرجال، حتى ظن المجاهدون أنها أحد الأبطال، فأقسموا عليها أن تكشف لثامها، فقالت لهم: أنا خولة بنت الأزور، علمت بأسر أخي فخرجت على فرسي، وبيدي حسامي، لأنصر دين ربي، وأفك أسر أخي.

واستطاعت الكتيبة أن تفك وثاق البطل الأسير ليعود إلى مواصلة جهاده.

ولقد حضر ضرار معركة اليرموك فكان فيها بطلاً عظيماً، وحضر موقعة اليمامة فكان فيها مثلاً للتضحية والفداء، حتى لقد قطعت ساقاه يوم اليمامة، مع ذلك لم ينقطع عن القتال، وظل يحبو على ركبتيه مناضلاً بما يستطيع، وكانت الخيل تطؤه وهو لا يكف ولا يبالي، حتى لقي ربه شهيداً متأثراً بجراحه، بعد أن سطر بدمائه النقية الزكية صفحات بطولته وأنباء فروسيته، ليفخر بها أمام ربه الذي يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]. سلام عليه في الخالدين[١].

(١) قيل إنه مات بعد أيام من معركة اليمامة متأثراً بجراحه، وقيل إنه استشهد يوم اليرموك، وقيل إنه قتل في أجنادين، وكان استشهاده في السنة الحادية عشرة.

الشهيد ذو الشهادتين

خزيمة بن ثابت

إن النفس الطاهرة، ذات العنصر النقي الكريم، تجعل صاحبها يختط طريقه في الحياة على بيّنة وبصيرة، فيتعود القول الحميد، والتصرف المجيد، ويأنف أن يتنكر لفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، فهو إن رأى حقاً لازمه وإن شاهد باطلاً قاومه.

ولقد اختار الله جل جلاله لحمل رسالته وتبليغ دعوته صفوة خلقه، وخيرة عباده، محمد ﷺ، واختار له من حوله حواريين[1] ومناصرين، كانت معادنهم أصيلة صالحة للاستقامة والاستجابة، فلما أهاب بهم داعي الحق إلى الإيمان والإحسان، بادروا وأجابوا، وجاهدوا وأنابوا فكانوا في مواطن السلام كالملائكة يمشون بين الناس بالهدى والنور، وكانوا في مواطن البأس عمالقة يعصفون بالبغي والفجور.

فهم كما قال ربهم تبارك وتعالى فيهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] وكما قال فيهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن هؤلاء: الصحابي الماجد، والمؤمن المجاهد، أبو عمارة خزيمة بن ثابت بن عمارة بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري، وقد كان من أشراف الأوس في الجاهلية والإسلام، ومن شجعانهم المقدمين، وزانه الإسلام بفضائل: من الأمانة والصدق وبلاغة القول، وقد فخر قومه الأوس بأربعة أبطال وكان هو

(١) الحواريون: الأصدقاء والخواص والأنصار.

أحدهم، فقالوا: منا غسيل الملائكة حنظلة الراهب، ومنا عاصم بن الأفلح الذي حمت لحمه الدَّبر، ومنا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت، ومنا الذي اهتزّ لموته عرش الرحمٰن سعد بن معاذ»!

ولقد لُقب خزيمة بلقب «ذي الشهادتين» لأنه حضر نقاشاً بين الرسول وبين الناس حول دَيْنٍ كان على الرسول وقضاه، فقال خزيمة: أشهد أنك قد قضيته يا رسول الله. فقال له النبي: كيف تشهد، ولم تحضره ولم تعلمه؟ فقال خزيمة: يا رسول الله، نحن نصدقك على الوحي من السماء، فكيف لا نصدقك على أنك قضيته؟

وأعجب الصادق الأمين ﷺ بهذا الإيمان الوثيق، وذاك اليقين العميق من خزيمة، فأطلق عليه ذلك اللقب العظيم: «ذو الشهادتين». وروى الإمام البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ جعل شهادة خزيمة شهادة رجلين.

وهكذا يكرّم الرسول أصحابه المخلصين الذين يضربون القدوة الرائعة في اليقين والإيمان.

***

ولقد كان خزيمة رجلاً عاقلاً بصيراً، ولذلك أدرك منذ بداية الطريق أن هذه الأصنام التي يعبدها الجهلة من قومه لا تضر ولا تنفع، ولا يليق بعاقل أن يعظمها أو يلم بها، ولذلك كان خزيمة يقاوم الوثنية الفاضحة عملياً، فيخرج مع عمير بن عدي كلما لاحت لهما الفرصة ليحطما ما يستطيعان من الأصنام لعل عابديها الجهلاء يفيقون من ضلالهم، ويفيئون إلى عقولهم، حينما يرون الأصنام محطمة، لم تستطع أن تدفع عن نفسها سوءاً ولا شراً.

وهذا يذكرنا بما فعله خليل الرحمٰن وأبو الأنبياء إبراهيم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، حيث كسر أصنام قومه، ليلفت عقولهم عن طريق التجربة الواقعية إلى ضلال تفكيرهم وسوء مصيرهم، وقد صوّر القرآن الكريم ذلك في سورة الأنبياء في تلك الآيات:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ
﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ
لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥١- ٦٧].

***

وكان خزيمة يدرك خير الإدراك أن الإيمان له تبعات وواجبات، وأن فوز الإنسان بنعيم ربه الخالد لا بد له من ثمن يدفعه المؤمن من حسه ونفسه، وماله ونضاله، ولذلك كان يردد الحديث النبوي القائل: «إن الجنة محظور عليها بالدآليل». ومحظور عليها: أي محاطة. والدآليل جمع دُؤلول، وهو الشدة والبلاء.

والمعنى أن من يريد الجنة لا بدّ له من أن يتخطى نحوها المصاعب والشدائد وهذا كقول رسول الله ﷺ: «حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»؛ وكما يقول المثل العربي: «لا بد دون الشهد من إبر النحل».

ولذلك مضى خزيمة ذو الشهادتين في طريق الكفاح والنضال، فشهد غزوة بدر[1]، وما بعدها من الغزوات والمشاهد، وكان يحمل راية قومه (بني خطمة من الأوس) في غزوة فتح مكة، وهي الغزوة الميمونة المباركة التي نزل

---

(١) هناك من يقول إن خزيمة لم يشهد غزوة بدر، ولكن النووي يقول في كتابه تهذيب الأسماء: «وشهد خزيمة مع رسول الله ﷺ بدراً وما بعدها من المشاهد» ج ١ ص ٧٥. وفي شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة جاء عن خزيمة قوله: «وكان بدرياً» ج ١ ص ١٣٠ طبعة بيروت.

عقبها قول الله عزت صفاته: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [سورة النصر بكاملها].

ودار الفلك دوراته، ومضى الزمان بسنواته، ولحق الرسول بربه، وتفتحت أمام المسلمين بعد ذلك أبواب نضال وصراع، فظل خزيمة ذو الشهادتين على طريق الحق ثابتاً، وانضم إلى صف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وأخلص له، وصدق معه في مقاومة الظلم والبغي والطغيان.

وفي سنة سبع وثلاثين من الهجرة خرج ذو الشهادتين مع الإمام علي إلى موقعة «صفين»، ولما شاهد أن أهل الضلال قد قتلوا الشهيد المظلوم: عمار بن ياسر رضي الله عنه، تذكر خزيمة أن رسول الله ﷺ قد قال يخاطب عماراً: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية».

فأيقن خزيمة أن هؤلاء القتلة طغاة، ولا بد من قتالهم، فسل سيفه، وأقبل يقاتل غير هياب ولا وجل، حتى نال نعمة الشهادة، ومضى إلى ربه راضياً مرضياً. يقول أحد أحفاد خزيمة: «ما زال جدّي خزيمة بن ثابت كافّاً سلاحه يوم صفين، حتى قُتل عمار بن ياسر، فلما قُتل سلَّ سيفه وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتل عماراً الفئةُ الباغية، فما زال يقاتل حتى قُتل»!..

وحزن الإمام علي حزناً بليغاً عميقاً على مصرع خزيمة، وبقيت ذكراه في طواياه، تراوحه وتغاديه، وحينما تعرض الإمام لموقف شديد عصيب، تذكر خزيمة ورفاقاً له من المجاهدين السابقين، فقال:

«أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأُبرد برءوسهم إلى الفَجَرة»؟..

ثم قال: «أواه على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنّة، وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه»!..

***

وكان خزيمة يروي الحديث عن رسول الله ﷺ، وقد روى له البخاري ومسلم ثمانية وثلاثين حديثاً، وكان شاعراً يجيد الكلام، ومن شعره في الإمام علي [من الخفيف]:

ليس بين الأنصار في جحفة الحرب وبين العداة إلاّ الطعانُ
وقراع الكماةِ بالقُضبِ البيض إذا ما تحطّم المُرّانُ[1]
فادعها تستجب، فليس من الخزرج والأوس يا عليُّ جبانُ
يا وصيَّ النبي، قد أجلَتِ الحربُ الأعادي، وسارت الأظعانُ
واستقامت لك الأمور سوى الشام، وفي الشام يظهر الإذعانُ
حسبهم ما رأوا، وحسبك منا هكذا نحن حيث كنّا وكانوا

وقال خزيمة في محمد بن الحنفية ـ وهو ابن الإمام علي [من الطويل]:

محمد ما في عودك اليوم وصمة ولا كنت في الحرب الضروس مُعرِّدا[2]
أبوك الذي لم يركب الخيلَ مثلُه علي، وسماك النبي محمدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفة لكنتَ، ولكن ذاك ما لا يرى بَدا
وأنت بحول الله أطول غالب[3] لساناً، وأنداها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خير تريده قريش، وأوفاها بما قال موعدا
وأطعنهُم صدرَ الكميِّ برمحه وأكساهُم للهام عَضْباً مهندا
سوى أخويك السيدين[4]، كلاهما إمام الورى، والداعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطي عدوَّك مقعداً من الأرض أو في الأوج مرقى ومصعدا

رضوان الله على المجاهد الشهيد ذي الشهادتين: خزيمة بن ثابت، ورضوان الله على الإمام الشهيد علي بن أبي طالب ورضوان الله على محمد بن علي بن أبي طالب، وسلام عليهم في الخالدين من أهل الإيمان والجهاد والفداء.

***

(١) المران: الرماح الصلبة اللدنة، والواحدة مرانة (القاموس).
(٢) معرداً: منهزماً.
(٣) يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك.
(٤) يقصد السبطين الكريمين: الحسن والحسين.

المهاجر الشهيد

عروة بن مسعود الثقفي

ما أعجب ما يصنع الإيمان بالإنسان، إنه يحرّك الجامد، ويبعث الهامد، ويدفع إلى المحامد. ولقد يظل الإنسان في ظلمات جهله، وضلال قوله، وسوء عمله، حتى يهيّئ الله له من أمره رشداً، فيهديه سواء السبيل فإذا هو يمضي إلى الجلائل والمكارم غير هياب ولا متردد، وإذا القدر المسعد يخط له في كتابه ما يجعله من أهل النجاح في الدنيا، وأهل الفلاح في الآخرة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولقد رأينا في صحابة رسول الله ﷺ مَنْ تأخر إيمانه، ثم أدرك نفسه، فدخل في زمرة المؤمنين المخلصين، وعمل عمل المجاهدين الصادقين، فتاب الله عليه توبة نصوحاً، وتقبله بقبول حسن، فكان من الفائزين.

ومن هؤلاء: الصحابي الجليل أبو يعفور[(١)] عروة بن مسعود بن معتب الثقفي رضي الله عنه، الذي كان في الجاهلية ظاهر المكانة بين قريش، ثم صار كبير قومه في مدينة الطائف، بعد أن انتقل إليها من مكة، حتى رُوي أنه المراد بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[(٢)] [الزخرف: ٣١].

---

(١) ويقال له أيضاً أبو مسعود. واليعفور هو ولد الظبي، ويسمى الخشف ـ مثلثة الخاء ـ وولد البقرة الوحشية، وجمعه يعافير.

(٢) القريتان هما مكة والطائف، وقيل إن المراد هو الوليد بن المغيرة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، أو عتبة بن ربيعة، أو ابن عبد ياليل، أو كنانة بن عبد بن عمرو بن عمير (تفسير ابن جرير، ج ٢٥ ص ٦٥ طبعة الحلبي) وقال ابن كثير في تفسيره: «والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان» ج ٤ ص ١٢٧.

وكان عروة رجلاً غنياً ميسوراً، يُسهم بماله في مواقف للمعونة والكرم، حتى إنه حمل عن بعض قومه الدية لثلاثة عشر رجلاً، ولكنه ظل مشركاً ـ لحكمة يعلمها الله سبحانه ـ إلى حصار الطائف في السنة الثامنة، ولقد كان أحد المبعوثين من المشركين للتفاوض مع رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، فرأى من جلال النبوة في سيد الخلق ما بهره وفتح قلبه للتفكير في الإسلام.

ولقد عاد من حضرة الرسول إلى قومه يقول لهم: «إني جئت كسرى في مُلكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، والله ما رأيت مَلكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فرَوْا رأيكم، فإنه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح، مع أني أخاف أن لا تُنصروا عليه».

ولما رفضوا نصيحته قال لهم مغاضباً: «ما أراكم إلاّ ستصيبكم قارعة». وانصرف هو ومن معه إلى الطائف.

***

وفي شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة انصرف رسول الله ﷺ من حصار الطائف إلى المدينة، فلحق به عروة، وأدركه قبل أن يدخل المدينة، وأعلن إسلامه عن صدق نية، وإخلاص طوية؛ ولعله كان يريد أن يسلم قبل ذلك، ولكنه خاف أن يقال إنه أسلم خشية من الحصار.

وكأن الإيمان قد صنع بعروة صنعاً جديداً، فإذا هو لا يعرف إلاّ طريق الله جل جلاله، ويحرص عليه، ويدعو إليه، ولا يبالي في سبيله بشيء، فعرض على الرسول ﷺ أن يأذن له بالعودة إلى الطائف، ليبشر بالإسلام، بين أهلها ـ قبيلة ثقيف ـ وكانت مازالت على إشراكها فحذره الرسول ذلك. وقال له: «أخاف أن يقتلوك»[1]. فأجابه عروة معتزاً بمكانته بين قومه ـ وكان فيهم محبّباً مطاعاً ـ يا رسول الله، إني أحبُ إليهم من أبصارهم، ولو وجدوني نائماً ما أيقظوني.

---

(١) وفي رواية «أنهم قاتلوك».

ولم يشأ الرسول ﷺ أمام هذا الاعتزاز وهذا الإصرار أن يمنعه شرف الدعوة إلى الله تعالى، فأذن له، فعاد عروة إلى الطائف؛ وكان من عادة مشركيها أنه كلما خرج أحدهم من البلد، وعاد إليها، بدأ أولاً بزيارة صنمهم «اللات»، وكان يقال له «الرَّبّة».

ولكن عروة لم يفعل هذا حين عاد، بل اتجه إلى بيته مباشرة، وكيف يفعل وقد أزال الإسلام عن صدره غشاوة الأباطيل والأوهام. وكان في بيت عروة مكان مرتفع، فصعد إليه، وجعل فيه محراباً، وحين طلع عليه الفجر ليومه الأول بين قومه عقب إيمانه، ارتفع صوته مع أصابع الفجر الوردية بصيحة التكبير للأذان داعياً إلى الصلاة.

وفوجىء قومه بما سمعوا، وفزعوا إلى عروة يستطلعون الخبر، فإذا هو يخبرهم بإسلامه دون خوف أو فزع، وإذا هو لا يكتفي بذلك، بل ينتقل إلى عرض الإسلام عليهم، ودعوته إلى صراطه المستقيم.

وكبر على هؤلاء المشركين ما يدعوهم إليه عروة، ولكنه مصرّ مصَمم ماضٍ في طريق دعوته إلى ربه بين المشركين الألداء الذين لم يأذن الله بهدايتهم بعد.

ولم يخشَ عروة أنه فرد وحيد، يحيط به عدد كبير من مخالفيه في العقيدة وهم لا يعرفون هوادة ولا ليناً في هذا المجال، وإنما خشي الله سبحانه، وخافه وحده، ومضى على الطريق يبشر وينذر، ويخوّف ويحذّر، ويسفه عبادة الأصنام وأسارى الأوهام.

فلم يجدوا أمامهم إلاّ أن يحيطوا به ويطبقوا عليه للتخلص منه.

وجاء موقف عجيب غريب، يمثل الطغيان والبهتان من جانب هؤلاء المشركين، ويمثل الوفاء والفداء من جهة البطل المناضل عروة بن مسعود. فلقد تكبكب القوم على عروة، يهاجمونه بالنبال من كل جانب، وهو مستمر في طريقته ودعوته إلى الإسلام، مدافعاً عن نفسه بما يستطيع، وقد استوت عنده الحياة والموت، فإن بقي فإنما يبقى للنضال والكفاح، وإن مات ففي سبيل العقيدة والمبدأ.

وجاء سهم من بين السهام إلى عروة فأصاب منه مقتلا[١]، فسقط مضرّجاً بدمائه وبينما كان عروة بين الحياة والموت تتردد فيه أنفاسه الأخيرة، جاءه بعض أهله يسأله: ما ترى في دمك؟

فتحامل عروة على نفسه وأجاب قائلاً: هي كرامة أكرمني الله تعالى بها، وشهادة ساقها الله إليّ، فلس فيّ إلاّ ما في الشهداء الذي قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل (عن الطائف) فادفنوني مع هؤلاء الشهداء.

ولفظ عروة نَفَسَه الأخير، وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة، وتحقق للمجاهد الشهيد رغبته ووصيته، فدفنوه خارج الطائف، بين الشهداء الأجلاّء الذين جاهدوا إلى جانب رسول الله ﷺ.

ولما بلغ خبر استشهاده مسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رثاه بأبيات من الشعر[٢]، مع قلة ميل عمر إلى نظم الشعر، وهذا يدل على مبلغ تأثر الفاروق باستشهاد عروة بن مسعود.

وفوق هذا جاء التكريم النبوي العظيم لعروة الشهيد، فقد جاء في صحيح مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ورأيت عيسى بن مريم، فإذا أقرب من رأيت شبهاً به عروة بن مسعود».

كما يقال ـ والله أعلم بحقيقة ذلك ـ إن الرسول قال بعد استشهاد عروة: «مثله في قومه كصاحب يس». يعني المؤمن المذكور في سورة «يس» الذي قالت فيه السورة: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ

(١) يروى أن هذا السهم رماه به أوس بن عوف أخو بني سالم بن مالك، وقيل إن راميه هو وهب بن جابر (عيون الأثر، ج ٢ ص ٢٢٨).

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ج ٣ ص ٢١ طبعة الحلبي.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠ـ ٢٧].

❋❋❋

ولقد شاع صنع الله العجيب أن تأتي «ثقيف» كلها طائعة مختارة إلى رسول الله ﷺ، بعد استشهاد عروة بزمن قليل، فتعلن إسلامها عن طواعية واختيار، وتبايع الرسول على الإيمان.

وهُدمت «اللات» وغيرها من الأصنام والأوثان، وارتفعت كلمة الله فوق الجميع، وكأن استشهاد عروة قد كان ثمناً أو مفتاحاً لإيمان قبيلة ثقيف، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

وكان المشركون يضعون عند اللات أموالاً وجواهر، فأمر رسول الله ﷺ بأن يعطى من هذه الأموال لأبي مُلَيح بن عروة بن مسعود ليسدد بها الديون التي كانت على أبيه عروة[1]، فكان ذلك التصرف النبوي الحكيم نوعاً من تكريم أبناء الشهداء.

رضوان الله على المهاجر الشهيد: عروة بن مسعود.

❋❋❋

(١) تروي السيرة أن عروة تزوج آمنة بنت أبي سفيان، وأم عروة هي سبيعة بنت عبد شمس، كما تروي السيرة أيضاً أن عروة سافر مع غيلان بن مسلمة فتعلما صناعة المنجنيق والدبابات، وهي آلات حرب كانوا يصنعونها من الخشب، ويدخل فيها الرجال، لينقبوا منها الأسوار المحصنة، ومنها نوع يسمى «الضبور».

إحدى سيدات الإسلام

أسماء بنت عميس

إذا كانت وجهات النظر تتعدد في تحديد صفات المرأة التي تستحق الترديد والتمجيد، فمما لا شك فيه أننا نحتاج إلى نساء مؤمنات صالحات، مجاهدات صابرات، وقد وضع القرآن الكريم أمامنا صورة مثالية لهؤلاء النساء حين قال في سورة التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٥].

وإذا كنا نرى في المجتمع كثيرات من النساء قد تمردن على آداب الإسلام، وتنكّرن لتعاليم الإيمان، وألفن حياة اللهو والعبث، فإن تاريخنا العظيم يعرض علينا نماذج كثيرة من السيدات المؤمنات اللواتي عرفن طريق الهدى والتقى، ومهدن أمام أبنائهن طرق المكارم والعلا، ووضعن أمام الرجال والأبطال صوراً تبقى على مرّ الأجيال في الصبر والاحتمال.

وهذه صورة خاطفة لواحدة منهن: إنها صورة الصحابية الجليلة، مهاجرة الهجرتين، ومصلية القبلتين: السيدة أسماء بنت عميس بن معد بن تيم بن الحارث الخثعمي رضي الله عنها، وأمها هي هند بنت عوف بن زهير الكنانية، وأسماء هي أخت السيدة ميمونة زوجة رسول الله ﷺ، وأخت أم الفضل زوجة العباس عم الرسول، ويقول عنها النووي: «كانت أسماء أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها رسول الله ﷺ وحمزة والعباس وغيرهم».

وأسماء من السابقات إلى الإسلام، لأنها دخلت في دين الله عز وجل قبل أن يدخل النبي دار الأرقم بن أبي الأرقم في صدر الدعوة، وكان المسلمون يومئذ قلة يُعَدّون، وبايعت رسول الله على الإسلام وما فيه من أصول الخير ومبادئ الحق.

وقد تزوجها أبو المساكين، المجاهد الشهيد، الطيار ذو الجناحين في الجنة: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الذي قال فيه أبو هريرة: «ما احتذى النعال ولا انتعل، ولا ركب المطايا، ولا لبس الثياب من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب».

وولدت أسماء لجعفر ثلاثة أبناء: هم: عبد اللّه، ومحمد، وعون.

واحتملت مع زوجها من الابتلاء والأذى في سبيل الله تعالى ما احتملت، حتى أرغمها البغي والكفر على الهجرة مع زوجها إلى أرض الحبشة، وهنا صبرت على الغربة والشدة والحاجة. وعادت معه مهاجرة من الحبشة إلى رسول الله في المدينة.

ولما رآها عمر بن الخطاب قال متسائلاً: هذه الحبشية البحرية؟ فقالت أسماء: نعم فقال لها عمر وكأنه يداعبها: نحن أحقُّ برسول الله ﷺ فأجابته قائلة: كلاّ والله، كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء[1]، وذلك في الله ورسوله!

ثم ذهبت أسماء إلى الرسول وقالت له: يا رسول الله، إن عمر قال كذا وكذا. فقال لها: فما قلتِ له؟ قالت: قلت له كذا، وكذا. وقصت له ما حدث.

فقال لها النبي ﷺ: ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم ـ يا أهل السفينة[2] ـ هجرتان.

***

ومضت الأيام وأسماء تحتمل مع زوجها ما يطيقان من متاعب في سبيل العقيدة والمبدأ، ثم خرج جعفر مجاهداً غازياً في سبيل الله تعالى، فنال نعمة الشهادة كريماً عظيماً في غزوة «مؤتة» في السنة الثامنة للهجرة، وذهب الرسول

(١) أي الأجانب الذين لا قرابة بيننا وبينهم، والمفرد بعيد (النهاية).

(٢) يريد السفينة التي هاجر عليها المسلمون المهاجرون إلى الحبشة.

عقب ذلك إلى أسماء في بيتها، ومن حولها أولادها: أولاد الشهيد جعفر فتلطف بهم، وتأثر لهم حتى بكى.

وأخبر النبي أسماء باستشهاد زوجها، فبكت كما بكى غيرها، فقال النبي ﷺ: «على مثل جعفر فلتبك الباكية»! ثم قال لها: يا أسماء لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي صدراً. فسمعتْ وأطاعت رضىً بقضاء الله وقدره. ثم قال لها: يا أسماء، ألا أبشرك؟ قالت: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة! ففرحت وقالت: بأبي وأمي، فأعْلِم النّاسَ بذلك يا رسول الله.

ففعل... وكأنها رضوان الله تبارك وتعالى عليها قد أرادت التنويه بفضل زوجها الشهيد ومكانته، مع ما يصحب ذلك من إذكاء روح الجهاد وحب الاستشهاد في نفوس المؤمنين المتطلعين إلى ثواب الله عز وجل.

وأخذت أسماء بعد ذلك ترعى أولادها، لتنشئهم على أدب الإسلام وأخلاق القرآن.

***

وتقدم أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، فتزوج أسماء بنت عميس، فكان خير خلف لخير سلف وكان لها منه ابنه «محمد».

ولكن الأقدار لم تمهل أسماء في ظل أبي بكر غير سنوات معدودة، حيث مضى أبو بكر إلى ربه حميداً مجيداً.

وعادت أسماء تتحمل أثقال الترمل، والتعهد للأولاد والإسهام في واجبات المرأة المسلمة نحو الله والمجتمع. ثم تقدم الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه فتزوج أسماء وكان له منها ولدان هما: يحيى وعون. ولكن الإمام يمضي بعد ذلك إلى ربه شهيداً مجيداً[١].

---

(١) يقول أبو نعيم في «الحلية» عن أسماء: «مهاجرة الهجرتين»، ومصليّة القبلتين: أسماء بنت عميس الخثعمية، المعروفة بالهجرية الحبشية، أليفة النجائب، وكريمة الحبائب، عقد عليها جعفر الطيار، وخلف عليها بعده الصديق سابق الأخيار، ومات عنها الوصي علي سيد الإبرار» ج ٢ ص ٧٤.

وتجل الفجيعة في الإمام عند أسماء، وعند غيرها من أبناء الإسلام، ولكنها تحتمل وتصبر، وتزداد تبعاتها ثقلاً، وواجباتها كثرة، وترعى أبناءها خير رعاية، حتى يتخرج منها الرجال والأبطال الذي كان لهم قدرهم وذكرهم وأثرهم في تاريخ الإسلام والمسلمين.

ومع ذلك لم تغفل أسماء بنت عميس رضي الله عنها جوانبَ أخرى لها أهميتها وقيمتها في تكوين شخصية المرأة المسلمة التي تبهر بإيمانها وعلمها وأخلاقها، فعلى الرغم من شواغل الحياة الزوجية، وتتابع الأولاد، وتكرار الهجرة، والالتزام بواجبات المرأة المؤمنة نحو دينها ومجتمعها، برزت أسماء في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، ويكفيها قدراً وفخراً في هذا المجال أن يروي الحديثَ عنها كثير من الأئمة الأجلاء، ومنهم: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبو موسى الأشعري، وابنها عبد الله بن جعفر، كما روى عنها كثير من التابعين.

***

وكانت أسماء مع هذا صاحبة ذوق وأدب، وعرفان للفضل وأهله. ولقد روى التاريخ أنها ذهبت إلى بيت الإمام علي ليلة زفاف فاطمة البتول الزهراء إليه، لتكون على مقربة من بنت رسول الله ﷺ حتى تكون في خدمتها. ورآها النبي حينئذ في بيت علي، فسألها: من أنت؟ فأجابت: أنا التي أحرس ابنتك، فإن الفتاة ليلة يُبْنى بها (أي يدخل عليها زوجها) لا بد لها من امرأة قريبة منها، إن عرضت لها حاجة، أو أرادت شيئاً أفضت بذلك إليها.

فسُرّ النبي من ذلك، ودعا لها بأن يحرسها الله عز وجل؛ ويورد أبو نعيم في «حلية الأولياء» صيغة لهذا الدعاء، نسبها إلى الرسول، وهي: «فإني أسأل إلهي أن يحرسك من بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك وشمالك من الشيطان الرجيم(١)».

وظلت أسماء بقية حياتها: تطيع ربها، وتنصر دينها، وتناضل من أجل

---

(١) حلية الأولياء، ج ٢ ص ٧٥.

عقيدتها، وتواصل رعاية أولادها، وتسهم بما تستطيع في إعداد هذا المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان والحق والعدل، حتى لقيت ربها سبحانه سنة أربعين من الهجرة، بعد أن احتملت ألواناً من التبعات:

احتملت تبعة المجاهرة بالإسلام في أول الدعوة.

واحتملت أعباء هجرتها الأولى إلى الحبشة.

واحتملت أعباء هجرتها الثانية إلى المدينة، وفي الهجرتين ركبت البحر في وقت كان ركوب البحر بالنسبة إلى مثلها تجربة خطيرة، ولذلك كانوا يصفونها بقولهم «البحرية».

واحتملت مصرع زوجها الشهيد جعفر.

واحتملت مصرع زوجها الشهيد علي.

واحتملت تبعة التربية لأولادها.

واحتملت غير ذلك من الأحمال والأثقال.

سلام عليها، وعليها رضوان الله عز وجل.

***

الفدائي المجهول

شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي

إن تاريخ النضال البشري يحدثنا بأن هناك أناساً كثيرين اشتركوا في هذا النضال ببعض الأعمال، ثم هيأت لهم الظروف أن تلتمع أسماؤهم، وتذيع بين الناس أخبارهم، وتتردد على الآذان سيرتهم، ويبرز أمام الأبصار تاريخهم.

وبجوار هؤلاء يوجد أناس شاركوا في النضال أفضل المشاركة، في صبر وصمت وإخلاص، ثم مضوا إلى ربهم كراماً شهداء، دون أن يطيل الناس ذكرهم، أو يتوسع التاريخ في سيرتهم، فظلوا جنوداً مجهولين، ينتظرهم حسن الثواب من رب الثواب، لأن العُرف لا يذهب بين الله والناس.

وهذا الصنف الكريم العظيم من المجاهدين تطالبنا شرعة الإنصاف أن نذكر من نعرف من رجاله، وأن نمجد من نهتدي إليه من أبطاله، ليكون ذلك عرفاناً لفضل الصادقين من المجاهدين، وتجلية للعبرة التي تنفع المعتبرين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق : ٣٧].

وتاريخ أمة سيد الأنام محمد ﷺ يضم أسماء الكثيرين من هؤلاء الذين هداهم ربهم صراطَ الحق، ووفقهم إلى موطن الصدق، ومضوا إليه عظاماً كراماً، فتقبلهم ربهم بقبول حسن، وأثابهم فوزاً كبيراً يتضاءل أمامه كل ما عرف الناس من ألوان التكريم ومظاهر التمجيد.

وهذا واحد منهم، يجهله الكثيرون، ولكنه عند الله عَلَم مشهور، معروف غير منكور: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن اسمه: شماس بن الشريد المخزومي، أو عثمان بن الشريد

المخزومي، فمن منا سمع به، أو قرأ عنه، أو تتبع سيرته؟ مع أنه صحابي جليل، وفارس من فرسان الإسلام، وبطل من أبطال الإيمان.

وأمه هي صفية بنت ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد اختلف الرواة في تحديد نسبه، فقيل إنه عثمان بن الشريد، وقيل إنه عثمان بن عثمان بن الشريد بن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم القرشي.

ولكن شهرته هي «شماس بن الشريد»، و«شماس» لقب له، قيل إنه لُقب به لأن كان في أول أمره من «الشماسة»، وهم الذين يعملون في خدمة الكنيسة عند المسيحيين، وقيل إنه لُقب بهذا اللقب لجمال وجهه، وإشراق جبينه كالشمس، وقيل لأنه كان يشبه رجلاً شماساً يُضرب المثل بجمال وجهه في الجاهلية[١].

وقد نشأ ابن الشريد من أجمل الناس صورة ووجهاً، وكان من المحتمل أن يدعوه هذا الحسن المادي إلى العبث في الحياة، واستضاء بنور الإيمان، فدخل في الإسلام مبكراً، وهو ما زال فتى يانعاً.

ومع أنه من قبيلة ذات عز وجاه، فضَّل أن يعتز بعزة الله وحده، وأن يحتمل في سبيل عقيدته ألوان الابتلاء، فرحل مع طلائع المهاجرين الذين هاجروا إلى الحبشة، وبعد حين رجع مع الذين رجعوا منهم إلى مكة، ثم هاجر من مكة إلى المدينة، فكان من أصحاب الهجرتين في سبيل الله عز وجل.

وفي المدينة آخى رسول الله ﷺ بين شماس والمجاهد المجيد حنظلة بن أبي عامر، المشهور بلقب «غسيل الملائكة»[٢]، الذي خرج إلى غزوة أُحد مسرعاً وهو جُنب، ثم نال نعمة الشهادة فيها، وقال عنه الرسول لصحابته ما معناه: إن صاحبكم قد غسلته الملائكة، فاسألوا زوجته عن أمره.

---

(١) انظر التحفة اللطيفة للسخاوي، ج ٢ ص ٣٧٩. والسيرة النبوية لابن كثير، ج ٢ ص ٤٩٨.

(٢) كتاب الدرر لابن عبد البر، ص ٩٩.

ولما سألوه أخبرتهم أنه سمع نداء الحرب وهو جُنبٌ في فراش الزوجية، ففزع إلى الاستجابة دون أن يتمهل ليغتسل.

ومن عجب أن البطلين اللذين تآخيا في الله عز وجل، قد تآخيا أيضاً في الجهاد، وتآخيا كذلك في الاستشهاد، وتآخيا في ميعاد هذا الاستشهاد، فلقيا ربهما جل وعلاً في معركة واحدة، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

وقد شهد ابن الشريد غزوة بدر الكبرى، فنال شرفها وثوابها ووعدها الكريم، ثم شهد الغزوة العصيبة الشديدة: غزوة أُحد، فأبلى فيها بلاءً حسناً، وحينما بلغ الأعداء المجرمون رسول الله ﷺ ليهاجموه، وقف شماس إلى جواره، يدافع عنه، ويفديه بنفسه، ولا يبالي بالطعنات تأتيه عن يمين وشمال، حتى شبهه النبي يومئذ بالترس، لأن النبي كان لا ينظر يميناً أو شمالاً إلاّ رأى شماساً أمامه، يدافع بسيفه عنه، وجعل من جسمه ترساً حول الرسول ليفديه بنفسه.

وروى السخاوي في «التحفة اللطيفة» أن الرسول قال عن شماس: «ما شبهت بعثمان إِلاّ الجُنّة» أي لمهارته في القتال دفاعاً عن رسول الله ﷺ[1].

ثم حملوه من أرض المعركة إلى المدينة، وقد بقيت فيه من الحياة بقية جعلته بين الدنيا والآخرة. وفي المدينة تنافس أهلها على أخذه عندهم، كشأنهم في الحرص على العناية بالمجاهدين.

ثم هموا بإدخاله عند السيدة عائشة رضي الله عنها، ولكن السيدة أم سلمة رضي الله عنها ـ وهي قريبة شماس ـ طالبت بحقها قائلة: ابن عمي يدخل على غيري؟ فقال الرسول: «احملوه إلى أم سلمة».

فحملوه إليها، فبقي يوماً وليلة، لا يأكل ولا يشرب، وهو بين الحياة والموت، ثم صعدت روحه إلى بارئها، لتكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

(١) التحفة اللطيفة، ج ٣ ص ٣٩١.

وحينما بلغ الرسول نبأ وفاته أمر بحمله كما هو إلى المكان الذي دُفن فيه شهداءُ غزوة أُحد، ليُدفن بينهم بثيابه ودمائه، دون غسل أو صلاة.

وفعل القوم ما أمر به الرسول، فحملوه بأيدي التقدير والإكبار، دون أن يُغسل أو يصلّى عليه، أو ينزع عنه شيء من ثيابه المزدانة بدماء جهاده.

ومضوا بالشهيد المجيد نحو أُحد، حتى بلغوا به مضاجع رفاقه في السلاح والجهاد من الشهداء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهناك دفنوه.

وحينما علمت زوجته نُعم بنت سعيد بن يربوع بوفاته ـ وكأنها كانت تأمل أن يشفى من جراحه، ليواصل سلسلة كفاحه ـ أخذتها دهشة المفاجأة، فقالت أبياتاً ترثيه وتمجّده بها، جاء فيها [من البسيط]:

يا عين، جودي بفيض غير إبساس[1] ... على كريم من الفتيان لبّاسِ
صعب البديهة، ميمونٌ نقيبته ... حمال ألوية، ركّاب أفراسِ
أقول لما أتى الناعي له جزعاً: ... أودى الجواد، وأودى المطعم الكاسي
وقلت لما خلت منه مجالسُه: ... لا يُبعد الله منّا قربَ شماسِ

فعزاها أخوها الحكم بن سعيد عزاءَ المؤمن الصابر، وذكّرها أن زوجها ليس أفضل من حمزة، وقد قُتل حمزة يوم أُحد. يقول لها الحكم [من البسيط]:

اقني حياءك في عزّ وفي كرم ... فإنما كان شماس من الناسِ
لا تقتلي النفس إذ حانت منيته ... في طاعة الله يوم الروع والباسِ
قد كان حمزة ليث الله، فاصطبري ... فذاق يومئذ من كأس شماس[2]

وكان شماس بن الشريد في الرابعة والثلاثين من عمره حين نال نعمة الشهادة في سبيل الله تعالى.

رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

***

---

(١) أي على غير ملل.

(٢) السيرة النبوة لابن كثير، ج ٣ ص ١١٩. وعيون الأثر لابن سيد الناس، ج ٢ ص ٣٥. وقد رثاه حسان بن ثابت أيضاً.

عاشق الموت في سبيل الله

البراء بن مالك الأنصاري

إن مراحل الجهاد تحتاج في بعض مواقفها ومواطنها إلى عمل فدائي بطولي استشهادي، وهو ما يعبِّر عنه أهل العصر بقولهم: «عمل انتحاري». ولكن المؤمنين لا يقبلون طريق الانتحار، وهو إزهاق الروح بيد الإنسان، وإنما يعرفون طريق بيع النفس لخالقها وبارئها، في مقابل أن تكون لهم الجنة، فيقدم المؤمن حياته لربه رخيصة كريمة في وقت واحد:

إنه يقدمها رخيصة فلا يتردّد في بذلها، ولا يشترط في التضحية بها، وهو يقدمها في الوقت ذاته كريمة، لأنه حين يسارع بها إلى خالقها يستوجب لها بذلك مقام التخليد، ومنزلة التمجيد عند الله العلي الكبير: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذا أحد الأعلام من صدر الإسلام، ومن صحابة رسول الله ﷺ، الذين ظلوا يسارعون إلى مواطن الحق، وأرواحهم على أكفهم، لا ينالهم تردد في تقديمها خالصة لوجه الله عز سلطانه.

إنه المجاهد الفدائي الشهيد: البراء بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري، الذي قال لرسول الله ﷺ في بيعة العقبة: «والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزرنا[١]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، ورثناها كابراً عن كابر».

(١) أي نساءنا وأهلنا، كنى عنهن بالأزر، وقيل: أراد أنفسنا، وقد يكنى عن النفس بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري

أي أهلي ونفسي. (لسان العرب).

وهو الذي قالت عنه السيرة العطرة إنه أحد فضلاء الصحابة الأنصار، وأحد السادة الأبرار، الذين يضرب بهم المثل في الفروسية والشدة، والذي قتل من الأعداء المشركين مائةً في مواطن المواجهة والمبارزة.

ولا عجب فهو من الأنصار الذين كانوا يرددون على مسمع نبيّهم شعارهم في النضال فيقولون بحق وصدق[من الرجز]:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فيجيبهم الرسول ﷺ مزكياً الشعار، مكرّماً الأحرار [من الرجز]:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فأكرم الأنصار والمهاجره

وحق لرسول الله ذلك، فإنه الذي عرف للأنصار الموقنين مكانتهم وإخلاصهم، فقال ـ فيما يرويه البراء كما خرّج الشيخان ـ: «الأنصار لا يحبهم إلاّ مؤمن ولا يبغضهم إلاّ منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله».

***

وكانت أبرز صفة في البراء أنه يعشق الموت في سبيل الله عز وجل، ويهيم بطلب الشهادة لوجهه، وكان فدائياً جسوراً، يقذف بنفسه على الموت قذفاً، ولذلك كان عمر بن الخطاب يهاب أن يوليه القيادة حتى لا يلقي بالجنود في المهالك والأخطار.

ولقد شهد البراء غزوة أُحد، وما بعدها من الغزوات. وفي كل غزوة كان يتمنى الشهادة، فيؤجلها القدر ليوم مدّخر. ولقد مرض البراء ذات مرة، وذهب إليه جمع من إخوانه يعودونه، وكأنهم خافوا عليه الموت من شدة المرض، وكأنه أدرك ما يدور بخواطر من ملامح وجوههم، فقال لهم: «لعلكم ترهبون أن أموت على فراشي، لا والله، لن يحرمني ربي الشهادة»!

ويُروى أنه استلقى ذات يوم على ظهره، ثم ترنم فقال له أخوه أنس: أي أخي. فنهض جالساً وقال: أتراني أموت على فراشي، وقد قتلتُ مائة من المشركين مبارزةً، سوى من شاركت في قتله»؟

وأقبل وباء المرتدين المجرمين بقيادة مسيلمة الكذاب، وخرج جيش الإسلام ليرد ذلك الطوفان، وكان فيه البراء بن مالك، ولم تكن المعركة سهلة ولا ميسورة، واشتد القتال بين المؤمنين والباغين.

وهنا رفع البراء بن مالك صوته ينادي في المجاهدين:

يا أهل المدينة، لا مدينة لكم بعد اليوم، إنما هو الله والجنة».

أي لا تذكروا أنفسكم ولا أهلكم ولا بلدكم، بل اجعلوا كل همكم أن تنصروا الله ربكم جل جلاله، وأن تأخذوا الطريق إلى جنته عن طريق الشهادة في سبيل دينه ودعوته.

وعاد الأمر فاشتد على المسلمين في معركة «اليمامة»، وتحصن أعداء الله داخل حديقة لها سور منيع مرتفع، وباب متين حصين، وصعب على المسلمين أن يدخلوا الحديقة، فتقدم البراء وقال:

يا معشر الإسلام، احملوني على الجدار حتى تطوحوني عليه، وألقي بنفسي بالحديقة، فأفتح لكم الباب بإذن الله.

فأبى رفاقه ذلك، فأقسم عليهم أن يفعلوا ففعلوا، ودفعوا به إلى أعلى السور، وقذف هو بنفسه داخل الحديقة بين السيوف والرماح والسهام، واستطاع أن يقاتل ويناضل، حتى بلغ باب الحديقة وفتحه.

ودخل المجاهدون وصيحات التكبير تتعالى عن يمين وشمال، وكتب الله النصر للمؤمنين، ولكن جسم البراء تكاثرت عليه الطعنات، فكثرت فيه الجراحات، حتى ظل طريح الفراش شهراً، يشرف على علاجه قائدُ المعركة خالد بن الوليد، وما كادت جراحه تلتئم حتى عاد يبحث عن الموت، ويتطلب الشهادة.

***

وفي إحدى المعارك استخدم أعداء المسلمين في قتالهم كلاليب معلقة في سلاسل يحمونها بالنار حتى تلتهب، ثم يقذفون بها من حصونهم ومعاقلهم على المسلمين، فإذا أصابت الأجسام أشعلت فيها النار فهي شبيهة بقنابل «النابالم»

التي يستخدمها لئام اليهود المحتلين لفلسطين العربية الإسلامية، يصيبون بها الأبرياء من العرب.

وكان شقيق البراء ـ وهو أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ـ يجاهد معه في هذه الغزوة، فأصيب في رأسه بأحد هذه الكلاليب المحماة، ولم يستطع أن ينتزعه من رأسه بسبب النار التي اشتعلت منه.

ورآه شقيقه البراء فاندفع إليه بأقصى سرعة، وقبض على السلسلة المحماة بيديه، وخلّص منها رأس أخيه، ولكن يديه احترق ما فيهما من لحم وشحم، ولم يبق منها إلاّ العظام.

وعاد البراء إلى فترة علاج أخرى، وما كاد يتمها حتى قذف بنفسه في معركة جديدة، هي معركة «تُستَر» ـ وهي مدينة كبيرة في بلاد العجم ـ وكانت هذه الغزوة سنة عشرين من الهجرة.

وكان قائد المعركة هو أبو موسى الأشعري، وقائد الميمنة هو البراء، وقائد الخيل (الفرسان) هو شقيقه أنس.

ودارت الحرب بين المؤمنين والمجوس الطاغين، وتألقت بطولة البراء، فقتل من أعدائه عشرات، وإنه القدر الملاحق لمن آن رحيلهم عن هذه الحياة بإذن الله.

ولكن المؤمنين قلة، والمجرمين كثرة تتزايد، فاقترب أحد المجاهدين من البراء وقال له: أتذكر يا براء قول الرسول ﷺ عنك: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره[1]، منهم البراء بن مالك»؟ قال البراء: نعم. قال المجاهد: فأقسم على ربك يا براء ليهزمهم وينصرنا. ودعا البراء فقال: «اللهم امنحنا أكتافهم، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم، وألحقني اليوم بنبيك».

(١) أشعث: شعره منتشر. واغبر: عليه غبار. وذي طمرين: صاحب ثوبين قديمين باليين. ولا يؤبه له: لا يبالى به. ولأبره: أي صدقه وحقق له ما أراد.

وفي رواية أنه قيل له: يا براء، أقسم بربك لينصرنا. فقال: أقسمت عليك يا رب، لما منحتنا أكتافهم، وألحقني بنبيك ﷺ.

وهكذا دعا بالنصر والغلبة لقومه ودينه، ولكنه تمنى الشهادة لنفسه.

واستجاب الله دعاءه، وأعز الله جنده، ونصر عباده، وحقق للبراء بن مالك ما تمنى، فجاءته في نهاية المعركة ضربة مفاجئة غادرة، من يد مشرك أثيم، فختمت له بخاتمة الشهادة، ومضى إلى ربّه كريماً مباركاً في الخالدين.

ودُفن البراء بن مالك هناك، بعيداً في مدينة «تُستَر»، ليظل جدثه الطهور شاهداً على أن لله عباداً صدقوا معه عهدهم، فحقق لهم وعدهم، فكانوا هم الغالبين.

ولا يجوز أن نظن أن البراء بن مالك كان فتى ميدان فحسب، لأنه كان نموذج يقين وإيمان، حتى روي أنه كان من أهل «الصُّفّة» المتجردين لعبادة الله سبحانه، كلما خلا أمامهم وقتهم من شواغل النضال والقتال.

وكان حسن الصوت، ينشد الأراجيز للرسول في أسفاره.

وهو ابن المرأة الصالحة أم سليم، التي أخبر النبي ﷺ أنه سمع صوت مشيها في الجنة، وكان النبي لا يدخل على أحد من النساء بعد نسائه إلاّ على أم سليم، فإنه كان يدخل عليها، فقيل له في ذلك، فقال: إني أرحمها، قُتل أخوها معي.

وهكذا كان البراء بن مالك طيب المنبت، حسن النشأة صادق العبادة، وطيد الإيمان، فتجمعت له عناصر الشخصية القوية في حسها ونفسها.

رضوان الله على عاشق الموت في سبيل ربه: البراء بن مالك.

***

المجاهد المعذب

خباب بن الأرت

إن للإيمان حديثاً أن يظل يراود الفؤاد، ويشغل الفكر، ويحرك اللسان، لأننا نحتاج كل الاحتياط إلى المداومة على استشعار الإيمان والتدثر به، كي نظل على طريق الهدى سائرين، وبقيم الحق والعزة مستمسكين.

وليس الإيمان الذي يراد مجرد كلمة تقال، أو مجرد عقيدة تنطوي عليها الصدور، بل هو يقين راسخ بوجود الله تعالى وقوته وسيطرته، ثم إدراك بصير لسعة علمه وشمول حكمته، ثم انطلاق موصول في مجالات العمل بمرضاته وطاعته، ثم شكر إيجابي عند إقبال خيره ونعمته، ثم اتعاظ واعتبار بدروس ابتلائه ومحنته، ثم إصرار على البقاء في ميدان النضال حتى يأتي الله بأمره، فإما أن يمن بتأييده ونصره، وإما أن يختار لعبده ما عنده بقضائه وقدره، وأهل الإيمان فائزون على كل حال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠].

ولقد ضرب لنا أهل الصدر الأول في هذه الأمة المؤمنة المهتدية بنور ربها وكتابها ونبيها أروع الأمثال في حسن الاستجابة لله، والإيمان به، والثبات على طاعته، والاستمساك بالجهاد في سبيله.

وهذا أحدهم، وهو الصحابي الجليل، والمناضل الصابر المحتسب: أبو عبد اللّه خباب بن الأرتّ. وقد كان عربياً أصيلاً حراً. ولكن أحداث الزمان عاجلته في صدر حياته، فوقع في السبي، فبيع كما يباع العبيد، فذاق مرارة الرق الطاغي(١)، وقضى رَدَحاً من حياته بلا حريته.

---

(١) ولذلك يصفه أبو نعيم في الحلية بقوله: «السابق المفتتن، المعذب الممتحن».

ثم هيأ الله له من أمره رشداً، إذ بزغت شمس الإسلام، فسارع إليه خباب مع أوائل من دخلوا في دين الله تعالى، فكان سادس من أسلم، ولذلك كان يقال له: «سدس الإسلام» أي سادس المسلمين.

وعاهد ربه على أن يرضى من دنياه بالقليل، وأن يحرص على العمل الصالح الجليل، فكان من فقراء المسلمين، وفيه وفي أمثاله نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٥].

ومع أن خباب بن الأرتّ كان من فقراء المسلمين كان في الوقت نفسه من خيارهم وأفضلهم، فما عابه فقر، ولا عاقه عن أن يكون في طليعة المؤمنين المناضلين، وما كان المال في يوم من الأيام بميزان عادل في نظر العقلاء لتحديد مكانة الرجال.

ونحن لم ننس خطبة أبي طالب عم رسول الله ﷺ حين زواجه من السيدة خديجة بنت خويلد، فقد قال: «إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله، لا يوزن به رجل إلاّ رجح به شرفاً ونبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قُلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعاريّة مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل».

ولم يحتكر خباب نعمة الإسلام لنفسه، بل أخذ يبشر بدين الله تعالى في دقة وحذر بين طواغيت الشرك وعمالقة الكفر، وهو الذي ذهب إلى أخت عمر بن الخطاب وزوجها بعد أن أسلما، ليعلمها القرآن، ثم فاجأهم عمر وهو مشرك لم يُسلم بعد، فاستتر خباب في ناحية، خشية أن يتسبب في أذى لأهل الدار.

ودخل عمر مهدداً متوعداً، متطاولاً على صهره وأخته، وبعد عراك ونقاش تفتح قلب عمر للإسلام، وتناول صحيفة القرآن بعد أن تطهر، وقرأ فيها قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١ ـ ١٤].

قرأ عمر هذه الآيات البينات المعجزات، فتزلزلت أركانه: واستيقظ وجدانه، وأدرك روعة القرآن وإعجازه، فقال لأخته وزوجها: دلوني على رسول الله.

وأدرك خباب من داخل البيت أن عمر قد مال إلى الإسلام، فظهر من مخبئه، وقال لعمر في فرحة: أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك، فقد سمعته يقول: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام.

وسارع عمر فأسلم، فكان إسلامه فتحاً ونصراً، وفرق الله به بين الحق والباطل.

ولم يكن خباب بن الأرتّ خوافاً ولا جباناً، وكيف وهو الشجاع الصبور المتحمل للأذى في سبيل مبدئه وإيمانه؟ فقد عذبه المشركون ألواناً من العذاب، وهو صابر مصر على عقيدته، ولا يضعف ولا يتخاذل ولا يستسلم.

ولقد ترك هذا التعذيب آثاراً مؤلمة في جسمه، ولقد سأله عمر ـ وهو في خلافته ـ فقال له: يا خباب، ما لقيت من أهل مكة. فأجابه خباب: انظر إلى ظهري يا أمير المؤمنين. فكشف عمر عن ظهر خباب ونظر، فتألم مما رآه من آثار التعذيب الوحشي اللئيم، وقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل. فقال خباب:

لقد أوقدوا لي ناراً، وسُحبت عليها، فما أطفأها إلاّ وَدَكُ ظهري. أي الدهن الذي يسيل من الجسم عند احتراقه.

وحينما اشتد البلاء على خباب، وتفاقم خطب التعذيب، لم يكن منه إلاّ أن ذهب إلى الرسول ﷺ يقول له: «يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟

وأراد الرسول أن يشد العزيمة، ويقوي الهمة، فقال: «إنه كان من قبلكم يمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، فلا يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على رأس أحدهم فيشق، فلا يصرفه ذلك عن دينه، وليُظهرن الله هذا الأمر (يعني نصر الإسلام) حتى يسير الراكب من صنعاء[١] (بالشام) إلى حضرموت (باليمن) لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

وكأن الرسول أراد من هؤلاء الرجال الأبطال أن يظلوا رجالاً أبطالاً وجبالاً ثقالاً. لا يملون ولا يتعجلون، ليكونوا أهلاً للنصر الأكبر والفتح المؤزر، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وصبر خباب وصابر ولم يتعجل ولم يتململ، ونال شرف الهجرة مع المؤمنين، ونال شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، فشهد غزوة بدر الكبرى ونال ما ناله أهلها من المجد والشرف، وشهد الغزوات الأخرى، وكمل الدين وتمت النعمة، وظهر الإسلام، ونزل قول الله عز من قائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۝٣﴾ [المائدة: ٣].

ولحق الرسول بربه، وظل خباب بين الأحياء الأوفياء، يواصل نضاله برغم فقره ومرضه الطويل، وإنه في المكانة والمنزلة لأعلى وأغلى من أصحاب الدور والقصور، فكان إذا دخل على عمر وهو خليفة جعله أقرب الناس إليه، وقال له: يا خباب، ما أحد أحق بهذا المجلس منك، إلاّ أن يكون عمار بن ياسر.

(١) روي أن المراد بها بلدة كانت بالقرب من دمشق.

وعمار بن ياسر هذا يشبه خباب بن الأرتّ في إيمانه واعتزازه بربه، فكل منهما لا يفاخر بنسب أو حسب، ولا بكثرة مال أو نشب، ولكن فخره الأكبر هو الإسلام [من الوافر]:

أبــي الإســلام، لا أب لــي ســواه إذا افــتــخــروا بــقــيــس أو تــمــيــم

وطال عُمْر خباب حتى زاد على السبعين بثلاث سنوات، وطالت مع أيامه أعمال الخير عنده، ومواقف البطولة منه، وكان قد نزل الكوفة، وشهد مع الإمام عليّ غزوة صفين، وغزوة النهروان.

ومرض خباب مرض موته، وذات يوم بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فأجاب: أبكي أن أصحابي مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئاً، وأنّا بقينا بعدهم حتى لم نجد لها(١) موضعاً إلاّ التراب.

وعاده نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وذكروا أعماله الطيبة، وقالوا له: أبشر يا أبا عبد اللّه، إخوان تقدم عليهم غداً، (وكان يحب لقاءهم، ويشتاق الموت) فبكى وقال: أما إنه ليس بي جزع، ولكنكم ذكّرتموني أقواماً وسميتم لي إخواناً، وإن أولئك قد مضوا بأجورهم كلهم، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم (يعني المال والدنيا).

وكذلك قال: إنه قد مضى قبلنا أقوام لم ينالوا من الدنيا شيئاً، وإنّا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما لا يدري أحدنا في أي شيء يضعه إلاّ في التراب، وإن المسلم يؤجر في كل شيء أنفقه إلاّ فيما أنفق في التراب.

وحينما رأى خباب كفنه بكى وقال: لكن حمزة لم يوجد له كفن إلاّ بردة ملحاء، إذا جُعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه، حتى مدت على رأسه، وجُعل على قدميه الإذخر(٢).

***

(١) يقصد الدنيا، وكان قد بنى له بيتاً.
(٢) ملحاء: أي بردة فيها خطوط سود وبيض. وقلصت: أي اجتمعت وانضمت فانكشف جزء مما تحتها والإذخر: بكسر الهمزة والخاء، حشيشة طيبة الرائحة.

ثم لحق خباب بربه، وكان ذلك سنة سبع وثلاثين للهجرة، ودفن بظاهر الكوفة، وصلى عليه الإمام علي، ثم قال فيه: «يرحم الله خباب بن الأرتّ، فلقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وقنع بالكفاف، (بالقليل) ورضي عنه الله، وعاش مجاهداً، وابتُلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف ورضي الله عنه عز وجل».

وإنها لكلمات تعد أكرم وسام يوضع بيد ابن عم الرسول على صدر عَلم من أعلام صحابة الرسول، الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فتقبلهم ربهم أحسن القبول.

رضوان الله على المجاهد المبتلي الصابر: خباب بن الأرتّ.

***

الشهيد النُّؤوم

صفوان بن المعطل

من نعم الله تعالى على عباده أن فتح أمامهم الأبواب الكثيرة إلى وجوه الخيرات وألوان القربات، وأثابهم على القليل والجليل من أعمالهم وطاعاتهم: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠]، وضمن لهم إحصاء ما يقدمون بين أيديهم وصيانته وتقديره، فهو العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن: ٢٨].

كما ضمن لهم ألاّ يبخسهم حقاً من حقوقهم مهما كان ضئيلاً: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧].

وهذا هو الجهاد ـ على سبيل المثال ـ نرى أعماله كثيرة، وألوانه متعددة، ومن هذه الأعمال والألوان ما قد يظنه الكثيرون تافهاً أو غير مهم؛ مع أن أي مجهود يبذله الإنسان لخدمة المعركة ـ سواء أكان باللسان أم باليد أم بالعين أم بالسمع أم بالعقل ـ يعد مشاركةً في الجهاد، ينال عليها صاحبها الأجر الحميد والذكر المجيد.

ولقد كان سيدنا رسول الله ﷺ يجند صحابته في أعمال الجهاد المختلفة، ما بين صغير منها وكبير، وظاهر ومستور، ومادي ومعنوي، فيقوم كل منهم بما يوكل إليه في حسن استجابة وعميق إخلاص.

لا يتنافسون على مطامع ولا يحرصون على مغانم، ولا يتمسكون بمظاهر، بل ربما يكون الواحد منهم في معركة خادماً لإخوانه المجاهدين، فلا يجد في ذلك غضاضة، ثم يكون في معركة أخرى بين الصفوف الأولى من المقاتلين، فلا يتردد ولا يتقاعس، ولا يتباهى أو يتعالى.

الكل قد سيطر عليهم الإيمان بالله، والجهاد لله، وإخلاص العمل لوجه الله، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس، فلا مباهاة بالنفس، ولا استخفاف بعمل للغير مهما قل.

وإذا كان القوي فيهم يستطيع أن يقدّم جهده كبيراً ظاهراً، فإنه في الوقت ذاته لا يبخس أخاه الضعيف حقه، لأن الرسول ﷺ يقول: «إنما تُنصرون بضعفائكم».

وهذا مثل نأخذه من مدرسة محمد العظيم ﷺ، ويتجلى هذا المثل في الصحابي المجاهد الجليل، أبي عمرو صفوان بن المعطّل بن رخصة بن المؤمل السُّلَمي الذكواني رضي الله عنه، الذي يقول فيه ابن كثير: «كان صفوان من سادات المسلمين»(١).

ولقد كان صفوان مصاباً بمرض النوم الثقيل، فكان ينام نوماً عميقاً شديداً لا يستطيع الاستيقاظ منه إلاّ بعد وقت طويل، وقد تطلع عليه الشمس وهو نائم، فيفوته أداء فريضة الصبح في وقتها، فسهّل عليه النبي أمره، وقال له: «إذا استيقظت فصلّ».

وحاولت زوجته أن تعالج فيه علته فلم تستطع، فشكت إلى الرسول أن هذا يؤخره في النوم، ويضيع عليه الصلاة، فقال لها: «إنه شيء ابتلاه الله به، فإذا استيقظ فليصلّ».

وكان صفوان شاعراً، ولكنه لم يستخدم شعره في عبث أو مجون أو تكسب، بل زانه بروح الإيمان وأدب الإسلام.

وكان صفوان صارماً شديداً في الغضب للحرمات، وكان يردد قوله إذا غضب [من الطويل].

تلقَّ ذباب السيف عني، فإنني　　غلام إذا هوجيت ليس بشاعر

وكان الرسول ﷺ يحب صفوان بن المعطل، ويعطف عليه، ولقد حدث

---

(١) البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤٦.

أن أعطى سعد بن عبادة لصفوان ثوباً فلبسه، فلما رأى النبي الثوب على صفوان سأله قائلاً: من كساك هذا كساه الله من ثياب الجنة؟ فأخبره.

ثم شارك صفوان في الغزوات، فشهد غزوة المريسيع، وغزوة الخندق، وغيرهما من المشاهد، وحضر فتح دمشق، وجاهد في بلاد الشام، وفي بلاد العجم.

وكان صفوان موكلاً في أول الأمر بأن يتخلف وراء الجيش عقب المعركة ليلتقط ما يسقط من المتاع. تقول السيرة: «وكان يكون على ساقة العسكر، يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به»(١).

***

ويروى أن أولى الغزوات التي اشترك فيها صفوان، هي غزوة بني المصطلق، بطن من خزاعة، ويقال لها أيضاً غزوة المريسيع، وهو اسم ماء من مياههم من ناحية «قديد» إلى الساحل، ويقال لها كذلك «غزوة الأعاجيب» لما وقع فيها من الأمور العجيبة.

وكانت هذه الغزوة سنة أربع من الهجرة، وقيل سنة خمس، وقيل سنة ست، وكانت في الثاني من شهر شعبان، وكان قد بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، فخرج إليهم النبي والتقى بهم عند ماء المريسيع، ونصر الله تعالى نبيه وجنوده.

وفي هذه الغزوة رأى صفوان السيدة عائشة رضي الله عنها، قد فاتها الركب، فأركبها جمله، وقاده لها حتى بلغ المدينة؛ ولما تحدث أهل الإفك بافترائهم على الرسول وأهله، قال ﷺ عن صفوان: «والله ما علمت منه إلاّ خيراً»(٢)، وكذلك قال عنه: «والله ما علمت عليه من سوء قط»(٣).

---

(١) الروض الأنف للسهيلي، ج ٢ ص ٢٢٠.

(٢) وفي رواية: «ما علمت عليه إلا خيراً».

(٣) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٢٧٠. وانظر البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤٦.

وأنعم بها من شهادة ينطق بها الصادق المصدوق الذي قال فيه رب العزة وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣و٤]ويؤيد هذه الشهادة ويؤكدها أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يذكر صفوان بشيء من النقد أو العيب، فغضب المصطفى وقال لذلك الطاعن: «أتعيب على قومي أن هداهم الله عز وجل للإسلام»؟

وقد جاء الوحي مزكياً لقول الرسول ﷺ، فنزلت الآيات في سورة النور بطهارة الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليهما، وبراءة الصحابي التقي النقي صفوان بن المعطل(١).

وانتقل صفوان من عمله الهادىء في الغزوات، وهو جمع أمتعة الجيش المتخلفة وراءه لردها لأصحابها، إلى الإسهام الحربي الواسع في القتال، حتى روت السيرة أن فريقاً من أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ تجمعوا عند حصن اسمه «فارع»، وطعنوا في حق الرسول والإسلام. فقال ﷺ لمن حوله من المسلمين: مَن لي بأصحاب البساط عند فارع؟!. فسارع صفوان يقول: أنا لك بهم يا رسول الله.

وخرج إليهم وحده، وقد حمل سيفه، وعقد نيته وعزيمته على أن يلقاهم منفرداً، فإما إن ينال منهم ويؤدبهم، وإما أن ينال الشهادة. وحينما رأته عصبة السوء شاهراً سيفه، مقبلاً كالسيل الجارف العارم، والشرر ينقدح من عينيه، خافوه وأطلقوا سيقانهم للريح.

واتسع نشاط صفوان في الجهاد، فاشترك في جانب من مواقف الجهاد بالشام، وحضر فتح دمشق، ثم خرج مجاهداً في معركة «أرمينية»، في السنة التاسعة عشرة، وكان قائد الجيش فيها هو عثمان بن أبي العاص، وكان معه أمراء مساعدون، أحدهم هو صفوان بن المعطل.

---

(١) كان صفوان يقول: «والله ما كشفت كنف أنثى قط». والكنف هنا هو الستر. وقيل إن ابن المعطل كان حصوراً، لا شيء له في النساء، ولكن هذا لا يسهل قبوله لأنه كان متزوجاً.

وجاهد صفوان يومئذ جهاداً مجيداً حميداً، حتى اندقت رجله، ولكنه طاعن بها منكسرة، وظل على جهاده وكفاحه، حتى نال الشهادة رضي الله عنه(١).

وهكذا أرانا صفوان في حياته صورة للمسلم المطواع لأمر الله سبحانه، وأمر رسوله ﷺ، فهو لا يتردد أن يقبل أي عمل من أعمال المعركة يكلفه به قائده، وتحتاج إليه مصلحة المعركة، وهو لا يتردد حين يدعوه الداعي إلى موقف البذل والتضحية والفداء، دون أن تصغر نفسه في الأولى، أو تتباهى في الثانية، فإنه من قوم مسح الله عز وجل بيده القدسية على صدورهم، فأزال عنها حب الذات وضيق الأفق ورعونة النفس، وعمَّرها بالهدى والتقى والإخلاص، فكانوا أبناء خير أمة أُخرجت للناس.

ألا إن الكريم العظيم هو مَنْ رضي الله عنه، وتقبَّله بقبول حسن، مهما كان فقيراً أو مجهولاً، والحقير اللئيم مَنْ غضب عليه ربه وحرمه نعمة الرضى والقبول، ولو كان فظاً غليظاً، ورُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبره، كما قال سيد الأنام محمد ﷺ.

رضوان الله تبارك وتعالى على الشهيد النؤوم: صفوان بن المعطل.

***

(١) اختلف في مكان استشهاده وزمانه، فقيل: استشهد بأرمينية، وقيل بالجزيرة، وقيل بشمشاط أو سميساط، ويقول السهيلي في الروض الأنف: «حتى مات وذلك بالجزيرة، بموضع يقال له شمطاط» ج ٢ ص ٢٢١. ولكن المشهور أنه استشهد في أرمينية. يقول الذهبي في العبر: «سنة تسع عشرة: فيها كانت وقعة أرمينية، أصيب فيها صفوان بن المعطل الذكواني» ج ٢ ص ٢٣. ويقول ابن كثير عن سنة تسع عشرة: «ومات فيها صفوان بن المعطل في قول» البداية والنهاية، ج ٧ ص ٩٧. وفي ص ٧٦ يقول: «وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية فكان عندها شيء من قتال قتل فيه صفوان بن المعطل السلمي شهيداً». ويقول السخاوي في التحفة اللطيفة: «قتل في خلافة عمر بن الخطاب في غزاة أرمينية شهيداً. وقيل غير ذلك» ج ١ ص ٣٠٥. ويقول ابن سيد الناس في عيون الأثر: «وقتل صفوان شهيداً في خلافة معاوية، واندقَّت رجله يوم قتل، فطاعن بها وهي منكسرة حتى مات» ج ٢ ص ١٠١. والغريب أن يعود ابن كثير - بعد ما سبق - فيقول إن صفوان توفي سنة ستين (انظر البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤٦).

الإمام التاجر المجاهد

عبد الله بن المبارك

إذا راجعنا تاريخ الأمة الإسلامية وجدنا فيها ملايين من الأفراد أتقنوا أعمال الدنيا، كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، وإلى جوار هذه الملايين ملايين أخرى من الأفراد أتقنوا تحصيل العلم والمعرفة، وإلى جوارهم ملايين أخرى من الأفراد أتقنوا فن القتال والجهاد.

ولكن قليلاً من أبناء هذه الأمة هم الذين أحسنوا الجمع بين البراعة في الحرفة وفقه الدين والعلم، وأقل منهم هم أولئك الأعلام الخالدون الذين أحسنوا الجمع بين البراعة في صنعة الحياة، وتحصيل علم الأئمة الهداة، وإتقان الجهاد في سبيل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١١ـ ١٤]. رضوان الله عليهم أجمعين.

وما أحوج أمة محمد ﷺ إلى الازدياد من هذا الصنف الكريم العزيز النادر، من خيار الرجال وفحول الأبطال: علماء المقال، ومهرة الأعمال، وفرسان النضال؛ لأنهم المشاعل العالية المضيئة لطريق القوة والعزة والكرامة، هم أهل المضاء والوفاء والفداء.

ومن هؤلاء: الإمام العالم العامل المجاهد، المتقن لأمور دينه ودنياه، أحد تابعي التابعين الفضلاء: أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي الخراساني، كان أبوه عبداً مملوكاً، وكانت أمة خوارزمية، وفيه يقول النووي: «الإمام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء، الذي تستنزل الرحمة بذكره، وترتجى المغفرة بحبه»[١].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات، ج ١ ص ٢٨٤.

ويقول عنه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: «السخي الجواد، الممهد للمعاد، المتزود من الوداد، أليف القرآن والحج والجهاد».

وقد وُلد ابن المبارك سنة ١١٨هـ (٧٣٧م)، ونشأ نشأة إسلامية مباركة، تربى تربية محمدية سامية، وسارت له شهرة عمت الآفاق، وملأت جوانب العالم الإسلامي، بأقواله وأعماله، وخصاله ونضاله، فقد كان عالماً ذكياً، وزاهداً تقياً، وشجاعاً أبياً، وكريماً سخياً.

ورحل في طلب العلم إلى اليمن والعراق ومصر، وقيّد كل ما سمعه أو تلقّاه، وكان كلما ازداد علماً وكتابة لما سمع، وقيل له: حتى متى تكتب كل ما تسمع؟ أجاب: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد.

وسمع الحديث من كثير من التابعين، وروى كثير من تابعي التابعين، وكان ثقة في الحديث ثبتاً، اتفق العلماء على مدحه والثقة فيه. وقال عنه ابن معين: «عبد الله سيد من سادات المسلمين».

وكان العلماء إذا اختلفوا في حديث قال بعضهم لبعض: مروا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله (يعنون عبد الله بن المبارك).

واجتمع طائفة من أصحاب ابن المبارك فقالوا: تعالوا نعدَّ خصال ابن المبارك من أبواب الخير.

فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والشدة في رأيه، وقلة الكرم فيما لا يعنيه، وقلة الخلاف على أصحابه.

***

ولقد ورث ابن المبارك مهنة التجارة من بعض أساتذته، وكانت تجارته واسعة رابحة. قيل إنه كان يتاجر في رأس مال قدره أربعمائة ألف، يطوف بها في البلاد، ويبلغ كسبه منها سنوياً مائة ألف.

ولم تشغله التجارة عن الفقه والعبادة، ولم يتعلل بالعبادة، وطلب العلم لتعطيل الكسب والسعي، بل كان يرى أن التجارة الطاهرة الخيّرة هي جزء من

العبادة، ولذلك قيل له: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام فكيف هذا؟.

فأجاب: إنما أفعل هذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى حقاً إلاّ سارعت إليه.

وهكذا كان ابن المبارك يجمع في رحلاته بين الفائدة الدينية والروحية من طريق الدراسة والتأمل وطلب المزيد من العلم، والفائدة المادية عن طريق التجارة والاكتساب، حتى صار في العلم إماماً يرجع إليه الناس، ويستفتيه العلماء، وصار في حرفة الحياة علَماً يشار إليه بالبنان، ثم صار بعد هذا وذاك مجاهداً صاحب بطولة في الميدان.

ولقد روى تاريخه أنه كان يجاهد بعلمه وماله وسلاحه، وأنه شارك في جملة غزوات، وكان مقاتلاً مجيداً، وبطلاً صنديداً، وكان أروع ما فيه من ناحية الجهاد أنه أراد بقتاله ونضاله وجه الله لا مراءاة الناس، ولا الفخر بين العباد، حتى كان يتخفى أحياناً ويتلثم وهو يقاتل، حتى لا يعرفه أحد، ويظل عمله خالصاً لربه، ليثيبه عليه أعظم الثواب.

ولقد حدَّث عبدة بن سحبان قال: .

كنّا في سرية مع عبد الله المبارك، في بلاد الروم، فصادمنا العدو. فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل منا فقتله، ثم خرج آخر فقتله، ثم عاد إلى المبارزة، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فكنت فيمن ازدحم إليه، فإذا هو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فجذبته، فإذا هو عبد اللّه بن المبارك، فقال لي معاتباً: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا؟.

كما يروي تاريخه المجيد أنه حينما خرج إلى الجهاد والمرابطة لاول مرة في بلاد الشام، ورأى ما يقوم به المجاهدون من بطولة، التفت إلى صاحب له وقال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، على أعمار أفنيناها وليال قطعناها في علم الشعر، وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتحة!!.

ولعل هذا الموقف كان من الأسباب التي دعت ابن المبارك إلى تأليف كتاب في فضل الجهاد والحث عليه، وهذا الكتاب يعد أول المصنفات في موضوعه[(١)].

وقال ابن المبارك كثيراً من الشعر في الحث على الجهاد[(٢)] ومكارم الأخلاق ومن شعره قوله [من المتقارب]:

وهل بدَّل الدينَ إلاّ الملوك ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي العلم إنتانُها

ويقول فيمن أساء استغلال علمه لجمع متاع الدنيا [من السريع]:

يا جاعل العلم له بازيا ... يصطاد أموال السلاطينِ
احتلتَ للدنيا ولذاتها ... بحيلةٍ تذهب بالدينِ
فصرتَ مجنوناً بها بعدما ... كنتَ دواءً للمجانينِ
أين رواياتك والقول في ... لزوم أبواب السلاطينِ
إن قلت أكرهتُ فما هكذا ... قد ذل حمار الشيخ في الطينِ

ويقول في حفظ اللسان من كثرة الكلام [من المتقارب]:

تعاهد لسانك، إن اللسان ... سريع إلى المرء في قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يدل الرجال على عقله

ويقول في تصحيح الحب لله تعالى [من الكامل]:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعالِ بديعُ[(٣)]
ولو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

وكان يردد كثيراً هذين البيتين [من الرمل]:

وإذا صاحبت فاصحب فاضلاً ... ذا عفاف وحياء وكرم

---

(١) دائرة المعارف للبستاني. ج ٤ ص ١٩ سنة ١٩٦٢.

(٢) يقول النووي عنه: «وروى أحاديث كثيرة، وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه، وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد، وسمع علماً كثيراً، وكان ثقة مأموناً حجة كثير الحديث» تهذيب الأسماء، ج ١ ص ٢٨٦.

(٣) أي غريب مبتدع.

قــولــه لــلــشــيء لا إن قــلــت لا وإذا قــلــت نــعــم قــال نــعــم

***

ويروى أن ابن المبارك كان يجاهد في بلدة (طرسوس)، وعلم أن صديقه الزاهد الفضيل بن عياض يقيم متعبداً بجوار الحرم، ولا يشترك في الجهاد، فتألم ابن المبارك، وكتب إلى الفضيل رسالة يدعوه فيها إلى ترك العبادة في جوار الحرم، والإقبال على الجهاد، ويقول له فيها [من الكامل]:

يا عابد الحرمين، لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضّب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة[1] تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا رهج السنابك، والغبار الأطيب[2]
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي إغبار خيل الله في أنف امرىء، ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت، لا يكذب

فلما قرأ الفضيل الرسالة وهو في المسجد الحرام، بكى وقال: صدق أبو عبد الرحمٰن ونصح.

ومضت الأيام والأعوام بعد ذلك، ومات ابن المبارك قبل الفضيل، ورآه الفضيل في النوم، فسأله: أي الأعمال وجدت أفضل؟. فأجابه ابن المبارك قائلاً: الأمر الذي كنت فيه. (وهو الرباط والجهاد). فقال الفضيل: وأي شيء صنع الله بك؟. فأجاب ابن المبارك: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة.

***

ولقد حفظ الناس لابن المبارك حقه ومكانه، فكانوا يجلونه ويحترمونه غاية الاحترام، حتى روى التاريخ أن هارون الرشيد كان في مدينة (الرقة)، وجاء ابن المبارك لزيارتها، فخرجت الألوف لاستقبال الإمام الزاهد المجاهد،

(١) يوم المعركة.
(٢) الرهج: الغبار. والسنابك: أطراف الأرض، وأطراف حوافر الخيل.

وتطلعت امرأة لهارون الرشيد، فرأت الغبار قد ارتفع، والزحام قد اشتد، فسألت: ما هذا؟. فقيل لها: هذا موكب لاستقبال عالم من خراسان يقال له: عبد اللّه بن المبارك. فأعجبت المرأة بذلك أيما إعجاب، فقالت: هذا والله هو الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلاّ بالسياط والعصيّ، والشُّرط والأعوان!.

وظل ابن المبارك مجاهداً مناضلاً، يهدي إلى سبيل ربه بالقول والعمل والقدوة والسلوك. وفي شهر رمضان سنة ١٨١هـ (٧٩٧م) انصرف من إحدى المعارك في بلاد الروم، فأدركه الموت في بلدة «هيت» وهي مدينة معروفة على شاطىء الفرات فوق الأنبار، وكان له من العمر ثلاث وستون سنة.

وشاء ربك للمجاهد الذي تطلب الشهادة مرات، أن يلقى الموت هادئاً دون أن يحرمه ربه ثواب المجاهدين الأبرار.

ولقد كان ابن المبارك بليغ العبارة عميق العظة.

قيل له: ما التواضع؟ فأجاب: التكبر على الأغنياء.

ومن كلامه: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات.

ووقف ذات يوم بين مقبرة ومزبلة، فقيل له: ما وقفك؟.

فأجاب: أنا بين كنزين من كنوز الدنيا فيهما عبرة، هذا كنز الرجال، وهذا كنز الأموال!.

رضوان الله على الإمام التاجر المجاهد: عبد اللّه بن المبارك.

***

فدائي يؤمر نفسه

المثنى بن حارثة

هذا فدائي مؤمن من عصر الرسول ﷺ، يقدّم إلينا أكثر من صورة من صور الفداء في الإسلام.

إنه الفدائي الذي أمّر نفسه بحق وصدق: المثنى بن حارثة الشيباني، بطل حروب العراق مع فارس، وقد تأخر إسلام المثنى إلى ما قبيل وفاة الرسول ﷺ، لأنه كان صغيراً. وقد وفد مع فريق من قومه بكر بن وائل في السنة التاسعة للهجرة ـ وهي سنة الوفود ـ إلى رسول الله ﷺ وأسلم.

ولكنه سبق في الجهاد والبذل الفدائي بعض الأوائل، حتى صدق فيه المثل القائل: «كم ترك الأول للآخر».

وكان المثنّى وجماعته يقيمون على الحدود الصحراوية التي تلي سواد العراق بين العراق وفارس، فأخذ المثنّى يقوم مع رفاقه بمناوشات فدائية ضد الفرس أعداء بلده وأعداء قومه ومحتلي وطنه.

وظهرت بطولته وتجلّت، واستطاع بلا صخب أن يؤمّر نفسه في هذا الميدان بجهاده وفدائيته، وكان خبيراً بمسالك الأرض وشعاب المناطق، وكان واسع الحيلة عميق التفكير سريع الحركة، وهو أول من قضى على أسطورة الهيبة الفارسية التي كان يتوهمها كثير من الناس، إذ كانوا يظنون أن الجيش الفارسي لا يُغلب، فلما أنزل المثنى بالفرس ضرباته تشجع الآخرون وأقدموا فتحطم طغيان الفرس الكبير.

وبعد حين أقبل المثنى على أبي بكر الخليفة الأول، وقد سبقت شهرة المثنى إليه حيث كانت أخبار مناوشات المثنى ووقائعه مع الفرس تصل أبا بكر،

فيُسَرّ منها ويعجب بها، ويقول: «من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه»؟.

فقال له قيس بن عاصم المنقري: هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني.

وحين التقى المثنى وأبو بكر قال المثنى: يا خليفة رسول الله، إن في قومي إسلاماً كثيراً، فأمّرني عليهم حتى أجاهد أعداء الله من فارس، وأكفيك من ناحيتي.

فأعجب أبو بكر بهذا الإقدام على التضحية، وعقد له لواءً، وفتح الطريق أمامه باسم الخلافة، لكي يواصل نضاله الفدائي الثائر.

وسارع المثنى فجمع كل من استجاب وصلح للجهاد من قومه، وكوّن منهم منظمة فدائية، أخذ يغير بها على معاقل الفرس الأعداء، فيقتل من يقتل، ويغنم ما يغنم، حتى ألقى الفزع في نفوس أولئك الجبابرة.

ثم صار للمسلمين جيش نظامي كبير في العراق، ورأى أبو بكر أن يرسل خالد بن الوليد قائداً لهذا الجيش، فسارع المثنى ومن معه للانضمام تحت لواء هذا الجيش، وعمل المثنى تحت إمرة خالد بلا مضض ولا غضاضة، وقد كان بالأمس القريب أميراً لقومه الفدائيين. ولم يجحد خالد فضل المثنى وسابقته في الجندية المجهولة الصامتة، فجعله نداً له وقريناً، وكان يقربه ويشاوره، وينيبه عنه في الإمارة، وحينما احتاج الشام إلى قيادة خالد، أمر أبو بكر بأن يتولى المثنى قيادة جيش العراق.

وقبيل وفاة أبي بكر جاءه المثنى، وقد قل المناضلون معه، ورجاه أن يضم إلى جيش المقاومة كلَّ من يصلح للجهاد، حتى من صدقت توبته من المرتدين قبل ذلك.

وتطلع أبو بكر فرأى أن الموقف يحتاج إلى تعبئة واسعة، تعتمد على العدد الكبير من المجاهدين؛ ولكن أبا بكر مريض بين الحياة والموت، فاستدعى أبو بكر عمر وقال له:.

«إسمع يا عمر ما أقوله لك، ثم أعمل به، إني أرجو (أي أتوقع) أن

أموت من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب[١] الناس مع المثنى؛ وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه. ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتني متَوَفَّى رسول الله ﷺ وما صنعت[٢] ولم يصب الخلق بمثله».

وتحقق ما توقعه أبو بكر فمات من ليلته، وفي الليلة نفسها أمر عمر الناس بالخروج مع المثنى، وكان ذلك قبل صلاة الفجر من الليلة ذاتها.

وكأن أبا بكر وعمر أراد أن يقولا: إن الأشخاص زائلون، والدعوة باقية، وإن مصلحة الدعوة والأمة والجهاد أهم من الاشتغال بشؤون الأفراد حتى ولو كانوا خلفاء، أو كانوا على فراش الموت.

***

وتوالت مواقف العمل البطولي من المثنى وإخوته المجاهدين، مما غاظ ملك الفرس، فجمع جيشاً كبيراً، وكتب إلى المثنى يهدّده بذلك الجيش، ويقول في تجبر وكبرياء:

إني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولستُ أقاتلك إلاّ بهم.

فرد عليه المثنى في إيمان وثقة يقول له: «إنما أنت أحد رجلين: إما باغٍ فذلك شرّ لك وخير لنا، وإما كاذب، فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله والناس: الملوك».

والتقى الجيشان: فئة تقاتل في سبيل الله والحق والحرية، وجموع أخرى كافرة فاجرة طاغية، تقاتل في سبيل الشيطان. فزلزل الله قواعد الجبارين، وأيد المجاهدين المخلصين، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

---

(١) أي تدعوهم للخروج معه في الجهاد. يقال: ندبته فانتدب، أي بعثته ودعوته فأجاب.

(٢) أي لقد شاهدت مني ما فعلته عند وفاة الرسول لجمع كلمة الناس، وتذكيرهم بواجبهم.

ولم يكن طريق المثنى في ذلك النضال سهلاً ولا قصيراً، ولا مفروشاً بالورد والرياحين، بل كان طريق كفاح ودم وصبر وشهادة، ومن شواهد ذلك أن الفرس استخدموا ضد المسلمين الفيلة الضخمة التي لم يعرفها المسلمون من قبل، ولم يتدربوا على مقاومتها أو تجنبها فيما سبق، وكانت هذه الفيلة تهجم في بهيمية عمياء على المجاهدين، فتطأ أجسامهم، وتقضي عليهم، وهذا أحد الفيلة مثلاً يصرع القائد العربي أبا عبيد بن مسعود الثقفي، ومع ذلك ثبت لها المثنى ورفاقه، وبطشوا بالكثير منها.

ومن أهوال هذا النضال أن المسلمين اضطروا في معركة «الجسر» التي دارت حول جسر مقام على نهر الفرات، إلى التراجع وعبور الجسر، أمام هجوم شرس من جموع الفرس، وكاد المسلمون يتزاحمون على الجسر، وبذلك تحدث خسائر في الأرواح والعتاد؛ ولكن المثنى وقف أمام الجسر، لينظم حركة عبوره، وقال للجنود:

«أنا دونكم، فاعبروا على هينتكم (أي بنظام واطمئنان) ولا تدهشوا (لا تضطربوا) فإني لن أزايل مكاني حتى أراكم جميعاً قد عبرتم النهر».

ووقف القائد البطل يحمي ظهر جيشه، ويشرف على حركة العبور، حتى عبر الجيش كله، ثم عبر في آخره قائده العظيم: المثنى بن حارثة الشيباني!.

ولقد أصيب المثنى بكثير من الجراح في بدنه يوم موقعة «الجسر» كما أُصيب في غيرها، ومات ببلدة «سيراف» وهي من بلاد العجم، رضي الله عنه.

***

وكان من عادة المثنى في الجهاد أن يبدأه بالتكبير، وكان يقول لجنوده عند بدء القتال: إني مكبِّر ثلاثاً، فتهيئوا، ثم احملوا مع الرابعة.

ومن تصرفاته الحكيمة أنه في موقعة «العذيب» بين المسلمين وفارس، وكانت في شهر رمضان، أمر المجاهدين بالإفطار، ليكونوا أقوى على أعدائهم.

ومن تصرفاته الحكيمة أيضاً أنه سمح للعرب النصارى ـ وكانوا من بني

تغلب وبني النمر ـ بأن يقاتلوا مع المسلمين ضد عدوهم المشترك وهم الفرس. وقال المثنى لأحدهم واسمه أنس:

«يا أنس إنك امرؤ عربي، وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران (قائد جيش الفرس) فاحمل معي أنت ومن معك».

وحدث هذا فعلاً، فتلاقت الأيدي العربية كلها: المسلم منها والنصراني وشاء القدر أن ينال مهران مصرعه على يد شاب من نصارى تغلب! . .

ويروي التاريخ أن زوجة المثنى تزوجها سعد بن أبي وقاص بعد وفاة المثنى، وجاءت معركة القادسية، وكان سعد مثخناً بجراحه، وحينما اشتدّ القتال هتفت المرأة تقول: «وامثناه». وكأنها تريد أن تقول: ليت المثنى كان حياً لينقذ الموقف! .

رضوان الله على الفدائي البطل الذي أمّرَ نفسه: المثنى بن حارثة! .

***

معركة فداء

يوم اليرموك

في السنة الثالثة عشرة من الهجرة.

وفي اليوم الخامس من شهر رجب فيها.

وعند وادي اليرموك، من أرض فلسطين، واليرموك وادٍ بناحية الشام في طرف الغور، ونهر يصب في نهر الأردن، كما يقول ياقوت في «معجم البلدان».

في هذا الزمان وهذا المكان، دارت أول معركة فدائية حاسمة بين العرب المسلمين وأعدائهم الروم المحتلين أرض الشام ومنها فلسطين، وكان عدد المجاهدين من المسلمين في اليرموك فوق العشرين ألفاً، وكان عدد أعدائهم فوق المائتي ألف، وكان جيش الروم نازلاً في «الواقوصة»، وهي واد في الشام، في أرض حوران، قريباً من اليرموك، وقيل إنهم نزلوا فيما بين دير أيوب واليرموك.

وكان ملك الروم «هرقل» قد أدرك ما للعقيدة الإسلامية من قوة وسلطة في نفوس أجناد الإسلام وأتباع محمد ﷺ، فحذر هرقل قومه، وخوّفهم شدة العرب في القتال، وقال لهم فيما قال: «ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنه لا قبل لأحد بهم».

ومن حقه ـ إن لم يكن من واجبه ـ أن يقول ذلك؛ فهؤلاء هم جند الله، وهم رهبان الليل وفرسان النهار، وهم الذين يحرصون على ميته الشهادة، أكثر مما يحرص غيرهم على حياة اللذة والمتاع، وعلى رأس هؤلاء خمسة أمراء كل

واحد منهم بألف، وهم: عمرو بن العاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل.

وكان الروم قد تبجحوا وتوقحوا فقالوا في غطرسة وكبرياء: «والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا». أي سنرغمه على أن يمتنع مع المسلمين عن مقاتلتنا.

وكتب أبو بكر إلى الأمراء الخمسة حينما علم بحقيقة الموقف، يوصيهم بالانضمام والاتحاد، ويقول لهم:

«اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً، والقوا جنود المشركين، فأنتم أنصار الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها»!.

الذنوب... الذنوب... الذنوب. إنها العدو الأكبر المخيف، إن معصية الله تعالى من الجنود هي الضربة القاصمة. ولذلك يركز فيها أبو بكر اهتمامه؛ فهو يقول للمجاهدين إنكم لن تهزموا بسبب قلة العدد، فأنتم فوق العشرين ألفاً، ولا يضيركم أن يكون عدوكم أضعافكم، فأنتم تدافعون عن حق، وهم يتمسكون بباطل، والمحق أقوى من المبطل.

ولكن حذار من الذنوب! حذار من الخطايا! حذار من الآثام، فإنها إن شاعت فيكم أتت عليكم من القواعد، وأصابتكم الهزيمة من جهتها...

وزاد الموقف حماسة وأملاً أن خطب في القوم أربعةٌ من كبارهم وأمرائهم حاثين على بذل الأرواح في سبيل الله جل جلاله.

خطب أبو عبيدة فقال:

«عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار؛ ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، لا تبدأوهم بالقتال، وأشرعوا المراح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلاّ من ذكر الله في أنفسكم».

وخطب معاذ بن جبل فقال:

«يا أهل القرآن، ومتحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تُدخَل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلاّ الصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحد من دونه، ولا عز بغيره».

ثم دعا فقال عن الأعداء: «اللهمّ زَلزِلْ أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبّب إلينا اللقاء، وأرْضِنا بالقضاء».

وخطب عمرو بن العاص فقال:

«يا أيها المسلمون، غضوا الأبصار، واجثوا على الرُّكَب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحساناً، لقد سمعتُ أن المسلمين سيفتحونها كَفراً كَفراً[١]، وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد لتطايروا تطاير أولاد الحَجَل»[٢].

وخطب أبو سفيان فقال:

«يا معشر المسلمين، أنتم العرب، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً، إلاّ صدق اللقاء، والصبر في المواطن المكروهة؛ ألا وإنها سنة لازمة، وإن الأرض

---

(١) الكفر: بفتح الكاف: القرية.

(٢) الحجل: نوع من الطيور، يسمى أيضاً القبج، والواحد حجلة.

وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحار وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلاّ الصبر، ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم، وتعاونوا، ولتكن هي الحصون.

يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم. الله الله، إنكم دارة[1] العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك».

***

ومن شواهد الإيمان المتألق بين القوم يومئذ أن مجاهداً من المجاهدين أقبل على أبي عبيدة القائد وقال له: إني قد تهيأت لأمري (يعني الشهادة) فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟.

فقال أبو عبيدة: نعم، تقرئه عني السلام، وتقول له: يا رسول الله، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً...

ولما بدأت المعركة انطلق هذا المجاهد يناضل بجسارة وإقدام، فكان أول شهيد في المعركة؛ ومضى ليحمل رسالة أبي عبيدة إلى رسول الله في عالم الخلد ﷺ..

واحتدم القتال، واشتد النضال، وأخذ المسلمون يَقتلون ويُقتلون، حسبما تعاقدوا مع ربهم سبحانه، وأبو سفيان يصيح خلال الجنود قائلاً: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين.

وكان الخليفة أبو بكر قد أراد أن يجعل هذه المعركة فاصلة حاسمة، فرأى أن يقوي عزيمة المجاهدين فيها بعبقرية سيف الله المسلول: خالد بن الوليد، الذي كان يجاهد حينئذ في جبهة العراق ضد الفرس، فأرسل إليه ليرحل مسرعاً إلى جبهة الشام، فيقود معركة اليرموك.

---

(١) الدارة هي الدار، وقيل إن الدارة أخص.

وقال أبو بكر: «والله لأشغلن الروم عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وكذلك كان. فحينما وصل خالد أرض المعركة اتصل به قائد الروم، وحاول التأثير فيه بعرض متاع الدنيا عليه، فقال لخالد: نحن نعلم أن الذي أخرجكم إلى الحرب هو الجوع، وسنعطي كلّ رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً وتعودون، وفي العام القادم نرسل لكم مثلها.

وابتسم خالد ساخراً، ثم تجهم مكشراً، ثم أحسن استخدام الحرب النفسية قائلاً للقائد الرومي المغرور: إنه لم يخرجنا ما ذكرت، ولكنا قوم نحب شرب الدماء، وقد بلغنا أنه ليس هناك دم أطيب من دم الروم فجئنا لنشرب منه.

فألقى خالد الرعب في صدر القائد بهذا التصوير الخيالي الذي استلزمه موقف الردع القائم على بث الخوف والهلع في صدور الأعداء.

ويروى أن رجلاً من نصارى العرب قال لخالد يومئذ: ما أكثر الروم، وما أقل المسلمين!

فقال خالد: أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال.

***

ولم تكن المعركة سهلة ولا يسيرة، بل كانت معركة عنيفة ثقيلة شرسة، دفع المؤمنون ثمنها الكبير برضىً وحسن قبول. وحسبنا أن نعلم أنهم قدموا فيها ثلاثة آلاف من خيار الشهداء الذين ضربوا أروع الأمثال في التضحية والفداء، حتى بلغ من شأنهم أن جماعة منهم كانوا جرحى، وجاءتهم شربة ماء فهمّ أحدهم بشربها فلما أدناها من فمه نظر إليه رفيقُ سلاح آخر، فحسب أنه أشد منه عطشاً، فقال لحامل الشربة: احملها إليه.

فلما قُدّمت إلى الثاني رأى ثالثاً ينظر إليه، فقال لحامل الشربة: احملها إليه.

وهكذا تدافعوها من واحد إلى واحد، حتى ماتوا، ولم يشربها واحد منهم رضوان الله على الجميع.

وكانت النتيجة التي حققها المسلمون جليلة عظيمة، وقد اندحر جيش الروم، وسقط منه عشرات الآلاف من القتلى، وأتم الله نصره على جيش الإسلام الذي حرص أبناؤه على الموت فوهبهم الله حياة العزة والشرف، بعد أن قاتلوا قتالاً شديداً، وناضلوا نضالاً مجيداً.

ولم يقتصر الجهاد يومئذ على الرجال، بل اشترك فيه نساء الإسلام، حيث وقفن في الخطوط الخلفية يمارسن ما يستطعن من شؤون المعركة، وقد مرَّ بهن خالد بن الوليد وفي أيديهن السيوف، فقال لهن: إذا رأيتن شخصاً مولّياً فاقتلنه.

ومر عليهن أبو سفيان أيضاً وقال لهن: من رأيتنه فارّاً فاضربنه بهذه الأحجار والعصي حتى يرجع.

ويقول الإمام ابن كثير: «وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلن خلقاً كثيراً من الروم، وكنّ يضربن من انهزم من المسلمين، ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج»[1]؟!

اشتركت في المعركة ـ مثلاً ـ أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، وقتلت بعمود خيمتها تسعة من الروم، وكانت ليلةُ المعركة هي ليلةَ عرسها، وسكنت دمشق، وتوفيت سنة تسع وستين، ودفنت بباب الصغير[2].

وكانت خولة بنت ثعلبة تحرض المجاهدين في معركة اليرموك، وتقول [من الرجز]:

يا هارباً عن نسوة نقيات فعَنْ قليل ما تُرى سبيات
ولا حصينات ولا رضيّات[3]

***

(١) العلج: الرجل من كفار العجم وغيرهم، وجمعه علوج وأعلاج.
(٢) البداية والنهاية، ج ٨ ص ٣١٢.
(٣) المرجع السابق، ج ٧ ص ١١.

ويروي الإمام ابن كثير أن أحد الأمراء الكبار من صف الروم واسمه «جرجه» طلب لقاء خالد بن الوليد، فاستجاب له خالد، فقال جرجه: يا خالد، أخبرني فأصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله: هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء، فأعطاكه، فلا تسله على أحد إلاّ هزمتهم؟

قال: لا.

قال جرجه: فبم سُمّيت سيف الله؟

قال: إن الله بعث فينا نبيه، فدعانا، فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعاً، ثم إنَّ بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا كذّبه وباعده، فكنتُ فيمن كذبه وباعده.

ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به وبايعناه، فقال لي: أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين، ودعا لي بالنصر، فسميتُ سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجه: يا خالد، إلامَ تدعون؟

قال خالد: إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل.

قال جرجه: فمن لم يجبكم؟

أجاب خالد: فالجزية، ونمنعهم.

قال جرجه: فمن لم يعطها؟

أجاب خالد: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله.

قال جرجه: فما منزلة من يجيبكم، ويدخل في هذا الأمر اليوم؟

أجاب خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا.

قال جرجه: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال خالد: نعم وأفضل.

قال جرجه: وكيف يساويكم وقد سبقتموه.

أجاب خالد: إنا بايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟

أجاب خالد: تالله صدقتك، وإن الله وليّ ما سألتَ عنه.

تقول رواية ابن كثير: فعند ذلك قلب جرجه الترس، ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام.

فمال به خالد إلى فسطاطه، فصب عليه قربة من ماء، ثم صلى به ركعتين، ثم انضم جرجه إلى القتال في صف المسلمين، وأصيب في هذه المعركة عليه رحمة الله[١].

***

ولقد قال هرقل لجنوده المنهزمين: ويلكم، أخبروني عن هؤلاء القوم الذي يقاتلونكم، أليسوا بشراً مثلكم؟

قالوا: بلى.

قال: فأنتم أكثر أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون العهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون فيما

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢ و١٣.

بينهم، ومن أجل أنّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

فقال هرقل: أنت صدقتني.

رضوان الله تبارك وتعالى على المجاهدين الشهداء، الذين صدقوا الجهاد في معركة الفداء: في يوم اليرموك

***

المجاهد صاحب الهجرات الثلاث

أبو موسى الأشعري

قد يكون المؤمن قليلاً في جسمه، كثيراً في علمه وفهمه، وقد يخف وزنه في بدنه وحسه، ويرجح مقداره في قلبه ونفسه، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه. وقد يكون المؤمن طيب القلب دمث الأخلاق، لا يعرف خداعاً ولا مواربة، حتى تذهب به ظنون الناس مذاهبها، فيتوهمون فيه الغفلة أو البلاهة؛ ولكنه حين يجد الجد يريهم من نفسه همم الأطال وعزائم الأسود.

وفي تاريخ الإسلام لمثل هذا المؤمن نماذج تألقت وبقيت على الأيام.

ومن هذه النماذج الصحابي الجليل: أبو موسى الأشعري، واسمه عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار الكوفي، وأمه هي طيبة بنت وهب، وهي سيدة أسلمت وتوفيت بالمدينة.

ويقول عنه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: كان بالأحكام والأقضية عالماً وفي أودية المحبة والمشاهدة هائماً، وبقراءة القرآن في الحنادس مترنماً وقائماً، وفي طويل الأيام والحرور طاوياً وصائماً»[١].

وعامة الناس لا يعرفون عن أبي موسى الأشعري إلاّ موقفه يوم التحكيم بين علي ومعاوية، ويرون أنه كان غير بصير بمداخل السياسة وأساليب الخداع ولكن أبا موسى رجل له تاريخ وجهاد وبطولة.

إن أبا موسى الأشعري هو الذي بشره رسول الله ﷺ، كما بشر معه

(١) الحلية، ج ١ ص ٢٥٦. والحنادس: جمع حندس، والليلة الحندس هي الشديدة الظلمة.

بلال بن أبي رباح، بالخير في الدنيا والآخرة، كما روى الإشارة إلى ذلك الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وينتسب أبو موسى إلى قومه الأشعريين المنسوبين إلى أبيهم «الأشعر» من أهل اليمن.

وقد جمع رسول الله ﷺ للأشعريين المؤمنين بين صفتي الشجاعة والأمانة فقال: «نعم الحي الأشعريون، لا يفرون من القتال، ولا يُغلّون، أي لا يخونون، هم مني وأنا منهم»(١).

ثم أضاف إليهم منقبة جليلة ثالثة، وهي التكافل فيما بينهم، فقال: «إن الأشعريين إذا أرملوا (أي نقص زادهم) في الغزو، أو قل طعامهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

ويا له من شرف عظيم لأبي موسى وقومه حينما يكرر المصطفى قوله في شأنهم: «فهم مني وأنا منهم».

واشتهر الأشعريون بقراءة القرآن الكريم في الليل، حتى قال رسول الله ﷺ فيما يرويه مسلم: «إني لأعرف أصوات الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار».

* * *

وقد قدم أبو موسى الأشعري من بلدة «اليمن» إلى مكة، فلقي رسول الله ﷺ قبل أن يهاجر من المدينة، وأعلن إسلامه. ثم عاد إلى اليمن بتوجيه من النبي، ليبشر بدين الله بين قومه، وليكون مع معاذ بن جبل هناك يعاونه في التعليم والإرشاد.

وبعد حين خرج أبو موسى الأشعري من بلده مهاجراً إلى المدينة، ومعه عشرات من قومه، قد هداهم الله إلى الإسلام بتعليمه، وركبوا البحر، فألجأتهم

(١) رواه الترمذي.

الرياح إلى أرض الحبشة، ثم قدموا مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة يوم فتح الله على المسلمين حصون خيبر، ولذلك كان يقال لأبي موسى الأشعري: ذو الهجرات الثلاث.

وفرح الرسول بهؤلاء المهاجرين، وأثنى عليهم، وأسهم لهم من غنائم خيبر، ولم يسهم منها لأحد غاب عن فتحها سواهم.

ويروى أن الرسول استعمل أبا موسى على زبيد وعدن وساحل اليمن، واستنابه عمر بعد ذلك على البصرة، وولاه عثمان الكوفة.

وكان أبو موسى رجلاً سليم النية، طاهر القلب، كثير العبادة والتهجد، كثير الصيام والقيام، وكان يتحرى اليوم الطويل الشديد الحر في أشد شهور السنة قيظاً، ويصومه، ليعوّد نفسه الصبر والاحتمال.

ومع ذلك كان بارعاً في الجهاد، صاحب شجاعة وإقدام، حتى قيل إن الرسول قال فيه: «سيد الفوارس أبو موسى الأشعري».

ولقد اشترك مع رسول الله ﷺ في «غزوة ذات الرقاع» التي أعطتنا صورة من صور الاحتمال لخشونة الجهاد، وكانت في السنة الرابعة للهجرة، وفيها يقول أبو موسى:

خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، ونحن ستة نفر نعتقب[١]، ونقبت[٢] أقدامنا، ونقبت قدماي، وتساقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب على أرجلنا الخرق»[٣].

وكذلك خرج أبو موسى الأشعري مع عمه أبي عامر الأشعري في سرية فدائية إلى «أوْطاس» ـ وأوطاس واد في ديار هوازن ـ ليهاجموا فيها أعداءهم

(١) نعتقب: أي يتعاقبون في الركوب واحداً بعد واحد، ويقال: هذه عقبة فلان، أي نوبته ووقت ركوبه. ويعتقبون: أي يتناوبون.

(٢) نقبت: رقت جلودها، وتقرحت من الحفاء، من المشي.

(٣) حلية الأولياء، ج ١ ص ٢٦٠.

وكان عمه هو قائد السرية، وحدث أن رمى بعض الأعداء ـ وهو رجل من جشم ـ سهماً فأصاب أبا عامر في ركبته إصابة عميقة.

وهنا أسرع أبو موسى الأشعري إلى رامي السهم وقتله، ثم عاد فنزع السهم من ركبة عمه أبي عامر، ولكن أبا عامر أحس بالموت بعد قليل، فأناب عنه أبا موسى في قيادة السرية، وقال له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام وقل له: استغفر لأبي عامر! ولفظ أبو عامر نفسَه الأخير، ومضى إلى ربه شهيداً، عليه رضوان الله تعالى.

ورجع أبو موسى الأشعري إلى النبي، وأخبره بما حدث، وذكر له رجاء عمه في دعاء الرسول، فنهض الرسول ـ كما تقول السيرة ـ وتوضأ، ثم رفع يديه ودعا قائلاً: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك. وانتهز أبو موسى الفرصة فقال: ولي يا رسول الله فاستغفر. واستجاب النبي لرجاء أبي موسى فدعا قائلاً: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس (وهو أبو موسى الأشعري)، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريما[١].

ولم يقتصر جهاد أبي موسى الأشعري على ما سبق، بل افتتح الأهواز من بلاد فارس. يقول ياقوت نقلاً عن البلاذري: «غزا المغيرة بن شعبة سوق الأهواز في ولايته، بعد أن شخص عتبة بن غزوان من البصرة في آخر سنة ١٥ أو أول ١٦، فقاتله البيرواَنُ دهقانها، ثم صالحه على مال، ثم نكث فغزاها أبو موسى الأشعري حين ولاه عمر البصرة بعد المغيرة، ففتح سوق الأهواز عنوة، وفتح نهر تيري عنوة، وولي ذلك بنفسه في سنة ١٧».

ثم يقول: «ثم سار أبو موسى ففتح سائر بلاد خوزستان»[٢].

وافتتح مدينة «أصبهان» سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وصالح أهلها على الجزية حسب رغبتهم وإرادتهم، وحينما هموا بمخادعة أبي موسى وخيانته أنزل بهم التأديب الرادع، فاستقاموا على الطريقة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) معجم البلدان، ج ١ ص ٢٨٥و ٢٨٦.

وكان أبو موسى الأشعري قائداً للجيش الذي قام بمعركة «تُستُر» من أعظم مدن فارس، وكان البراء بن مالك على ميمنة أبي موسى، وعلى ميسرته مجزأة بن ثور السدوسي، وعلى الخيل أنس بن مالك، وأمدَّ عمر أبا موسى بعمار بن ياسر، وعلى ميمنته البراء بن عازب، وعلى ميسرته حذيفة بن اليمان العبسي، وعلى خيله قَرَظَةُ بن كعب الأنصاري، وعلى رجاله النعمان بن مقرّن المزني.

واستطاع أبو موسى بعد جهاد مرير أن يفتح المدينة بالحيلة، وأسر قائد جيش الأعداء «الهرمزان»(١).

واستمر أبو موسى في جهاده وغزواته ومعاركه.

***

وحينما نشب الخلاف بين علي ومعاوية اعتزل أبو موسى الأشعري الفتنة، ولم يقبل الاشتراك، فيها، لأنه لا يرضى أبداً أن يتقاتل المسلمون فيما بينهم مهما كانت الأسباب، وحينما دُعيَ إلى التحكيم بين علي ومعاوية كان يرى فضّ هذا النزاع بالعودة إلى الأمة، لتختار لها خليفتها من جديد، بعد أن عصفت الحرب الأهلية بكيانها.

وإذا كان مكر السياسة قد خدع أبا موسى في موقف التحكيم فإن تبعة ذلك لا يبوء بها أبو موسى.

***

ومع هذه البطولة كان أبو موسى الأشعري معلّماً للقرآن الكريم، كان يعلم الناس القرآن في اليمن، وكان يعلم الناس القرآن في البصرة، وكان يقول للناس فيها وهو يعقد لهم حلقات تحفيظ القرآن: «إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم عز وجل، وسنة نبيكم ﷺ، وأنظف لكم طرقكم».

وكان يجمع قراء القرآن الكريم ويقول لهم: أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب أهل الكتاب».

---

(١) المرجع السابق، ج ٢ ص ٣٠.

ويقول أيضاً: «إن هذا القرآن كائن لكم أجراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زخّ في قفاه[١]، فقذفه في النار».

وكان لأبي موسى الأشعري صوت جميل رائع، وكان حسنُ صوته يتجلى كأروع ما يكون حينما يرتل كتاب الله تعالى، وكان الرسول ﷺ يقول له: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[٢].

وسمع النبي قراءته ذات ليلة، ثم قال له عند الصباح: «يا أبا موسى، مررت بك البارحة ومعي عائشة، وأنت تقرأ، فقمنا فاستمعنا لقراءتك». فقال: «يا نبي الله، أما أني لو علمت بمكانك لحبرت لك القرآن تحبيراً». أي لبالغت في تحسين قراءتي لك.

ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحب أن يسمع القرآن من أبي موسى الأشعري، فيقول له: يا أبا موسى، ذكّرنا ربنا عز وجل. ويستجيب أبو موسى فيقرأ، ويجلس عمر ومن معه يستمعون إليه في إنصات وتأثر وخشوع.

وفوق هذه البطولة في الجهاد، والحلاوة في الصوت، والإجادة في الترتيل، كان أبو موسى أحد أربعة طارت شهرتهم في القضاء والإفتاء، وهم عمر، وعلي، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، رضوان الله عليهم أجمعين.

ولا عجب في ذلك، فإن المهاجر صاحب الهجرات الثلاث، البطل المجاهد في كثير من المعارك والغزوات، الكثير التقرب إلى الله بالطاعات والقربات، كان فوق هذا كثير الرواية للأحاديث عن رسول الله ﷺ، حتى روى عنه ثلاثمائة وستين حديثاً.

***

(١) زخه يزخه: أي دفعه ورمى به. وفي رواية: «اتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فإنه من يتبعه القرآن يزخ في قفاه».

(٢) شبه حسن صوته وحلاوة نغمته بالمزمار. وداود النبي كان إليه المنتهي في حسن الصوت بالقراءة.

وكان أبو موسى صاحب ذوق وأدب: بينما رسول الله ﷺ يمشي وامرأة بين يديه، فقال لها أبو موسى: الطريقَ لرسول الله ﷺ. فقالت في جفاء وغلظة: الطريق معرَّض، إن شاء أخذ يميناً، وإن شاء أخذ شمالاً. فقال النبي: دعوها فإنها جبّارة (أي متكبرة عاتية).

وكان أبو موسى شديد الحياء من ربه، حتى قال: إني لأغتسل في البيت المظلم فيما أقيم صلبي حتى آخذ ثوبي، حياء من ربي عز وجل». وكأن هذا غاية ما يتصوره الإنسان من سلطان الحياء على أهل الإيمان.

وقد لحق أبو موسى الأشعري بربه بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، واختلف المؤرخون في تحديد السنة التي توفي فيها، فقيل إنه توفي سنة ثنتين وأربعين، وقيل سنة أربع وأربعين، وقيل سنة خمسين، وقيل سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ثنتين وخمسين، وهذا القول الأخير هو الصحيح.

وقيل توفي في مكة، وقيل توفي في الكوفة، وقيل في مكان يقال له «الثوية» على ميلين من الكوفة.

وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

رضوان الله على المجاهد صاحب الهجرات الثلاث أبي موسى الأشعري.

***

الزاهد المجاهد الشهيد

إبراهيم بن أدهم

اتفقت كلمة العقلاء البصراء على أن الوطن غالٍ وعزيز، لا يهون إلاّ عند الجهول أو الكفور، ولذلك يقول الأثر الإسلامي الحكيم: «حب الوطن من الإيمان». وهذا هو سيدنا رسول الله ﷺ يقول مخاطباً وطنه الأول «مكة» وهو مهاجر: «والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، والله لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»!

وهذا هو القرآن الكريم يعلمنا أن الإخراج من الوطن جريمة كبرى لا يسكت عليها غيور، ولا يرضى بها كريم، فيقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾[1] [الممتحنة: ٩].

وأبناء الوطن الأبرار الأخيار لا ينقطعون عن خدمته أبداً، فإن كان وطنهم في عهد سلام وأمان دأبوا على توطيده وتأييده ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فشيدوا دعائمه، وثبتوا أركانه، وواصلوا فيه مراحل التعمير والتثمير، حتى يكون خير وطن لخير أمة أُخرجت للناس، لأن المؤمن يكون دائماً صالحاً في نفسه، مصلحاً لغيره، نافعاً لبلاده، معاوناً في كل مجال من مجالات السعي الطيب والعمل المشكور: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) يمكن الرجوع إلى بحث واسع عن «حب الوطن في نظر الدين» في كتاب «الدين والمجتمع»، ص ٣٥ـ ٧١ طبعة سنة ١٩٧٠، وكتاب «حب الوطن في نظر الدين» ضمن سلسلة «اخترنا للجندي»، طبعة سنة ١٩٦٤. وكلاهما لصاحب هذا الكتاب.

وإن صار هذا الوطن إلى حالة حرب أو خطر بأن احتُلت أرضُه، أو ديست حرماته، أو أُهينت مقدساته، انقلب هؤلاء الأبناء المعمّرون المشيدون إلى أسود ضراغم، ونسور كواسر، لا ينامون على ضيم، ولا يرضون بذل، بل يسارعون إلى الدفاع عن الحمى، وكل منهم يؤدي ما يستطيع، فمن كان صالحاً لحومة الوغى بادر إليها ولم يتقاعس عنها، ومن صلح للإعداد والإمداد لم يقصر في ذلك، ومن صلح للإنتاج من أجل المعركة ـ في زراعة أو صناعة أو تجارة أو تدريب ـ لم ينم ولم يفرّط. . . وهكذا.

وثمة نجد الأمة فريقين: أما الفريق الأول منها فهم خلاصة أبنائها الذين يسارعون إلى ميدان الغزة والشرف، يحملون السلاح بيد، والروح باليد الأخرى، ويواجهون الأعداء لردعهم وصدعهم.

والفريق الآخر هم بقية الشعب أو الأمة، الذين يتحتم عليهم أن يكونوا على مستوى التبعة والواجب، في ليلهم ونهارهم، في سرهم وجهرهم، في عملهم وقولهم، في اجتماعهم وانفرادهم، فيصبحوا درعاً لهؤلاء المقاتلين، حتى يتهيأ خَلْفَ الميدان كلّ ما تحتاج إليه المعركة من أسباب النصر والنجاح.

***

وتاريخ هذه الأمة المؤمنة حافل بمواقف البطولة والرجولة، التي نرى فيها كل مؤمن بار من أبنائها لا يفكر يوماً في التنكر لواجب، أو التراجع عن مكرمة.

حتى عُبّاد هذه الأمة وزهادها، الذين نراهم في أوقات الأمان والاطمئنان رهبان ليل وعُمّار محاريب، نجدهم ينقلبون إلى فرسان جهاد وطلاّب شهادة حينما يجدُّ الجد، وتأتي ساعة الكفاح، مستجيبين في ذلك لقول ربهم جل جلاله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

***

وهذا واحد من أولئكم الزهاد العُبّاد، الذين لم يقصّروا في واجب الجهاد، ولم يترددوا في طلب الاستشهاد:

إنه أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن زيد بن جابر التميمي العجلي الصوفي المشهور، الذي نشأ من سلالة عربية كريمة، وكانت ولادته في بلخ ـ وقيل في مكة ـ وكانت أسرته في نعمة واسعة وجاه عريض، وتعلم الفروسية والصيد، وحينما بلغ الشباب، ورأى ما يتقلب فيه من نعيم، تدبر أمر نفسه، وهنا استيقظ من أعماقه صوت الإيمان والواجب، ليهتف به: يا إبراهيم ما لهذا خُلقت، ولا بهذا أُمرت!

وكأن هذا الهاتف أراد أن يقول له بلغتنا: كيف تلهو وتلعب ودينك في حاجة إليك، ووطنك في حاجة إليك، وأبناء وطنك في حاجة إليك، وحرمات وطنك في حاجة إليك، ومقدسات وطنك في حاجة إليك، وعقيدتك في حاجة إليك؟..

وعرف إبراهيم بن أدهم طريقه، فأيقظ دواعي الهمة واليقين في نفسه، فتعبد وتنسك، ورحل هنا وهناك في طلب المعرفة والفقه، ليزداد بالله والدين علماً، وبواجبات المناضل المؤمن في الحياة بصراً، وأصبح القرآن والسنّة له هادياً ودليلاً، لأن صوت النبوة يقول له: أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ.

وصحب إبراهيم بن أدهم الأعلامَ من أمثال سفيان الثوري والفضيل بن عياض، وأبي يوسف الغسولي الورع العابد الذي كان يلزم الثغر ويغزو، وسمع الكثير من العلوم والمعارف؛ وهذا ـ مثلاً ـ أسلم بن يزيد الجهني التابعي الثقة يقول لابن أدهم من جملة عظته له:

«إن العبد لا يتم رجاؤه لثواب الله تعالى حتى يحمل نفسه على الصبر... إن أدنى منازل الصبر أن يروض العبد نفسه على احتمال مكاره الأنفس... وإذا كان محتملاً للمكاره أورث الله قلبه نوراً، وهو سراج يكون في قلبه، يفرق به بين الحق والباطل، والناسخ والمتشابه...

يا غلام، إياك إذا صحبت الأخيار، أو حادثت الأبرار، أن تُغضبهم

عليك، فإن الله يغضب لغضبهم، ويرضى لرضاهم، وذلك لأن الحكماء هم العلماء، وهم الراضون عن الله عز وجل إذا سخط الناس، وهم جلساء الله غداً بعد النبيين والصديقين.

يا غلام، احفظ عني واعقل، واحتمل ولا تعجل، فإن التأني معه الحلم والحياء، وإن السفه معه الخُرْق والشؤم. . .

إياك والبخل: أما البخل عند أهل الدنيا فهو أن يكون الرجل بخيلاً بماله، وأما الذي عند أهل الآخرة فهو الذي يبخل بنفسه عن الله تعالى. ألا وإن العبد إذا جاد بنفسه لله، أورث قلبه الهدى والتقى، وأُعطي السكينة والوقار، والعلم الراجح، والعقل الكامل، ومع ذلك تفتح له أبواب السماء، فهو ينظر إلى أبوابها بقلبه كيف تفتح، وإن كان في طريق الدنيا مطروحاً. . .

واعلم أن العبد إذا قلاه الأخيار، واجتنب صحبته الورعون، وأبغضه الزاهدون، فإن له استعتاباً من الله تعالى، لكي يُعْتبه[1]، فإن أعتب الله عز وجل، أقبل بقلوبهم عليه، وإن تمرد على الله أورث قلبه الضلالة، مع حرمان الرزق، وجفاء من الأهل، ومقت من الملائكة، وإعراض من الرسل بوجوههم، ثم لم يبال الله في أي واد يهلكه. . .

يا غلام، إن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الرضى عن الله لباساً، وحبّه دثاراً، والأثرة له شعاراً، فتفضُّلُ الله تعالى عليهم ليس كتفضله على غيرهم.

لا تطمع في السهر مع الشبع، ولا تطمع في الحزن مع كثرة النوم، ولا تطمع في الخوف مع الرغبة في الدنيا، ولا تطمع في الأنس بالله مع الأنس بالمخلوقين، ولا تطمع في إلهام الحكمة مع ترك التقوى، ولا تطمع في الصحة في أمورك مع موافقة الظَّلمة، ولا تطمع في حب الله مع محبة المال والشرف، ولا تطمع في لين القلب مع الجفاء لليتيم والأرملة والمسكين، ولا تطمع في الرقة مع فضول الكلام، ولا تطمع في رحمة الله مع ترك الرحمة للمخلوقين،

(١) استعتب الله عبده: أي طلب منه أن يرجع عن الإساءة ويطلب الرضى. وأعتب العبد ربه: أي عاد إلى مرضاته.

ولا تطمع في الرشد مع ترك مجالسة العلماء، ولا تطمع في الحب لله مع حب المدحة، ولا تطمع في الورع مع الحرص على الدنيا، ولا تطمع في الرضى والقناعة مع قلة الورع»[١].

***

وعاهد إبراهيم بن أدهم ربه سبحانه ـ بعد أن تعلم وتفقه وتنسك ـ ألا يكون عالة على سواه، وأن لا يكون «عاطلاً بالوراثة» وألا يتكل على ثروة أبيه أو جاه أسرته، وألاّ يأكل إلاّ من عمل يده وثمرة عرقه، فاشتغل بالزراعة والحصاد وطحن الغلال وغير ذلك من الحرَف، وهو العالم الزاهد العابد، لأن سيدنا رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

وهكذا كان ابن أدهم في مجتمعه إنساناً عاملاً مثمراً مفيداً، ولم يقبل أن يكون عضواً أشلّ في الأمة بدعوى الزهد أو التعبد، بل أصرَّ ـ فوق هذا ـ على أن يكون نافعاً لسواه، فتجاوب مع أبناء وطنه ودينه: يعينهم ويحسن إليهم، ويضع يده في أيديهم، وينفق من ماله على الحق لا على الباطل.

وكان مع هذا عفيفاً كريم النفس، يأبى المهانة والذل، ولقد قال له رجل: أريد أن تقبل مني دراهم. فقال ابن أدهم له: إن كنتَ غنياً قبلتُها منك، وإن كنتَ فقيراً لم أقبلها. قال الرجل: فإني غني. قال ابن أدهم: كم تملك؟ فقال الرجل: ألفي درهم. قال ابن أدهم: أفيسرك أن تكون أربعة آلاف؟ فقال الرجل: نعم. قال ابن أدهم: لستَ بغني، ودراهمك لا أقبلها.

والعبرة التي أرادها إبراهيم من هذا الحوار دقيقة عميقة يدركها على وجهها الأحرار من الرجال، الذين لا يقبلون أن يكونوا أسارى لغيرهم من أصحاب الأموال، بل يعتصمون بالعزة والإباء.

ولا عجب في ذلك؛ فابن أدهم هو الذي يقول: «لن ينال الرجل درجة

---

(١) المذكور هنا من العظمة هو مقطوفات من الحوار الذي جرى بين ابن أدهم والجهني، وهو حوار طويل تجده في «طبقات الصوفية» للسلمي، ص ٣٢ـ ٣٥.

الصالحين حتى يغلق على نفسه باب النعمة، ويفتح عليها باب الشدة»[١]! ويا لها من عبارة لا ينهض بتبعاتها إلاّ أبطال الرجال.

ثم نادى منادي النضال أن حيَّ على الجهاد، حي على الفلاح: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وسرعان ما استجاب ابن أدهم لهذا النداء.

فقد هجم الروم على بلاده، ووجب القتال على المؤمنين أمام هذا العدوان، فرأى ابن أدهم أن مسبحته الآن هي السيف، وأن مسواكه هو الرمح، وأن محرابه هو الميدان، وأن تراب المعركة أو دخانها أطيب عند الله من ريح المسك، فخلع ثياب الزاهد، وارتدى ثياب المجاهد، ومضى إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض.

وهناك شارك فيما يسّر الله تعالى له من معارك، وأظهر من الشجاعة والبطولة ما أظهر، ثم شارك في معركة بحرية ضد أعدائه الروم، حتى كتب الله له نعمة الشهادة سنة إحدى وستين ومائة للهجرة.

وحمله المجاهدون من رفاقه في السلاح، وهو بين الحياة والموت، وهناك على شاطىء البحر، في مدينة «جبلة» ـ وهي على ساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ـ أخذ ابن أدهم يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ولكن يا عجبا للمجاهد العابد الزاهد الشهيد، المقبل على دار البقاء. لقد جاهد نفسه حتى قال بصعوبة لمن حوله: «أوتِروا لي قوسي» أي أعدوها لاستعملها في الرمي.

وألح على رفاقه في ذلك حتى استجابوا، ومدّ ابن أدهم يده فتناول القوس بمشقة، وصوَّبها جهة العدو، وما هي إلاّ لحظات حتى لفظ نفسه الأخير، فمات ويده ممسكة بالقوس، كأن الزاهد العابد الشهيد يريد أن يلقى الله رب العالمين، وهو على هيئة المجاهدين، ليقال له من عالم الخلد:

(١) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، ج ٣ ص ٦٥٢.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

ولقد رثاه ابن أخته الشاعر محمد بن كناسة [(١)] بقصيدة جاء فيها قوله [من الطويل]:

وكان يرى الدنيا قليلاً كثيرها ... وكان لأمر الله فيها معظَّما
أمات الهوى حتى تجنّبه الهوى ... كما اجتنب الجاني الدم الطالب الدما
وللحلم سلطان على الجهل عنده ... فما يستطيع الجهل أن يترمرما [(٢)]
وأكثر ما تلقاه في القوم صامتاً ... وإن قال بذَّ القائلين وأحكما
يُرى مستكيناً خاضعاً متواضعاً ... وليثاً إذا لاقى الكتيبة ضيغما
وعلى الجدث الغربي من آل وائل ... سلام وبر، ما أبّر وأحكما [(٣)]

ولقد كان لابن أدهم كلمات سواطع جوامع، تدل على قوة الإرادة وثبات العزيمة، فهو مثلاً يقول: «مَنْ عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل» ويقول: «أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان». ويقول:

«اتخذ الله صاحباً، ودع الناس جانباً».

ويقول: «اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ستّ عقبات:

أولاها: أن تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة.

والثانية: أن تغلق باب العز، وتفتح باب الذل [(٤)].

والثالثة: أن تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد.

والرابعة: أن تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر.

---

(١) يقول الأصبهاني: «كانت أم محمد بن كناسة امرأة من بني عجل، وكان ابراهيم بن أدهم خاله، أو ابن خاله». الأغاني ج ١٣ ص ٣٤١ طبعة دار الكتب، وقد توفي ابن كناسة سنة ٢٠٧ هـ.
(٢) ترمرم: تحرك للكلام ولم يتكلم.
(٣) الأغاني، ج ١٣ ص ٣٤١. ويعني بالجدث الغربي قبر ابن أدهم.
(٤) يقصد الذل لله تعالى..

والخامسة: أن تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر.

والسادسة: أن تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت».

ولقد مر ابن أدهم على باب السلطان وقد أحيط بالحرس والسلاح، فقال: «المريب خائف»[١].

رضوان الله على العابد الزاهد المجاهد الشهيد: إبراهيم بن أدهم..

***

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ٣٤٣.

الشهيد العارف بربه

حارثة بن سراقة الأنصاري

إن العقيدة الصادقة تجعل صاحبها يصنع الأعاجيب، لأن الاعتقاد الحق قوة راسخة، تنشأ عن نظر وتدبُّر ومعرفة، والمعرفة في لغة الإيمان نور يسطع في القلب، ويتمكَّن من العقل، فيكون رائداً على الطريق، وهادياً إلى اليقين. والعارف بالله تعالى هو الذي يهتدي إلى سبيل ربه، عن طريق التدبر في ملكوته، ثم يلتزم الاستقامة على طريقه؛ ولذلك قال الحارث المحاسبي: «المعرفة تورث الإنابة».

والإنابة رجوع إلى الله سبحانه، والتزام لبابه، واعتصام بأسبابه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم ٣٠و ٣١].

وإذا اهتدى الإنسان إلى نور المعرفة قصر نفسه على حمى ربه، لا يعرف سواه، ولا يتَّجه إلى من عداه، ومن هنا قال البلخي الصوفي: «مَنْ عرف الله اكتفى به». وقال أبو زيد البسطامي: «مَنْ عرف الله فإنه يزهد في كل شيء»!..

ولقد خرَّجت مدرسة سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم رجالاً نظروا فاعتبروا، وتفكَّروا فتدبَّروا، ثم عرفوا فسلكوا، وأقاموا على الطاعة في مختلف المجالات، لا يفرِّقون بين خشية في عبادة وصرامة في جهاد، ولا يفرقون بين دمعة تسيل في محراب وقطرة دم تسيل في سبيل الله، فهُمُ الأتقياء أهل الصفاء، وهم الأوفياء أهل الفداء.

ومن هؤلاء: الصحابي الشاب المناضل الشهيد، المتبتل العارف باللّه جل جلاله، حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدي بن مالك الخزرجي النجاري الأنصاري، وأمه هي الصحابية الأنصارية المؤمنة: الرّبيع بنت النضر، عمة أنس بن مالك.

وكان حارثة مطيعاً لأمه، محباً لها أعمق الحب، بارّاً بها أعظم البر، حتى رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دخلت الجنة فوجدت حارثة كذلكم البرّ؛ أي هكذا يكون البر المثالي بالأمهات وهكذا يكون ثوابه الجزيل عند الله عز وجلّ. ولا عجب فقد حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين، والجنة تحت أقدام الأمهات كما يقول الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان حارثة شاباً نقياً تقياً، انشرح صدره لهدى الله تعالى، فاستحوذ عليه وتمكّن منه، فهو لا يفكّر ولا ينطق ولا يعمل ولا يتحرك ولا يسلك إلا في نطاق الإيمان والمراقبة والمعرفة باللّه عز وجل.

ولقد لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم ذات صباح فقال له: كيف أصبحت يا حارثة؟ فأجاب: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال له النبي: انظر ماذا تقول يا حارثة؟ فإن لكل قول حقيقة فقال حارثة: «يا رسول الله. عزفت نفسي[١] عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني لعرش ربي عز وجل بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون[٢] فيها».

فأعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بجوابه، وقال له: يا حارثة، عرفتَ فالزم ثم أضاف الرسول قوله مشيراً إلى حارثة: «عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه». وفي رواية أنه قال: «عبد بذر الله الإيمان في قلبه». وفي راوية أخرى: «عبد نوّر الله قلبه»[٣].

---

(١) أي عافت وكرهت.
(٢) يتعاوون فيها: أي يتبادلون الصرخات فيها من شدة العذاب.
(٣) انظر كتاب اللمع للطوسي، ص ١٤٣.

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك لصحابته: «من أراد أن ينظر إلى عبد نوّر الله تعالى الإيمان في قلبه فلينظر إلى حارثة»[١].

***

ولم يكتف حارثة بكثرة صلاته وصيامه، وزكاته وقراءته وذكره، بل أراد أن يزين ذلك بجهاده حتى استشهاده، فسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجاه قائلاً: يا رسول الله، ادع لي بالشهادة. فدعا الرسول بذلك، فطار الفرح بحارثة، إذ أيقن أنه سينال الشهادة في سبيل ربه تبارك وتعالى، لأن دعوة الرسول مستجابة.

وانصرف حارثة ليعد نفسه كي يكون أول فارس يركب، وأول مجاهد ينال الشهادة، حينما يدعو الداعي إلى موقف الصدق وموطن الحق. وما كادت غزوة بدر تلوح بضوئها حتى كان حارثة سباقاً إليها بحماس الفتوة، وإقدام الشبيبة، وعزيمة الإيمان.

وشاء الله سبحانه أن يحقق للنبي وعده، وأن يختار لحارثة ما عنده، وما عند الله خير للأبرار، فإذا هو يلقى الله جل جلاله في ساحة الميدان شهيداً، على مرأى ومسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تقول السيرة العطرة في ذلك: «استشهد حارثة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٢]، ومضى الشهيد الفتى إلى ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ويروى أن حارثة خرج إلى غزوة بدر، فكان من النظّارة، وقد أصابه حباب بن العرقة، بأن رماه بسهم وهو يشرب من الحوض، فأصاب حنجرته فقتله.

وقيل: جاءه سهم غَرْبٌ ـ أي لا يُدْرى راميه ـ وهو في النظارة، فوقع في ثغرة نحره فقتله. ويقول السخاوي في كتابه التحفة اللطيفة: «استشهد ببدر على المعتمد، وقيل بأُحد»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٨.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ج ٣ ص ٣٤٤.
(٣) التحفة اللطيفة، ج ١ ص ٤٣١.

وفي كتاب «أسد الغابة» أنه قيل إنه أول من قُتل من الإنصار، وقال ابن منده إنه شهد بدراً، واستشهد يوم أُحد، وأنكره أبو نعيم[١].

***

وبلغ استشهاد حارثة مسمعَ أمه وهي بالمدينة، فقالت: «واللّه لا أبكي عليه حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، بل أصبر وأحتسب، وإن كان ابني في النار بكيته.

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهبت إليه أم حارثة ومعها أخته، وقالت: يا رسول الله، قد عرفت موقع حارثة من قلبي، فأردت أن أبكي عليه، ثم قلت لا أفعل حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإن كان في النار بكيته.

فأجابها الرسول بقوله: ويحك، أو هبلت (أي فقدت عقلك لفقد ابنك حتى تجعلي الجنات جنة واحدة) أجنة واحدة؟ إنها جنات كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى!.

نعم إنها جنات، فهناك جنة عدن، وجنة المأوى، ودار السلام، ودار الخلد، ودار المقامة، ودار النعيم، والفردوس، وحارثة في أسماها، وهو الفردوس الأعلى! . .

ثم دعا الرسول صلى الله عليه وسلم بإناء فيه ماء، ثم غمس فيه يده، ومسه بفمه الطهور وريقه الزكي، ثم ناول الإناء أم حارثة لتشرب منه، فشربت، ثم ناولت ابنتها ـ أخت حارثة ـ فشربت أيضاً.

ثم أمرها النبي أن ينضحا (أي يرشا) جيوبهما بشيء من هذا الماء، ففعلتا. وعندئذ زال من صدريهما كل هم وغم.

ورجعتا من عند النبي وما بالمدينة امرأتان أقر عيناً منهما ولا أسرّ، وجعلت أم حارثة تضحك فرحة مبتهجة بالنهاية السعيدة الميمونة لابنها،

(١) أسد الغابة، ج ١ ص ٤٢٢ طبعة التعاون.

وتقول: بخ بخ[1] لك يا حارثة. (أي هنيئاً لك ما نلته من خير بنعمة الاستشهاد في سبيل رب العباد).

وفي رواية أخرى أنها قالت: يا رسول الله، وإن يكن حارثة في الجنة لم أبك ولم أحزن، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في دار الدنيا. فقال لها: يا أم حارثة، إنها ليست بجنة واحدة، ولكنها جنات، وحارثة في الفردوس الأعلى فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة.

وفي رواية ثالثة أنها قالت: يا رسول الله، قد علمت مكانة حارثة مني فإن يكن من أهل الجنة فسأصبر، وإلاّ فسيرى الله ما أصنع فقال النبي: يا أم حارثة، إنها ليست بجنة، ولكنها جنات كثيرة، وهو في الفردوس الأعلى.

❋❋❋

هكذا يكون المسير، عماده إيمان يقترن بعرفان، وجهاد قمته الاستشهاد، ووفاء يقترن بفداء، وإيثار لما عند الله، على ما في الحياة: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل ٩٦].

رضوان الله على الشهيد العارف بالله: حارثة بن سراقة الأنصاري.

❋❋❋

(١) بخ: كلمة تقال عند المدح والرضى عن الشيء، وتكرر للمبالغة. وبخبخت الرجل: أي قلت له بخ بخ، ومعناها تعظيم الأمر وتفخيمه.

المجاهد صاحب البيعات الثلاث

سلمة بن الأكوع الأسلمي

هذا فدائي من صدر الإسلام...

إنه الصحابي الجليل: أبو عامر سلمة بن عمر بن سنان الأسلمي المدني، الملقّب بالأكوع، وقيل إن كنيته هي أبو مسلم، أو أبو إياس.

وهو الذي يقول عنه التاريخ الإسلامي: «كان سلمة مثل السبع» كما يقول عنه أيضاً: «كانت له اليد البيضاء» في النضال والقتال. ويقول عنه الإمام النووي: «كان سلمة شجاعاً رامياً محسناً، خيّراً فاضلاً». ويقول عنه الذهبي: «كان بطلاً شجاعاً رامياً، وله مواقف مشهورة»[١]. وهو الذي دخل مصر للغزو في المغرب، وكان يسبق الفرس شداً على قدميه[٢].

وكان سلمة مثابراً على الجهاد في كل ما يتيسر له من غزوات، حتى قال عن نفسه: «غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات».

وقد بايع سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان يوم الحديبية، وهي بيعة الموت، أو بيعة عدم الفرار، أو المبايعة على الجهاد حتى الاستشهاد. وكرر سلمة مبايعته ثلاث مرات: بايع في أول الناس، وبايع في وسطهم، وبايع في آخرهم، وكأنه بهذا كان يؤكد بيعته، أو كأنه كان يجدّد متعته ولذته الروحية بنية الإقبال على حياض الموت في سبيل الله.

---

(١) العبر، ج ١ ص ٨٤.

(٢) التراتيب الإدارية، ج ٢ ص ٢٨٧.

وجاء في إحدى الروايات أن سلمة قال: «بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت تحت الشجرة، ثم تنحيت، فلما خف الناس قال: يا سلمة، ما لك لا تبايع؟ قلت: قد بايعت يا رسول الله قال: وأيضاً. فبايعته وكأن الرسول قد أراد بهذا لسلمة لوناً من التشريف بتكرار هذه البيعة.

وكانت عند سلمة روح بطولية، ونزعة فدائية، ولعله كان أمهر الرماة بين قومه، وأبرعهم في المقاتلة وهو راجل غير راكب، وأقدرهم على مراوغة الأعداء وتضليلهم في الحرب، وكان من عادته في أعماله الفدائية البطولية أن يتبع طريقة المخادعة التي أشار إليها الرسول بقوله: «الحرب خدعة».

فكان سلمة إذا هاجمه أعداؤه يتظاهر بالانسحاب، وبأنه قد انهزم أمامهم، ويتقهقر إلى الوراء، فإذا كفّ الأعداء عن التقدم، وهمُّوا بالرجوع من حيث جاؤوا، أو لجأوا إلى الاستجمام والراحة، عاجلهم سلمة بالهجوم الخاطف المفاجئ، في مباغتة عاجلة وسرعة عنيفة، فيُنزل بهم ما يُنزل من الإصابات، وينال منهم ما يريد.

ولقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خير رجّالتنا ـ أي مشاتنا ـ سلمة بن الأكوع، وقد قال ذلك في غزوة «ذي قَرَد»، وفيها أغار عيينة بن حصن الفزاري، مع بني عبد اللّه بن غطفان، على إبل كانت في مكان يقع شمالي المدينة يسمى «الغابة»، وقتلوا رجلاً هو ابن أبي ذر الغفاري، وأسروا زوجته، وكان اسمها «ليلى».

وكان أول من علم بهذا العدوان هو سلمة بن الأكوع، لأنه كان متجهاً إلى «الغابة»، فلما بلغ ثنيّة الوداع رأى خيل المشركين، ورأى ما فعلوه، فأرسل من يخبر الرسول بذلك، وأخذ هو يناوش الأعداء بمفرده. ويعوق تحركاتهم ما بين كر وفر، ويسدد إليهم ضرباته من جهات مختلفة، وكلما ضرب ضربة، أو رمى رمية، قال [من الرجز]:

خـذهـا وأنـا ابـن الأكـوع ‏ ‏ ‏ ‏ اليـوم يـوم الـرُّضَّـع[1]

---

(١) أي يوم هلاك اللئام.

وظل ابن الأكوع يناضل ببراعة فائقة حتى أبلى بلاءً حسناً، واستخلص منهم كثيراً مما أخذوا، وما كاد الإنذار يبلغ مسمع الرسول حتى عجّل بالخروج لنجدته مع فريق من مجاهدي الصحابة، وهناك هزموا أعداء الله من المشركين وأدبوهم. وأراد الرسول تكريم سلمة وهم عائدون، فأركبه معه على دابته، ومسح على وجهه، واستغفر له، ودعا له بخير.

ولندع سلمة بن الأكوع نفسه يحدثنا عن تلك المعركة ـ كما يروي الإمامان البخاري ومسلم ـ قال: «خرجت قبل أن يؤذّن بالأولى (يعني صلاة الصبح)، وكانت لقاح[1] النبي صلى الله عليه وسلم ترعى بذي قَرَد، فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخِذتْ لقاحُ النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: مَنْ أخذها؟ قال: غطفان.

فصرخت ثلاث صرخات: واصبحاه، فأسمعتُ ما بين لابتي[2] المدينة، ثم اندفعت على وجهي، حتى أدركتهم، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي، وكنت رامياً، وأقول: أنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرّضّع[3]، وأرتجز، حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة.

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم والناس، فقلت: يا رسول الله، قد حميتُ القوم الماء وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة فقال: يا ابن الأكوع، ملكت فأسجح[4].

ثم رجعنا، ويردفني[5] رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته، حتى قدمنا المدينة».

---

(١) اللقاح ـ بكسر اللام ـ النياق ذوات الألبان والمفرد: لقوح.

(٢) اللابة: الحر ـ بفتح الحاء ـ وهي الأرض ذات الحجارة السود، وجمعها: لابات، والمدينة بين حرتين عظيمتين.

(٣) الرضع: جمع راضع وهو اللئيم، قيل سمّي بذلك لأنه من لؤمه يرضع إبله او غنمه لئلا يسمع الناس صوت حلبه.

(٤) أي قدرت فأحسن العفو.

(٥) أركبني خلفه.

وكأن هذا الموقف قد تكرر من سلمة[1]، فقد جاء في رواية للإمامين أحمد ومسلم أن ابن الأكوع تحدث فقال: «قدمنا المدينة زمن الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت أنا ورباح غلام النبي صلى الله عليه وسلم بظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجت بفرس لطلحة بن عبيد الله، أريد أن أندّيه[2] مع الإبل.

فلما كان بغلس أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله صلى الله وسلم، فقتل راعيها، وخرج يطردها هو وأناس معه في خيل، فقلت: يا رباح، اقعد على هذا الفرس، فألحقه بطلحة، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد أغير على سرحه (أي ماشيته) وقمت على تل، فجعلت وجهي من قبل المدينة، ثم ناديت ثلاث مرات: يا صباحاه ثم اتبعتُ القومَ، معي سيفي ونبلي، فجعلت أرميهم وأعقر بهم[3]، وذلك حين يكثر الشجر، فإذا رجع إليَّ فارس جلست له في أصل شجرة، ثم رميت، فلا يُقبل إليَّ فارس إلاّ عقرت به، فجعلت أرميهم وأنا أقول: أنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرُّضع فألحق برجل منهم فأرميه وهو على راحلته، فيقع سهمي في الرجل حتى انتظم كتفه، فقلت: خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع.

فإذا كنت في الشجرة أحرقتهم بالنبل، فإذا تضايقت الثنايا علوت الجبل، فرديتهم بالحجارة (أي رميتهم بها)، فما زال ذلك شأني وشأنهم، أتبعهم وأرتجز، حتى ما خلق الله شيئاً من ظهر[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ خلفته وراء ظهري، فاستنقذته من أيديهم.

ثم لم أزل أريهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً، وأكثر من ثلاثين بردة

---

(١) أو تعددت الرواية.

(٢) التندية: أن تورد الإبل والخيل فتشرب قليلاً، ثم ترد ساعة إلى المرعى، وتعاد إلى الماء. (عيون الأثر، ج٢ ص ٩٨ الهامش).

(٣) أي أقتل مركوبهم، يقال: عقرت به، إذا قتلت دابته التي يركبها وجعلته راجلاً.

(٤) الظهر: الإبل التي يحمل عليها ويركب.

يستخفّون منها، ولا يلقون من ذلك شيئاً إلاّ جعلت عليه حجارة، وجمعته على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى إذا امتد الضحى أتاهم عيينة بن بدر الفزاري مدداً لهم، وهم في ثنيّة ضيقة، ثم علوت الجبل فأنا فوقهم، فقال عيينة: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح (أي الشدة). ما فارقنا بسَحَرٍ حتى الآن، وأخذ كلّ شيء بأيدينا، وجعله وراء ظهره. فقال عيينة: لولا أن هذا يرى أن وراءه طلباً ترككم، ليقم إليه نفر منكم.

فقام إليّ نفر منهم أربعة، فصعدوا في الجبل، فلما أسمعتهم الصوت قلت: أتعرفونني؟ قالوا: ومن أنت؟ قلت: أنا ابن الأكوع، والذي كرّم وجه محمد لا يطلبني رجل منكم فيدركني، ولا أطلبه فيفوتني. فقال رجل منهم: إن أظن (أي لا أظن).

فما برحت مقعدي ذلك حتى نظرت إلى فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخللون الشجر (أي يسيرون خلاله)، وإذا أولهم الأخرم الأسدي، وعلى أثره أبو قتاده فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي، فولّى المشركون مدبرين.

وأنزل من الجبل، فآخذ عنان فرسه (يعني فرس الأخرم)، فقلت: يا أخرم، ائذن القوم (أي احذرهم) فإني لا آمن أن يقتطعوك، فاتئد حتى يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فقال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحُلْ بيني وبين الشهادة!.

فخليت عنان فرسه، فيلحق بعبد الرحمن بن عيينة، ويعطف عليه عبد الرحمن، فاختلفا طعنتين، فعقر الأخرمُ بعبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله، فتحول عبد الرحمن على فرس الأخرم، فيلحق أبو قتادة بعبد الرحمن، فاختلفا طعنتين، فعقر بأبي قتادة، وقتله أبو قتادة، وتحول أبو قتادة على فرس الأخرم.

ثم إني خرجت أعدو في أثر القوم، حتى ما أرى من غبار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً، ويَعْرضون قبل غيبوبة الشمس إلى شِعْب فيه ماء

يقال له ذو قرد، فأرادوا أن يشربوا منه، فأبصروني أعدو وراءهم، فعطفوا عنه، وأسندوا[١] في الثنية: ثنية ذي بئر.

وغربت الشمس، وألحق رجلاً فأرميه، فقلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع. فقال: يا ثُكل أم أكوع بُكرةً. فقلت: نعم أي عدو نفسه. يا ثكلته أمُّه، أنا أَكْوَعُك بكرةً[٢].

وأتبعته سهماً آخر فعلق به سهمان. ويخلِّفون فرسين، فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو على الماء الذي أجليتهم عنه: ذي قردَ، وإذا نبي الله صلى الله عليه وسلم في خمسمائه، وإذا بلال قد نحر جزوراً مما خلّفتُ، فهو يشوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كبدها وسنامها.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، خلّني فأنتخب من أصحابك مائة، فآخذها على الكفار بالعَشْوة، فلا يبقى منهم مُخبر إلاّ قتلته. فقال: أكنت فاعلاً ذلك يا سلمة؟ قلت: نعم، والذي أكرمك.

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأيت نواجذه في ضوء النهار، ثم قال: إنهم يُقْرَون الآن بأرض غطفان. فجاء رجل من غطفان فقال: مَرّوا على فلان الغطفاني، فنحر لهم جزوراً (يعني ناقة) فلما أخذوا يكشطون جلدها رأوا غبرة، فتركوها، وخرجوا هراباً.

فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة. فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمَ الفارس والراجل جميعاً، ثم أردفني وراءه على العضباء[٣] راجعين إلى المدينة.

فلما كان بيننا وبينها قريب من ضحوة[٤]، وفي القوم رجل من الأنصار

---

(١) أسندوا: صعدوا. والثنية: الطريق العالي في الجبل.
(٢) أي أنا ابن الأكوع الذي أتبعكم منذ بكرة اليوم.
(٣) اسم ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٤) أي قدر ارتفاع أول النهار.

كان لا يُسْبَق، جعل ينادي: هل من مسابق؟ ألا رجل يسابق إلى المدينة؟ فأعاد ذلك مراراً، وأنا وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرْدفي. فقلت له: أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، خَلِّني فَلأُسابقِ الرجل. قال: إن شئت. قلت: أذهبُ إليك (أي للرجل).

فطفر عن راحلته، وثنيت رجلي فطفرت عن الناقة، ثم إني ربطت عليه شرفاً أو شرفين أستبقي نفسي[1]، ثم إني عدوت حتى ألحقه، فأصك بين كتفيه بيدي[2]، قلت: سبقتك والله. فضحك وقال: إن أظن. حتى قدمنا المدينة[3]».

***

هكذا تحدث سلمة بن الأكوع عن موقف أو موقفين من مواقفه البطولية الفدائية، وهكذا تبسط في الحديث، فأورد تفاصيل ترينا كيف كان هؤلاء الرجال الأبطال يقدرون التبعات، ويصونون الواجبات، وكيف كانوا على يقظة وحذر واستعداد دائم لملاقاة الأعداء ودفع الأخطار، وكيف كانوا يتطلعون إلى الشهادة في سبيل الله عز وجل؛ وإن هذا الحديث من ابن الأكوع جدير بأن تتأمله الأبصار، وتتدبره البصائر، فهو لون رائع من أدب البطولة وسير الأبطال.

***

وكان سلمة بن الأكوع لا يحرص على شيء من متاع الحياة، ولا يخاف من هول أو تعب، ولا يحزن لما يفوته أو يصيبه، ولكنه حزن حزناً بليغاً حين ظن أن أخاه عامر بن الأكوع قد فاته شرف الشهادة في الميدان.

فقد خرج عامر مجاهداً مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر، وكان يردد للمسلمين نشيد الجهاد المأثور [من الرجز]:

---

(١) الشرف: الشوط. والمعنى: تأخرت عنه شوطاً أو شوطين، كأني أحبس نفسي وأشدها.

(٢) أي أضرب بين كتفيه بيدي.

(٣) السيرة النبوية، لابن كثير، ج ٣ ص ٢٨٩ـ ٢٩٢.

لاهُمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما أبقينا وأنزلنا سكينة علينا
وثبّت الأقدام إن لاقينا إن الأُلى قد بغوا علينا
وبالصياح عوّلوا علينا(١) إذا أرادوا فتنة أبينا

وسمع الرسول النشيد، فقال: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال النبي: يرحمه الله. فقال عمر بن الخطاب: وجبت يا نبي الله، لولا أمْتَعْتَنا به؟ (أي أنه سيذوق الموت، لأن النبي دعا له بالرحمة).

وحدث في تلك المعركة أن أراد عامر أن يسدد ضربة من ضرباته إلى أحد أعدائه اليهود، فانثنى طرف السيف، وأصاب عامراً نفسه، فمات، فقال بعض الناس: بطل عمل عامر، قتل نفسه، وحرم الشهادة!.

وسمع سلمة قولهم، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، خوفاً على مصير أخيه في الدار الآخرة، وحزن لذلك حزناً شديداً، وسارع وهو يبكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سأله النبيّ عن سر بكائه قال له: إن الناس يقولون إن عامراً بطل عمله. فأجابه الرسول بما طمأنه وأسعده، قال له: كذب أولئك، بل له الأجر مرتين، وإنه الآن يسبح في أنهار الجنة.

وفي رواية أن سلمة قال للرسول: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبط عمله. فقال الرسول: كذب مَنْ قاله؛ إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه، إنه لجاهد مجاهد، قلّ عربي مشى بها مثله.

وهنا عادت الأرض فاتسعت كأوسع ما يكون أمام سلمة، وفرح فرحاً شديداً لأنه اطمأن إلى أن شقيقه قد مات ميتة الشهداء، ولم يمت ميتة الجبناء، رضوان الله ورحمته على أولئك الأوفياء.

وكما كان سلمة مقداماً في ساحات الجهاد والنضال كان مقداماً في ساحات الفضل والأريحية والإعطاء، فهو يضحي بدمه، وهو يضحي بنفسه،

---

(١) أي اجلبوا واستعانوا.

وهو يضحي بقتاله، وهو إيضاً يضحي بماله. وكان يقصد ببذله الواسع المتكرر وجه ربه جل جلاله، ويحرص على أن يكون إعطاؤه خالصاً لله سبحانه.

وما من محتاج قصد سلمة وقال له: أسألك بوجه الله تعالى، إلاّ قضى حاجته، وبذل له طاقته، وكان يقول: «من لم يعط بوجه الله فبم يعطي»؟

وإلى جانب ذلك الفداء، ومع ذلك الكرم والعطاء، كان سلمة بن الأكوع فقيهاً محدثاً، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة وسبعين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على رواية ستة عشر حديثاً منها، وانفرد كل منهما بمجموعة أخرى رواها عنه.

وبلغ سلمة من العلم الدينيّ مكانة جعلته أحد الذين كانوا يفتون في المدينة من الصحابة، وروى عنه طائفة من الناس. ومع كل هذه الصفات والمكرمات كان سلمة بن الأكوع مثلاً من أمثلة المؤمنين المستمسكين بمكارم الأخلاق ومحامد الصفات، وحسبنا أن نستمع إلى ابنه إياس(١) وهو يقول: «ما كذب أبي قط»!.. والكذب هو الرذيلة الوحيدة التي أخبرنا نبي الأخلاق أن المؤمن لا يتصف بها ولا يركن إليها.

وهكذا نجد أن سلمة بن الأكوع كان عنواناً للمجاهد المسلم الذي يجمع بين الفروسية في الميدان، والصدق في الإيمان، والإخلاص في العمل، والاستمساك بمكارم الأخلاق.

وبعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، خاف سلمة أن تصيبه الفتنة فخرج إلى «الربذة» وأقام بها إلى ما قبيل موته بأيام، ثم نزل المدينة ومات بها سنة أربع وسبعين، وقد بلغ من العمر ثمانين سنة...

رضوان الله على المجاهد صاحب البيعات الثلاث سلمة بن الأكوع...

***

(١) كان لسلمة أولاد، منهم إياس ومحمد ويزيد، وكان إياس ثقة، وروى أحاديث كثيرة وقد مات بالمدينة سنة تسع عشرة ومائة، عن سبع وسبعين سنة.

مجاهد يعصمه الإيمان

خوات بن جبير

الفداء لا يصدق ولا يعمق إلاّ إذا كانت له عقيدة ربانية تهديه، وإيمان يراوحه ويغاديه، لأن الشجاعة المجردة من العقيدة والإيمان إنما تكون لوناً من ألوان الاندفاع العشوائي الذي لا يستقر ولا يستمر ولا يدوم.

وإذا كان المناضل محتاجاً إلى قوة الحس وقوة النفس، فلا شك أن قوة الروح أقوى وأبقى، وأزكى وأعلى، من قوة البدن أو قوة المادة.

وإذا عمر قلب المجاهد بالإيمان واليقين، فقد استقام على الطريق، ولازمه التوفيق، وكان من أولئك الرجال الأقوياء الأوفياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

ولقد صنع الإسلام العجبَ في نفوس أبنائه، حين أنقذهم من ضلالات الكفر والإشراك، وأكرمهم بنعمة الاهتداء إلى الصراط المستقيم، وأمدهم بنور الله الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فكان الشأن كما قال القرآن المجيد: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكم من أناس استحوذ عليهم الشيطان في أول الأمر، فأغواهم وأضلهم ضلالاً بعيداً، ولما جاء الإسلام أنقذهم وصنعهم صنعاً جديداً، وجعلهم نماذج للإنسانية الحرة الكريمة السامية في هذه الحياة، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

ومن هؤلاء: الصحابي الجليل المجاهد أبو عبد الله[١] خوّات بن جبير بن النعمان بن أمية الأنصاري، الذي أدركه في ضلال الجاهلية ما أدرك غيره من لهو وعبث، فلما بزغت شمس الإسلام انتقل من حال إلى حال، فأسلم وحسن إسلامه.

ويروى أن الرسول ﷺ داعبه بعد إسلامه، مشيراً إلى عبثه السابق، ليتأكد من استقامته على الطريق، فقال له وهو يبتسم: كيف شرادُك؟ فأجابه قائلاً: يا رسول الله، قد رزق الله خيراً، وأعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر (أي من الرجوع إلى الفساد بعد الاعتصام بالصلاح).

وأصل الحَوْر هو الرجوع إلى النقص، وقوله: «أعوذ بالله من الحور بعد الكور» أي من النقصان بعد الزيادة. وقيل: أعوذ من فساد أمورنا بعد صلاحها. وقيل من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا منهم، وأصل التعبير مأخوذ من فك العمامة بعد لفّها، لأن تكوير العمامة هو لفها وجمعها[٢].

ويروى أن الرسول قال له أيضاً: ما فعل بعيرك؟ أيشرد عليك؟ فأجابه: أما منذ أسلمت، ومنذ قيده الإسلام فلا.

وفي هذا الحوار إشارة إلى حادثة وقعت لخوات وهي في الجاهلية، فقد روي أنه مرّ بنسوة فأعجبه حسنهن، فجلس إليهن، وطلب منهن أن يفتلن له قيداً لبعيره، وزعم لهن أنه له جمل شارد، وتعلل بذلك، ومر عليه الرسول ﷺ وخوات يتحدث إلى النسوة، فأعرض الرسول عنه وعنهن.

وكان ذلك قبيل إسلامه، فلما أسلم سأله النبي عن ذلك البعير وهو يبتسم، فأجاب خوات بقوله: قيّده الإسلام يا رسول الله!

وقد ذكر الهروي أن هذا الحوار قد أُريد به التعريض بقصة خوات مع

---

(١) وقيل: أبو صالح، قال عنه النووي: «وكنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو صالح، ويحتمل أنهما كنيتان له، كما لغيره كنيتان، بل كنى» ويروي أن الذي كناه أبا عبد الله هو عمر بن الخطاب (الروض الأنف ج ٢ ص ٩٧).

(٢) النهاية، ج ١ ص ٤٥٨.

ذات النحيين[١]، وهي قصة معروفة أوردها الميداني في كتابه «مجمع الأمثال» عندما شرح المثل العربي المشهور: «أشغل من ذات النحيين»، ويظهر أن هذه القصة مصنوعة، لأنه جاء فيها أن رجلاً خدع امرأة عربية بأن جعلها تمسك بيديها قربتين فيهما سمن لها، ونال منها ما أراد، وهي لا تستطيع ترك القربتين حتى لا يسيل منهما السمن، فقد كانتا مفتوحتين بلا رباط.

وإنما أظن أنها مصنوعة لأن أية امرأة عربية لا تقبل ذلك لنفسها، إلاّ أن تكون داعرة.

وكذلك نجد السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة» يورد نسبة القصة إلى خوات بصيغة التضعيف، فيقول: «ويقال إنه صاحب ذات النحيين»[٢].

وكذلك نجد ابن الأثير في كتابه «النهاية» يذكر أن ربط الحوار السابق بقصة ذات النحيين وَهْم. ثم يورد عبارة لخوات يذكر فيها سبب الحوار، وفي هذه العبارة يقول خوات:

«نزلت مع رسول الله ﷺ بمرّ الظهران، فخرجت من خبائي، فإذا نسوة يتحدثن فأعجبنني، فرجعت فأخرجت حلة من عيبتي[٣] فلبستها ثم جلست إليهن، فمر رسول الله ﷺ فهبته، فقلت: يا رسول الله، جملٌ لي شرود، وأنا أبتغي له قيداً.

فمضى رسول الله ﷺ وتبعته، فألقى إليّ رداءه، ودخل الأراك[٤] فقضى حاجته وتوضأ، ثم جاء فقال: أبا عبد اللّه، ما فعل شراد جملك؟

ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني إلاّ قال: السلام عليكم أبا عبد اللّه، ما فعل شراد جملك؟

فتعجلت إلى المدينة، واجتنبت المسجد ومجالسة رسول الله ﷺ، فلما

---

(١) النحي هو زق السمن، أي القربة التي يوضع فيها السمن.
(٢) التحفة اللطيفة، ج ٢ ص ٢٧.
(٣) حقيبة الثياب.
(٤) الأراك: شجر معروف، والمراد هنا أنه دخل بين الشجر ليستره.

طال ذلك علي تحينت ساعة خلوة المسجد، ثم دخلت المسجد فجعلت أصلي، فخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين، وطوّلت الصلاة رجاء أن يذهب ويدعني. فقال: طوّل يا أبا عبد اللّه ما شئت، فلست بقائم حتى تنصرف، (أي حتى تتم صلاتك). فقلت[١]: والله لأعتذرن إلى رسول الله ﷺ، ولأبرئن صدره، فانصرفت فقال: السلام عليكم أبا عبد اللّه، ما فعل شراد الجمل؟ فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت. فقال: رحمك الله، مرتين أو ثلاثاً. ثم أمسك عني فلم يَعُدْ.

❋❋❋

ومهما يكن من أمر فقد حسن إسلام خوّات، واستقام على الطريق، وكان أحد فرسان النبي ﷺ، الذين يقفون إلى جواره، ويأتمرون بأمره، ويبذلون ما يبذلون في طاعته، ويعرضون أنفسهم لمواقف التضحية والفداء مرضاة لله تعالى ولرسوله ﷺ، بدافع الإيمان القوي العميق، الذي سيطر على نفوسهم، فجعلهم يحيون على الدوام جنداً لله، وما عند الله خير للأبرار.

وفي غزوة بدر خرج خوات بن جبير مستعداً بكل ما يستطيع، معاهداً ربه على الجهاد حتى الاستشهاد، وكان معه شقيقه عبد الرحمٰن بن جبير.

ولكن ماذا يصنع خوات؟ لقد أراد الله، ولا راد لقضائه، أن تصيبه في رجله شظِيّةٌ مدببة، فأصابته بجرح سال منه الدم، وورمت رجله واعتلت والمعركة لم تبدأ بعد.

وفي «تهذيب الأسماء» للنووي أنه أصيب بمرض أو جرح، فلم يستطع الاستمرار في الغزوة فرجع، وقيل: كسرت ساقه، وفي «النهاية» أنه قد أصاب ساقه نصيل حجر، والنَّصيل حجر طويل مُدَمْلك (أي أملس) قدر شبر أو ذراع.

فأمره الرسول ﷺ بالعودة لعلته ومرضه، فرجع خوات مضطراً مكرهاً من

---

(١) أي قال في نفسه.

مكان يسمى «الصفراء». ورجع كذلك الحارث بن الصمة من مكان يسمى «الروحاء» لأنه أصيب بكسر(١).

وكان الرسول ﷺ يَعُدُّ أولئك العازمين على الجهاد، الممنوعين منه لعذر طارئ، لا دخل لهم فيه، ضمن الذين جاهدوا؛ ولذلك أعطى خوات بن جبير نصيبه من غنائم المعركة، أو كما تعبر السيرة: «فضرب له الرسول ﷺ بسهمه وأجـــــره». ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٤٣].

وجاءت غزوة «أُحد» فخرج إليها المجاهد البطل خوات بن جبير، ومعه أيضاً شقيقه عبد الله بن جبير، الذي جعله رسول الله أميراً للرماة فوق الجبل، وهو الذي حذرهم مخالفة أمر الرسول بترك مكانهم.

وأبلى خوات في القتال بلاءً حسناً، وناضل نضالاً مجيداً، لا يبالي أوقع على الموت أم وَقَعَ الموتُ عليه. ثم واصل خوات مواقفه الفدائية البطولية، حتى تألق اسمه، وسطع نجمه بين المناضلين، وكان الرسول ﷺ يختاره في بعض الأحيان ليجعله ضمن الطليعة الخبيرة الدراسة التي تجمع المعلومات الدقيقة عن الأعداء، كما حدث حينما أرسله مع ثلاثة إلى يهود بني قريظة ـ عليهم اللعنة ـ للتأكد من موقفهم ونقضهم العهد.

وظل خوات فدائياً في كفاحه، وفيّاً لعهده، ذاكراً فضل الله تعالى عليه، أن هداه إلى الإسلام، شاكراً له أن عمر قلبه بالإيمان، مقدّراً الفرق الواسع بين حاله في الجاهلية، وحاله وهو أحد أتباع محمد ﷺ، متذكراً قول ربه معلّماً عبادَه حسن الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٨و٩].

***

ولم يقتصر خوات على بذل جهده الفدائي في ساحات القتال والنضل،

(١) عيون الأثر، ج ١ ص ٢٣٦.

بل زان بطولته الميدانية بتفقه في الدين، اهتداء بقول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

ولذلك روى خوات عن الرسول بعض أحاديثه، ولحكمةٍ يعلمها الله جل جلاله روى خوات حديث صلاة الخوف، وهي صلاة الجهاد، أو صلاة الحرب التي تحدث عنها القرآن الكريم في سورة النساء، وكان مما قاله في شأنها: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢]. وفي هذه الكلمات الإلهية الربانية الوجيزة المعجزة، أعطى الله سبحانه المؤمنين أبلغ درس في اليقظة والحذر والانتباه، حتى لا يؤخذوا على غرّة أو على مفاجأة، والحرب خدعة كما قال سيد الأنام محمد ﷺ.

وليت الأمة المؤمنة المجاهدة تتخذ لها شعاراً خالداً من هذه الكلمات الإلهية الجليلة: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴿١٠٢﴾﴾، حتى يكونوا دائماً وأبداً على أهبة الإعداد والاستعداد، وعلى يقظة كاملة تامة شاملة، لأن ربهم جل جلاله يؤكد عليهم أمره بالانتباه والسهر للعدو، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴿٧١﴾﴾ [النساء: ٧١].

***

وإلى جوار ما عرفنا من عظمة خوات وبطولته، كان يحسن إنشاد الشعر كأنه الغناء العذب الجميل، ولقد روى التاريخ أن عمر بن الخطاب كان مع ركب فيه خوات بن جبير، فقال القوم لخوات: غنّنا من شعر ضرار.

فقال لهم عمر: دعوا أبا عبد اللّه يغنينا بُنَيّاتِ فؤاده.

فأنشدهم حتى السحر، فقال عمر: ارفع لسانك يا أبا عبد اللّه، فقد أسحرنا[1].

وفي رواية أن عمر قال: دعوا أبا عبد اللّه فليغن من شعره. فما زال

(١) الروض الأنف، ج ٢ ٩٧.

خوات يغنيهم حتى السحر، فقال عمر: ارفع رأسك يا خوات، فقد أسحرنا.

***

وامتدت الأيام والأعوام بخوات، وهو يؤدي واجبه قدر ما يستطيع، وكُفَّ بصره، ثم توفي إلى رحمة الله سنة أربعين.

رضوان الله تبارك وتعالى على المجاهد الذي عصمه الإسلام: خوات بن جبير[1].

***

(١) التحفة اللطيفة، ج ٢ ص ٣٧.

المناضل الدائم الجهاد

البراء بن عازب

إن الحياة العزيزة الفاضلة تحتاج إلى التفكير السليم، والمنطق القويم، والعمل الكريم، مع الإيمان الراسخ، واليقين الوطيد. وهناك كثير من الناس يتخيلون آمالاً يحلمون بها، ثم لا يبذلون الجهود الملائمة لتحقيقها، وقد يرددون الكثير من معسول الأقوال، ثم لا يصدقونها بمنطق الأعمال.

ولكن الله جل جلاله اختار من عباده أقواماً فكروا فاستقاموا، ونطقوا فصدقوا، وعملوا فأتقنوا، وجاهدوا فأخلصوا، وعلى رأس هؤلاء الأوفياء إمامهم ورائدهم سيد المرسلين والأنبياء محمد ﷺ، وهم الذين انتفعوا كل الانتفاع بالدرس الإلهي البليغ الذي علمهم فيه ربهم ألاّ ينطقوا بقول يخالفه العمل، وأن يسارعوا إلى موطن المحبة الربانية بالتجمع والتوحد والثبات في ميدان الكفاح والنضال، فقال لهم مؤدباً ومعلماً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

ولقد خرّجت مدرسة النبوة أبطالاً زانوا الدنيا بصدقهم في أقوالهم، وسموّهم في أعمالهم، وثباتهم في نضالهم، فكانوا في ذلك قدوة للعالمين.

ومن هؤلاء: المجاهد المبكر في الجهاد، المناضل الموصول النضال، الصحابي ابن الصحابي: أبو عمارة[١] البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن

---

(١) وقيل أبو عمرو، وقيل أبو الطفيل.

جشم الخزرجي الأنصاري. نشأ بالمدينة المنورة، وأسلم صغيراً، فاهتدى إلى نور الله عز وجل وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره، قبل أن يهاجر المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، ويخبرنا البراء أنه كان قد حفظ قبل الهجرة طائفة من سور القرآن الكريم، فيها سورة: «سبح اسم ربك الأعلى».

وجاءت غزوة بدر لتكون أول لقاء بين الإيمان والكفران، وسارع الفتى المسلم ليكون من المجاهدين فيها، ولكن الرسول ﷺ استصغر سنه، فرده مع زملاء له كانوا حراصاً على الجهاد برغم صغرهم. وفي هذا برهان على أن أمة محمد يومئذ كانت ترى في الجهاد قرة لعيونها، ومتعة لقلوبها وأمنية لنفسها.

ودارت الأيام، وجاءت غزوة أُحد، وعندها بلغ البراء[1] الحد الأدنى لسن القتال، فحقق أمنيته بالمشاركة في شرف الجهاد، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يرضي نزعة النضال العارمة في نفس البراء بن عازب، فهيأ له أن يشترك في عدد ضخم من الغزوات والمعارك، حتى روى الإمام البخاري أن البراء رضي الله عنه قال: «غزوت مع النبي ﷺ خمس عشرة غزوة».

وكان من بين هذه المواقف الخالدة غزوة الحديبية، التي بايع فيها البراءُ مع صفوة من المجاهدين يومئذ رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، وهي أكرم بيعة في تاريخ الإسلام، لأنها كانت مبايعة مخلصة على الموت في سبيل الله تعالى دون فرار[2]، ولذلك نوه بها القرآن المجيد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠]. وكرّم أهلها فقال: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) يذكر ابن عبد البر في كتابه «الدرر» أن الرسول رد البراء يوم أحد، لأن عمره كان أربعة عشر عاماً، وأجازه في غزوة الخندق (١٥٥).

(٢) وقيل لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟. قال على الموت.

ورفع الرسول ﷺ من قدر هؤلاء المبايعين، فقال لهم: «أنتم خير أهل الأرض»[(١)].

وقد أخبر النبي - كما جاء في السنّة الصحيحة - أن أهل هذه البيعة لا يدخلون النار، فقد روى البخاري ومسلم عن جابر قال: إن عبداً لحاطب جاء يشكوه، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار. فقال رسول الله ﷺ: كذبتَ، لا يدخلها، شَهد بدراً والحديبية.

وروى مسلم عن جابر قال: أخبرتني أم ميسر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل أحد النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها» فقالت حفصة: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]. فقال رسول الله ﷺ: قد قال تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[(٢)] [مريم: ٧٢].

وكان البراء بن عازب يعتز بهذه البيعة فيما بعد فيقول: «يدعون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية».

***

وكما ندب الرسولُ البراء وأمثاله المغاوير ليكونوا عمالقة النضال، ندبه ليكون داعياً إلى الله تعالى، وهادياً إلى صراطه، فأرسله مع خالد بن الوليد إلى اليمن، لدعوة أهلها إلى الإسلام، وبعد ستة أشهر استدعى النبي خالداً، وأرسل مكانه عليَّ بن أبي طالب، وبقي البراء مع علي، حتى أسلمت قبيلة «هَمْدان» جميعها. ولما بلغ الرسولَ ذلك فرح وقال: «السلام على هَمْدان، السلام على همدان».

وعاد البراء مع علي من اليمن، فوجدا رسول الله ﷺ خارجاً إلى حجة الوداع، فسارا في ركابه الكريم، وظل البراء على عهده، صادقاً في قوله، وفياً في عمله، يعطي صورة رائعة لاستعداد الجندي التام، واستجابته السريعة، وطاعته البصيرة، ومبادرته إلى أداء الواجب.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣ ص ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٦.

ولحق الرسول ﷺ بربه، ولم ينقطع البراء بن عازب عن الجهاد، بل جاهد وجاهد. ولما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة، اختار البراءَ ليكون والياً على «مدينة الري» سنة أربع وعشرين، والري مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كما يقول ياقوت.

ومن هناك سار البراء بن عازب إلى بلدة «أبهر» فافتتحها، وهي غربي قزوين، ثم رحل عنها إلى قزوين وافتتحها، ودخل أهلها في الإسلام بفضل الله ثم بجهد البراء.

ثم انتقل إلى مدينة «زَنْجان»، فافتتحها عنوة.

وهكذا أخذ البراء يغبِّر قدميه كل حين بتراب الجهاد الطهور، ويلفح وجهه بلهب المعارك والمشاهد، ويتحمل المتاعب والشدائد، لنصرة دين الله، وإعلاء كلمة الله في بلاد الله، وتأديب أعداء الله من الطغاة والبغاة، حتى قال فيه أحد المجاهدين معه في قزوين: [من الرجز]

قد تعلم الديلمُ إذ تحاربْ ... لما أتى في جيشه ابن عازبْ
بأن ظنّ المشركين كاذبْ ... فكم قد قطعنا في دجى الغياهبْ
من جبلٍ وعرٍ ومن سباسبْ!

وها نحن نرى البراء بن عازب يجاهد مع الإمام علي في معركة الجمل، ومعركة صفين، ومعركة النهروان، وكان معه أخوه عبيد بن عازب، وكذلك شهد البراء معركة «تُسْتَر» وهي في بلاد العجم، وكان قائد الجيش فيها هو عمار بن ياسر.

ولكن هذا البطل المغوار المقدام الدائم الجهاد منذ أن بلغ أول سن الجهاد، لم يشغله سلاحه وقتاله ونضاله عن التفقه في الدين، أو التعبد لرب العالمين، فقد كان من رهبان الليل وفرسان النهار، وقد روى الكثير من الأحاديث[1] عن رسول الله ﷺ، وتلقى عنه هذه الأحاديث كثير من الأعلام

(١) روى ثلاثمائة حديث وخمسة أحاديث.

ولقد روى لنا التاريخ أن البراء روى ما يزيد عن ثلاثمائة حديث نبوي.

والعجيب أن الفتى الفدائي الذي عرض نفسه للجهاد في موطن الاستشهاد وهو صغير، قد طال عمره وامتد حتى تجاوز الثمانين عاماً، وكأنه حرص على الموت، ففر منه الموت وجاءته الحياة، وفوق هذا مات ميتة هادئة، سنة إحدى وسبعين[1] للهجرة في مدينة الرسول ﷺ.

ما أحوجنا إلى هذا الهدي العظيم، الذي تألقت أنواره على أيدي المجاهدين الصادقين، الذين آمنوا بعلم، ونطقوا بفهم، وعملوا بإخلاص، وجاهدوا لإحدى الحسنيين، إما نصر فيه عزة، وإما شهادة يتبعها النعيم عند ربّ العالمين.

رضوان الله على المناضل الدائم الجهاد: البراء بن عازب.

***

---

(١) وقيل إنه مات سنة ثنتين وسبعين بالمدينة، في ولاية مصعب بن الزبير على العراق (البداية والنهاية، ج ٨ ص ٣٢٨). وقيل إنه نزل الكوفة ومات بها (تهذيب الأسماء، ج ١ ص ١٣٢).

الشهيد دفين الملائكة

عامر بن فهيرة

الذي لا ريب فيه أن دين الله عز وجل لا يقيس الناس بمقاييس النسب والحسب، ولا يزنهم بموازين المال أو الجمال؛ وإنما ينهض الميزان عند الله تعالى على دعامتين هما: التقوى والعمل الصالح، فمن آمن وجاهد فله عند ربه الحسنى، ولو كان عبداً حبشياً، ومن كفر وعاند فله سوء الحال، ولو كان سيداً قرشياً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا أحد صحابة رسول الله ﷺ يعطينا من ذلك درساً؛ فهو ينشأ في ظل الرق والعبودية، ثم يمنُّ عليه أحد الأخيار بالحرية، وهو يُنسب إلى أمه، لأنه لم يعرف الطريق إلى الاعتزاز بأبيه أو عمه.

ومع ذلك يسمو ويعلو، حتى يغبطه على مكانته كثيرون هنا وهناك.

إنه الصحابيّ السباق إلى الإسلام، والمجاهد الشهيد: عامر بن فهيرة الأزدي التميمي. وفهيرة هي أمه، وكانت جارية مملوكة. ونشأ عامر كذلك عبداً مملوكاً، ثم اشتراه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأعتقه، فصار بذلك مولاه، بعد أن أنقذه من العذاب الأليم الذي كان يلقاه على أيدي الطواغيت من المشركين بسبب إسلامه الذي أعلنه في وقت مبكر، قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ومن هنا ظل عامر طيلة حياته وفياً لأبي بكر صاحب الفضل الكبير عليه.

وفي حادث الهجرة اشترك عامر مع أسرة الصدّيق في خدمة المهاجرين العظيمين وهما مختبئان في الغار، فأسماء بنت أبي بكر تحمل لهما الطعام، وعبد الله بن أبي بكر يجمع لهما الأخبار، وعامر الذي كان يرعى غنم أبي بكر

يأتي بالأغنام إلى الغار، ليشرب منها المهاجران العظيمان، ثم يعود بالأغنام ليمحو آثار الأقدام التي تخلفت من مسيرة أسماء وأخيها. ثم رحل عامر مع المهاجرين: رسول الله وأبي بكر، فنال عامر بذلك شرف المشاركة في أعظم رحلة عرفتها الإنسانية.

وتروي السيرة أن جمعاً من الصحابة المهاجرين أصيبوا بالحمى عقب الهجرة، بسبب الوباء الذي كان في المدينة، واشتدت عليهم الحمى، كما اشتد بهم الحنين إلى موطنهم الأول مكة؛ ومن هؤلاء أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة، وتروي السيدة عائشة أنها سألت عامراً وهو محموم فقالت: كيف تجدك يا عامر؟ فأجابها وهو يعاني ما يعاني من أوجاع الحمى [من الرجز]:

لقد وجدتُ الموت قبل ذوقه   إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه   كالثور يحمي جلده بروقه[1]

ولما أخبرت عائشة رسول الله ﷺ بهذا قال: «اللهم حبّب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد».

وكذلك كان، ولله في خلقه شؤون.

وآخى الرسول بين عامر والحارث بن الصمة المجاهد الشهيد الذي نال نعمة الشهادة مع عامر في معركة واحدة وفي يوم واحد.

وشهد عامر غزوة بدر، وأبلى فيها بلاء حسناً، وشهد غزوة أُحد.

واحتمل فيها احتمالاً مشكوراً، وفي شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة بعث رسول الله ﷺ سرية فدائية إلى مكان يسمى «بئر معونة» وهو يقع بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم.

وكانت السرية مكونة من عشرات قليلة من المجاهدين، قيل إنهم كانوا سبعين، وقيل كانوا أربعين، وقيل كانوا ثلاثين. وكان هؤلاء من المشهورين بالعبادة وتلاوة القرآن الكريم، حتى كان يقال عنهم: «القرّاء»، لأنهم كانوا

---

(١) روق الثور: قرنه.

يجتمعون ليلاً على الصلاة وقراءة القرآن المجيد، وفي النهار يعملون ويحتطبون، وكان من بينهم بطلنا عامر بن فهيرة.

وشاء قدر الله تعالى أن يذوق هؤلاء المجاهدون ابتلاء شديداً، وأن ينالوا شهادة مجيدة في سبيل الله عز وجل، إذ خرجت عليهم جموع من أحياء رعل وذكوان، وعصية، واعملوا فيهم القتل بخيانة وغدر.

ولما رأى المجاهدون مصيرهم إلى الموت والشهادة قال قائلهم: «اللهم إنا لا نجد من يبلّغ عنا رسولك السلام غيرك، فأقرئه منا السلام. اللهم بلّغ عنا نبيك أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيتَ عنا».

واستجاب الله تعالى للدعاء، فأبلغ رسوله ﷺ مصير هؤلاء، فجمع النبي الصحابة، وأخبرهم الخبر، ثم قال: «فأنا رسولهم من الله إليكم، إنهم قد رضوا عن الله، ورضي الله عنهم».

وكان ممن ذاق طعم الشهادة يومئذ المجاهد البطل عامر بن فهيرة، طعنه رجل يسمى جبار بن سلمى الكلابي، فقال عامر حينما أصابته الضربة القاتلة: الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبة.

واستمع جبار القاتل إلى العبارة التي رددها عامر الشهيد، فلم يفهم معناها.

لماذا قال: الله أكبر؟

وأين الفوز الذي فاز به؟

ألم يذق الموت ويترك الحياة إلى التراب؟

وذهب الرجل يسأل، فقيل له إن عامراً يقصد بقوله هذا أن الله قد أكرمه حينما رزقه نعمة الشهادة في سبيله، وأنه سيفوز بنعيم الجنة في الدار الآخرة.

وانبهر «جبار» من هذا اليقين المسيطر، وهذا الإيمان السابغ، وأخذ يفكر ويفكر، وكأن عامراً يطل عليه دائماً من عالم الخلد، ويشير إليه بأصابع نورانية، ويقول له بصوت فيه روعة السماء وهيبة الآخرة:

يا جبار، أقلع عن كفرك وعنادك إن الباب مفتوح أمامك، فادخل في دين الله تبارك وتعالى تكن من الفائزين.

وشرح الله صدر «جبار» للإسلام، فاهتدى وأعلن إسلامه، وقال فيما قال عن سبب هذا الإسلام: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألستُ قد قتلتُ الرجل؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: إنه يعني الشهادة، فانشرح صدري للإسلام وقلت: صدق الله، فاز والله!..

وهكذا كان استشهاد عامر ـ وهو في سن الأربعين ـ خيراً له ولغيره، ففاز بالنعيم الأبدي عند الله جزاء شهادته، وكان سبباً في اهتداء أحد الكافرين إلى صراط الله عز وجل: «ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها».

ولقد تحدث أحد الذين شهدوا هذه المعركة فقال إنه شاهد جسد عامر بن فهيرة وهو يُرفع نحو السماء، وجاء الإمام الزهري فقال: بلغني أنهم التمسوا جسد عامر بن فهيرة فلم يقدروا عليه[1] فيرون أن الملائكة دفنته.

وزكّت السيرة العطرة هذا حين نسبت إلى رسول الله ﷺ قوله: «إن الملائكة وارت جثة عامر بن فهيرة».

وفي رواية أنه ﷺ قد قال عنه: «إن الملائكة وارت جثة عامر بن فهيرة، وأُنزل في عليين» وعليون هو المقام الكريم المحمود المجيد الذي قال عنه القرآن: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ [المطففين: ١٨ـ ٢١] ويمكن أن نفهم من الأقوال الكثيرة التي فسروا بها «عليين» أنه مكان سام رفيع، فيه ديوان الملائكة الحفظة، وهو ديوان الخير الذي تُرفع إليه أعمال الصالحين من العباد، وهو في أعلى

(١) أي لم يعثروا عليه ولم يجدوه.

وأشرف المراتب، وأقربها من الله تعالى في الدار الآخرة، ولذلك جاء في الحديث: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل عليين كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء». والله يختص برحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

هذا، ولقد ظل رسول الله ﷺ يقنت شهراً، ويدعو على أعداء الله الذين قتلوا هؤلاء الشهداء وفيهم عامر بن فهيرة، وكان هذا القنوت في آخر ركعة من الصلوات، بعد الرفع من الركوع.

ويُروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ وجَدَ[١] على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة».

إن هؤلاء السابقين المستضعفين في الأرض لم يمنعهم فقرهم ولا قلتهم أن يجاهدوا ويقودوا، فينتصروا ويسودوا؛ وإن هؤلاء الأوائل قد ضربوا الأمثلة للمظلومين أو المهضومين، كي يتجمعواويجاهدوا فيستردوا المسلوب ويستعيدوا المغصوب ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

رضوان الله تبارك وتعالى على الشهيد دفين الملائكة: عامر بن فهيرة.

***

(١) وجد عليه يجد وجداً وموجدة وجداناً وجدة: غضب. وفي حديث الإيمان: «إني سائلك فلا تجد علي» فلا تغضب من سؤالي.

الشهيد صاحب الحفرة

ذو البجادين: عبد اللّه بن عمرو المزني

الفداء أساسه استعداد مؤمن مخلص لبذل النفس في سبيل الله عز وجل، وليس بشرط محتوم أن يتم ذلك البذل، فقد ينال المؤمن ثواب الجهاد ومكانة الاستشهاد، دون أن تنال جسمه الطعنات أو الضربات، وإنما الأعمال بالنيات كما ذكر سيد الخلق محمد ﷺ.

وهذا أحد الصحابة الكرام يأتيه الموت على فراشه عند ساحة النضال والقتال، ومع ذلك يدخل زمرة المجاهدين الفدائيين، الباذلين أرواحهم في أكرم ميدان.

إنه الصحابي المناضل الشهيد: ذو البجادين عبد اللّه بن عمرو المزني - وبعض المصادر تقول إن اسمه عبد اللّه بن عبد نهم - وكان اسمه في الجاهلية: «عبد العزى»، وحين سطعت شمس الإسلام تطلع إليها، وأراد أن يسعى نحوها فمنعه قومه، وضيقوا عليه.

ويُروى أنه كان في رعاية عمه المشرك، فلما أحس العم الكافر باتجاه ابن أخيه إلى الإسلام غضب عليه، ونزع عنه كل شيء حتى ثيابه، فأعطته أمه بجاداً من صوف، والبجاد هو الثوب المخطط الغليظ الخشن، وجمعه بُجُد - بضم الباء والجيم -.

فأخذه عبد اللّه وشقَّهُ قطعتين، جعلْ إحداهما له إزاراً، والأخرى رداءً، وهرب من أهله إلى النبي ﷺ، وهناك أعلن إسلامه في حرية وعزة.

وحينما سأله النبي ﷺ عن اسمه قال: اسمي عبد العُزّى. والعُزّى أحد أصنام المشركين.

فقال له النبي: بل أنت عبد الله ذو البجادين.

فصار ذلك له اسماً ولقباً طيلة حياته. وكأن رسول الله ﷺ قد لقبه بهذا اللقب «ذو البجادين» لحكمة محمدية سامية، هي أن يربط بين اللقب ومناسبته، فيظل عبد الله بن عمرو المزني طيلة حياته يتذكر أنه اضطر في سبيل عقيدته ودينه أن يسعى إلى الإسلام في ثوب واحد خشن، لم يستر جسمه إلاّ بشقه نصفين، فيظل حريصاً على هذا الدين، لا يقبل التفريط فيه، ويظل غير عبد الله يسأل عن سبب هذا اللقب، فإذا عرف السبب نظر إلى ذي البجادين نظرة التقدير والاحترام، فيكون هذا نوعاً من الاعتبار والإدكار مع التمجيد والإكرام.

***

وكان ذو البجادين من المهاجرين السابقين، ومن فقهاء الصحابة القارئين، ومن فقراء المسلمين الزاهدين، وكان من أهل «الصُّفة» وهم جماعة من المتجردين للعبادة والجهاد، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة.

وكانوا يسمّون «أضياف الإسلام». وكان النبي ﷺ يدعوهم ويكرمهم، ويتردد عليهم، ويهدي إليهم، وكانوا نحو سبعين، يزيدون حيناً، وينقصون حيناً، وروي أنه قد نزل في شأنهم قول الله تبارك وتعالى في سورة الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1] [الكهف: ٢٨].

وظل ذو البجادين عابداً مجاهداً، وفياً نقياً، يبذل غاية جهده في سبيل ربه، حتى جاءت غزوة «تبوك» في السنة التاسعة من الهجرة، وكانت في وقت حرب وجدب، وشدة وعسرة، وكثرت المعاذير من بعض الناس ليتخلفوا عن هذه الغزوة.

ولكن سبعة من خيار الصحابة هم: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وعبد

---

(١) تحدث أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء» عن أهل الصفة، وترجم لكل واحد منهم.

الرحمٰن بن كعب، وعمرو بن الحمام، وهرمي بن عبد اللّه، والعرباض بن سارية، وذو البجادين، لم يكن عندهم مال، ولم يجدوا دواب ليركبوها في المسير إلى تبوك عند الشام، فلا خيول ولا جمال.

فذهبوا إلى رسول الله ﷺ، يسألونه أن يعطيهم ما يركبونه، ليخرجوا معه مجاهدين، فلم يجدوا عنده شيئاً، فرجعوا وأعينُهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، ولذلك سُمّوا بالبكّائين، وفيهم وفي أمثال لهم نزل قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١ـ ٩٢].

ثم يسّر الله للنبي ﷺ ـ عن طريق بعض الأخيار ـ دواب خرج بها هؤلاء إلى الجهاد، وخرج معهم ذو البجادين.

وفي الطريق قال ذو البجادين لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة.

وهذا رجاء يدل على النية الطاهرة، والرغبة الخالصة في الاستشهاد، ولكن الله تعالى يريد أمراً آخر. فقال له الرسول: ائتني بلحاء شجرة (أي بقشرها).

فأتاه به، فربطه النبي على عضد عبد الله، وقال يدعو ربه: اللهم حرّم دمه على النار. فعاد ذو البجادين يقول للنبي: يا رسول الله، ليس هذا أردتُ. فعاد النبي ﷺ يقول له: إنك إذا أخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد.

***

وواصل الركبُ المجاهد طريقه نحو موطن الاختبار والابتلاء، وهناك على مقربة من خط المواجهة الأول للأعداء، وفي ساحة النضال والفداء، لم يكن قتال ولا التحام، ولم يستعمل ذو البجادين ما بين يديه من رماح أو سهام، بل

أصابته الحمى وهو يتحرق شوقاً إلى أن يموت بطعنات وضربات من أيدي الأعداء.

وهناك في «تبوك»، وفي حالة التهيؤ الكامل لبيع النفوس إلى ربها وبارئها، أسلم ذو البجادين روحه، فحرص رسول الله ﷺ على أن يتولى هو وأبو بكر وعمر رضوان الله عليهما أمر تغسيله وتكفينه ودفنه.

وحينما شرعوا في تجهيزه قال الرسول لمن اشترك من الصحابة في ذلك: «ارفقوا بأخيكم رفق الله بكم، فإنه كان يحب الله ورسوله».

ويا لها من شهادة يقررها سيد الأنبياء وإمام المرسلين!.

وأخذوا في دفنه ليلاً، وأوقدوا لذلك شمعة، ونزل الرسول بنفسه في قبر ذي البجادين، ليتولى إضجاعه وتوسيده، ثم قال لأبي بكر وعمر وهما يحملان المجاهد الشهيد: «أدليا مني أخاكما».

فدلياه، فتناوله النبي من جهة القبلة، والسراج على مقربة منه، وأسنده في لحده وأضجعه، وكبر عليه أربع تكبيرات، ثم قال: «رحمك الله، إن كنت لأواباً تلاّءً للقرآن» أي الرجوع إلى الله، كثير القراءة لكتاب الله.

ثم خرج النبي من القبر، وتولى أبو بكر وعمر إهالة التراب على القبر.

وأخذ النبي يقول عن ذي البجادين: «اللهم إني قد أمسيت عليه راضياً فارض عنه». فلنتدبّر ولنعتبر:

لقد وضع رسول الله ﷺ على صدر ذي البجادين ثلاثة أوسمة: أولها: «إنه كان يحب الله ورسوله».

وثانيها: «رحمك الله، إن كنت لأوّاباً تلاّءً للقرآن».

وثالثها: «اللهم إني قد أمسيت عنه راضياً فارضَ عنه».

ونلاحظ أن الأوسمة الثلاثة ذات صلة باللّه عز وجل، ففي الأول محبة عبد اللّه للّه ولرسوله، وفي الثاني الرجوع إلى الله تعالى، وفي الثالث رضى الله ورضى رسول الله.

وكأن هذا توجيه من رسول الله لكل مؤمن بأن يكون جهاده موصول الأسباب بالله، وأن تكون خطواته عامرة بذكر الله، خالصة لوجه الله، حتى تباركها عناية الله، وتحوطها رعاية الله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

***

ولقد روى عنه ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ (أي مجاهد معه) في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية المعسكر، فتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه، وهو يقول: أدليا أخاكما، فدلوه إليه، فلما هيأه لشقه قال: اللهم إني قد أمسيت عنه راضياً فارض عنه. ثم جعل ابن مسعود يقول: «ليتني كنت صاحب الحفرة»!.

***

ثم عاد الجيش المجاهد دون الدخول في معركة، وأخذ المؤمنون يسترجعون ذكرى ذي البجادين العاطرة، ويقارنون عمله بعمل من تخلف أو اعتذر بلا ضرورة.

ونزل قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨ـ ٣٩].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

رضوان الله تعالى على المجاهد صاحب الحفرة ذي البجادين عبد الله بن عمرو المزني!.

***

المهاجر الشهيد

سلمة بن هشام المخزومي

إن الاهتدء إلى طريق الإيمان نعمة كبرى، فيها صلاح العاجلة وفلاح الآجلة، ولذلك يقول الله جل جلاله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، ويقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

ومتى حلت الهداية في إنسان شغلته بطاعة ربه، وتطهير قلبه، وتجنُّب ذنبه؛ ولا يعنيه، بعد ذلك، أن يوافقه الناس أو يخالفوه، كما لا يعنيه أن يشاركه أهله أو يباعدوه، فقد رأى النور، وعرف الطريق، فلا بد له من ملازمته: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴿٣٢﴾﴾؟! [يونس: ٣٢].

وحق الله تعالى مقدّم على كل الحقوق، ولذلك قال سيد الخلق محمد ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقذف في النار».

ولقد شهد التاريخ في صدر الإسلام، ومن حول الرسول ﷺ، كثيرين ممن فتح الله قلوبهم على الهدى، وزان نفوسهم بالتقوى، فأحبوا لله، وكرهوا لله، وجعلوا حق العقيدة فوق رابطة القرابة، حتى كان الواحد منهم يعادي من أجل ربه أقرب الناس إليه، بل لقد أقدم بعض هؤلاء على مقاتلة أعز الناس عليه، لأن حق الله فوق الجميع.

وكان هؤلاء المؤمنون الثابتون على طريق ربهم يدعونه قائلين كما علّمهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

وظلوا أمناء على عهدهم، أوفياء بعدهم، حتى مضوا إلى ربهم كراماً عظاماً، لا يضرهم كفران غيرهم من الأقارب أو الأباعد، فإن ربهم جل جلاله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥].

***

ومن هؤلاء: الصحابي الجليل المناضل المهاجر الصابر الشهيد: أبو هاشم سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي[١]، وهو ابن عم البطل العظيم، سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه.

ويقول التاريخ عن سلمة إنه «كان رضي الله عنه من خير الصحابة وفضلائهم»[٢]. وكان من السابقين في إسلامه، وشاركه في دخول الإسلام في وقت واحد ابنُ عمه الآخر، الوليد بن المغيرة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وجماعة أراد الله هداهم معاً[٣].

ومع أن سلمة من قبيلة بني مخزوم - وهي قبيلة كبيرة ذات مكانة وسطوة وثروة - آثر احتمال الاذى والاضطهاد والتعذيب في سبيل الله تعالى على التنعم أو التمتع بجاه قبيلته وأسرته، وكذلك صُنع الإيمان بالنفوس الطيبة الطاهرة.

وحينما اشتد به الإيذاء هاجر إلى الحبشة مع رفيقه في دخول الإسلام: أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وبعد حين عادا إلى مكة مع مَنْ عادوا، ظناً منهم أن الجو قد صفا للمسلمين، فما كان من مشركي مكة إلاّ أن هاجموا هؤلاء العائدين المستضعفين، وحبسوهم وأذاقوهم ألوان العذاب.

وظل سلمة بن هشام في ظلام الحبس وقتاً طويلاً، حيث حال قومه بينه وبين الهجرة مع المسلمين من مكة إلى المدينة.

وكان الرسول ﷺ - كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم - يدعو في

---

(١) أمه هي ضباعة بنت عامر بن قرط.
(٢) التحفة اللطيفة للسخاوي، ج ٢ ص ٢١٤.
(٣) الدرر لابن عبد البر، ص ٤٧.

قنوته في الصلاة لسلمة بن هشام وغيره من هؤلاء المستضعفين المحبوسين في مكة، فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» أي خذهم أخذاً شديداً، لأن الوطأة فيها معنى القهر والإذلال، واقهرهم بالجدب الذي يشبه السنوات الشديدة التي أشار إليها القرآن في سورة يوسف بقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: ٤٨] أي سبع سنين فيها قحط وجدب.

***

وصبر سلمة على الإيذاء يلاحقه من هؤلاء السفهاء، وحاولوا بكل وسيلة أن يردعوه عن دينه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وأغروه بكثير من المغريات، فأبى واستعصم، وذكّروه القرابة وحق العشيرة وكرامة القبيلة، فآثر على ذلك أخوة الإيمان وحق الرحمٰن، فكأنه الذي قال [من الوافر]:

أبي الإسلامُ، لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ثم هيأ الله تعالى لسلمة فرصة الإفلات من الحبس، والخلاص من أيدي هؤلاء المجرمين، فسارع بالهجرة إلى رسول الله ﷺ في المدينة، وكان ذلك عقب غزوة الخندق.

ولكنه لم يسارع بالهجرة ليأكل ويشرب، أو ليلهو ويلعب، بل ليحمل السلاح مجاهداً في سبيل الله عز وجل، وبعد حين خرج إلى غزوة «مؤتة» التي كانت في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وهي غزوة القواد الثلاثة الذين تساقطوا تباعاً، شهيداً وراء شهيد: جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد اللّه بن رواحة رضي الله عنهم، وهي الغزوة التي ارتفع فيها صوت أحد هؤلاء الشهداء يقول [من الرجز]:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وبارداً شرابها

وذاق سلمة بن هشام ما ذاقه رفاقه في هذه الغزوة من متاعب وأهوال، ثم عاد مع البقية التي استنقذها سيف الله خالد، لا ليميل إلى الراحة والدعة، بل ليواصل الكفاح والنضال.

وظل سلمة على ذلك حتى لحق الرسول ﷺ بربه تبارك وتعالى، فخرج مجاهداً إلى الشام، حين وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيش الإسلام إلى الشام، ليطهر الأرض العربية من طغاتها وبغاتها الدخلاء عليها.

وشهد سلمة معركة «أجنادين» التي كانت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من السنة الثالثة للهجرة[1].

و«أجنادين» موضع معروف بالشام، من نواحي فلسطين، وكانت فيها موقعة مشهورة بين المسلمين والروم، وكان الروم فيها مائة ألف، ودار قتال عنيف شديد، ولكن الله نصر المسلمين، وقتلوا من أعدائهم كثيرين.

ويروي التاريخ أن «هرقل» ملك الروم فزع حينما علم بخبر الهزيمة، وهرب.

يقول ياقوت: «وانتهى خبر الواقعة إلى هرقل، ونُخِبَ قلبهُ، ومليء رعباً، فهرب من حمص إلى أنطاكية».

وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة [من الطويل]:

ونحن تركنا(أرطبون) مطرّداً ... إلى المسجد الأقصى، وفيه حسُورُ
عشيةَ أجنادين لمّا تتابعوا ... وقامت عليهم بالعراء نسورُ
عطفنا له تحت العجاج بطعنة ... لها نَشَجٌ نائي الشهيق غزيرُ
فطمنا به الروم العريضة، بُعده ... عن الشام أدنى ما هناك شطيرُ
تولّت جموع الروم تتبع إثره ... تكاد من الذعر الشديد تطيرُ[2]

***

وبعد أن لقي سلمة بن هشام في «أجنادين» ما لقي من آلام، عاد بعد شهور فاشترك في معركة«مرج الصُفّر» التي كانت في أول خلافة عمر رضي الله عنه، وفي أوائل السنة الرابعة عشرة.

(١) البداية والنهاية، ج ٧ ص ٣١.
(٢) معجم البلدان، ج ١ ص ١٠٤.

وكلمة «الصُفَّر» هنا بتشديد الصاد المضمومة، وتشديد الفاء المفتوحة - على وزن السُكَّر - ومرج الصفَّر بالقرب من غوطة دمشق، وهو سهل واسع قبل دمشق، يبعد عنها ثمانية وثلاثين كيلومتراً، وفيه يقول خالد بن سعيد بن العاص الذي قُتل في مرج الصفّر [من الكامل]:

هل فارسٌ كره النزالَ يعيرني رمحاً إذا نزلوا بمرج الصُفَّر؟

وقاتل البطل سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي في هذه الموقعة قتالاً مجيداً، وصبر فيها صبراً حميداً، وأراد الله تعالى له ما عنده، وما عند الله خير الأبرار، فاختار له نعمة الشهادة في هذه الغزوة، في شهر المحرم من السنة الرابعة عشرة(١). ومضى إلى ربه راضياً مرضياً، بعد أن كتب اسمه بأحرف من نور في سجل أهل الوفاء والفداء، رضوان الله عليهم أجمعين.

***

والعجيب بعد هذا هو أن نعرف أن سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي: الصحابي المؤمن، المجاهد البطل، المهاجر الصابر، المناضل الشهيد، كان أخاً لأبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي عليه لعنة الله!.

وأبو جهل هو الذي كانت كنيته في الجاهلية هي «أبو الحكم»، ولكن الرسول ﷺ غيّر هذه الكنية بالكنية التي اشتهر بها بعد ذلك، وهي «أبو جهل»، وقد كان من أشد الناس عداوة للإسلام واضطهاداً للمسلمين، وتعذيباً لهم.

وقد لقي اللعين أبو جهل مصرعه في غزوة بدر وهو كافر، ومضى إلى السعير وبئس المصير. وحينما رآه الرسول مقتولاً قال: «قُتل فرعون هذه الأمة»!..

فانظر واعتبر.

---

(١) هناك خلاف في وقت استشهاد سلمة. فبعض المؤرخين يقول إنه استشهد في أجنادين وآخرون يقولون إنه استشهد في موقعة مرج الصفر، وهذا ما ملنا إليه.

انظر كيف اتجه أحد الأخوين إلى طريق الحق وصراط الهدى، ففاز ونجا، وكيف أصر الآخر على الكفران والطغيان، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ومضى مشيّعاً باللعنات!.

وصدق قول العلي الكبير: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۝٣٠﴾ [الأعراف: ٣٠].

وشتان بين هؤلاء وهؤلاء: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة: ١٨ـ ٢٢].

***

ما أجمل أن يهتدي الإنسان إلى طريق الإيمان، وأجمل من ذلك بكثير أن يقترن الإيمان بعمل فيه إخلاص وإحسان، حتى يكتمل الدين في حياة أهلية: عقيدةً راسخاً، عملاً صالحاً، وجهاداً موصولاً في سبيل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

***

القارئ الشهيد

سعد بن عبيد الأنصاري

من الحقائق الثابتة لدى كل عاقل مؤمن أن أعظم هدية امتن الله بها تعالى على عباده، أن أنزل إليهم كتابه، وفيه هديهُ ونورُه، فكان هذا الكتاب هو الدليل إلى الفلاح في الدنيا، والرائد إلى الفوز في الآخرة، وصدق العلي الكبير حين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩] وحين قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ و١٦].

وإذا كان هذا القرآن المجيد يشمل أصول العقائد والعبادات والمعاملات، فإنه كذلك يجمع بين الرحمة الواسعة والقوة الصادعة، فتارة يرق ويترفق حتى يقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ و٦٤].

وتارة يشتد فيحدثنا عن: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وتارة يستنفر إلى مواقف الابتلاء ومواطن الجهاد، فيقول: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١]. ويقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

ولقد جرى بين بعض المسلمين عُرْفٌ فهموا منه أن حفظة القرآن الكريم يمثلون جانب السلبية والعزلة والانطواء بين الناس؛ وهذا عرفٌ خاطىء لا يليق

أن يكون، لأن القرآن الذي يستحق أن نسميه كتاب السكينة والمرحمة، كذلك يستحق أن نسميه كتاب القوة والملحمة.

ولقد كان أسلافنا على عهد الرسول ﷺ يحفظون القرآن، لا ليتباهوا بحفظه، أو يتنافسوا في تنغيمه، أو يقتصروا على ترديده في المآتم والمقابر، أو ليقتصروا على اتخاد آياته أحجية وتمائم، بل كانوا يعمرون به حياتهم، ويصلحون عن طريقه حواسهم ونفوسهم، ويجعلونه إمامهم في سلمهم وحربهم، ويتّخذون منه نوراً وناراً في وقت واحد، فهو نور لمن استقام واهتدى، وهو نار على من ضل وغوى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

***

وهذا صحابي جليل، يملأ صدره بالقرآن، فيصله بأسباب الرحمٰن، ويكون في حياته مثلاً للمؤمن القرآني المعتصم بحبل الله دائماً، فهو يعمر محرابه بالعبادة والترتيل، وهو يحمل سلاحه وقت الجهاد ليناضل النضال الجليل.

وهذا الصحابي هو: أبو زيد سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس الأوسي الأنصاري الذي وصفته سيرته بأنه «الحافظ للعهد، الوافي بالوعد» وبأنه كان يقال له: «نسيج وحده»[١].

وكان لقب سعد هو «القارىء» لأنه كان أحد الأربعة الأنصار الذين جمعوا القرآن الكريم، وجفظوه على عهد رسول الله ﷺ[٢]. ولقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: مَنْ جمع القرآن على عهد

---

(١) في حديث عمر: «من يدلني على نسيج وحده» يريد رجلاً لا عيب فيه، وأصله أن الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره، وهو فعيل بمعنى مفعول، ولا يقال إلا في المدح، ومنه حديث عائشة تصف عمر: «كان والله أحوذياً نسيج وحده». والأحوذي: الجاد المسرع في الأمور الحسن السياق لها (النهاية).

(٢) وقيل إن لقبه هو «القاري» بلا همز، نسبة إلى القارة، والأول أصح.

رسول الله ﷺ. قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد(سعد بن عبيد).

ولقد افتخرت الأنصار بهؤلاء الأربعة، فقالت: «منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت؛ ومعاذ، وأبو زيد» رضوان الله عليهم أجمعين.

وينبغي أن نتذكر أن الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول من الصحابة أكثر من هؤلاء وهم: عثمان بن عفان، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبو زيد سعد بن عبيد.

قال ابن سيرين: وتميم الداري.

وقال القرطبي: وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب.

ويذكر الإمام ابن حجر في «الإصابة» عن سعد أنه: «كان يسمى القارىء ولم يكن أحد يسمى القارىء غيره».

وكان سعد يقوم بالإمامة في مسجد قباء، في زمن النبي ﷺ، وفي زمن أبي بكر رضي الله عنه، وفي زمن عمر رضي الله عنه. ومسجد قباء هو أول مسجد أقيم في الإسلام، ويروى في التفسير أنه المسجد الذي نزل فيه قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

ومنصب الإمامة في الصلاة ينبعي له أن يكون القائم به موصول الأسباب بالقرآن المجيد حفظاً وتلاوة.

***

وإذا كان سعد بن عُبيد الأنصاري قد أضاء جوانحه بأضواء التنزيل الإلهي الكريم، وزكى لسانه بترتيل آياته البينات، وزان صلاته بتلاوة كلماته المعجزات، وعلّمه لمن سعى إليه طالباً تعلمه من المسلمين، فإن مائدة القرآن العظيم لم تمنع سعد بن عبيد أن يشارك في مواطن النضال والكفاح.

بل لعل حفظه للقرآن كان من أقوى الأسباب التي دفعت به إلى مواقف

الرجولة والبطولة، لأن القرآن هو كتاب الجهاد ودستور الكفاح؛ ولذلك خرج سعد بن عُبيد مجاهداً في سبيل ربه تعالى منذ بواكير الجهاد في الإسلام، فشهد غزوة بدر، وغزوة أُحد، وغزوة الخندق، وسائر المشاهد والغزوات؛ وبذلك أعطى قدوة عملية في أن العاكف على القرآن الكريم حفظاً وتلاوة وترتيلاً، يسارع عند النفير إلى المعركة، حاملاً نور الله في قلبه وبين يديه، ويواصل نضاله غزوة بعد غزوة، حتى يكون برهاناً عملياً على أن أبناء القرآن هم الذين يرعون أمانته، ويُعِزُّون دعوته، ويرفعون رايته بين العالمين.

وظل سعد بن عبيد الأنصاري - حتى بعد وفاة الرسول ﷺ - يحسن الجمع بين مائدة القرآن وساحة الميدان: نراه في المحاريب قارئاً أو مقرئاً، يجاهد بلسانه، فيرتل آيات ربه في إتقان وإحسان، ونراه في المعارك بطلاً يدفعه ما في صدره من آيات الجهاد إلى مواقف التضحية والبذل والفداء.

وجاءت السنة السادسة عشرة من الهجرة، وفيها كانت معركة «القادسية» الكبرى التي دارت بين المسلمين والفرس، و«القادسية» بلدة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، ويقال - كما ذكر ياقوت في معجم البلدان - إنها سُميت بهذا الاسم لأنه قيل فيها: «قُدِّسْت من أرض»!.

وفي هذه المعركة قاتل المسلمون قتالاً عنيفاً، وحققوا فيها نصراً عظيماً حميداً، حتى يقول ياقوت في «معجم البلدان» عن هذه الغزوة: «كانت من أعظم وقائع المسلمين، وأكثرها بركة».

واشترك أبو زيد سعد بن عُبيد الأنصاري في هذه المعركة.

ويروي التاريخ أن القراء أخذوا يقرأون آيات الجهاد وسوره في صدر هذه الغزوة[1]، ومن يدري: لعل أبا زيد سعد بن عبيد كان في طليعة هؤلاء.

وما أروعه حين يرتفع صوته بالشعارات الربانية القرآنية في الجهاد حتى يبعث روح الإقدام وحبَّ الفداء في النفوس.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧ ص ٤٣.

ثم يخطب سعد قبيل المعركة، فيقول فيما يقول عن نفسه وأمثاله: .

«إنَّا ملاقو العدو غداً، وإنا مستشهدون غداً، فلا تغسلوا عنا دماً، ولا نكفَّن إلاّ في ثوب كان علينا»[1]!.

وهكذا عزم سعد على صدق الجهاد، وعزم على نيل الاستشهاد، وحرص على أن يبقى دمه على صدره، ليكون وساماً له أي وسام عند ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وألاّ يصحبه شيء من متاع الدنيا وزينتها، فحسبه أن يكفَّن في ثياب المعركة، فهي أغلى من كل ثياب، وهو مقبل على ربه القائل جل جلاله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ـ ٨٩].

وصدق سعد بن عبيد ما عاهد الله عليه، ووفى بوعده، فظل يقاتل ويقاتل، ويجاهد ويجالد، مقدماً غير محجم، حتى نال نعمة الشهادة في معركة القادسية، في السنة السادسة عشرة من الهجرة[2]، وعمره أربع وستون سنة، رضوان الله تعالى عليه.

ولقد ترك سعد من ورائه ابناً له دل على أن السلالة الطاهرة تتنقل من الأسلاف إلى الأخلاف، وهذا الابن هو «عمير بن سعد بن عبيد الأنصاري» وقد كان أحد الصحابة الزهاد، وشهد فتوح الشام مجاهداً، ولاه عمر بن الخطاب على حمص، وكان عمر يقول: «وددتُ أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد، أستعين بهم على أعمال المسلمين».

وكان لعمير بن سعد دار في أرض فلسطين أقام بها زمناً[3]، وقد توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة خمس وأربعين.

***

(١) التحفة اللطيفة للسخاوي، ج ١ ص ١٦١.

(٢) وقيل إنها كانت في السنة الخامسة عشرة (المرجع السابق).

(٣) حلية الأولياء، ج ١ ص ٢٥٠.

إن أسلافنا الكرام الذين انحنت ظهورهم على الصحف المطهرة من كتاب ربهم يرتلونها ويتدبرونها، هم أنفسهم الذين ارتفعت هاماتهم في ميادين القتال يطلبون النصر ممزوجاً بالعزة، أو الشهادة مقرونة بنعيم الله الدائم، وبهذا أعطوا الدليل على صدق القائلين في وصفهم، إنهم رهبان الليل وفرسان النهار.

وإنما يصلح أمر هذه الأمة في حاضرها، بما صلح به في أولها، سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

***

كاتب الوحي الشهيد

أبان بن سعيد

بين الناس أناس قد يكون نبتهم قوياً، ومعدنهم كريماً، ولكن طبقات من الاغفال أو الإهمال لهذا المعدن الكريم تخفيه ولا تبديه، فيظل محجوباً مضيَّعاً، حتى تهيِّىء له الأقدار سبباً ينفض عنه التراب، ويزيل الصدأ، ويجلوه للأبصار والبصائر على حقيقته وأصالته.

ولقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام أشبه الأشياء بالتربة المعطلة المطمورة، التي تعلوها الحشائش والأعشاب الضارة، وليس هناك من يطهرها ويعمرها بالزرع السليم والنبت القويم.

وجاء الإسلام العظيم فهز هذه التربة هزاً باعثاً محركاً، ونقاها مما علق بها، وسقاها بمائه الطهور، وبذر فيها بذور الخير والبر، فإذا الأرض المهملة تصبح الأرض الطيبة، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.

ولقد كان في العرب كثير من الأفراد غشيتهم ظلمات الجاهلية، فحجبت عنهم نور الحق وطريق العدل، فأبدوا الكراهية والبغضاء للإسلام حين جاء، وناصبوا أهله وأتباعه العداء، وامتد بهم العناد زمناً، ثم تهيأت أسباب لإسلامهم، قد يكون بعضها يسيراً قليلاً، فإذا المعرضون يقبلون، وإذا المعارضون المعاندون يوافقون ويؤيدون، وإذا الأعداء الأشداء الألدّاء للإسلام في جاهليتهم يصبحون الأولياء الأتقياء الأوفياء للّه تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ وصدق النبي حين يقول: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا».

ومن هؤلاء الصحابي الجليل أبو الوليد أبان بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي[١]، الذي كان في أول أمره شديد العداوة والخصومة للإسلام والمسلمين وهو في ظلمات الجاهلية، فهو حينئذ جاحد معاند، وهو حينئذ كافر مكابر، ولكن المعدن في أعماقه أصيل كريم.

وقد يشير إلى هذا من طرف دقيق أن النبي ﷺ أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ في غزوة الحديبية ـ ليلقى المشركين في مكة، ويطلب إليهم ألا يمنعوا النبي وصحبه من أداء العمرة عند الكعبة.

وكان دخول عثمان عرين هؤلاء الأعداء أمراً محفوفاً بالأخطار، ولكنه قابل عند أبواب مكة أبان بن سعيد الذي عرض حمايته وجواره على عثمان، حتى لا يعتدي عليه أحد، فقبل عثمان ذلك، وحمله أبان على فرسه، وأعلن جواره بين الناس، وقال لعثمان: أسلك حيث شئت آمناً.

ولما انتهى عثمان من تبليغ الرسالة التي كلفه النبي تبليغها، قال له أبان: إن شئت أن تطوف البيت (الكعبة) فطف. فأجاب عثمان إجابة المؤمن الذي يصون كرامة نبيه وحرمة قائده، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وتروي السيرة هنا أن بعض المسلمين قالوا عن عثمان لرسول الله ﷺ: قد خلص عثمان إلى البيت(الكعبة) فطاف به دوننا!. فقال رسول الله ﷺ: ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون. قالوا: وما يمنعه يا رسول الله، وقد خلص إليه؟. فقال: ذلك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف. فلما رجع عثمان سألوه: طفتَ بالبيت؟. فقال: بئسما ظننتم بي، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت، والذي نفسي بيده لو مكثت بها معتمراً سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفتُ حتى يطوف رسول الله ﷺ[٢].

(١) وأمه هي: هند بنت المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

(٢) السيرة الحلبية، ج ٢ ص ١٤٠.

فانظر رعاك الله إلى حسن الظن من النبي بعثمان، وانظر إلى حسن الادب من عثمان مع النبي ﷺ.

***

وكان لأبان بن سعد أخوان أسلما قبله في صدر الدعوة، وهما خالد وعمرو، ودعَوا أخاهما إلى الإسلام فأبى، وسبحان مقسِّم الحظوظ، وهاجر الأخوان إلى الحبشة، ثم عادا منها عقب هدنة الحديبية؛ وكان أخوهما أبان في رحلة إلى الشام للتجارة، فهيأ الله جل جلاله سبباً أمامه يجذبه إلى الإسلام حيث لاقى هناك راهباً سأله عن أخبار الحجاز، فأجابه أبان قائلاً: إني رجل من قريش، وإن رجلاً خرج فينا يزعم أنه رسول الله، مثلما أُرسل موسى وعيسى. فقال له الراهب: وما اسم صاحبكم؟. قال أبان: اسمه محمد. فقال الراهب: إني أصفه لك.

وأخذ الراهب يذكر صفة النبي ونسبه وسنّه. فقال أبان مندهشاً: هو كذلك. فقال الراهب: والله ليظهرن على العرب، ثم على الأرض، ثم قال أبان: اقرأ على الرجل الصالح السلام(١).

ورجع أبان بوجه غير الوجه الذي خرج به.

عاد وهو يفكر في أمر الإسلام، وأمر الرسول ﷺ، وفيما قاله الراهب، وفيما قاله أخواه أكثر من مرة. عاد بقلب كأن به جاذباً يجذبه إلى الاستجابة لهذه الدعوة الإلهية المجيدة.

وكذلك كان؛ وخرج إلى المدينة مسلماً.

وهناك التقى أبان بأخويه خالد وعمرو، وكأنما أراد أن يحدثاه عن الإسلام، ويدعواه إليه، فإذا العناد من أبان قد اختفى، وإذا هو قد رغب في الإسلام واستجاب له، وفتح الله قلبه ليكون جندياً من جنوده، وتابعاً من أتباع رسوله ﷺ. وتعظم الفرحة عند الأخوين لهذه البشرى!..

---

(١) أسد الغابة، ج ١ ص ٥٨، والسيرة النبوية لابن كثير، ج ٤ ص ٦٦٩، وفيها أن الراهب قال لأبان «إذا رجعت إلى أهلك فأقرئه السلام».

وكان إسلام أبان في أواخر السنة السادسة من الهجرة[١].

وخرج الأشقاء الثلاثة من المدينة متجهين إلى ركب الرسول ﷺ في غزوة خيبر واشترك أبان في جهاد هذه الغزوة[٢]، وقسم له الرسول من مغانمها.

ويمكن لنا أن نرى هنا وُجُوة تشابه أو تقارب بين أبان بن سعيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع تفاوت في الدرجات طبعاً.

فكلٌ منهما كان في جاهليته شديد العداوة والخصومة للإسلام والمسلمين.

وكلٌ منهما تأخر بعض الوقت في دخوله الإسلام.

وكلٌ منهما تأثر ببعض أقاربه في التوجه إلى الإسلام.

وكل منهما أخلص للّه تعالى ولرسوله، واستقام على الصراط المستقيم بعد دخوله في دين الله عز وجل.

***

وبدأ التكريم الإلهي يتابع أبان بن سعيد. . .

فهو يخلص طاعته وعبادته لربه ومولاه تبارك وتعالى.

وهو يصدق في حبه ومتابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو يشترك في الجهاد والنضال بكل ما يستطيع.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه في سرية فدائية خرجت من المدينة متجهة ناحية نجد، فوفق الله أبان بن سعيد لما وفقه إليه في هذه السرية من جهد وجهاد.

---

(١) دائرة المعارف للبستاني، ج ١ ص ٣٧ طبعة بيروت سنة ١٩٥٨. وهناك من يقول إن إسلام أبان كان في السنة السابعة.

(٢) هناك من يقول إنهم قدموا فوجدوا الرسول قد فتح خيبر، ولكن أبا نعيم يقول: «إن أبان بن سعيد أسلم قبل خيبر، وشهدها، وهو الصحيح». أسد الغابة، ج ١ ص ٥٨.

ثم اختاره رسول الله ليكون أحد كتاب الوحي الذين يملي عليهم ما يتلقاه من ربه سبحانه من كلماته البينات وآياته المعجزات، وإنه لشرف عظيم لأبان.

وفي آخر السنة التاسعة للهجرة اختاره الرسول ليكون والياً على إقليم «البحرين» في منطقة الخليج العربي، وخرج أبان إلى البحرين يحمل لواءه ورايته، وظل هناك يدير شؤون الإقليم بما هداه الله إليه من صلاح وإصلاح حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحق بربه تبارك وتعالى.

وكأنما هدت هذه الكارثة نفس أبان، فلما علم بوفاة الرسول عاد إلى المدينة، وكان أبو بكر يتمنى أن يبقى أبان في ولاية البحرين، ولذلك عاتبه ولامه على رجوعه، كما لامه أيضاً عمر بن الخطاب، فقال أبان: آليت لا أكون عاملاً لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

ولكن يروى أن أبا بكر ولّى أبان بن سعيد على جانب من اليمن، ولعل الخليفة قد ألح عليه فيما بعد، فقبل أبان إسهاماً منه في تحقيق المصلحة للمسلمين.

ثم كان لأبان نصيبه المذكور من الفتوح في الشام، حيث قاتل وناضل(٢)، ثم اشترك في معركة «أجنادين» التي وقعت في السنة الثالثة عشرة، في أواخر عهد الخليفة الأول أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وشاءت الأقدار الإلهية أن ينعم الرازق الوهاب على أبان بن سعيد بنعمة الشهادة في هذه الغزوة، حيث قدم بين يديه ما يفتح أمامه أبواب النعيم في الفردوس الأعلى، جزاء جهاده واستشهاده، فرضوان الله تبارك وتعالى على كاتب الوحي المجاهد الشهيد: أبي الوليد أبان بن سعيد.

والصحيح المشهور أن أبان بن سعيد استشهد في أجنادين في السنة الثالثة

---

(١) يروى أن أبان بن سعيد تأخر قليلاً عن مبايعة أبي بكر، اتباعاً لآل البيت، وانتظاراً لتبين موقفهم، ولذلك يعده الشيعة منهم، وقد ترجم له الأستاذ محسن الأمين في كتابه «أعيان الشيعة».

(٢) وكذلك استشهد أخوه سعيد بن العاص بن أمية في حصار الطائف «الدرر لابن عبد البر» ص ٢٤٤.

عشرة[١]، وقيل مات في عهد عثمان رضي الله عنه، ويقول السخاوي: «واختلف في وفاته فقيل: استشهد يوم أجنادين على الأصح، سنة ثلاث عشرة، في خلافة أبي بكر وقيل على عهد عمر، وعن الزهري أنه أملى مصحف عثمان على زيد بن ثابت بأمر عثمان، وهذا يقضي بأنه تأخر عما تقدم ولأجله زعم بعضهم أنه توفي سنة تسع وعشرين، وقال أبو حسان الزيادي: في خلافة عثمان سنة سبع وعشرين، ومال إليه شيخنا»[٢].

ونلاحظ أن الذي كتب المصحف لعثمان ليس أباناً، بل هو: أبو عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس توفي سنة تسع وخمسين[٣].

ويقول ابن كثير أيضاً في السيرة: «وقد اختلف في وفاة أبان بن سعيد هذا، فقال موسى بن عقبة ومصعب بن الزبير والزبير بن بكار وأكثر أهل النسب: قُتل يوم أجنادين، يعني في جمادى الأول سنة ثنتي عشرة.

قال آخرون: قتل يوم مرج الصُّفّر سنة أربع عشرة. وقال محمد بن إسحاق: قتل هو وأخوه عمرو يوم اليرموك، لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة، وقيل إنه تأخر إلى أيام عثمان، وإنه أمره عثمان أن يملي المصحف الإمام على زيد بن ثابت، ثم توفي سنة تسع وعشرين، والله أعلم[٤].

سلام على أبان بن سعيد في الخالدين.

***

---

(١) الأعلام، ج ١ ص ٢٠. والبداية والنهاية، ح ٧ ص ٣٢.

(٢) التحفة اللطيفة، ج ص ٨٤.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ج ١ ص ٢١٨.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ٦٧٠.

الشهيد المصلوب

خبيب بن عدي الأنصاري

إذا كان الإسلام العظيم قد علمنا أن الحرب خدعة، وأنها تقوم على المحاورة والمخاتلة، فإنه في الوقت نفسه قد حذرنا مكر أعدائنا وغدرهم، وحذرنا الاغترار بما قد يعطونه من عهود ووعود، أو يبدونه من تظاهر بالضعف أو المسالمة، فإن قلوبهم منطوية على الغل والحقد، ولذلك قال القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴿٧١﴾﴾ [النساء ٧١]، وقال: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء ١٠٢].

وإذا كنا قد جنينا المرّ في حاضرنا من انخداعنا بمكر أعدائنا، فإن أجدادنا العظام قد تعرضوا لمواقف خيانة الأعداء ومكرهم، وابتلاهم ربهم في ذلك المجال ابتلاءً ممحصاً مؤدباً، كما شهدنا في غزوة أُحد وغزوة حنين.

ولكن أسلافنا رضوان الله عليهم قابلوا تلك المواقف بالصبر والاحتمال، ثم بالتدبر والاعتبار، ثم بالحيطة والحذر بعد ذلك، فكانت التجارب المريرة تأديباً لهم وتهذيباً، وتعليماً وتقويماً، ولعل الأخلاف يتابعون الأسلاف في ذلك، فلا يقبلون لأنفسهم أبداً أن يُلدغوا من جحر واحد مرتين، فقد قال سيد الأنام محمد ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وهذا نموذج من نماذج السيرة العطرة يرينا كيف وقع بعض الصحابة في شرك الخيانة والغدر من بعض المشركين، ولكنهم كانوا رجالاً أبطالاً، حتى في أشد المواقف عنتاً وضيقاً، وقدموا من التضحية والفداء ما يغطي على تبعة الانخداع، وما يعد نبراساً ساطعاً أمام المناضلين.

فقد أقبل جماعة من قبيلة «عضل والقارة»، وأظهروا أمام الرسول ﷺ أنهم قد أسلموا، ورجوه أن يرسل معهم عدداً من الصحابة يعلّمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين، فاستجاب لهم النبي، وأرسل معهم عدداً من الرجال. روي أنهم ستة، وهم: عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، وزيد بن الدِّثنة، وعبد اللّه بن طارق، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وخُبيب بن عدي الأوسي الأنصاري، رضوان الله عليهم أجمعين، وقد سمِّيت هذه البعثة النبوية باسم «بعث الرَّجيع». والرجيع اسم ماء لقبيلة هذيل بناحية الحجاز، بين عسفان ومكة.

وفي الطريق غدر هؤلاء المشركون المخادعون بهؤلاء الصحابة، فقتلوا منهم من قتلوا، بعد معركة ضارية شرسة، ضرب فيها الصحابة أروع المثل في الشجاعة والفداء، وأسر المشركون منهم اثنين، هما خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة.

وكان خبيب رجلاً كثير العبادة، كثير الصيام بالنهار، كثير القيام بالليل، وقد آخى الرسول ﷺ بين خبيب وعمير بن أبي وقاص شقيق الفارس البطل المجاب الدعوات: سعد بن أبي وقاص، وكان عمير ـ كما يقول النووي ـ صحابياً قديم الإسلام، ومن المهاجرين، وشهد بدراً، واستشهد فيها، وكان عمره ست عشرة سنة، واستصغره رسول الله ﷺ عندما أراد المسير إلى غزوة بدر، فرده فبكى، فأجازه، وكان سيفه طويلاً، فعقد عليه حمائله، وكان يقول: «أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة» فرزقه الله إياها[١].

وقد شهد خبيب غزوة بدر، وقتل فيها الحارث بن عامر[٢] ولذلك حرص أبناء الحارث هذا على أن يشتروا خبيباً ممن أسروه، ليقتلوه ثأراً لأبيهم، وحبسوه في مكة مدة من الزمن؛ وأحسَّ خبيب بأن القوم سيقتلونه لا محالة،

---

(١) تهذيب الأسماء. ج ٢ ص ٣٩.

(٢) هناك من ينفي اشتراك خبيب في غزوة بدر، ويقول إن الذي قتل الحارث يوم بدر هو خبيب بن إساف بن عتبة بن عمرو فاشتبه الاسمان، ولكن هناك من يؤكد اشتراكه في الغزوة.

فطلب من ابنة الحارث التي يوجد في بيتها موسى ليتطهر فيزيل ما بجسمه من شعر استعداداً للموت، فأعطته المرأة ما أراد.

وبعد قليل أقبل طفل لها على خبيب والموسى معه، فأجلسه على فخذه وأخذ يداعبه في رفق، ورأت أمّ الولد هذا المنظر ففزعت، حيث ظنت أن خبيباً قد يقتل الطفل انتقاماً لنفسه، وأدرك خبيب ما دار بذهن المرأة فقال لها: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك.

ولذلك كانت هذه المرأة تقول فيما بعد: ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب.

ويروى أن هذه المرأة قد أسلمت وقالت: كان خبيب قد حُبس في بيتي، فقد اطلعت عليه يوماً، وإن في يده مقطفاً من عنب مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل؛ وقال لي حين حضره القتل: ابعثي إليّ بحديدة (شفرة) أتطهر بها للقتل. فأعطيتُ غلاماً من الحي الموسى، فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل.

فوالله ما هو إلاّ أن قد ولى الغلام بها إليه، فقلت: ما صنعتُ؟ أصاب والله الرجل ثأره، بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل. فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك، ما خافت أمك غدرتي حتى بعثتك بهذه الحديدة؟. ثم خلى سبيله. ويقال إن الغلام ابنها[1].

ومضى المجرمون في تنفيذ المأساة.

خرجوا بخبيب إلى ظاهر مكة، في مكان اسمه «التنعيم»، ونصبوا صليباً ضخماً عالياً، كان الرجل منهم يصعد عليه، وينزل، ليقتلوا خبيباً عليه، وهنا قال لهم المجاهد الصابر المؤمن خبيب: دعوني أركع ركعتين، فأذنوا له بذلك، فصلاهما ثم قال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزعٌ لزدت.

وفي رواية أنه قال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة.

---

(١) نهاية الأرب، ج ١٧ ص ١٣٥.

وقد صارت صلاة هاتين الركعتين سنة، لأنها فعلت في عهد رسول الله ﷺ. ولم يعترض عليها.

ثم دعا زيد عليهم في جرأة وشجاعة فقال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدَداً، ولا تبق منهم أحداً. وفي رواية: ولا تغادر منهم أحداً.

و «أحصهم عدداً»: أي أهلكهم واستأصلهم بحيث لا يبقى من عددهم أحد.

و «اقتلهم بِدَداً»: بدداً جمع بِدة بكسر الباء، وهي الحصة والنصيب، أي اقتلهم حصصاً مقسمة، لكل واحد حصته ونصيبه، ويروى «بَدَداً» بفتح الباء، أي متفرقين في القتل، واحد بعد واحداً، من التبديد.

و «لا تغادر منهم أحداً» أي لا تترك منهم فرداً.

وقد ذكر السهيلي ما يفيد أن دعوة خبيب قد أصابت منهم كل من سبق في علم الله أن يموت كافراً، ومن أسلم منهم فلم يرده خبيب بدعائه، ومن قتل منهم بعد هذه الدعوة فإنما قتلوا بدداً، غير معسكرين ولا مجتمعين، فنفذت الدعوة على صورتها، وفيمن أراد خبيب رضي الله عنه.

وتكاثر اللئام على المناضل الوحيد، وأوثقوا ربطه على الصليب الضخم، وأخذوا يتطلعون إليه كأنهم يتشفون فيه، ويتلذذون بمنظر تعذيبه، ولكن خبيب بن عدي لم يبال بهم، ولم يضعف ولم يهن، بل أخذ يردد شعراً يقول فيه [من الطويل]:

قد جمّع الأحزاب حولي، وألّبوا[١] ... قبائلهم، واستجمعوا كل مجمعِ
وقد قرّبوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبْتُ من جذع طويل ممنّعِ
وكلهم يبدي العداوة جاهداً ... عليَّ لأني في وثاق بمضيعِ
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمّع الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبِّرني على ما أصابني ... فقد بضعوا[٢] لحمي، وقد ضل مطمعي

(١) ألّبوا: جمعوا وحصنوا.

(٢) بضعوا: قطعوا.

وذلك في ذات الإله، وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزّع[1]
وقد عرّضوا بالكفر، والموت دونه ... وقد ذرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت، إني لميت ... ولكن حذاري جحم نار ملفع[2]
فلستُ بمبدٍ للعدوّ تخشعاً ... ولا جزعاً، إني إلى الله مرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أيِّ جنب كان في الله مضجعي!

وعجب المشركون من ثبات خبيب واطمئنانه، فحسبوا أنهم إن عرضوا عليه العفو والخلاص، في مقابل أن يذم الرسول أو يتنكر للدعوة فإنه سيستجيب، لأن حب الحياة في الإنسان قوي عميق، ولقد يبلغ الإنسان أرذل العمر، حتى لا يستطيع أن ينهض لضعفه، ومع ذلك يتشبث بالحياة أقوى التشبث، ونسي هؤلاء أو جهلوا أن خبيباً من قوم علمهم دينهم أن يحبوا الموت أكثر من الحياة، وأن يعرضوا عما في الدنيا إيثاراً لما عند الله.

أقبل أحدهم على خبيب، وهو مربوط على الصليب، وقال له: أيسرُّك يا خبيب أن محمداً عندنا بمكة تضرب عنقه، وأنك سالم في أهلك؟

فقال في عزم وتصميم: والله ما يسرني أني سالم في أهلي، وأن يصيب محمداً شوكة تؤذيه.

ويروى أن مثل هذا الموقف حدث بالنسبة إلى زيد بن الدثنة حينما اجتمع عليه رهط من المشركين ليقتلوه، فقال له أحدهم: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

فقال: والله، ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني لجالس في أهلي!.. ولعل الموقف تكرر بين خبيب وزيد.

***

ثم رفع خبيب رأسه إلى السماء قبلة الدعاء، وأخذ يناجي ربه فيقول:

(١) أوصال: أعضاء. وشلو: جسد.
(٢) الجحم: الملتهب، ومنه الجحيم.

اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، اللهم إني لا أجد إلى رسولك رسولاً غيرك فأبلغه مني السلام، وبلغه الغداة ما يُصنع بنا.

وهنا تروي السيرة العطرة أن الرسول أخذه في ذلك اليوم الذي قتل فيه خبيب ما يأخذه عند نزول الوحي عليه، وبعد قليل قال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم قال لمن حوله: هذا جبريل، يقرئني من خبيب بن عدي السلام، خبيب قتلته قريش.

ونفد صبر هؤلاء المجرمين أمام ثبات خبيب وسكينة قلبه بفضل إيمانه، فأرادوا أن يسرفوا إسراف اللئام السفهاء في الانتقام فأحاطوا خبيباً بعشرات منهم، وفي أيديهم السهام والرماح والسيوف، ثم اندفعوا بجملتهم يرمونه ويطعنونه من كل جنب، حتى أسلم روحه لبارئها، ولفظ آخر أنفاسه، وكأن هذه الأنفاس لفح من فيح جهنم يعصف بهؤلاء الآثمين المجرمين يوم لقاء الله عز وجل.

ومما يدل على شناعة الجريمة التي ارتكبها هؤلاء اللئام ما يروى عن سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي الذي كان والياً لعمر بن الخطاب على بعض أجناد الشام، وكان سعيد يصاب بغشية من حين إلى حين، فاستدعاه عمر، فلما قدم عليه وجد معه مزوداً وعكازاً وقدحاً، فقال له عمر: ليس معك إلاّ ما أرى؟

فقال سعيد: وما أكثر من هذا يا أمير المؤمنين؟ مزودي أضع فيه زادي، وعكازي أحمل به ذلك، وقدحي آكل فيه. قال عمر: أبك لمم(١)؟ فقال سعيد: لا. قال عمر: فما غشية بلغني أنها تصيبك؟

فقال سعيد: واللّه يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قُتل، وسمعت دعوته، فواللّه ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غُشي عليّ.

---

(١) اللمم: طرف من الجنون، يلم بالإنسان، أي يقرب منه ويعتريه.

فزاد إعجاب عمر بسعيد، وأخذ سعيد يعظ عمر، فقال له الخليفة: ومن يقدر على ذلك؟ قال سعيد: أنت يا أمير المؤمنين، إنما هو أن يقال فيطاع. قال عمر: ارجع إلى عملك. فأبى سعيد ذلك، ورجا عمر أن يعفيه فأعفاه. وقال: من سره أن ينظر إلى رجل نسيج وحده فلينظر إلى سعيد بن عامر.

***

وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى جثمان الشهيد المصلوب خبيب ليكفنه وينزله من فوق الصليب ويدفنه[١]، وأطاع عمرو، وانتهز فرصة الليل وخلو المكان حول الصليب، وصعد عليه، وفك وثاق الشهيد المصلوب، وهوت الجثة إلى الأرض، ونزل عمرو يبحث عنها ليدفنها، فلم يجدها، وكأن الأرض انشقت فضمت بين جنباتها جسم البطل الشهيد، ولذلك يقال لخبيب إنه «بليع الأرض». ومن هنا لا يدري التاريخ أين استقر جثمان الشهيد خبيب رضي الله عنه.

وقد قال شاعر الإسلام حسان بن ثابت أكثر من مقطوعة في رثاء الشهيد خبيب، منها قوله [من البسيط]:

ما بال عينك لا ترقا مدامعها ... سحّاً على الصدر مثل اللؤلؤ القلق[٢]
على خبيب فتى الفتيان قد علموا ... لا فَشِلٍ حين تلقاه و لا نَزِقِ
فاذهب خبيب جزاك الله طيبة ... وجنةَ الخلد عند الحور في الرُّفَق
ماذا يقولون إن قال النبي لكم ... حين الملائكةُ الإبرار في الأفق:
فيم قتلتم شهيد الله في رجل ... طاغ قد أوعث في البلدان والرُّفَق؟[٣]

هذا، ولقد روي أن الرسول ﷺ خرج في السنة السادسة إلي بني لحيان، ليطالب بثأر خبيب بن عدي وزملائه الشهداء المقتولين في «بعث الرجيع».

ويروى كذلك أن الله تبارك وتعالى أنزل في شأن خبيب وإخوانه قوله عز

---

(١) في رواية أن الرسول أرسل المقداد والزبير لذلك.

(٢) القلق: المتحرك المتساقط.

(٣) يقصد بالطاغي الحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر، وأوعث: اشتد في الشر، والرفق: جمع رفقة.

من قائل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

رضوان الله تبارك وتعالى على المجاهد الصابر المحتسب، الشهيد المصلوب: خبيب بن عدي الأنصاري.

***

المجاهد الصابر على الأذى

عثمان بن مظعون

يلزمنا أن نتذكر على الدوام أن الابتلاء جزء من ضريبة التحرر والانتصار، فلولا حسن الاحتمال من الرجال للشدائد والأهوال، ما حرروا داراً، ولا غسلوا عاراً، ولا أخذوا ثاراً، ولقد ظل أبناء الإسلام في عهد الرسول ﷺ سنوات طويلة ثقيلة، يذوقون فيها ألوان التعذيب الأليم الأثيم، فما ضعفوا وما استكانوا، بل رددوا دعاء المؤمنين الموقنين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ولقد كان من ألوان التعذيب حينئذ: الحبس والسجن والضرب والجلد، والجرح والكي، ومنع القوت والماء، والتعريض لشمس الصحراء، مع وضع الصخور فوق الصدور.

ولقد ضرب الكثير منهم أمثلة رائعة للثبات في المقاومة والإصرار على الجهاد.

وهذا واحد منهم، مغمور منسي عند أغلب المسلمين، وهو أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب القرشي الجمحي، وأمه سُخيلة بنت العنبس، أسلم بعد ثلاثة عشر شخصاً، وكان من أشد الناس اجتهاداً في العبادة، وكان ممن حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية، وقال: لا أشرب شراباً يذهب بعقلي، ويضحك مني من هو أدنى مني، والتزم الخشونة في الثياب والطعام.

ويقول عنه أبو نعيم: «كان إلى الاستجابة للّه سابقاً، وبمعالي الأمور لاحقاً، وفي العبادة ناسكاً، وفي المحاربة فاتكاً، لم تنقصه الدنيا، ولم تحطه عن العليا»[1].

---

(١) حلية الأولياء، ج ١ ص ١٠٣. ولم تحطه: لم تمنعه.

ونحن نسمع كل أسبوع في ختام خطبة الجمعة قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠] ولعل أكثرنا لا يعرف أنه حينما نزلت هذه الآية سمعها عثمان بن مظعون من الرسول قبل غيره، وتأثر بها تأثيراً عميقاً، ثبت دعائم الإيمان في قلبه حتى قال: نزلت هذه الآية وأنا عند النبي ﷺ، فاستقر الإيمان في قلبي.

وذهب عثمان إلى الإمام علي فقرأ عليه فتأثر بها الإمام، وقال للناس مشيراً إلى رسول الله ﷺ: اتبعوه تُفلحوا، فواللّه إن الله قد أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق.

ثم قرأها عثمان على الوليد بن المغيرة المشرك، وهو الذي نزل في شأنه قول الله تعالى في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦]. فقال الوليد لعثمان: أعدها يا ابن أخي.

فأعاد عثمان تلاوتها.

فقال الوليد مأخوذاً بروعة القرآن وإن لم يُسلم: «واللّه إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، واللّه ما يقول هذا بشر»!!.

وتعرض عثمان بسبب إيمانه لكثير من ألوان الاضطهاد والتعذيب، حتى اضطر مع المعذَّبين المستضعفين من المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة، مع ابنه السائب وأخويه عبد الله وقدامة. وكان عثمان أميراً لأول طائفة هاجرت من المسلمين إلى الحبشة، وظل هؤلاء غرباء حيناً من الزمن، ثم بلغهم نبأ كاذب يقول إن المشركين قد اهتدوا إلى الحق، أو تهادنوا مع المسلمين، فعجل المهاجرون بالعودة إلى مكة، وما كاد عثمان يقترب منها حتى علم أن النبأ لا نصيب له من الصحة.

وكأن الشوق قد غالبه لرؤية وطنه ومشاهدة الكعبة، فعرض عليه الوليد بن

المغيرة، وكان أحد كبراء المشركين أن يدخل مكة في حمايته، وجواره فقبل عثمان ذلك لأمر يقدِّره عز وجل: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف: ٢١].

ودخل عثمان مكة آمناً، وجعل يغدو ويروح، دون أن يتعرض له أحد من المشركين، ولكن كيف يرضى عثمان المؤمن الكريم بالراحة والسلامة، وهو يرى إخوته في الله يسامون الخسف، ويذوقون ألوان العذاب؟

لقد انقلبت هذه الراحة عند عثمان إلى شقاء، وصارت السلامة في فمه صاباً وعلقماً، فقال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء في الله ما لا يصيبني، لنقصٌ كبير في ديني.

وسارع عثمان إلى الوليد ليقول له في أدب إسلامي نبيل: يا أبا عبد شمس، وفَت ذمتك، قد كنتُ في جوارك، وقد أحببتُ أن أخرج منه إلى رسول الله ﷺ، فلي به وبأصحابه أُسوة[1]. فأجابه الوليد في اغترار: لم يا ابن أخي؟ لعله قد آذاك أحد من قومي؟ لعلك قد أوذيت أو انتُهكت؟ قال له عثمان: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أستجير بغيره. فقال له الوليد ماكرا: فانطلق معي إلى ساحة الكعبة، فاردد عليّ جواري علانية، كما أجرتك علانية.

واستجاب عثمان. وأمام الناس قال الوليد: هذا عثمان بن مظعون قد جاء ليرد عليّ جواري.

وكأن هذا كان إغراءً من الوليد للمشركين بأن يعتدوا على عثمان بعد أن خرج من جواره، ليشعر بالفرق بين الوضعين.

فقال عثمان في اطمئنان: صدق، وقد وجدته كريم الجوار، وقد أحببتُ ألاّ أستجير بغير الله عز وجل، وقد رددتُ عليه جواره.

---

(١) أسوة: قدوة. وفي القرآن: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وبعد قليل جلس عثمان مع جماعة يوجد بينهم الشاعر لبيد بن ربيعة، وكان مشركاً حينئذ، فسمعه عثمان يقول: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. فقال له عثمان: صدقت. ثم قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل. فقال له عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فغضب لبيد من هذا التعليق، وأثار القوم على عثمان بقوله: يا قوم، واللّه ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فتطاول القوم على عثمان بن مظعون، وضربه مجرم منهم ضربةً على عينه فآذتها إيذاء واضحاً، وشاهد الوليد ما حدث، فقال لعثمان شامتاً: واللّه يا عثمان لقد كنت في ذمة منيعة، وكانت عينك غنية عما لقيت.

فردّ عليه عثمان ردّاً كابتاً مسكتاً. قال له: جوار الله آمن وأعز، وواللّه إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى أن تلقى ما لقيت أختها، ولي برسول الله ﷺ ومن آمن معه أسوة.

فعاد الوليد يعرض عليه جواره وحمايته قائلاً: هل لك أن تعود إلى جواري؟ فقال عثمان: لا أرب لي في جوار أحد، إلاّ في جوار الله عز وجل.

ولقد نظم عثمان في إصابة عينه أبياتاً من الشعر تدل على النية الصادقة في احتمال الأذى، والإصرار على الحق، والثبات على المبدأ، فقال [من الطويل]:

فإن تكُ عيني في رضا الله نالها ... يدا ملحدٍ في الدين ليس بمهتدي
فقد عوض الرحمن منها ثوابه ... ومن يُرْضه الرحمن يا قوم يسعدِ
فإني وإن قلتم غويٌّ مضلّل ... لأحيا على دين الرسول محمدِ
أريد بذاك الله، والحق ديننا ... على رغم من ينبغي علينا ويعتدي

ويروي كذلك أن الإمام علي بن أبي طالب قال في عثمان بن مظعون بعد أن أصيبت عينه [من البسيط]:

أمن تذكُّر دهرٍ غير مأمون ... أصبحت مكتئباً تبكي كمحزون
أمن تذكر أقوام ذوي سفه ... يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين
لا ينتهون عن الفحشاء ما سلموا ... والغدر فيهم سبيل غير مأمون
ألا ترون ـ أقلَّ الله خيرهم ... أنا غضبنا لعثمان بن مظعون

إذ يلطمون ـ ولا يخشون ـ مقلته ... طعناً دراكاً، وضرباً غير مأفون
فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلاً ... كيلا بكيل، جزاءً غير مغبون[(١)]

وكان ممن أسرف في إيذاء عثمان بن مظعون: أمية بن خلف بن وهب الذي يروى أنه نزل فيه قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ① الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨﴾ [سورة الهمزة بكاملها: ١ ـ ٩].

ولذلك قال عثمان في أمية هذا [من الطويل]:

تريش نبالاً لا يواتيك ريشها ... وتبري نبالاً، ريشها لك أجمع
وحاربت أقواماً كراماً أعزة ... وأهلكت أقواماً بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوماً ملمة ... وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

***

ولقد ظل عثمان بن مظعون يلاقي الأذى صابراً، ويحتمل العذاب في سبيل الله محتسباً. ثم هاجر إلى المدينة، وآخى الرسول بينه وبين أبي الهيثم بن التيهان، ويروى أيضاً أنه آخى بينه وبين العباس بن عبادة.

وجاءت غزوة بدر التي عزّ بها الإسلام، فسارع إليها عثمان، وجاهد فيها قدر طاقته، وعاد منها سالماً، ولكنه لقي ربه بعدها بقليل، وكان أول من مات بالمدينة من المهاجرين، بعد رجوعهم من بدر، وعلم الرسول ﷺ بموته، فسارع إلى بيته، فاستقبلته زوجة عثمان فقالت في لوعة: يا رسول الله، فارسك وصاحبك.

ودنا الرسول من جسد عثمان، وأكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: رحمك الله يا أبا السائب، خرجت من الدنيا، وما أصبت منها، ولا أصابت منك..

وفي رواية أن الرسول أكبّ على جسد عثمان وبكى ثم قال: اذهب عنها يا أبا السائب، فقد خرجت منها، ولم تتلبس منها بشيء»!

(١) حلية الأولياء، ج ١ ص ١٠٤.

ودفنوه في «البقيع» فكان أول من يدفن فيه، وأعلم النبي قبره بحجر وجعل يزوره من حين إلى آخر، تكريماً لإيمانه ويقينه، واحتماله الأذى في سبيل الله تعالى:

وقد رثته زوجته أم السائب بأبيات منها [من البسيط]:

يا عين جودي بدمع غير ممنون على رزية عثمان بن مظعون
على امرئ بات في رضوان خالقه طوبى له من فقيد الشخص مدفون
طاب البقيع له سكنى وغرقده[1] وأشرقت أرضه من بعد تفتين
وأورث القلب حزناً لا انقطاع له حتى الممات فما ترى له شوني

ويروى أنه لما وُضع عثمان في قبره قالت زوجته: هنيئاً لك أبا السائب الجنة. فقال لها الرسول ﷺ: وما علمك بذلك؟. قالت: كان يا رسول الله ﷺ يصوم النهار، ويصلي الليل.

فقال: بحسبك لو قلت: كان يحب الله ورسوله.

ويروي الإمام البخاري أن أم العلاء الأنصارية قالت: أُريتُ لعثمان في المنام عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: هو عمله. وفي رواية عنها قالت: توفي عثمان بن مظعون في دارنا، فلما نمت رأيت عيناً تجري لعثمان بن مظعون، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: ذاك عمله.

ومما يدل على المنزلة الساميه لعثمان بن مظعون عند الله أنه حينما ماتت «رقية» بنت رسول الله ﷺ، قال أبوها: «الحقي بسلفنا الخيِّر عثمان بن مظعون»!.

رضوان الله تعالى على صاحب رسول الله وفارسه، المجاهد الصابر على الأذى عثمان بن مظعون.

* * *

(١) الغرقد: وبه سمي بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة (معجم البلدان) والغرقد: ضرب من شجر العضاه وشجر الشوك، ومفرده: غرقدة، وقيل لمقبرة أهل المدينة: بقيع الغرقد، لأنه كان فيه غرقد وقطعوه (النهاية).

الشهيد الجاهد المجاهد

عامر بن الأكوع

إن المجاهد الذي يخرج إلى المعركة تختلف أحواله باختلاف عوامل النصر وعوامل الهزيمة التي تتهيأ أمامه، فقد يخرج هذا المجاهد ولديه من أسباب القوة والتمكن ما يجعله طامعاً أقوى الطمع في النصر، وحينئذ يقدم على المعركة ثابت الخطوات شديد الضربات، يرى الفوز بادياً على مقربة منه، فيعجل إليه المسير، فيكون هذا الوضع معواناً له على السكينة والاطمئنان.

وقد يخرج المجاهد إلى المعركة والأوضاع من حوله تحتمل الانتصار والانكسار، وسُحب المتاعب متكاثرة عن يمين وشمال، ولكن أشعة من الأضواء نظهر خلال الظلمات من حين إلى حين، فيتطلب منه الموقف أن يصبر ويصابر، حتى يرجِّح كفة الأمل والرجاء، على كفة اليأس والقنوط.

وقد يخرج المجاهد إلى معركة ثقيلة عصيبة، تتطلب أول ما تتطلب حمل الروح على الكف، وتقديمها في ساحة الفداء بلا تردد أو إبطاء، وهنا يهزأ المجاهد المؤمن بالحياة الدنيا ومتاعها الرخيص، ويحصر شعوره وتفكيره وأموره في شيء واحد، هو أن يواجه موقف التضحية والفداء، بثبات ومضاء، مؤمناً كل الإيمان بأن الآخرة خير من الأولى، وأن ميتة الكرامة أسمى من حياة المذلة، وأن ما عند الله أرقى وأبقى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

ولقد رأينا في مدرسة إمام الإنسانية ﷺ مواقف مشرفة متألقة أقبل عليها كثير من صحابته وأتباعه، وهم يعلمون علم اليقين أنهم ماضون فيها إلى الموت، ومع ذلك عزموا وأقدموا، وصبروا وصابروا، وارتشفوا رحيق الشهادة، ولاقوا مصارعهم فرحين مستبشرين، لأن زعيمهم وإمامهم الصادق المصدوق

صلوات الله وسلامه عليه قد هتف فيهم قائلاً: «من قاتل في سبيل الله صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، فمات، أدخله الله الجنة».

ولذلك كان الواحد منهم يمضي إلى موارد المنايا ومواطن الهلاك، وهو يدعو ربه من أعماق قلبه قائلاً: «اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، ولا تردني إلى أهلي خائباً».

وهذا هو رسول الله ﷺ يخرج في السنة السادسة إلى غزوة خيبر، ليؤدب فيها الخسرة الفجرة من لئام اليهود وطغاتهم، وخرج معه فيمن خرج الصحابي المجاهد البطل: عامر بن الأكوع[١]، وكان رجلاً شاعراً، يجيد تصوير مشاعر الإيمان وعواطف اليقين بكلمات صوادق نواطق بالحق المحرّك إلى الكفاح والنضال.

ولم يكن عامر صاحب مقال فحسب، بل كان يزين صادق مقاله بحميد فعاله، وأراد الرسول ﷺ أن يبعث النشاط في موكب الجيش الزاحف، عن طريق الكلمة الطيبة المشجعة، فقال لعامر: «ألا تسمعنا من هنياتك[٢] يا ابن الأكوع». أي من كلماتك وأراجيزك.

وسارع الجندي المستعد المطيع عامر بن الأكوع، فأخذ ينشد هذا النشيد الإسلامي الجهادي البطولي الرائع [من الرجز]:

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا ... فأنزلن سكينة علينا
وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا ... إن الألى قد بغوا علينا
وبالصياح عوّلوا[٣] علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا
فاغفر فداءً لك ما أبقينا

---

(١) قيل إن اسمه سنان، وفي «الدرر» لابن عبد البر ورد اسمه: «عامر بن سنان» ص ٢١٣.

(٢) وفي رواية: «من هناتك»، وفي أخرى: «من هنيهاتك»، وفي رواية أنه قال له: «أنزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هناتك». والهنة: كناية عن كل شيء لا تعرف اسمه، أو تعرفه وتكني عنه، وقد أراد الرسول أن يحدو بهم، لأن الإبل تستحث بالحداء، ولا يكون الحداء إلا بشعر أو رجز.

(٣) أي أجلبوا واستعانوا.

وقوله: «ما أبقينا» أي ما خلفنا مما اكتسبنا، أو ما أبقينا من الذنوب فلم نحقق التوبة منه كما ينبغي.

وقوله: «فداءً لك»: قيل إن الخطاب للنبي ﷺ، أي اغفر لنا تقصيرنا في حقك وطاعتك، إذ لا يتصور أن يقال لله تبارك وتعالى مثل هذا الكلام، لأن قولهم: «فداءً لك» معناه: فداء لك أنفسنا وأهلونا، وإنما يفدي الإنسان بنفسه من يجوز عليه الفناء، والله تعالى منزه عن ذلك.

وأقرب ما يقال في ذلك أن كلمة «فداء لك» كلمة يترجم بها القائل عن محبة وتعظيم، فجاز أن يخاطب بها من لا يجوز في حقه الفداء، ولا يجوز عليه الفناء، قصداً لإظهار المحبة والتعظيم، وإن كان أصل الكلمة ما سبق، ورب كلمة ترك أصلها واستعملت كالمثل في غير ما وضعت له، وذلك كلفظ القسم يأتي ولا يراد به الحلف، بل يراد به التعجب والاستعظام، كقول الرسول في حديث الأعرابي: «أفلح وأبيه إن صدق» فمحال أن يريد الرسول القسم بغير الله، وإنما هو تعجب، والمتعجب منه مستعظم، ولفظ القسم في أصل وضعه للاستعظام، فاتسعوا في اللفظ حتى استعملوه للتعجب، كما في قول الشاعر [من الطويل]:

فإن تك ليلى استودعتني أمانةً ... فلا وأبي أعدائها لا أخونها

فالشاعر لم يرد أن يحلف بأبي أعدائها، ولكنه ضرب من التعجب[1].

***

وحينما سمع الرسول ﷺ ذلك من عامر قال له: «يرحمك ربك». أو «غفر لك ربك». وكان الرسول لا يخص بهذه الدعوة أحداً من صحابته إلاّ نال الشهادة في الغزوة التي خرج إليها؛ وقد سارع بالتنبه إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الحاذق الفطن، فقال لرسول الله ﷺ: «وجبت والله يا

(١) راجع ما كتبه السهيلي بتوسع حول هذه العبارة في كتابه «الروض الأنف» ج ٢ ص ٢٣٦.

رسول الله، لولا متعتنا بعامر». أي حقت له الشهادة ووجبت، هلا أجّلت دعاءك العظيم له بالاستشهاد بعض الوقت، حتى ننتفع به.

وعلم ابن الأكوع أنها الشهادة تنتظره على الطريق عما قريب، ومع ذلك لم يحزن على فائت، ولم يأسف على متاع زائل، بل فرح بذلك كل الفرح، وعدَّ ذلك فضلاً من الله ونعمة.

ومضى الجيش المؤمن في طريقه، وجعل الرسول يدعو مع أصحابه بقوله: «اللّهم رب الشياطين ومن أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسأل من خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها».

ثم قال الرسول لصحابته: «أقدموا باسم الله الرحمٰن الرحيم».

وتراءى الجمعان، أو تلاقى الجيشان: جيش مؤمن يقاتل في سبيل الحق والإيمان، وجيش كافر يقاتل في سبيل الشيطان.

وصاح سيد الإنسانية محمد صيحة النضال الواثق الصادق فقال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذَرين».

وفي ساحة المعركة خرج زعيم اليهود الطاغية «مرحب»، وجعل يتبختر بسيفه ويقول [من الرجز]:

قد علمت خيبر أني مرحبُ شاكي السلاح بطل مجرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تَلَهَّبُ

ولم يملك عامر بن الأكوع نفسه، فسارع إلى الطاغية اليهودي وهو يقول [من الرجز]:

قد علمت خيبر أني عامرُ شاكي السلاح[1] بطل مغامر

وتبادل عامر مع عدوه الضربات، وشاءت إرادة الله العالية أن يرتد سيف عامر إليه، وهو يطعن به عدوه، فيصيب منه مقتلاً، فيسقط شهيداً.

(١) شاكي السلاح: أي ذو شوكة وحد في سلاحه. (اللسان والقاموس).

وتهامس البعض فقالوا: «بطل عملُ عامر، قتل نفسَه، ما قتله إلاّ سلاحه».

وسمع بذلك ابن أخيه سلمة بن عمرو بن الأكوع، فحزن، وذهب إلى رسول الله ﷺ باكياً، فقال له الرسول: ما لك؟ فأجاب: إن عامراً بطل عمله. فقال الرسول: ومن قال لك ذلك؟ أجاب سلمة: بعض هؤلاء.

فقال النبي ﷺ: كذب أولئك، إنه لشهيد، بل له الأجر مرتين، إنه جاهدٌ مجاهد، وقلَّ عربي مشى بها مثله، إنه مات جاهداً مجاهداً[1].

وصلى الرسول ﷺ على الصحابي الشهيد، الجاهد المجاهد: عامر بن الأكوع رضي الله عنه، ومن وراء الرسول صلت جموع المناضلين على رفيق السلاح ورفيق الميدان ورفيق الجهاد.

وكان من تكريم الرسول الأمين لعامر أن تمثل بنشيده، فردد قوله:

«لاهُم لولا أنت ما اهتدينا ...»[2]

ولم يُفْلت عدو الله وعدو المسلمين «مرحب» اليهودي من القتل، رُوي أن محمد بن مسلمة الأنصاري قتله في غزوة خيبر ذاتها، وأن الرسول ﷺ أعطى سَلَب[3] مرحب لمحمد بن مسلمة، وروي أن علي بن أبي طالب هو الذي صرع مرحباً[4]. ولعل الاثنين اشتركا في قتله عليه لعنة الله.

رضوان الله تبارك وتعالى على الشهيد الجاهد المجاهد: عامر بن الأكوع!.

* * *

(١) جمعت هنا بين الروايات التي حكت جواب الرسول لسلمة، ولعل الروايات تعددت لتعدُّد إجابة الرسول.

(٢) الروض الأنف، ج ٢ ص ٢٣٥.

(٣) سلب: بمعنى مسلوب، وفي الحديث: «من قتل قتيلاً فله سلبه» والسلب هو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه، مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها.

(٤) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ج ٢ ص ٨٦. وانظر أيضاً كتاب «الفداء في الإسلام» ص ١٨٧.

الزاهد المجاهد الشهيد

عتبة بن أبان

هذا الإنسان بنيان الرحمٰن، صاغته يداه من لحم ودم، وعلم وفهم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ١ـ ٤]. ولقد أراد الله تعالى لهذا الإنسان أن يكون فيه اتساق بين المادة والروح، فلا تستبد به شهوات الحياة، أو يسيطر عليه طغيان البدن، فإذا هو ممن قيل فيهم: «جسم البغال وأحلام العصافير». وهو لا ينعزل كلية عن الحياة حتى يصير قعيد صومعة، يمثل السلبية الجامدة أمام مجتمع الأحياء الذي أراده رب العالمين مجتمعاً عاقلاً فاضلاً، عابداً مجدداً، مثمراً معمراً، شعاره قول ربه جل جلاله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

وإذا كان هناك آلاف في تاريخ أمتنا قد غلبوا جانب العزلة والفرار من الحياة وواجباتها على جانب المشاركة فيها، فإن هناك ملايين أطلقوا سيقانهم للريح، فعبوا من أهواء الحياة وشهواتها بأوسع المكاييل.

ولكنا نجد بين هؤلاء وهؤلاء أفراداً قد يكونون قلة، ولكنهم عمالقة أحسنوا الجمع بين رهبانية العابدين المختصين، المناضلين المصلحين.

ومن هؤلاء الصحابي الزاهد، التقي المجاهد: عتبة بن أبان بن ثعلب الذي لقبه رفاقه بلقب: عتبة الغلام[1]، لا استخفافاً بشأنه، ولا استصغاراً

(١) كان مولده في البصرة، وأقام بها.

لأمره، بل فعلوا ذلك تقديراً لفتوته وجرأته. وكان عتبة في حياته متقشفاً متخففاً، لا يجد لذته في الطعام أو الشراب أو الثياب، أو غيرها من أعراض الحياة.

وكان إذا دُعي إلى أطايب الأطعمة زهد فيها، واستعاض عنها بميسور الزاد، وردد قوله: إني أخاف أن يقال لي يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ولقد التقى عتبة بسليمان بن علي بن عبد الله بن عباس المتوفى سنة ثنتين وأربعين ومائة للهجرة ـ كما في كتاب الأعلام ـ ولما رأى سليمان زهد عتبة وسمع كلامه، وأدرك قوة إقباله على ربه قال: أرى عتبة قد أحرز نفسه ولا يبالي ما أصبحنا فيه أو أمسينا.

وعرض سليمان على عتبة هدية مغرية فأباها.

وكان عتبة لا يعني كثيراً بتحلية ظاهره أمام الناس؛ ولا تشغله كلمة ثناء تأتيه منهم، كما لا يضيق بكلمة نقد يقولونها فيه، فقد كان مشغولاً بما هو أهم من ذلك وأكبر: كان مشغولا بتصحيح إيمانه، وتوثيق علاقته بربه وتحسين مكانته عند خالقه بطاعته وعبادته، وكان يرى أن الحرص على طلب المكانة المرموقة عند الناس قد تكون سبباً لسقوط المكانة عند الله عز وجل؛ ولذلك قال أحمد بن زهير المرزوي: «والله ما كان أحد منا إلاّ تمنى أن يكون له في نفوس الناس قدر ومنزلة، إلاّ عتبة، فقد كان يرى أن ابتغاء المنزلة عند الناس سقوط للمنزلة عند الله».

وكان عتبة يعلم أن طبيعة الحياة التي يتصارع فيها الحق والباطل على الدوام تقضي بالاستعداد المستمر للجهاد، وأن هذا الاستعداد هو إعداد النفوس قبل إعداد الجيوش، وإصلاح الأرواح قبل حمل السلاح، والتمكن من الإيمان قبل دخول الميدان، وأن المؤمن إذا أفلح في معركته مع نفسه، فطهرها وزكّاها، وأخلص لله وجهتها وهواها، فإنه قادر على أن ينتصر في معركة اللقاء مع الأعداء.

ولذلك كان عتبة يقول: «لن تنصر الله في معركة حتى تنصره على نفسك بتغليب أمره على هواك، فإن كنت فارس هذه المعركة، فأنت فارس المعركة الأخرى بإذن الله».

وبدأ عتبة بنفسه، فأصلحها وصالحها مع خالقها جل جلاله، وأخضعها لأمره وربطها بذكره، ثم خرج إلى الشام غازياً في سبيل الله تعالى، ضد الروم المحتلين لبلاد العروبة والإسلام.

وكان عتبة قليل الجسم ضئيل البدن قصير القامة، فأراد أن يستعيض عن ذلك في القتال بأن يركب جواداً فارهاً عالياً، حتى يكون ذلك أرهب للعدو؛ ولكن العبرة ليست بضخامة الجواد، وإنما العبرة بروح راكبه.

وعتبة حينما أقبل على الجهاد كان لا يجد فرقاً عنده بين الحياة والموت، فالحياة عنده ليست إلاّ امتداداً موقوتاً للاستجابة والطاعة، والموت عنده ليس إلاّ رحلة تدنيه من رحاب ربه، ولذلك كان لا يبالي أَوَقَعَ على الموت، أم وَقَعَ الموتُ عليه.

وكان يتمنى أن ينال نعمة الشهادة في سبيل الله عز وجل، بل كان يضيف إلى ذلك أمنية أخرى يعبّر عنها بقوله: «اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع». كأنه يريد أن يسقط شهيداً، وأنْ تُقبل الوحوش وكواسر الطيور فتلتهم جثته، فلا يكون له قبر يزار، ولا مشهد يتجمع الناس حوله، حتى يلقى الله يوم القيامة بجهاده النقي وعمله الخالص، فيكون له عظيم الثواب وجليل العطاء.

وقد رأى مخلد بن الحسين ـ وهو أحد أصدقاء عتبة ـ أن مَلَكاً نزل فكفن بعض المجاهدين بثياب من عنده، وممن كفنهم بهذه الثياب عتبة بن أبان، وذهب مخلد إلى صديقه عتبة فأخبره بما رأى، فاستبشر عتبة بالرؤيا خيراً، ولكنه رجا صديقه في كتمانها.

وجاءت معركة فاصلة بين المسلمين والكافرين، وألقي في رُوع عتبة[1] أن

---

(١) الروع ـ بضم الراء ـ هو النفس، وفي الحديث: «أن روح القدس نفث في روعي» أي في نفسي، وروح القدس هو جبريل عليه السلام (النهاية)

يوم استشهاده قد أقبل، فقال لصديقه مخلد: أعد عليّ رؤياك، فإني أحسب أن الموعد قد دنا.

فأعادها عليه مخلد كما رآها.

وما هي إلاّ لحظات حتى بدأ القتال، وتقدم عتبة في الطليعة، مع مجموعة من رفاقه المجاهدين، والتحموا بطلائع العدو التحاماً دامياً قاسياً، وعتبة يكبّر ويقول: اللهم ارزق عتبة اليوم شهادةً تقرّ بها أعين المسلمين.

وأوسع عتبة القتل في أعدائه: أعداء الله وأعداء الإسلام وأعداء المسلمين، وفعل بهم الأفاعيل، وتناثرت أشلاؤهم من حوله، وكأنه سبب من القدر الغاضب، قد جاء ليحطم هؤلاء المجرمين.

ولكن سبعة من الأعداء اللئام ترصدوا لعتبة، وطعنوه من الخلف طعنات متوالية قضت عليه، وسقط عتبة شهيداً، وهو يهتف: الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبة. وكان عمره يومئذ ثلاثين عاماً.

وكأنما أحدث استشهاد عتبة مسّاً كهربياً في نفوس رفاقه، فأخذوا على أنفسهم العهد والميثاق ألا يتركوا أماكنهم حتى يحققوا أملهم في النصر، أو يلقوا ربهم شهداء.

وجعلوا يتساقطون شهيداً وراء شهيد، وكل منهم يقول وهو يلقى ربه: الله أكبر، فزت وربِّ الكعبة.

سقطوا شهداء، ولكنهم كانوا ثمن النصر. وذهب القوم إلى جثث هؤلاء الشهداء بعد ذلك ليواروها التراب.

ولكن العجيب أنهم لم يجدوا جثة عتبة بن أبان.

ومن يدري؟.. لعل الله استجاب له دعوته حينما قال: اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع.

رضوان الله تبارك وتعالى على الزاهد المجاهد الشهيد: عتبة بن أبان.

* * *

محتويات الكتاب

الكتاب الأول
الفداء في الإسلام

فاتحة ٩
طريق الفداء ١١
مسيرة فدائية في ظل القرآن، وتاريخ الإسلام ٢١
ملامح للفدائية ٣٦
المعلم الأكبر لدروس التضحية والفداء ٤٣
قائد أول فرقة فدائية أبو بصير: عتبة بن أسيد ٤٩
الفدائي الشهيد ابن الشهيد أبو جندل بن سهيل ٥٣
قائد أول سرية فدائية عبد الله بن جحش ٥٩
ذو الهجرتين الشهيد أبو سلمة المخزومي .. ٦٤
حينما اهتزّ عرش الرحمن لموت الشهيد سعد بن معاذ ٧١
أمير السرايا زيد بن حارثة ٧٩
الفدائي الطامع في الشهادة عبد الله بن رواحة ٨٥
الشهيد والد الشهداء ثابت بن قيس ٩٣
الشهيد الحي طلحة بن عبيد الله ٩٨
حامل القرآن المجاهد سالم مولى أبي حذيفة ١٠٥
المجاهد بسيفه وقلبه بشير بن سعد الأنصاري ١١٠
الباحث عن الشهادة أبو أيوب الأنصاري . ١١٥
الفدائي الصبور عبد الله بن حذافة السهمي ١٢١
فدائي بطبعه محمد بن مسلمة الأنصاري ... ١٢٦
الأسد في براثنه سعد بن أبي وقاص ١٣١
الفدائي الفقيه عبد الله بن أنيس ١٣٨
الفدائية المؤمنة نسيبة بنت كعب ١٤٣
وصية فدائية من قائد لابنه القائد ١٥٠
فدائيون يتنافسون على الموت ١٥٨
الشيخ المجاهد عز الدين القسام ١٦٢

الكتاب الثاني
فدائيون في تاريخ الإسلام

تصدير ١٦٩
المجاهد الصبي رافع بن خديج ١٧١
اليتيم المجاهد سَمُرة بن جُندب ١٧٦
الشهيد الناصح لله ولرسوله سعد بن الربيع ١٨١
الثري الأعرج المجاهد عبد الرحمن بن عوف ١٨٧
المجاهد الأعرج الشهيد عمرو بن الجموح . ٢٠٠
مجاهدون أبناء امرأة ٢٠٩
مجاهد وجبت له الجنة قتادة بن النعمان ... ٢١٧
المجاهد الفقير سهل بن حنيف ٢٢٥
صاحب أوّل لواء في الإسلام عبيدة بن الحارث ٢٣٢

المجاهد صاحب الأذن الواعية زيد بن أرقم ٢٣٩
فدائي ضد أبيه عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ٢٤٥
الشهيد المدفون بأغلاله حجر بن عدي ٢٥٢
الشهيد بلا صلاة الأسود الراعي المجاهد ٢٦٠
المعنِق ليموت المنذر بن عمرو الساعدي ... ٢٦٧
المجاهد طيلة حياته أبو طلحة الأنصاري .. ٢٧٨
الشهيد المكفوف عمرو بن أم مكتوم ٢٨٥
الزاهد الشهيد أويس القرني ٢٩١
الشهيد الذي اشتاقت إليه الجنة عمار بن ياسر ٢٩٦
الشهيد كليمُ الله أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام ٣٠٣
الشهيد حَمِيُّ الدُّبُرِ عاصم بن ثابت ٣٠٨
المجاهد بلسانه وسنانه كعب بن مالك الأنصاري ٣١٢
الفدائيّ الوفيّ قيس بن سعد بن عبادة ٣٢٥
الفدائية أم الشهيد أسماء بنت أبي بكر ٣٣٠
المجاهد الصامت زيد بن الخطاب ٣٣٥
شهيد نهاوند النعمان بن مقرن ٣٤٠
الفقيه الشهيد أسد بن الفرات ٣٤٩
الإمام المناضل ببيانه وسنانه ابن تيمية الحراني ٣٥٥
شهيد سليل محاربين ضرار بن الازور ٣٦٦
الشهيد ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ٣٧١
المهاجر الشهيد عروة بن مسعود الثقفي ... ٣٧٦
إحدى سيدات الإسلام أسماء بنت عميس ٣٨١
الفدائي المجهول شماس بن عثمان الشريد المخزومي ٣٨٦
عاشق الموت في سبيل الله البراء بن مالك الأنصاري ٣٩٠
المجاهد المعذَّب خباب بن الأرت ٣٩٥
الشهيد النَّؤوم صفوان بن المعطل ٤٠١
الإمام التاجر المجاهد عبد الله بن المبارك .. ٤٠٦
فدائي يؤمر نفسه المثنى بن حارثة ٤١٢
معركة فداء يوم اليرموك ٤١٧
المجاهد صاحب الهجرات الثلاث أبو موسى الأشعري ٤٢٦
الزاهد المجاهد الشهيد إبراهيم بن أدهم ... ٤٣٣
الشهيد العارف بربّه حارثة بن سراقة الأنصاري ٤٤١
المجاهد صاحب البيعات الثلاث سلمة بن الأكوع الأسلمي ٤٤٦
مجاهد يعصمه الإيمان خوات بن جبير ٤٥٥
المناضل الدائم الجهاد البراء بن عازب ٤٦٢
الشهيد دفين الملائكة عامر بن فهيرة ٤٦٧
الشهيد صاحب الحفرة ذو البجادين: عبد الله بن عمرو المزني ٤٧٢
المهاجر الشهيد سلمة بن هشام المخزومي .. ٤٧٨
القارىء الشهيد سعد بن عبيد الأنصاري .. ٤٨٤
كاتب الوحي الشهيد أبان بن سعيد ٤٩٠
الشهيد المصلوب خبيب بن عدي الأنصاري ٤٩٦
المجاهد الصابر على الأذى عثمان بن مظعون ٥٠٤
الشهيد الجاهد المجاهد عامر بن الأكوع ... ٥١٠
الزاهد المجاهد الشهيد عتبة بن أبان ٥١٥
الفهرس ٥١٩